الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

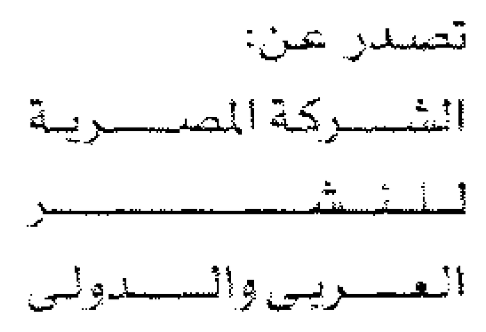
Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 102 - July 2007

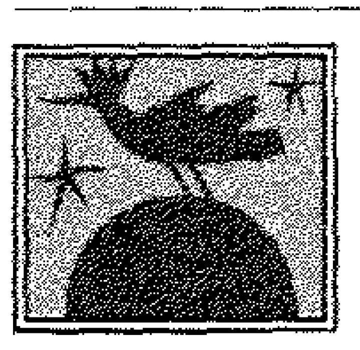
مجلة شهرية ـ العدد المائة واثنين ـ السنة التاسعة ـ يوليه ٢٠٠٧ ـ الثمن عشرة جنيهات



السنة التاسعة
العدد المائة واثنان
يولية ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب

وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى


رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أمية جوزيف سماحة.. دارسة لعلم النفس.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- جوناثان رابان.. كاتب بريطانى مقيم فى مدينة سياتل الأمريكية.
- حسين عبد الله.. خبير اقتصاديات البترول والطاقة.
- ديفيد ريمنك.. صحفى أمريكى.
- ديمتريوس ثاناسولاس.. محاضر فى الأدب واللغة الإنجليزية فى جامعة أثينا ـ اليونان.
- دينا حشمت.. صحفية ومترجمة
- شريفة زهور.. أستاذة الدراسات الإسلامية والإقليمية بمعهد الدراسات الاستراتيجية بواشنطن.
- صالح محمد النعامى.. صحفى من فلسطين.
- عزت إبراهيم.. صحفى.
- عمار على حسن.. مدير مركز الدراسات بوكالة أنباء الشرق الأوسط.
- فاروق شوشة.. أمين عام مجمع اللغة العربية.
- كريس فلويد.. صحفى أمريكى.
- ليلى عنان.. أستاذة الحضارة الفرنسية ـ جامعة القاهرة.
- محمد سليم العوا.. رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار.
- محمد عبد الرحمن يونس.. كاتب وباحث.
- محمد فؤاد الذاكرى.. باحث فى التراث العربى. سوريا ـ حلب.
- محمود درويش.. شاعر.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى ـ سعد الدين شحاته





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

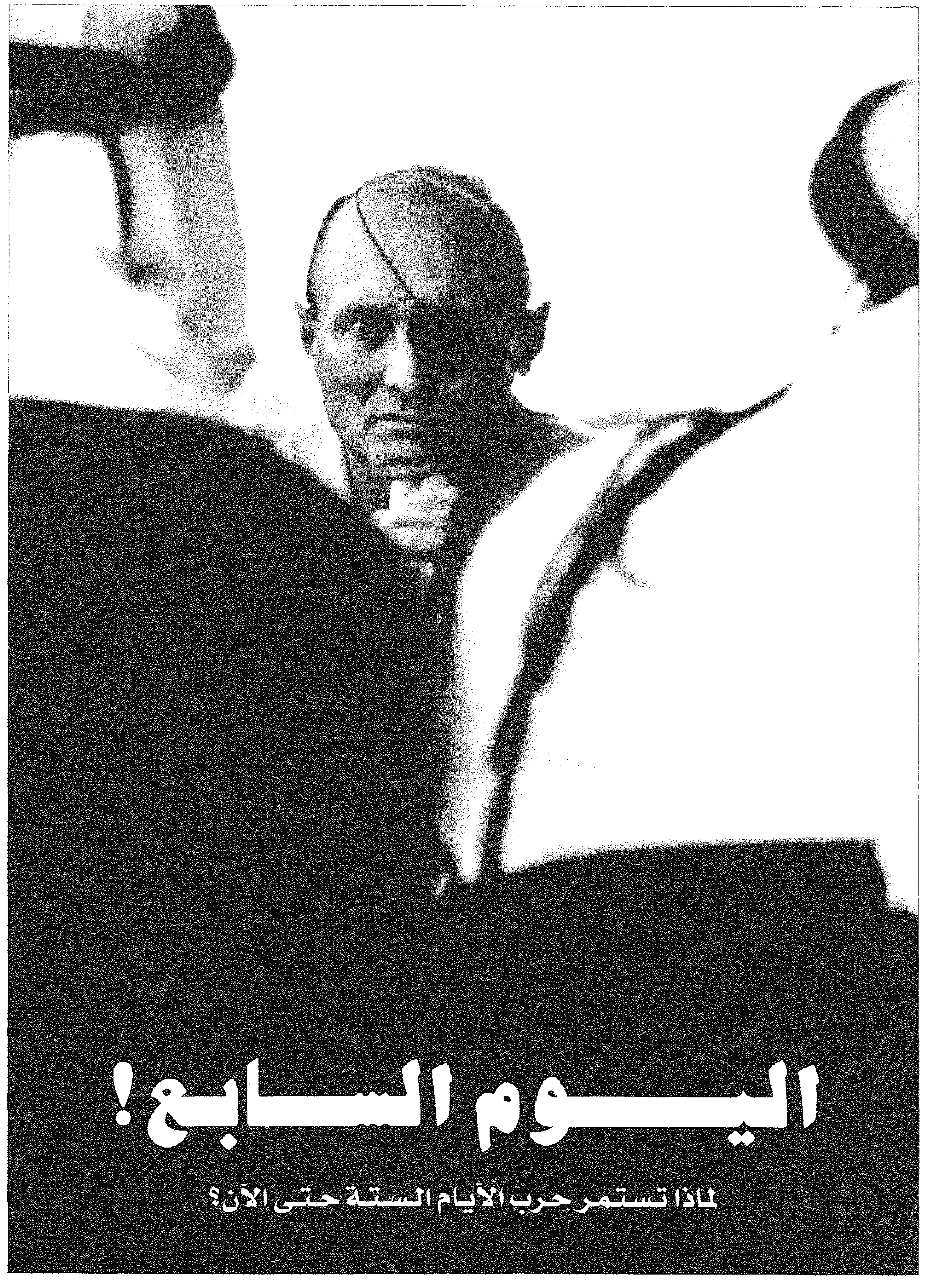
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة


اليوم السابع!
لماذا تستمر حرب الأيام الستة حتى الآن؟

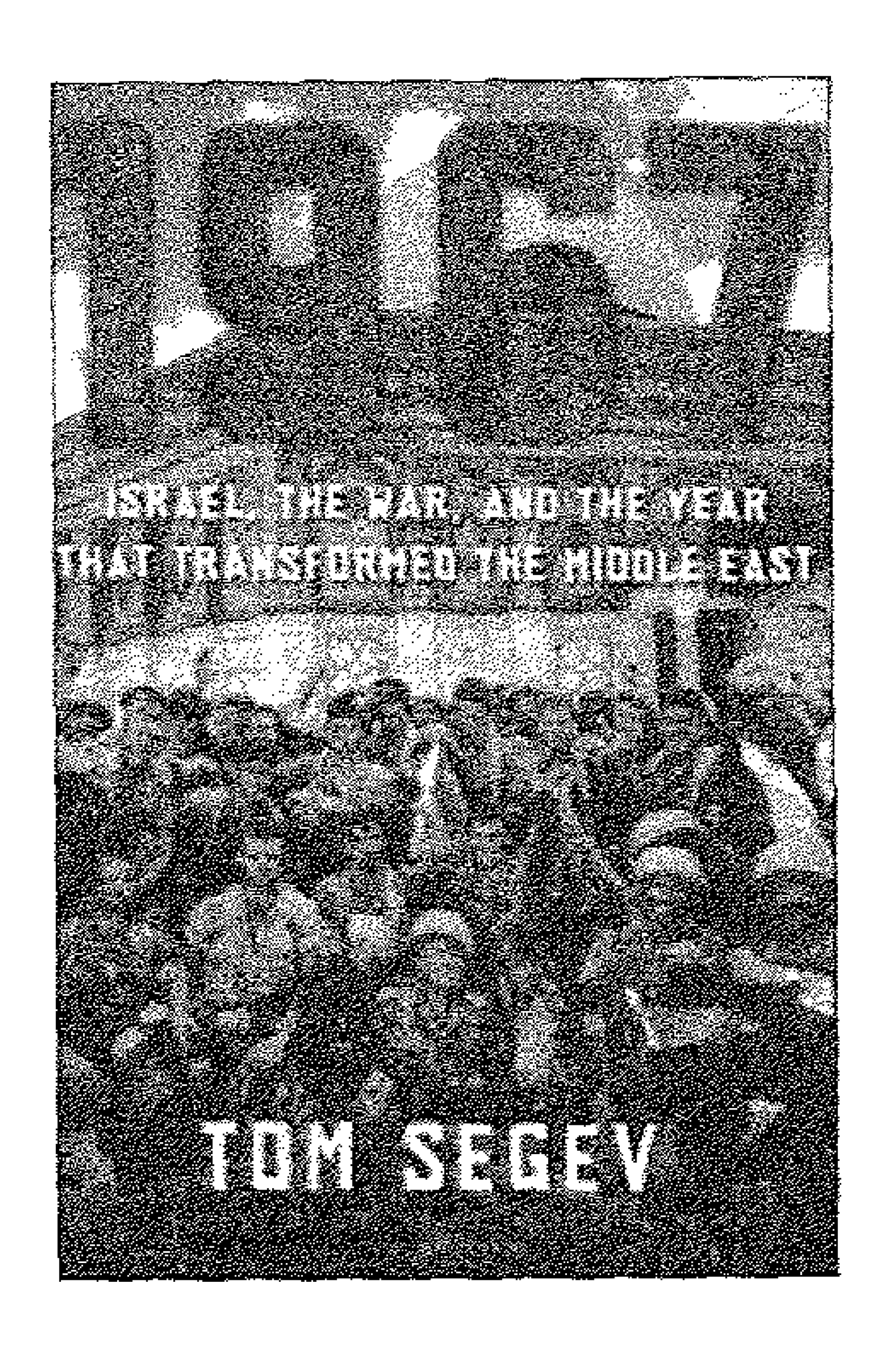
في يونيو ٢٠٠٣، فى محاولة لتشويه سمعة كل من يجرؤ على التشكيك فى تقديراته الاستخباراتية الملتوية حول العراق، أطلق الرئيس بوش على منتقديه ما اعتبره أسوأ صفة استطاع التفكير فيها: «أحب أن أسميهم منقحى التاريخ». وكان يقصد بها إهانة أشد من السخرية السائدة فى ساحات المدارس أو نوعا من الإشارة إلى بعض الباحثين الزائفين الذين ينكرون، فى عاصفة من الهوامش، وجود المذبحة التركية للأرمن. وفى المضمون السياسى للحظة الراهنة، تبدو مثل تحذير لجميع من يشكك فى نسخة رواية الحقيقة من وجهة نظر الملك.



التنقيح الدقيق، بطبيعة الحال، هو جوهر الممارسة التاريخية، وإعلانه فى وجه خطاب الدولة التقليدى يتطلب قدرا كبيرا من الشجاعة والمهارة أيضا. ليس هناك دولة تتقبل بسهولة شخصية مثل تشارلس بيرد والذى أبلغ الأمريكيين - بصفته رب المدرسة التقدمية للمؤرخين - أن الآباء المؤسسين كانوا مجرد ملاك أراض أثرياء استخدموا مزخرفات أيديولوجية لتأطير مصالحهم الخاصة. ولكن ماذا يكون لدينا بدون التنقيح؟ بدون مارسيل أوفولس الذى قدم نسخته من التاريخ المنقح فى فيلم «الحزن والشفقة»، كان من الأسهل كثيرا على الفرنسيين أن يستمروا فى تجاهل تواطئهم فى ترحيل اليهود إلى معسكرات الموت. العدوان على الهنود الأمريكيين، الاستعمار الأوروبى الوحشى لأفريقيا، عملية صنع القرار التى أدت إلى هيروشيما، إعادة تقييم معايير السمعة الرئاسية - كل هذه، وغيرها بلا نهاية، وقود للمنقحين الذين يستمرون فى التشكيك بالحقائق المقبولة ويجادلون فى رواية الماضى.

ولكن لم يلعب التاريخ المنقح دورا مهما فى الضمير السياسى والأخلاقى لشعب من الشعوب كما فعل فى (إسرائيل). لقد أقيمت الدولة عام ١٩٤٨ وعلى الفور تقريبا، أصبح تاريخها السابق - بدايات الأيديولوجية الصهيونية وسلوك البريطانيين خلال فترة الانتداب وأهم من ذلك العلاقة مع الآخر.. العرب الفلسطينيين - مادة للمناهج الدراسية والصحافة والمبادئ العسكرية والبحوث والخطاب العام. إن الجيل المؤسس الذى أتى إلى فلسطين وحارب ما أسماه حرب الاستقلال ضد مصر وسوريا والعراق وبقية الدول المجاورة المعادية، أصبح الآن مسئولا عن رواية قصته. والمنتصر يكتب التاريخ. وكما فى أى دولة ناشئة، يسرد التاريخ بأكثر الكلمات فخامة - التاريخ كما كتبه المتحدث بالعبرية بارسون ويمز. ولوهلة ما، بدا كما لو أن التمنيات يمكن أن تمحو الحقائق الأساسية من الوجود. يمكن إخفاء مجموعة بشرية كاملة. «ليس هناك شىء اسمه فلسطينيون» هذا ما قالته جولدا مائير فى ١٩٦٩ .

وظل الحال على هذا المنوال، حتى الثمانينيات من القرن العشرين بعد الكشف عن العديد من وثائق أرشيف الدولة وحين بلغ الرشد جيل أكثر وعيا وأقل تمسكا بالأساطير القديمة من المؤسسين، وحين بدأ باحثون إسرائيليون فى مواجهة بعض الحقائق المحرجة. أهم المؤرخين الإسرائيليين الجدد هو بينى موريس وكان يساريا



(فى ذلك الوقت) وقد اشترك فى حرب لبنان الكارثية جنديا ومراسلا، ثم فضل السجن على أن يستمر فى خدمته العسكرية فى الضفة الغربية خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى. فى عام ١٩٨٧ حين اندلعت الانتفاضة، نشر موريس كتاب «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧- ١٩٤٨» الذى قضى فيه على الفكرة الإسرائيلية الراسخة: إن ثلاثة أرباع المليون فلسطينى عربى الذين هربوا من القرى خلال وبعد الحرب فعلوا ذلك بإرادتهم وبتشجيع قادتهم الذين وعدوهم بإعادتهم بعد وقت قصير.

على العكس من ذلك، أوضح موريس أن عددا كبيرا من الفلسطينيين طردوا من قراهم على أيدى القادة العسكريين الإسرائيليين (بضمنهم الشاب يتسحاق رابين)، وآخرون كثيرون هربوا من الخوف بعد سماع أنباء المذابح وتدمير البيوت فى القرى القريبة.

كتب معظم المؤرخين الجدد أبحاثهم فى الخارج مما منحهم فرصة لمساءلة التاريخ الذى نشأوا على معرفته. ورغم أنهم لم يكونوا مدرسة متماسكة على مستوى الأفراد أو الأيديولوجيا، لكن عملهم كان تيارا يشكك فى الكتابة التقليدية للتاريخ الإسرائيلى. بعد موريس جاء كتاب ايلان بابى «بريطانيا والصراع العربى الإسرائيلى»، وكتاب آفى شليم «اصطدام عبر الأردن»، وأعمال عالم الاجتماع باروخ كمرلينج الذى وصف الأيديولوجية الصهيونية بمفردات استعمارية. وقد اتهم النقاد المؤرخين الجدد بقراءة الوثائق بميول سياسية، وتلطيخ سمعة شعب بالكاد أنقذ من الانقراض، وفى محاولة التقليل من شأن تأسيس الدولة. وفى صحيفة هآرتس الليبرالية اليومية، تساءل الروائى اهارون ميجيد «ما الذى يحرك باحثين إسرائيليين لتشويه وتقبيح الحركة اليهودية القومية التحررية، والتى لا تروم إلا تحقيق أمل عمره ألفان من السنين للعودة إلى جبل صهيون ؟».



ولكن مع الوقت، أثرت أفضل الأبحاث التنقيحية على التفكير الإسرائيلى السياسى حتى بين المسئولين العموميين. وقد كتب شلومو بن عامى الذى خدم وزيرا للأمن العام ثم وزيرا للخارجية فى حكومة إيهود باراك، فى مذكراته التاريخية «ندوب الحرب، قروح السلام» الذى نشر فى العام الماضى بأن طرد الفلسطينيين عام ١٩٤٧ و ١٩٤٨ كان بسبب «نزوع أيديولوجى وحالة عقلية، وبيئة ثقافية داعمة» سمحت بحدوث مثل هذه الوحشية. من الصعب تصديق أنه بدون المؤرخين الجدد، كان يمكن لمسئول إسرائيلى أن يصل إلى هذه الاستنتاجات النقدية للذات.

توم سيجيف الذى نشر بالإنجليزية بحثا حول أهم الأحداث العربية الإسرائيلية «١٩٦٧: إسرائيل والحرب والعام الذى غير الشرق الأوسط» (نشر دار ميتروبوليتان ٣٥ دولارا)، هو صاحب الأسلوب الأقرب إلى الصحافة من كل المؤرخين

1967: Israel, the War, and the Year that Transformed the Middle East

(١٩٦٧: إسرائيل، الحرب، والسنة التي حولت الشرق الأوسط)

Tom Segev
Metropolitan Books: 688PP., 2007

بترتيب مع مجلة:
New Yorker الأمريكية
ترجمة: بثينة الناصرى

الصورة: © Micha Bar Am - Magnum



كيف حدث كل ذلك ؟ لماذا شنت الحرب أصلا؟ سيجيف ليس أول مؤرخ يجادل بأن حرب ١٩٦٧ لا تشبه قصة ديفيد وجولياث كما روجتها الأبواق الرومانسية، بل مسيرة كارثية متعددة الجوانب إلى الحماقة

ديفيد ريمنك

الجدد. ولكن أسلوب كتابه كان أكثر جفافا وأكثر تعقيدا من الأسلوب الأيديولوجى المباشر لبعض رفاقه. وعلى مدى سنوات كان عموده المعنون: «مراسل خارجى» فى هاآرتس يركز على الشأن الداخلى. هرب والدا سيجيف من ألمانيا إلى فلسطين فى ١٩٣٥ وقتل والده فى حرب ١٩٤٨ . وسيجيف الذى حصل على الدكتوراه من جامعة بوسطن كان صوتا ثابتا فى اليسار الإسرائيلى ولكن آراءه اكثر اعتدالا من يسارية «بابى» المناهض للصهيونية وسياسات «بن موريس» الفريدة، وبعد قمة كامب ديفيد الفاشلة فى ٢٠٠٠ بدأ يؤمن - يائسا - بأنه كان على ديفيد بن جوريون أن يطرد المزيد من الفلسطينيين «حين كانت لديه الفرصة» من أجل ضمان أغلبية يهودية وأمن إسرائيلى.

سيجيف الذى يبلغ من العمر الثانية والستين كتب عددا من الكتب حول الدولة الناشئة (١٩٤٩: الإسرائيليون الأوائل) وحول اليهود والعرب تحت الانتداب البريطانى (فلسطين وحدة كاملة) وحول أمركة المجتمع الإسرائيلى فيما بعد الصهيونية (ألفيس بريسلى) فى القدس). فى «١٩٤٩» ساعد على تحويل الفكرة عن الإسرائيليين الأوائل كمجموعة رائدة واضحة التجانس، مقدما شواهد على أنه منذ البداية كانت هناك اختلافات مقلقة بين العرب واليهود، وبين اليهود المتدينين والعلمانيين وبين الأوروبيين ويهود شمال أفريقيا. وأكثر كتبه إثارة للجدل «المليون السابع» الذى تناول فيه عجز الحركة الصهيونية عن مساعدة يهود أوروبا أثناء ذبحهم وحياة ما بعد الهولوكوست كقضية مشحونة بالعاطفة فى المجتمع الإسرائيلى. وهذا الكتاب الذى استقبل بنفس الاحتقار الذى قوبل به كتاب حنا اريندت «ايخمان فى القدس»، وصف حرج رواد الصهيونية بسبب عدم انخراط يهود أوروبا فى تمرد واسع ضد النازيين، وكشف أن استقبال بعض الناجين فى إسرائيل لم يكن دائما بارتياح وإنما أيضا فى بعض الأحيان بالشك والبرود البيروقراطى. وقد كسب سيجيف بعض الأصدقاء من أوساط المؤسسة الإسرائيلية حين اقتبس من بن جوريون قوله فى ١٩٣٨ «لو كنت أعرف أنه كان من الممكن إنقاذ كل الأطفال فى ألمانيا بنقلهم إلى إنجلترا، أو لنقل نصفهم فقط بنقلهم إلى فلسطين، لاخترت الحل الثانى - لأننا لا نتحمل مسئولية هؤلاء الأطفال فحسب ولكن المسئولية التاريخية للشعب اليهودى».

بالنسبة للإسرائيليين، كانت حرب ١٩٦٧ نصرا تحقق بسرعة معجزة ونتائج مذهلة فى التوسع بالأراضى حتى أن قائده العسكرى موشى دايان، أسرع بابتكار تسمية الحرب «حرب الأيام الستة»، وهو إيحاء مقصود لأيام الخلق الستة فى سفر التكوين (فى العالم العربى كانت الهزيمة مهينة حتى إذا ذكرت سميت بالنكسة، فى مقابل النكبة فى ١٩٤٨).



وقد غير النصر الإسرائيلى البلاد من كل النواحى. كان رد الفعل سواء داخليا أو لدى اليهود فى الخارج يتراوح من الفرح إلى النشوة الدينية مما أدى إلى احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء ومرتفعات الجولان وإنشاء مستوطنة بعد أخرى. كانت حربا اعتبرها الإسرائيليون حرب وجود فى أهميتها، كانت الهزيمة تعنى نهاية الدولة بعد أقل من عشرين عاما - ولكن مع ذلك كانت للنصر نتائج باهظة الثمن. فمنها جاءت أربعون سنة من الاحتلال، وانتشار المستوطنات غير الشرعية وتكثيف المشاعر الوطنية الفلسطينية وزيادة (الإرهاب) والهجمات المضادة ونقاط التفتيش والمفاوضات الفاشلة والانتفاضات وانعدام الثقة المتزايد. يا لسخرية التاريخ: حرب لابد من النصر فيها، ونصر ينتج عن بؤس شديد وعدم استقرار.



كيف حدث كل ذلك؟ لماذا شنت الحرب أصلا؟ سيجيف ليس أول مؤرخ يجادل بأن حرب ١٩٦٧ لا تشبه قصة ديفيد وجوليات كما روجتها الأبواق الرومانسية، بل مسيرة كارثية متعددة الجوانب إلى الحماقة. حتى مايكل اورين وهو مؤرخ يقف سياسيا على يمين سيجيف، لم يتردد فى كتابه المهم «ستة أيام من الحرب: يونيو ١٩٦٧ وصناعة الشرق الأوسط الحديث» فى أن يعدد الأخطاء وسوء المشورات والأحداث العشوائية والعنجهيات المهلكة من الجانبين.

فى منتصف الستينيات من القرن العشرين، كان المجتمع الإسرائيلى فى حالة ركود. والاقتصاد يعانى من الكساد، وكان الاشكينازيون وهم الإسرائيليون المولودون فى أوروبا والأرستقراطيون الرواد فى الدولة، يرون أنفسهم قلة ديموجرافية أمام المزراحيم وهم المهاجرون من شمال أفريقيا ودول إسلامية أخرى وهم عموما الأقل ثقافة والأكثر تدينا. بدأت الأخلاقيات الاشتراكية للرواد فى التلاشى مع سكان الكيبوتزات. أيضا لم تعد البلاد بين يدى بن جوريون أول قائد كاريزمى للبلاد. وكان خليفته ليفى اشكول مملا ومتكبرا، تنحصر خبرته فى المال وإدارة الموارد وليس فى العسكرية.

ورغم أن إسرائيل حاربت بنجاح فى أزمة السويس الموحلة عام ١٩٥٦، ولكنها فى منتصف الستينيات كانت تواجه سلسلة من مشاكل الأمن: كانت المشاعر القومية العربية المعادية للاستعمار على أوجها. وقد اكتسب الزعيم المصرى جمال عبد الناصر جماهير عريضة فى أرجاء الوطن العربى بخطبه النارية حول «تحرير» الأراضى الفلسطينية والقضاء على الدولة الإسرائيلية (الغريبة). وكانت جماعات المقاومة الفلسطينية الناشئة خاصة فتح، تنفذ هجمات على الأراضى الإسرائيلية من قواعد على الحدود السورية وإلى حد أقل من الأردن. وفى الأشهر الثمانية عشر التى سبقت حرب ١٩٦٧، كانت هناك مائة وعشرون محاولة (تخريب) قام بها الفلسطينيون - قصفوا مضخات الماء وزرعوا ألغاما وقادوا اشتباكات على الطرق السريعة. قتل من الإسرائيليين فى تلك الأحداث أحد عشر فقط، وهو عدد صغير فى معايير اليوم، ولكن كما يقول سيجيف «تأثيرها النفسانى مثل تأثير الكساد كان أكثر عمقا من الضرر الكبير الملموس».



في عام ١٩٦٦ وبعد مقتل ثلاثة عسكريين إسرائيليين بلغم أرضى مزروع قرب مدينة أراد فى النقب، أمر اشكول بتنفيذ عملية شريدر، وهى ضربة ثأرية على منطقة قروية فى غرب الأردن. فى قرية السموع، فجرت قوات الدفاع الإسرائيلية عيادة طبية ومدرسة ومكتب بريد ومكتبة ومقهى وأكثر من مائة منزل. وقد تجاوزت العملية أوامر مجلس الوزراء بحيث أدت إلى معركة جوية بين القوتين الجويتين وقتلت أربعة عشر أردنيا. لم يكن سوء التقدير هو استخدام قوة مفرطة فحسب وإنما كان القرار لمهاجمة الأردن التى كان ملكها حسين أكثر الزعماء العرب مهادنة. أما سوريا التى منحت ملاذا آمنا للمقاومة الفلسطينية وكان لديها خطط لتحويل مجرى نهر الأردن من إسرائيل، فقد كانت مشكلة أكثر جلاء. فقد لعب الإسرائيليون لعبة القط والفأر الخطرة مع السوريين فى مرتفعات الجولان ولكن لم يهاجموا كما فعلوا فى السموع. قال اشكول عن ذلك فيما بعد «كان قصدنا قرص الحماة. ولكن بدلا من ذلك ضربنا العروس».

بحلول ربيع ١٩٦٧ بدأت التوترات تتصاعد. ابلغ دبلوماسيون سوفييت سوريا ومصر، خطأ، بأن إسرائيل على وشك أن تشن غزوا واسع النطاق على سوريا، مما زاد من اضرام النار فى قلب عبد الناصر. وطبقا لكتاب «خفافيش فوق ديمونا Foxbats over Dimona» (نشر ييل ٢٦ دولارا) وهو كتاب جديد للمؤلفين الإسرائيليين ازابيلا جينور وجدعون ريميتز، كان الاتحاد السوفيتى يشعر بالقلق من القدرات النووية الإسرائيلية حتى انه كان مستعدا لفعل أى شىء للحض على إشعال حرب. فى نفس الوقت، لم يكن الأمريكيون، الذين تلبستهم كارثة حرب فيتنام، على استعداد لتقديم أى عون. ابلغ ليندون جونسون ابا ايبان وزير خارجية إسرائيل بذلك، أما شارل ديجول، الذى سبق أن زود إسرائيل بالميراج ومقاتلات ميستير وهما جوهر القوة الجوية الإسرائيلية، فقد رفض تقديم الدعم الآن، محذرا اشكول ضد القيام بهجوم استباقى. وهكذا شعرت إسرائيل بالعزلة، فى حين تشجعت مصر. وأكد المسئول العسكرى المصرى الأعلى عبد الحكيم عامر لعبد الناصر استكمال استعداد الجيش، إذا تطلب الأمر، لمهاجمة إسرائيل وتحقيق النصر.

فى منتصف مايو، قام عبد الناصر بحركة مستفزة تلو أخرى. ورغم علمه من ضباط الاستخبارات المصريين بعدم تحشد الجنود الإسرائيليين على الحدود السورية، ولكنه استمر فى الضغط. فى ١٦ مايو طلب من الأمم المتحدة نقل قواتها من سيناء وكانت قد حافظت على السلام منذ أزمة السويس. ولما لم يستطع يو ثانت الأمين العام للأمم المتحدة حينذاك إقناع عبدالناصر لإبقاء القوات، اضطر للرضوخ وبدون استشارة مجلس الأمن. وحالما غادرت القوات الدولية أرسل عبد الناصر فرقه المسلحة مباشرة للتمركز على الحدود الإسرائيلية. فى ٢٢ مايو، اغلق عبدالناصر مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية مما منع وصول إسرائيل إلى البحر الأحمر. ومنذ ١٩٥٧ قال الإسرائيليون بأن مثل هذا الإجراء سوف يعتبر بمثابة إعلان حرب، ولكن حين ناشد دبلوماسيون إسرائيليون الأمم المتحدة وبريطانيا العظمى لمد يد العون، فضلت الدولتان التزام الحياد. فى الثلاثين، وقع عبدالناصر معاهدة دفاع مع الملك حسين بعد أن أعلن «هدفنا الأساسى تدمير إسرائيل» وقال إن مصر والأردن وسوريا ولبنان «متحشدة على حدود إسرائيل» وسوف تساندها العراق والجزائر والكويت والسودان. «وكل الأمة العربية. سوف تذهل العالم.. لقد حانت الساعة». كان ذلك النوع من الخطاب يأتى بعد أقل من عقدين على الهولوكوست والذى جعل مناحيم بيجن يسمى عبد الناصر «هتلر العرب». وكانت القيادات السورية والعراقية والفلسطينية جميعها تطلق تصريحات مماثلة حول محو إسرائيل من الخارطة.



على أية حال، حتى أواخر مايو، وأوائل يونيو، استمرت القيادة الإسرائيلية فى مناقشة أهداف عبد الناصر القصوى. وكان الجيش فى معظمه تقريبا يفضل ضربة استباقية ضد العرب، ولكن آخرين بضمنهم اشكول وابا ايبان والمتقاعد بن جوريون يحذرون من المبالغة فى رد الفعل. حين تحدث عبد الناصر إلى السوفييت، نصحوه بعدم البدء فى شن الحرب. كتب ايبان فيما بعد يقول «عبد الناصر لم يكن يريد الحرب. أراد النصر بدون حرب». بعد الحرب، اعترف حتى بعض السياسيين اليمينيين بضمنهم مناحم بيجن بأن الإسرائيليين لم يكونوا على يقين من أن عبد الناصر كان يريد الحرب. قال بيجن فى خطاب أمام كلية الدفاع القومى الإسرائيلى «أن تمركز الجيش المصرى فى سيناء لا يثبت بأن عبد الناصر على وشك الهجوم علينا. يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا. لقد قررنا نحن أن نهاجمه».

وصف كل من سيجيف واورين بتفصيل مزعج حالة القلق والاضطراب التى سادت أوساط القيادة الإسرائيلية. خلال الأزمة، كان يتسحاق رابين رئيس هيئة أركان القوات المسلحة الإسرائيلية يعانى من انهيار عصبى، أرجعه فيما بعد إلى «تسمم بالنيكوتين». كان هناك خوف من أن تقصف مصر مفاعل ديمونا النووى. كان هناك خوف من هجمات مفاجئة على جبهتين أو ثلاث، ومن الغاز الكيماوى ومن الأسلحة الإشعاعية. وكانت القيادة العسكرية وحتى وسائل إعلام ليبرالية مثل هاآرتس ترى فى اشكول زعيما ضعيفا غير قادر على قيادة البلاد فى وقت ازمة - وهو انطباع ترسخ فى ٢٨ مايو حين بدا متلعثما ومشوشا أثناء إلقائه خطابا إذاعيا. وفى واقع الأمر أن اشكول لم ينم فى الليلة السابقة كما أنه كان يحاول أن يقرأ نصا بعد عملية إزالة مياه بيضاء أجريت فى عينيه، ولكن النتيجة كانت بث الذعر فى الشعب بدلا من طمأنته.

فى هذه الأثناء، كان الحاخامات يهيئون المتنزهات لتكون مقابر وقد حفروا آلاف القبور. وفى الأوساط الصحفية وداخل مجلس الوزراء كانت هناك مطالبات باستقالة اشكول من رئاسة الوزارة ووزارة الدفاع. كان بن جوريون فى شدة القلق حول احتمال وقوع انقلاب عسكرى حتى أنه أصدر تحذيرا عاما من الكيبوتز الذى يقيم فيه بالنقب. قبل أربعة أيام من الحرب أجبر اشكول على إعطاء حقيبة الدفاع إلى أكثر شخصية محيرة فى البلاد وهو موشى دايان.



كتب ايبان فيما بعد يقول: «عبد الناصر لم يكن يريد الحرب. أراد النصر بدون حرب». بعد الحرب، اعترف حتى بعض السياسيين اليمينيين بضمنهم مناحم بيجن بأن الإسرائيليين لم يكونوا على يقين من أن عبد الناصر كان يريد الحرب



ظل اشكول لا يعرف ماذا يفعل على وجه اليقين. كان يسأل جنرالاته: «هل علينا أن نعيش بالسيف إلى الأبد؟». كان يقول إن الحكومة أعطت الجيش كل ما يطلبه ولكن «لا نحصل على ما يمكننا أن نستيقظ يوما لنقول، الآن يمكننا أن ندمر الجيش المصرى.. إذن دعونا نفعل ذلك».

مايكل اورين الذى قضى وقتا فى دراسة مذكرات ووثائق عربية أكثر من سيجيف، يضع أهمية اكبر فى كتابه على مقاصد عبد الناصر العدائية مجادلا بأنه وضع فعلا خطة غزو شاملة أطلق عليها اسم (عملية الفجر) ولكنها ألغيت فى اللحظة الأخيرة. ويقتبس هذه المعلومات من صلاح هويدى رئيس القضاة فى المحاكمات التى أجرتها مصر للضباط الذين اتهموا بالتسبب بالهزيمة. «أستطيع أن أقرر أن القيادة السياسية المصرية دعت إسرائيل للحرب. لقد استفزت إسرائيل بشكل واضح وأجبرتها على المواجهة». كان سيجيف أقل تعاطفا مع قرار إسرائيل لبدء الهجوم. يقول سيجيف إنه بينما كان اشكول يصمد أمام ضغوط جنرالاته، فقد برز باعتباره «رجل دولة بأعصاب من حديد». ولكن على عكس بن جوريون، لم يكن لديه القدرة على المقاومة. ويستنتج سيجيف «لقد أكله ضعفه. لقد أراد أن يتذكره الشعب كرجل وطنى وفى هذه المرحلة كان الناس يقرنون الوطنية بالحرب».

وفى آخر المطاف، بررت القيادة الإسرائيلية الهجوم الوقائى باعتباره الطريقة الوحيدة لإنهاء تهديد لا يطاق وإنه إذا كان لابد من شن حرب فلا بد من المبادرة بها لتقليل الخسائر. وبدأ اشكول، الذى قاوم مناشدات جنرالاته لعدة أسابيع، يسأل «هل يجب أن نسمح لأنفسنا بأن نستنزف ونقتل قطعة قطعة. إذا لم ندمر بحرب مستقبلية شاملة كما يتذرنا عبد الناصر؟ هل علينا أن ننتظر حتا ارندت لتكتب مقالات حول فشلنا فى المقاومة؟».



فى ٥ يونيو، الساعة ١٠,٧ صباحا شنت المقاتلات الإسرائيلية هجوما على القواعد الجوية المصرية. فدمرت القوة الجوية لعبد الناصر وهى رابضة على الأرض وخلال بضع ساعات كان مصير الحرب قد حسم. فى السادس والسابع، دمرت إسرائيل، بتفوقها الجوى القوات البرية المصرية.

كانت أيام القتال الستة بين إسرائيل والقوات المشتركة لمصر والأردن وسوريا هى الجانب الأكثر وضوحا فى هذه الدراما. فى مائة وثلاثين ساعة فقط، احتلت إسرائيل سيناء وغزة من مصر والضفة الغربية والقدس الشرقية بضمنها المواقع المقدسة فى المدينة القديمة، من الأردن، ومرتفعات الجولان من سوريا - ستة وعشرون ألف ميل مربع من الأراضى الإضافية. وفى البدء طمأن راديو القاهرة المستمعين بأن المصريين ينتصرون فى معارك عظيمة ضد الإسرائيليين. وقام أنور السادات نائب عبد الناصر وخليفته، والذى كان يعرف الحقيقة، بالتمشى فى الشوارع المجاورة لسكنه «مصدوما ومحطم القلب» كما كتب فى مذكراته ورأى الناس يرقصون فى الشوارع احتفالا بالنصر. ولكن حلم عبدالناصر بوحدة عربية وبالقضاء على إسرائيل كان قد انتهى. قال عبد الناصر: «لو كنت اعرف أن الجيش لم يكن مستعدا، لم أكن لأذهب إلى الحرب. أنا لاعب شطرنج» (وقد توفى كل من عبد الناصر واشكول خلال السنوات القليلة التالية) فقدت مصر اكثر من خمسة عشر رجلا فى الحرب وفقدت إسرائيل حوالى ثمانمائة.

وعلى الجانب الآخر، كانت النشوة القومية الإسرائيلية فى الأيام والأسابيع التى تلت الحرب من القوة والعمق بحيث كان مستحيلا لمعظم الإسرائيليين أن يفكروا بوضوح حول النتائج بعيدة المدى للاحتفاظ بأراض محتلة. بعد أن قيل لهم إن الدولة فى حالة خطر مميت، أصبحت إسرائيل الآن مهيمنة على إسرائيل التوراتية - الحائط الغربى والهيكل وكل القدس وضريح البطاركة فى الخليل وكثير من مثل هذه المواقع المتناثرة فى أرجاء الضفة الغربية. وما أن تم تأمين المدينة القديمة فى اليوم الثالث للحرب، طار دايان، وهو أكثر القادة الإسرائيليين حبا للاستعراض، بالمروحية إلى القدس وقدم عرضا بأسلوب الجنرال اللنبى، القائد البريطانى الذى انتزع القدس من الأتراك فى ١٩١٧. أعلن دايان «لقد عدنا إلى أكثر أماكننا قدسية. عدنا ولن نغادرها ثانية».

ونفخ الجنرال شلومو جورين كبير الحاخامات فى الجيش الإسرائيلى، الشوفار (بوق من قرن الكبش يستخدم فى رأس السنة اليهودية وبعض المناسبات الدينية الأخرى) عند الحائط الغربى ونصح قائده اوزى ناركيس بأن اللحظة كانت مناسبة لتفجير قبة الصخرة التى تقع على جبل الهيكل قائلا «افعل هذا الآن وسيخلد اسمك فى التاريخ. غدا يكون الأوان قد فات».

رفض ناركيس هذا الاقتراح المجنون بل إنه هدد الحاخام بالاعتقال. ولكن على أية حال كان الشاعر القومى ناتان الترمان دقيقا فى تصريحه «الشعب سكران بالفرحة» ونشرت صورة جندى إسرائيلى يبكى عند الحائط الغربى فى كل أنحاء العالم وبدت وكأنها تعبر - فى عيون الإسرائيليين - عن المضمون المركب الجديد للدولة والمقدس، للعسكرية والتوراتية. وقد حلت أغنية «أورشليم الذهبية» لفترة من الزمن، النشيد الوطنى «هاتيكفاه». فى صحيفة معاريف اليومية وصف الصحفى جابريل تزيفرونى «تحرير» العاصمة بلغة نادرا ما تستعمل فى التقارير الصحفية:

«جاء المسيح المخلص إلى أورشليم أمس - كان متعبا وشائبا وكان يركب على دبابة».

وحين اندلع القتال كتب بن جوريون فى مذكراته «لم يكن هناك حاجة لهذا. أعتقد أنه خطأ كبير». ولكن بن جوريون يقترح الآن بعد الحرب أن تهدم حوائط المدينة القديمة. حتى اشكول، وهو يناقش مسألة كيف يمكن لإسرائيل أن تحكم مليون عربى، راودته لبعض الوقت خطة ترحيل مئات الألوف من الفلسطينيين إلى العراق أو غيره من الدول العربية.

منذ ١٩٤٩، كان الحديث يجرى حول «استعادة» المواقع المقدسة فى الضفة الغربية والقدس. وكان لا يزال الكثير من الجنرالات الإسرائيليين يعتبرون ١٩٤٨ مهمة لم تستكمل- كما كان خصومهم العرب يعتقدون ذلك أيضا - ولكن الهيمنة الدائمة لم تكن، من الوجهة السياسية، هدف الحرب. كان المفروض أن يكون الاحتلال مؤقتا ولكن هذا لم يحدث. تحت قيادة



فى الأيام الأولى لانتشاء ما بعد الحرب، كان هناك بعض الإسرائيليين البارزين الذين جرأوا على التحذير من الانحدار الأخلاقى والسياسى اللذين يصاحبان الاحتلال عادة



موشى دايان العجيبة والفظة فى أحيان كثيرة - والذى يصفه المؤرخ المعروف والصحفى عاموس ايلون «سيكلوب السياسة الإسرائيلية الغامض» (السيكلوب: فى الأساطير الإغريقية مخلوق عملاق ذو عين واحدة فى وسط رأسه - المترجمة)، اعتبر الإسرائيليون أنفسهم «محتلين متنورين» ولكنهم مع الوقت لجأوا إلى الأساليب التى اتبعها الكولونياليون البريطانيون خلال فترة الانتداب: عقاب جماعى وتعذيب خلال الاستجوابات وتهديم بيوت العرب. كما طردت إسرائيل مجتمعات عربية كاملة ودمرت قرى وهرب حوالى مائتى ألف من العرب إلى الضفة الغربية إلى الأردن. ودمرت القوات الإسرائيلية قرى بيت مرسيم وبيت (عوفا؟ Awa) فى جنوب الضفة الغربية وتقريبا ثلث مدينة قلقيلية سويت مع الأرض قبل أن تطالب الأمم المتحدة والولايات المتحدة بأن يتوقف دايان ويعيد البناء. فى أثناء ذلك تحول القادة الصهاينة المتدينون مثل تسفى يهودا كوك ومركاز هاراف يشيفا فى القدس وموشى ليفنجر مؤسس حركة غوش امونيم ومستوطنة فى الخليل، من مجرد حالمين هامشيين إلى أنبياء وسياسيين مسلحين.

لم تكن القيادة الإسرائيلية ترى نفسها أقل من دولة حميدة صالحة، بل كانت على قناعة تامة بأن السكان العرب المقهورين سوف ينظرون بعين التقدير لحكامهم الجدد. وقد قال دايان للشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان هذه الكلمات التى يقشعر لها البدن: «الحالة بيننا تشبه العلاقة المعقدة بين بدوى وصبية اغتصبها عنوة بدون إرادتها. ولكن حين يولد أطفالهما سيرون فى الرجل أباهم والمرأة أمهم. ولن يعنى لهم الفعل الأصلى أى شىء. أنتم الفلسطينيون كشعب لا تريدوننا اليوم ولكننا سوف نغير رأيكم بفرض وجودنا عليكم».



من أكثر الكتب التى تناولت ما بعد الحرب (أى اليوم السابع)، شمولا وجاذبية وكآبة، كتاب الصحفى غيرشوم غورنبرغ «إمبراطورية الصدفة» الذى يصف كيف كانت حكومات حزب العمل التى ترأسها ليفى اشكول وجولدا مائير ويتسحاق رابين - فى العقد الذى تلى الحرب - إما تغمض العين عن المستوطنات المتكاثرة أو تشجع بصراحة على بنائها. ونتيجة لذلك، ساعدت هذه الحكومات فى شرعنة أيديولوجية الاستيطان لخلفائهم اليمينيين مناحيم بيجن وبينيامين نتانياهو واريل شارون. يوضح غورنبرغ أنه على الرغم من أن التصور التمهيدى للمستوطنات الأولى كان على أنها «محطات عسكرية مؤقتة» من أجل تجنب انتهاك معاهدة جنيف الرابعة.

«لقد كان غرض الاستيطان - منذ ذلك اليوم فى يوليو ١٩٦٧ حين قفز أول مستوطن إسرائيلى من سيارة الجيب فى مرتفعات الجولان - خلق وقائع تقرر الوضع النهائى على الأرض، ومن أجل نحت الواقع السياسى قبل بدء المفاوضات». لم يكن تنقيح التاريخ هنا موضوعيا أو حميدا. إن خلق «حقائق على الأرض» كان محاولة سياسية لإعادة رسم - بالطابوق والأسمنت - حدود شعب على حساب شعب آخر.

فى الأيام الأولى لانتشاء ما بعد الحرب، كان هناك بعض الإسرائيليين البارزين الذين جرأوا على التحذير من الانحدار الأخلاقى والسياسى اللذين يصاحبان الاحتلال عادة. فقد كتب الروائى عاموس أوز نبوءته فى صحيفة دافار:

«لمدة شهر، أو سنة أو جيل كامل، سيكون علينا أن نكون فى موضع محتلين لأماكن يمس تاريخها قلوبنا. ويجب أن نتذكر أننا محتلون لأنه ليس هناك بديل آخر- وأن يكون الاحتلال تكتيكيا ضاغطا من أجل الإسراع بالسلام - ولسنا مخلصين أو محررين. لا يمكن للمرء أن يتحدث عن تحرير أرض تعانى تحت نير الأجنبى إلا فى الأساطير. إن الأرض لا تستعبد ولهذا ليس هناك شىء اسمه تحرير الأراضى. هناك شعب يستعبد وكلمة (تحرير) تنطبق على البشر فقط. لم نحرر الخليل أو رام الله أو العريش، ولم نخلص سكانها. لقد انتصرنا عليهم وسوف نحكمهم لغاية ضمان سلامنا».

ولكن من كان يسمع؟ كان اوز، فى ذلك الوقت، يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما. كان يمكن لوزير أو مفكر معزول أن يتحدث عن «الأرض مقابل السلام» ولكن المد العاطفى للبلاد كان ضد ذلك. لقد حل نوع جديد من الصهاينة الذين يمزجون الإيمان بالوطنية، محل الرواد القدماء «الكيبوتزيين». ومع مرور الوقت أصبحت المستوطنات حقائق كونكريتية، وتحولت المحطات العسكرية المهلهلة إلى مجتمعات «غرف نوم» الضواحى التى تشتمل على فروع من المصالح الحكومية ومواصلات سريعة إلى تل أبيب والقدس.

بعد أربعين سنة، يعيش ربع مليون إسرائيلى فى مائة وعشرين مستوطنة معترف بها رسميا، ومائة وثمانون ألفا يعيشون فى مناطق ملحقة من القدس الشرقية وستون ألفا فى الجولان. فى السنوات التى سبقت قيام إسرائيل، كان المستوطنون يجادلون بأن ضمان الأمن يكون بشراء المزيد من الأراضى أو الاستيلاء عليها. ورفض مستوطنو «إسرائيل الكبرى» ومؤيدوهم الذين يعتبرون الحدود القديمة مثل «حدود اوشفتز» أن يروا خطر سياستهم. وقد كان أسوأ نتائج الاحتلال بطبيعة الحال هو الحرمان الفظيع و العزل الجسدى والتشويه النفسانى الذى فرض على الفلسطينيين. ويقول جورنبرج إن الاحتلال كان للإسرائيليين خطرا أمنيا عاليا ومنبعا للفساد الأخلاقى.

إن عملية تقييم الشعب لماضيه من أجل رسم مستقبله ليست تطبيقا أكاديميا. لقد لعب تنقيح التاريخ دورا ولكن الحماقة السياسية على الجانبين غطت على أهميته. إن الإصرار على بناء المزيد من المستوطنات، وفشل القيادة الفلسطينية فى الاستجابة للعروض الإسرائيلية خلال عملية التفاوض فى كامب ديفيد وطابا، وازدياد العمليات (الانتحارية) وتقديس الشهادة، والأيديولوجية الإسلامية والعنف المميت، والقرارات الخاطئة لحكومة أولمرت - كل ذلك عمق من الإحساس باليأس. فى هذه اللحظة، يتضاءل الدعم الفلسطينى للحل المنادى بقيام دولتين، وحركة الاستيطان أصبحت مرة أخرى أقوى جماعة ضغط فى البلاد. مازالت حرب ١٩٦٧ تلقى بظلالها. وكما قال دوق ولنجتون: لاشىء أسوأ من نصر كبير إلا هزيمة كبيرة. ■



كان أسوأ نتائج الاحتلال بطبيعة الحال هو الحرمان الفظيع والعزل الجسدى والتشويه النفسانى الذى فرض على الفلسطينيين. ويقول جورنبرج إن الاحتلال كان للإسرائيليين خطرا أمنيا عاليا ومنبعا للفساد الأخلاقى



شهادات

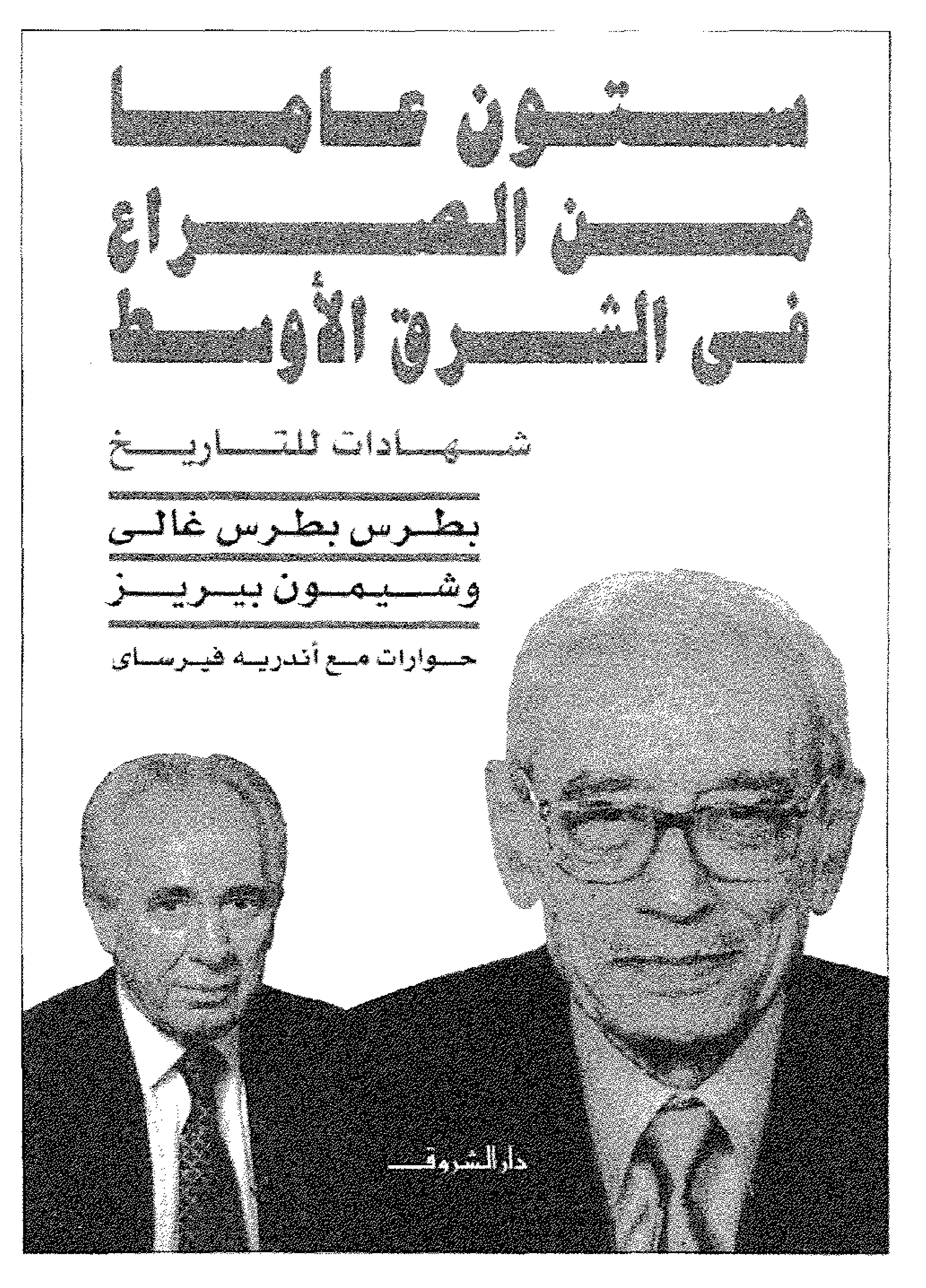
أنـــدريه فيرســـاى

صدرت كتب كثيرة عن الصراع العربى الإسرائيلى، ولكن هذا الكتاب يعتبر سابقة تاريخية: فلم يحدث من قبل أن قرر رجلان من رجال السياسة الكبار، ما زالا يتوليان مناصب مهمة، وخصمان فى صراع هما فيه طرفان، أن يلتقيا من أجل القيام معا بزيارة جديدة للتاريخ الذى اشتركا فى صنعه.

بطرس بطرس غالى، المدافع عن العالم الثالث، سكرتير عام الأمم المتحدة السابق، تولى منصب وزير الخارجية المصرية فى عهد الرئيس أنور السادات. وفى عام ١٩٧٧م رافق الرئيس المصرى فى زيارته إلى القدس التى كانت أساس التغيير الجذرى الذى حدث فى معطيات الشرق الأوسط. ثم كان فى وقت لاحق، وفى مواجهة موشيه دايان، أحد المفاوضين الأساسيين فى اتفاقية السلام العربية الإسرائيلية التى وقعت عام ١٩٧٩م.

شيمون بيريز: «الرئيس الحالى لإسرائيل» رئيس وزراء أسبق، والرجل الذى خاض كل معارك إسرائيل: فقد كان هو الذى كلفه بن جوريون فى الخمسينيات، بالبحث عن أسلحة فى الوقت الذى كانت فيه المنطقة تقع تحت الحظر: كما كان هو الذى حصل على تعاون فرنسا من أجل بناء المفاعل النووى فى ديمونة. وأخيرا كان هو الذى أصبح فى عام ١٩٩٣م، مهندس المفاوضات السرية فى أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية (فتح)، والتى تعتبر التمهيد لأول اتفاق يعقد لمنح الفلسطينيين الحكم الذاتى. وبسبب دوره هذا حصل على جائزة نوبل للسلام مع كل من إسحاق رابين وياسر عرفات.

هذان اللاعبان الأساسيان فى الصراع العربى الإسرائيلى اللذان ينتميان إلى جيل واحد، (وهى مسألة ليست بلا أهمية) وافقا، ليس على أن يتحدث كل فى جانب، ولكن على أن يخوضا معا حوارا، تتقاطع فيه ذكرياتهما وتتواجه فيه شهادتهما حول الأحداث الكبرى التى شاركا فيها، والتى



حدثت من الحرب الأولى بين إسرائيل والعرب وحتى يومنا هذا، شكل أقدم صراع معاصر.

هذا الصراع اعتبر دائماً، من جانب ومن الآخر، مأساة بل ميلودراما، حيث يتصادم طغاة ضد مظلومين؛ همج ضد متحضرين؛ مستعمرون ضد استعماريين، مدمرون دمويون ضد بناة دول. وكل طرف يعتبر أنه هو الذى يقف فى جانب الحق المطلق، ولا يتردد فى نفى الشرعية عن عدوه، بل ونفى «الحقيقة» التى يؤمن بها الآخر.

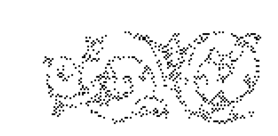
ولكن كل هذا لا يدعو إلى الدهشة. فهل هناك مكان لشرعية «الآخر» حينما يكرس المرء نفسه بالكامل فى «ملحمة» تحريره؟ هل يستطيع المجتمع اليهودى فى فلسطين، الذى شعر بضرورة بناء دولته بسرعة، بنفس السرعة التى كان شعبه يتعرض بها فى أوروبا للاضطهاد على يد النازية، أن يأخذ فى اعتباره وضع العرب؟ والفلسطينيون، الذين جاشوا بالرغبة الشرعية فى إجلاء المستعمر، هل يستطيعون فهم مشاعر الارتباط التى يكنها اليهود القادمون من دول استعمارية، لنفس هذه الأرض؟



فى نظر كل جانب، ولعشرات السنوات، أو على الأقل إلى يومنا هذا، سيظل حقه واضحا إلى حد أن التشكيك فيه سيبدو بمثابة فضيحة. سيحل السخط مكان التحليل، ويتقلص العالم، كما فى الروايات المأساوية، ليتحول إلى مجرد حرب بين قوتين لديهما شعور عميق بالعداء؛ وإلى صدام يختزل فى معاناة فرضها الآخر؛ وإلى مجابهة تقتصر على مبدأين فقط. إما هم وإما نحن. ومن أجل سلب العدو نفوذه والحط من شأنه واستبعاده، يهاجمه الآخر فى «أخلاقياته». ولكن الرؤية ستكون «موعظة» أكثر مما هى «أخلاق». أما الوضع فسيكون صراعا أبديا بين الخير والشر. وفى استناد على هاجس مزدوج من الذاكرة (هذا الهاجس انفعالى ومعدٍ لا يستطيع أحد قياس حجم الخسائر التى يجلبها على ذويه)، يكون من الصعب تجنب إغراء «الشمولية». لن يكون فى الإمكان تحقيق أى حل وسط: فالإنسان لا

ستون عاما
من الصراع فى الشرق الأوسط
بطرس بطرس غالى وشيمون بيريز
حوارات مع أندريه فيرساى
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٧

بعد الانتهاء من قراءة الكتاب، أيّا كان اتجـاه تعاطفنـا، فبالتأكيد لن نرى الصراع بنفس الصورة مرة أخرى



يتصالح مع الشر، ولا يتناقش معه. والمرء لا يتنازل أبداً.

ولكن هذا الصراع ليس ميلودراما. بل إن أردنا الاستمرار فى استخدام الاستعارة المسرحية، يمكن القول إنها تراجيديا، بمعنى أنها قصة غامضة حيث إن لكل شخصية من الشخصيات التى تتصارع نصيبها من الشرعية ونصيبها من النور، كما أن لكل منها جانبها من الظلال، ولكل منها نصيبها من الجرائم كما لها نصيبها من النبل.

واليوم، نحن ننظر إلى هذا الصراع بوصفه صراعاً إسرائيلياً فلسطينياً بالأساس. وننسى أن المجتمع الدولى كان يعتبره، وحتى عام ١٩٦٧م على الأقل، فى مجمله صراع إسرائيلى. عربى. لذلك كان اهتمامنا أن نضع فى المواجهة شخص مصرى وآخر إسرائيلى، وألا نقصر الصراع على المسألة الفلسطينية فحسب، حتى وإن كانت تلك المسألة تظل بكل تأكيد، هى أكثر من أى وقت مضى، فى قلب الصراع.

لقد اخترنا أن نبدأ النقاش من الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية. فى ذلك الوقت لم تكن الصهيونية قد حصلت بعد على انضمام الغالبية العظمى من الشعب اليهودى؛ ومن الناحية الأخرى، كان العرب الذين لم يدخلوا بعد إلى الحداثة، يطمحون إلى الاستقلال. مع الحرب، انقلب العالم رأساً على عقب. فقد تم إلقاء اليهود فى آتون برنامج إبادة، بينما وجد العرب فى الحرب إمكانية لتحريرهم من قبضة الاستعمار البريطانى. كانت هذه السنوات حاسمة بالنسبة لشيمون بيريز ولبطرس بطرس غالى؛ ماذا يعنى للوعى السياسى أن يكون المرء صهيونى فى الأربعينيات؛ وما هو العربى المعادى للاستعمار فى عالم سوف يرى قريبا صعود العالم الثالث؟

تلك الحوارات المتقاطعة تدور حول الأحداث الكبرى التى حددت تاريخ الشرق الأوسط: ١٩٤٧م خطة تقسيم فلسطين، ١٩٤٨، ١٩٤٩م نشأة دولة إسرائيل وإجهاض الدولة الفلسطينية، ١٩٥٢م ثورة الضباط الأحرار فى مصر، ١٩٥٦م أزمة السويس، ١٩٦٧م حرب الأيام الستة، ١٩٧٠م يقظة الشعور الوطنى الفلسطينى، ١٩٧٣م حرب أكتوبر، ١٩٧٧م زيارة السادات للقدس، ١٩٧٨م اتفاقية كامب ديفيد، ١٩٨١م اغتيال السادات، ١٩٨٢م حرب لبنان، ١٩٨٧م اشتعال الانتفاضة، ١٩٩٣م اتفاقية أوسلو، ١٩٩٤م اغتيال رابين، ٢٠٠٤م وفاة ياسر عرفات... إلخ.

رغم ذلك، فإن الكتاب الحالى ليس كتابا تاريخيا بالمعنى التقليدى: فاللاعبان لا يزعمان «الموضوعية». ولكن ما يقولاه يعتبر مصدراً أساسياً من حيث إنه يسمح لنا بالحصول مباشرة على معلومات من الأشخاص المعنيين، وفى نفس الوقت الحصول على رؤى وإستراتيجيات سياسية يصعب قراءتها من الخارج. هذا الكتاب يعطينا ما لا يمكن الحصول عليه من كتب التاريخ التقليدية: تعايش الرؤيتان العربية والإسرائيلية من الداخل، وتطور كل منهما عبر السنوات. لأنه إذا كانت الأحداث معروفة لدينا، فإن تفسيرهما لها مسألة تتعلق بحالتهما الذهنية، وعقليتهما وما عايشاه. وما نحن بصدده فى الكتاب هو المواجهة بين هذه الحالة الذهنية لكل منهما.

إن التاريخ الذى سوف نقرؤه ليس أكاديمياً، وليس أملس. والمتحاوران يكنان احتراما كبيرا الواحد للآخر، ولكن لن يجامل أحد منهما الآخر. بل سوف يتواجهان، كلٌ مدفوع برغبة للتعبير عن وجهة نظره التى عايشها، وفى نفس الوقت للاستماع إلى وجهة نظر الآخر مهما كان صعباً عليه الاستماع إليها. والمواقف كانت متعارضة بكل وضوح ولم يجر تهذيب أى خشونة فى الحديث: النقاش كان سياسياً وليس دبلوماسياً. ولكن هذه الصراحة أعطت الحوار قوة ملحوظة. ورغم ذلك لم يكن المتحدثان ملتزمين رسمياً؛ فقد وافقا على الحديث باسمهما هما. تلك هى الميزة التى يعطيها لهما السن، وأيضا التقدير الدولى الذى يتمتعان به، وفى حرية تعبير جريئة للغاية، سمح كل منهما لنفسه أن يوجه انتقادات لاذعة لمعسكره هو. وفى تبادل أسلحة قوى وتطورات سياسية وتحاليل رؤى، قدم كل من بطرس بطرس غالى وشيمون بيريز درساً رائعاً فى الجيوسياسة لا يدير الظهر لتاريخ الذهنيات.

بعد الانتهاء من قراءة الكتاب، أيّا كان اتجاه تعاطفنا، فبالتأكيد لن نرى الصراع بنفس الصورة مرة أخرى. ■



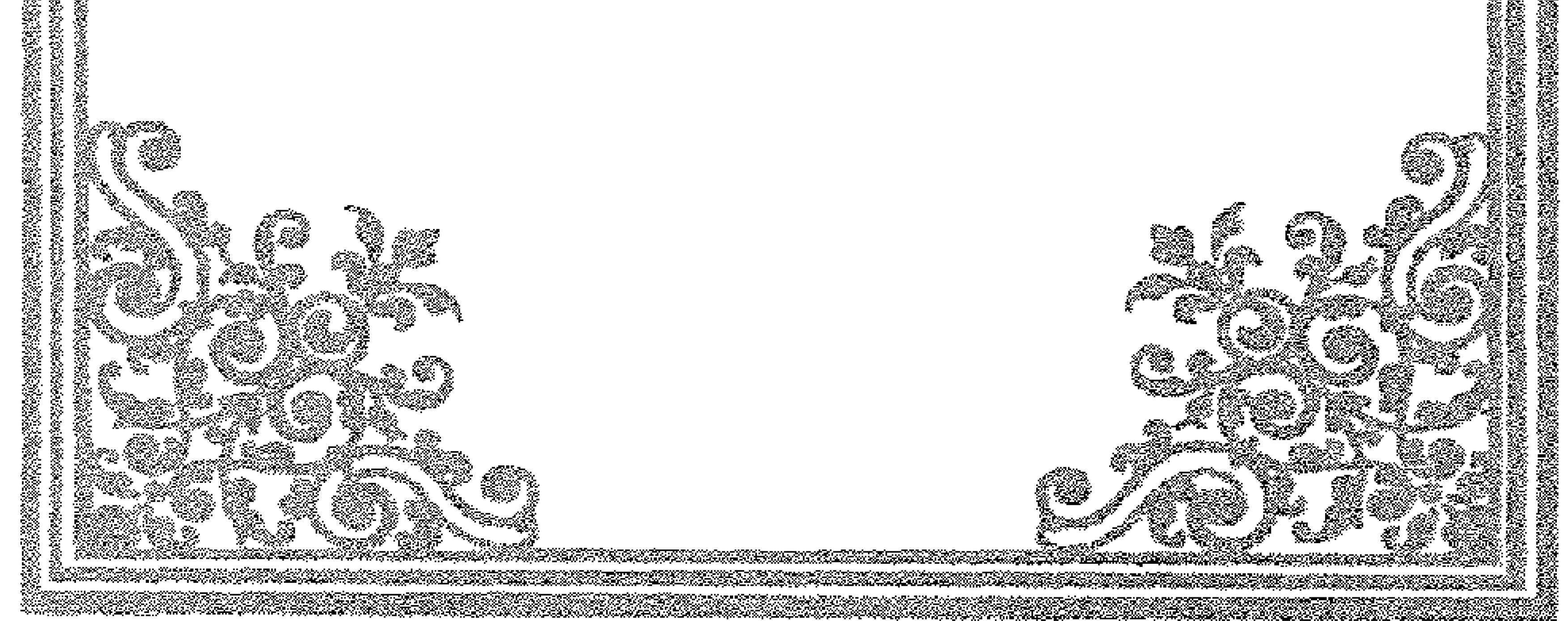
مذكرات اللورد كِيلرن

وأطول يوم فى تاريخ مصر

اللورد كِيلرن، الذى عرف فى مصر باسم (السير) مايلز لامبسون، هو أشهر ممثلى بريطانيا فى مصر منذ احتلال البلاد عام ١٨٨٢ وحتى الجلاء عام ١٩٥٥ . ويقف اسمه على مستوى متكافئ تقريباً مع أسماء الاستعماريين الإنجليز الكبار من أمثال اللورد كرومر واللورد كتشنر واللورد لويد.

وقد ارتبط اسم لامبسون بما عرف فى التاريخ المصرى بحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى أقدم فيه على التدخل فى شئون مصر الداخلية غير عابئ بنصوص معاهدة التحالف بين البلدين الموقعة عام ١٩٣٦. إذ وضع الملك فاروق أمام خيارين، إما أن يستدعى النحاس باشا ويكلفه بتشكيل حكومة تتولى شئون البلاد حالاً ودون تسويف، وإما أن يوقع وثيقة التنازل عن العرش ويغادر البلاد إلى غير رجعة. وكانت الدبابات البريطانية تحيط بقصر عابدين خلال تقديم لامبسون الإنذار للملك.

ونظراً لأهمية وخطورة هذا الحادث، فإن لامبسون أفرد له مساحات مهمة فى مذكراته (الجزء الثانى) والتى ترجمها إلى العربية الدكتور عبدالرءوف أحمد عمرو. وصدرت عن سلسلة تاريخ المصريين التى تنشرها الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٥ . وقد اختارت «وجهات نظر» مقتطفات من مذكرات لامبسون عن هذا اليوم «الطويل» فى تاريخ مصر.



بدون المعلومات التى يقدمها العملاء لم يكن بوسع الجيش الإسرائيلى تنفيذ أى من عمليات الاغتيال والتصفية بحق قادة وعناصر حركات المقاومة، فضلاً عن تنفيذ عمليات الاختطاف والاعتقال

من أهم الاستنتاجات التى خلصت إليها لجان التحقيق العسكرية الكثيرة التى شكلها الجيش الإسرائيلى للتعرف على أسباب إخفاقه فى تحقيق الأهداف التى حددتها حكومة إيهود أولمرت للحملة العسكرية على حزب الله فى أعقاب اختطاف اثنين من جنوده، كانت بلا شك الحاجة إلى زيادة الاستثمار فى مجال جمع المعلومات الاستخبارية.

فقد كان واضحاً لهذه اللجان أن هذه الحرب أبرزت العديد من مظاهر القصور فى مجال جمع المعلومات الاستخبارية، أدت فى النهاية إلى عجز إسرائيل عن حسم المعركة لصالحها، رغم تفوقها بشكل هائل على حزب الله.

فالاستخبارات الإسرائيلية فشلت فى التنبؤ بإمكانية أن يقوم حزب الله بأسر الجنديين. كما أنه عندما أعلنت تل أبيب الحرب، تبين أنه لم يكن لدى هذه الاستخبارات معلومات دقيقة عن أماكن تخزين ونصب صواريخ حزب الله. الأمر الذى أتاح للحزب مواصلة إطلاق الصواريخ حتى آخر يوم فى الحرب، الأمر الذى أدى لأول مرة إلى نزوح عشرات الآلاف من الإسرائيليين عن مستوطنات الشمال، مما ترك آثاراً مدمرة على المزاج العام للجمهور الإسرائيلى.

وفى ظل الحديث عن نتائج الحرب، شدد العديد من كبار قادة الاستخبارات والمفكرين الإستراتيجيين فى إسرائيل على أن المعلومة الاستخبارية تمثل فى الحقيقة جزءاً أساسياً من النظرية الأمنية الإسرائيلية.

ويقول رئيس شعبة الاستخبارات الإسرائيلى الأسبق شلومو جازيت إن توفر المعلومات الاستخبارية الدقيقة منحت الجيش الإسرائيلى دائماً القدرة على توجيه ضربات قاصمة وخاطفة للجيوش العربية وحركات المقاومة الفلسطينية. وهذا ما أدى إلى تقليص فترات الحروب مع الدول العربية، الأمر الذى سمح بعودة الحياة الطبيعية إلى مسارها فى إسرائيل بسرعة كبيرة. من ناحيته يقول الخبير الأمنى الإسرائيلى أمير أورن إن قدرة إسرائيل على الحصول على استخبارات «ممتازة» مكنها من الاحتفاظ بجيش نظامى صغير، بحيث إنه لا يتم استدعاء قوات الاحتياط إلا فى حالة شن حرب هجومية على الدولة.

ويؤكد أورن أن حقيقة اعتماد الجيش الإسرائيلى على ٧٠٪ من قواه البشرية على قوات الاحتياط، يعنى أن قدرة العرب على إطالة أمد أى حرب سيؤدى إلى نتائج كارثية على إسرائيل: من هنا كانت هناك دوماً هناك حاجة ماسة إلى معلومات استخبارية دقيقة عن «العدو العربى».

ويعتبر الجنرال جادى ايزنكوف، قائد المنطقة الشمالية فى جيش الاحتلال أنه من البدهيات، أن غياب معلومات استخبارية نوعية، يعنى أنه لا قيمة تذكر للتفوق النوعى الإسرائيلى فى المجال العسكرى. ويضيف إن سلاح الجو الذى يمثل الذراع الاستراتيجية لإسرائيل فى الحرب مع الدول العربية لن يكون لديه ما يفعله إن لم يكن لديه معلومات حول المكان الدقيق للهدف المزمع مهاجمته، كما أن الوحدات المختارة لن يكون بإمكانها التدليل على قوتها ونخبويتها فى حال لم تتزود بمعلومات دقيقة حول الأهداف التى تنوى مهاجمتها.

لكن تبدو مساهمة العملاء والمعلومات الاستخبارية واضحة بشكل أكثر وضوحاً فى مواجهة حركات المقاومة الفلسطينية. فتؤكد العشرات من الأحكام التى أصدرتها المحاكم الفلسطينية بحق العشرات من العملاء خلال الانتفاضة الحالية أنه بدون المعلومات التى يقدمها العملاء لم يكن بوسع الجيش الإسرائيلى تنفيذ أى من عمليات الاغتيال والتصفية بحق قادة وعناصر حركات المقاومة، فضلاً عن تنفيذ عمليات الاختطاف والاعتقال التى يتعرض لها المقاومون.

وهذا ما أكده جميع قادة جهاز المخابرات الإسرائيلية الداخلية «الشاباك» (الذى يتولى بشكل أساسى مهمة تجنيد وتوظيف العملاء من الفلسطينيين)، الذين تباهوا بقدرتهم على توظيف العملاء فى مجال محاربة المقاومة.

ويزخر كتاب «القادم لقتلك»، الذى ألفه يعكوف بيرى، الرئيس الأسبق لجهاز «الشاباك»، والذى صدر قبل عدة أعوام - بالمعلومات التى تعكس حجم المساهمة الهائل للعملاء فى تسهيل عمليات جيش ومخابرات الاحتلال.

اللافت للنظر أنه حسب التحقيقات التى أجرتها الأجهزة الأمنية والفصائل الفلسطينية مع العملاء تبين أن بعضهم قاموا شخصيا بتنفيذ عمليات اغتيال أو محاولات لتنفيذ اغتيال ضد نشطاء المقاومة.

بعض العملاء اعترف بدور مباشر فى المجهود الحربى لقوات الاحتلال. ففى مؤتمر صحافى عقده جهاز الأمن الوقائى الفلسطينى فى قطاع غزة قبل عام ونصف اعترف أحد العملاء الذين زرعهم جهاز «الشاباك» فى صفوف الجناح العسكرى لإحدى الفصائل الفلسطينية، أنه كان يقوم بإبطال مفعول العبوات الناسفة التى كانت حركات المقاومة تقوم بزرعها فى الشوارع التى تفترض أن قوات الاحتلال ستسلكها لدى اقتحام مدينة «رفح»، جنوب قطاع غزة التى كان يعيش فيها هذا العميل.

بلورة الأهداف الاستخبارية

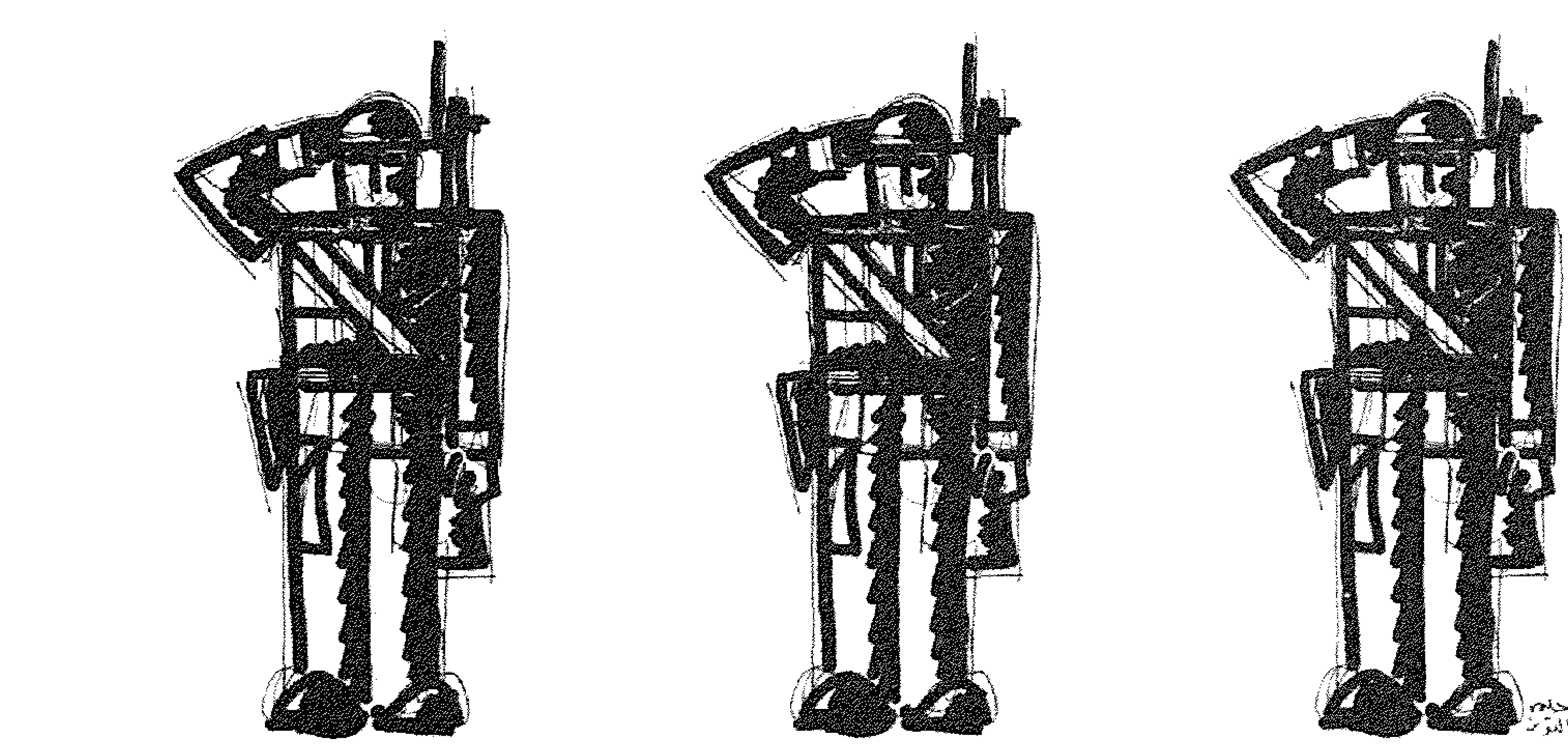
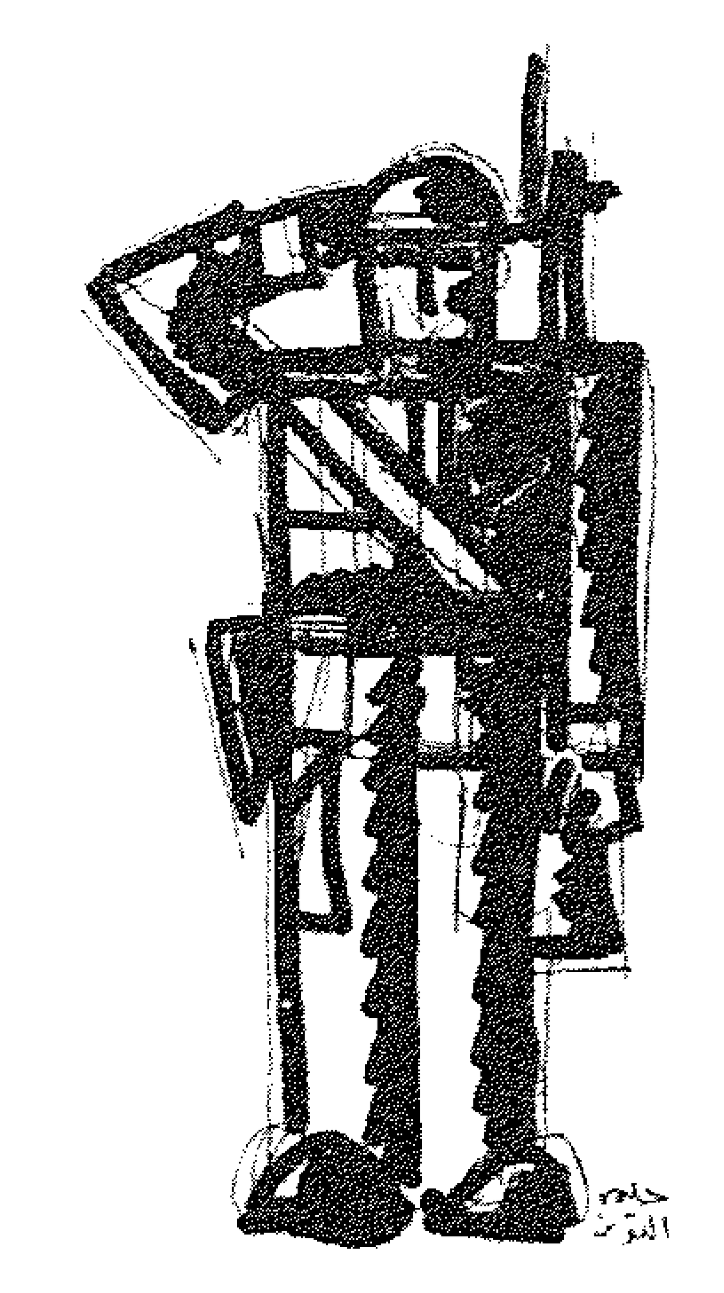
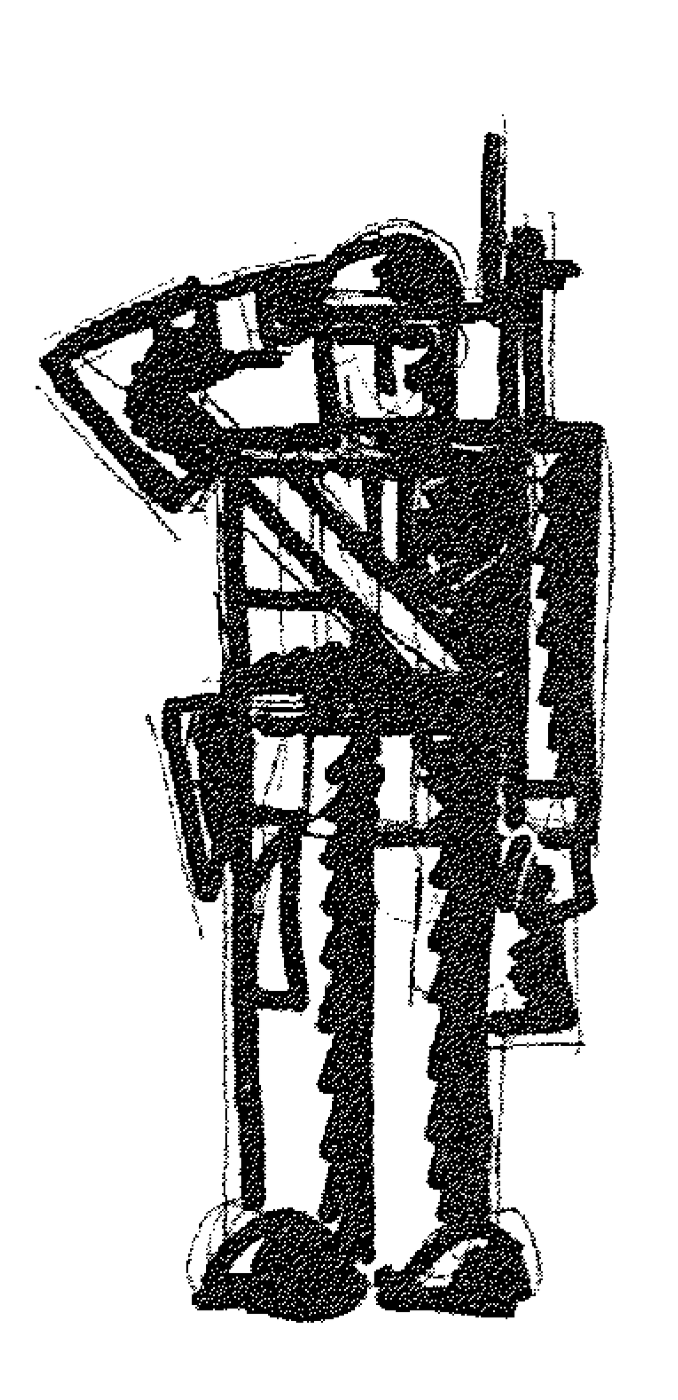
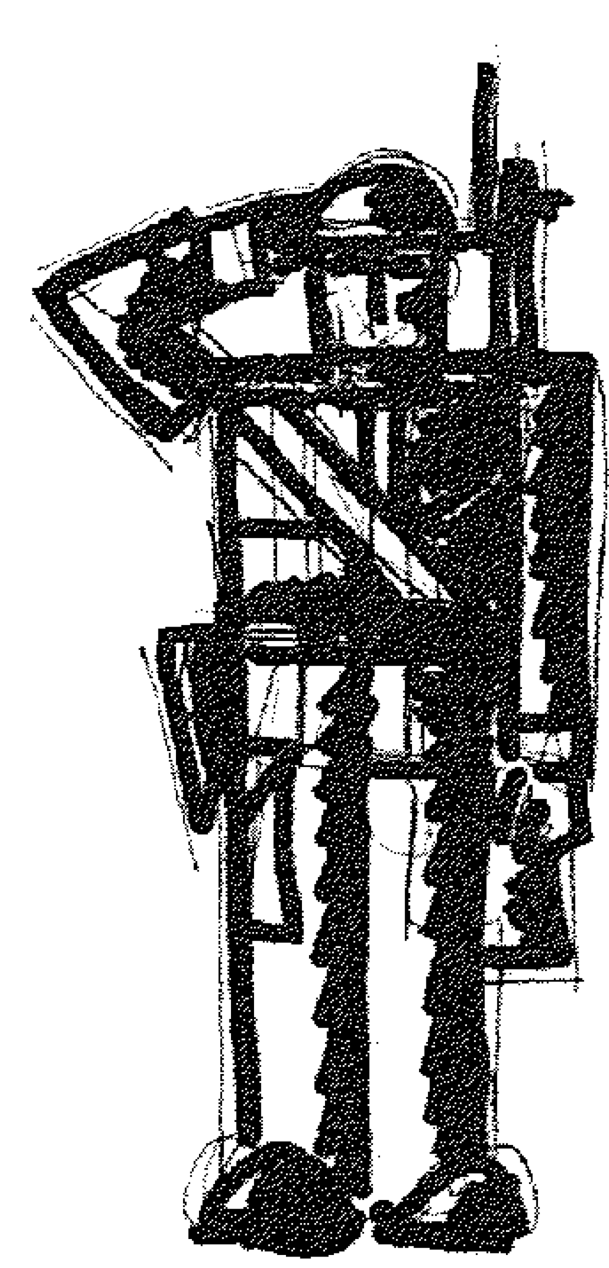
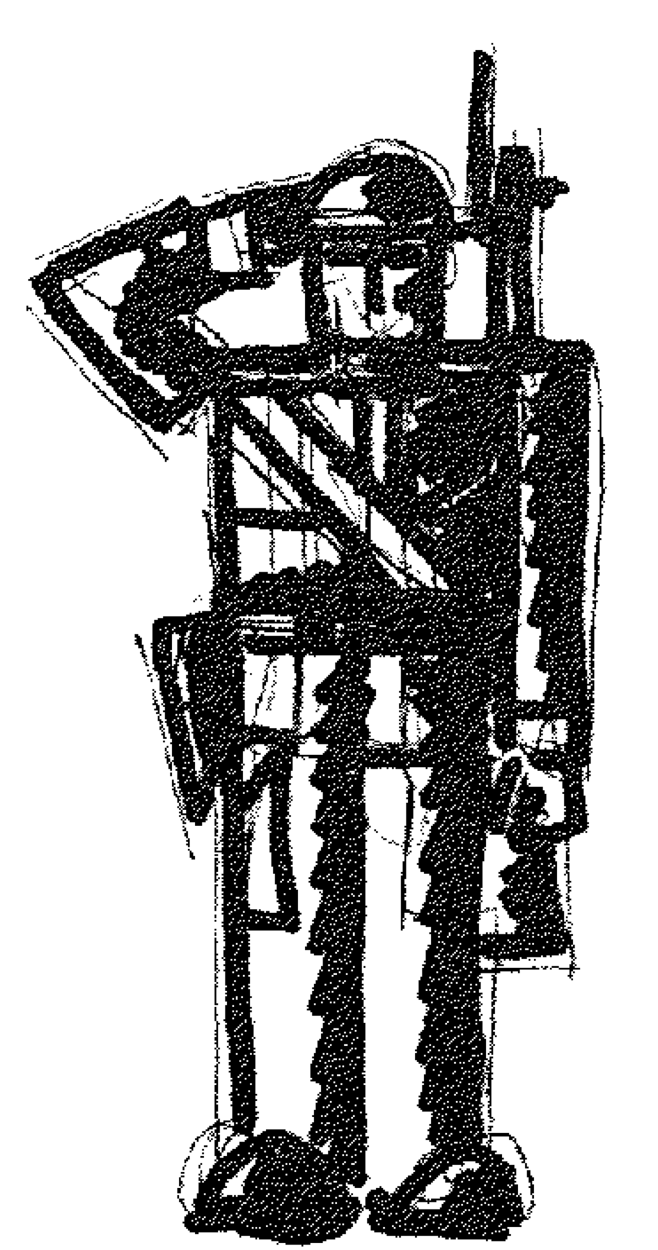
تواصلت حرب لبنان الثانية فى ظل تعبير إسرائيل عن قلقها من اثنين من مظاهر الخطر التى تهدد أمنها الإستراتيجى، وهما المشروع النووى الإيرانى، والحركات الجهادية فى العالم. فى نفس الوقت، فإن إسرائيل لا يمكنها إغفال الاهتمام بالدول العربية ذات التأثير الهام فى العالم العربى وتحديداً مصر وسوريا. كما أن الساحة الفلسطينية تشكل تحدياً كبيراً لإسرائيل فى أعقاب فوز حركة حماس، وتواصل حركات المقاومة، والحديث المتزايد عن إمكانية شن حملة برية لإعادة احتلال معظم مناطق قطاع غزة. وكل هذه التحديات تمت ترجمتها إلى أهداف استخبارية على النحو الآتى:

أولاً: قرر رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت مؤخراً بوصفه المسئول المباشر عن الأجهزة الاستخبارية تفويض جهاز الاستخبارات للمهام الخارجية «الموساد» مواجهة الخطر الذى تمثله الحركات الجهادية فى جميع أرجاء العالم على إسرائيل، إلى جانب تسليمه ملف البرنامج النووى الإيرانى. وكلف الموساد بجمع المعلومات الاستخبارية عن الحركات الجهادية والبرنامج النووى الإيرانى والتعاون فى ذلك مع وكالة الاستخبارات الأمريكية «السى آى إيه».

ثانياً: تكثيف عمليات جمع المعلومات الاستخبارية عن الدول العربية، وتحديداً عن سوريا ومصر. وإن كان من المفهوم أن تبرر إسرائيل جمع المعلومات الاستخبارية عن سوريا التى هى فى حالة حرب معها، فإنه يكون من المثير الاستماع إلى تبريرات الإسرائيليين لجمع المعلومات الاستخبارية عن مصر الذى تربطها بها معاهدة سلام.

فقد اعتبر الجنرال يوسى كابروفسير، الذى كان يشغل منصب رئيس قسم الأبحاث فى شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية المعروف بـ«أمان» أن مصر تمثل «هدفاً استخبارياً من الطراز الأول».

وفى مقابلة أجرتها معه القناة العاشرة فى التليفزيون الإسرائيلى بتاريخ ٢-٣-٢٠٠٦، بعد تركه منصبه وانتقاله للحياة المدنية، قال كابروفيسر إن التوقيع على معاهدة «كامب ديفيد»، لم يغير كثيراً من الاهتمام الإسرائيلى بمتابعة كل ما يجرى فى مصر، على اعتبار أنه لا يوجد ثمة ثقة أن تواصل مصر الالتزام بتلك المعاهدة.

لكن هناك من كبار المسئولين الإسرائيليين من هم أقل حذراً فى تصريحاتهم إزاء مصر، والحاجة لمعرفة كل معلومة حولها. فنائب رئيس الوزراء، والمكلف بالشئون الاستراتيجية فى الحكومة أفيجدور ليبرمان قال فى جلسة لنواب حزب «إسرائيل بيتنا» فى الكنيست بتاريخ ١٢-١-٢٠٠٧ «يتوجب علينا ألا نغفو أثناء الحراسة، معاهدة السلام مع مصر ليست بوليصة تأمين. يتوجب علينا أن نأخذ أقصى درجات الحذر، يجب أن نحرص على أن تبقى مصر بعيدة عن منظومات الأسلحة التى يمكن أن تشكل تهديداً استراتيجياً لنا».

أقوال كابروفسير وليبرمان هذه تصلح لفهم جهود الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، وتحديداً جهاز «الموساد» لزرع عملاء فى مصر لجمع المعلومات الاستخبارية، والتى كان آخرها إلقاء القبض على المهندس الذى يعمل فى هيئة الطاقة الذرية المصرية، بتهمة الارتباط بالأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية.

وعلى الرغم من أن إسرائيل الرسمية نفت أى علاقة لها بهذا المهندس، إلا أن إيتان هابر رئيس ديوان رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق إسحاق رابين، وكبير المعلقين فى صحيفة «يديعوت أحرونوت» أوسع الصحف الإسرائيلية انتشاراً، والذى ألف عدة كتب عن الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، علق على هذا النبأ بالقول فى مقابلة بثتها القناة الثانية فى التلفزيون الإسرائيلى ١٨-٤-٢٠٠٧ أن الأجهزة الاستخبارية تنطلق من افتراض مفاده أنه يتوجب محاولة زرع عملاء لها فى كل المؤسسات الهامة فى العالم العربى، من أجل الحصول على المعلومات التى يمكن على أساسها اتخاذ القرارات السياسية والعسكرية المناسبة.

ويتقاسم المسئولية عن جمع المعلومات الاستخبارية عن الدول العربية كل من جهازى «الموساد» و«أمان».

ثالثاً: مواصلة العمل ضد حركات المقاومة الفلسطينية، باعتبارها هدفا استخباريا بالغ الأهمية، وذلك لقربها من العمق الإسرائيلى. ويتولى عملية جمع

صالح محمد النعامي

المعلومات الاستخبارية جهاز المخابرات الداخلية المعروف بـ«الشاباك»، وهو يشارك الجيش بشكل عملى فى عمليات مطاردة المقاومين الفلسطينيين.

بين المصادر البشرية والإلكترونية

لا خلاف بين قادة الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية على أفضلية المعلومات الاستخبارية التى يمكن الحصول عليها حول العالم العربى من مصادر بشرية، أى عن طريق زرع عملاء عرب فى الدول العربية المستهدفة.

ويقول آفى ديختر وزير الأمن الداخلى الإسرائيلى والذى شغل فى الماضى منصب رئيس جهاز «الشاباك» إن المعلومات التى يحصل عليها من المصادر البشرية تكون فى الغالب موثوقا بها أكثر من المعلومات التى يمكن الحصول عليها بالوسائل الإلكترونية، مثل التنصت ومتابعة الأقمار الصناعية، التى فى كثير من الأحيان يصعب تفسيرها، على حد قوله.

ويجزم أن بعض المعلومات الحيوية لا يمكن الحصول عليها إلا عبر المصادر البشرية. من هنا فإنه بالنسبة لديختر وجميع قادة الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، فإن إسرائيل مطالبة بمضاعفة الاستثمار فى مجال تجنيد المزيد من المصادر البشرية داخل الأراضى الفلسطينية وفى الدول العربية للحصول على المعلومات الحيوية.

ويسخر دانى ياتوم، الرئيس الأسبق لجهاز «الموساد» من آليات عمل وكالة الاستخبارات الأمريكية التى تعتمد بشكل أكبر على الوسائل الإلكترونية فى الحصول على المعلومات الاستخبارية، ويعتبر أن هذا هو أحد الأسباب التى جعلت مهمة الولايات المتحدة بالغة الصعوبة فى كل من العراق وأفغانستان.

يقول يحكوف بيرى فى كتابه «الآتى لقتلك»، إن عملية تجنيد العملاء، تعتمد بشكل أساسى على القدرات «الإبداعية» التى يتمتع بها القائمون على مهمة تجنيد العملاء، وقدرتهم على تطوير أدائهم بما يتناسب مع ثقل المسئولية الملقاة على عاتقهم.

ويصف عملية تجنيد العملاء بأنها «حرب عقول» مفتوحة. لكن من خلال ما كتبه بيرى، ويهودا جيل، الذى يعتبر من أكثر ضباط الموساد الذين نجحوا فى تجنيد عملاء عرب، وابراهام حزان، من قادة «الشاباك»، وغيرهم من أولئك الذين شغلوا مناصب مرموقة فى الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، فإن عملية تجنيد العملاء، تقوم على الظروف الآتية:

١- المنتصر يخترق المهزوم: فى حال نشوب صراع بين كيانين، فإن أى كيان بإمكانه أن ويؤكد حزان أن هذه مسلمة تاريخية، وتاريخ الصراعات دلل على ذلك.

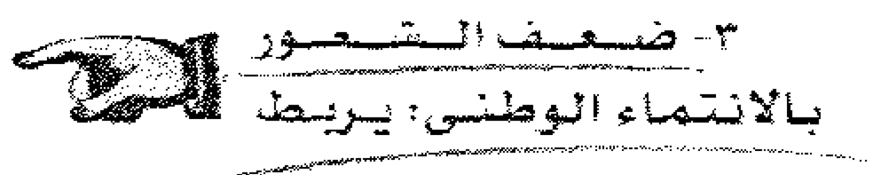
ويرى رافى إيتان، الذى رأس فى السابق قسم تجنيد العملاء فى الموساد، أنه فى حال حقق أحد طرفى صراع انتصاراً على الطرف الآخر، فأن مواطنى الطرف المهزوم، يبدون استعدادا للتعاون مع الطرف المنتصر.

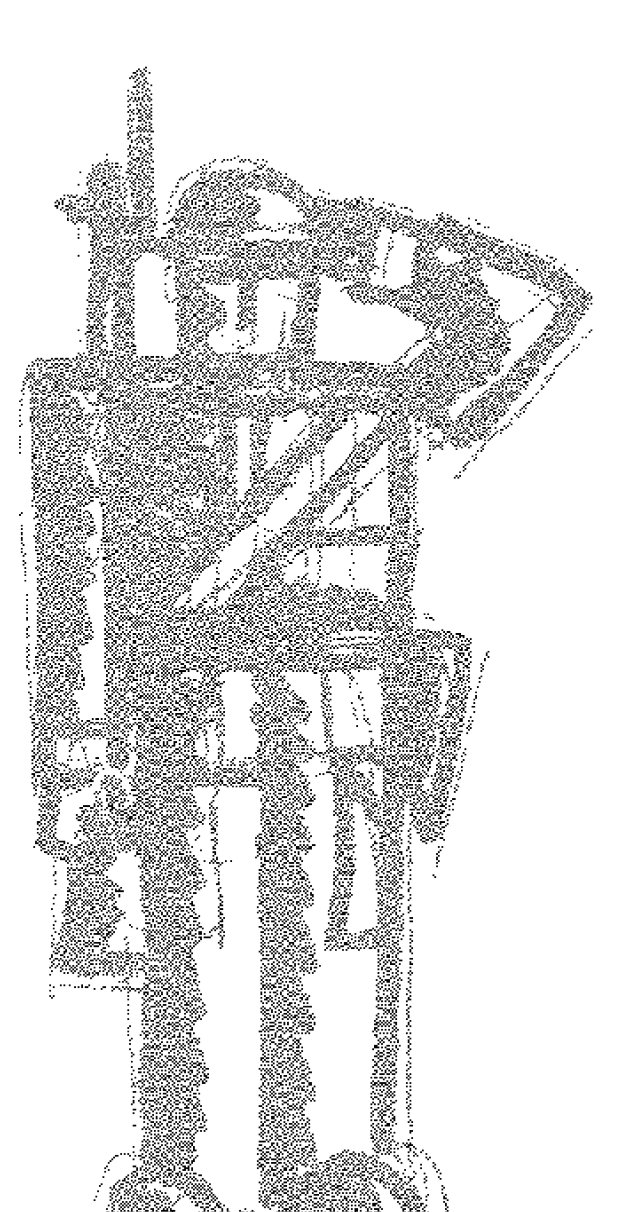
وإذا أسفر الصراع عن نجاح طرف فى احتلال أرض الطرف الآخر، فإن هذا يمثل «الظروف المثالية لتجنيد العملاء»، كما يقول بيرى. ويقول الكاتب والمحقق الإسرائيلى يغآل سيرنا إن وزير الحرب الإسرائيلى موشيه ديان، بعد انتهاء حرب الأيام الستة قد شدد على أن استعداد الفلسطينيين للتعاون مع المخابرات الإسرائيلية، هو الشرط الذى يمكنهم من العيش بـ«راحة» بعد الاحتلال.

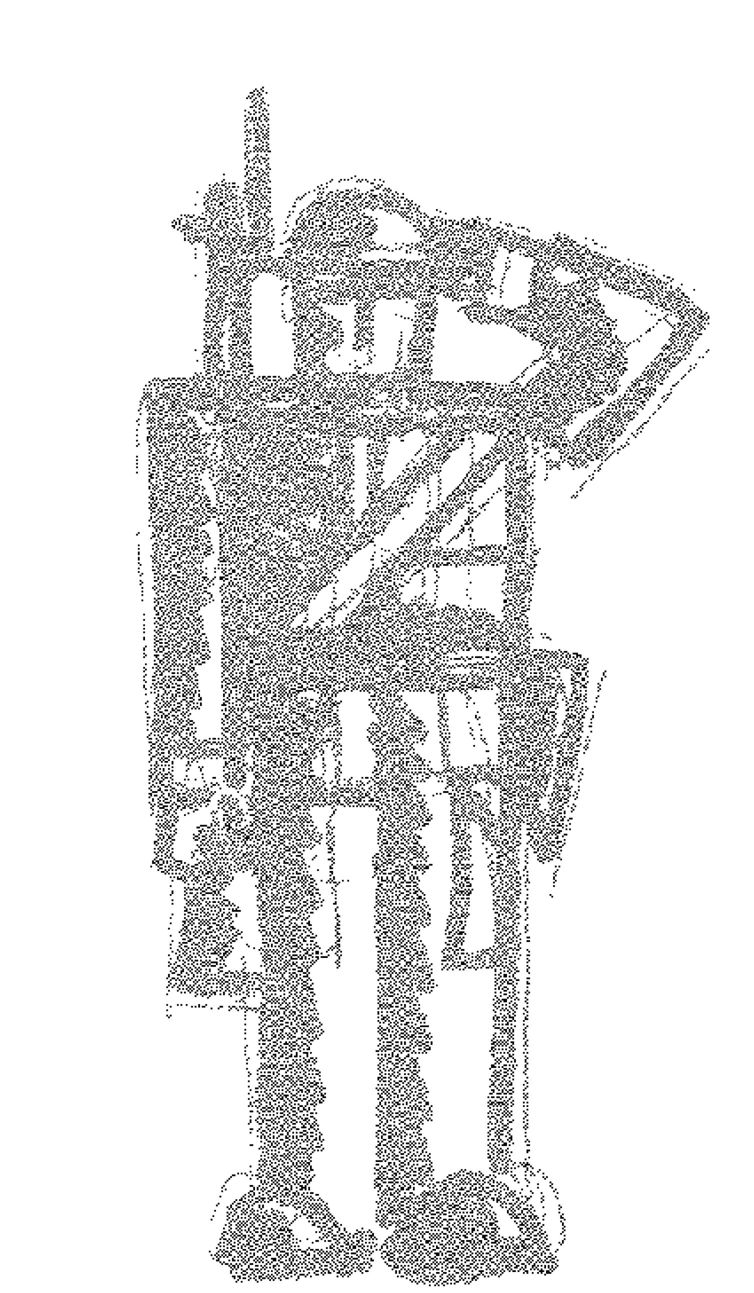
وينقل سيرنا عن ديان قوله «الآن يوجد للفلسطينيين ما يخسرونه، فكل فلسطينى يريد الحصول على تصريح لإقامة مشروع اقتصادى، أو تصريح للعمل أو العلاج فى إسرائيل، أو يرغب فى السفر للخارج، عليه أن يكون مستعداً للتعاون معنا».

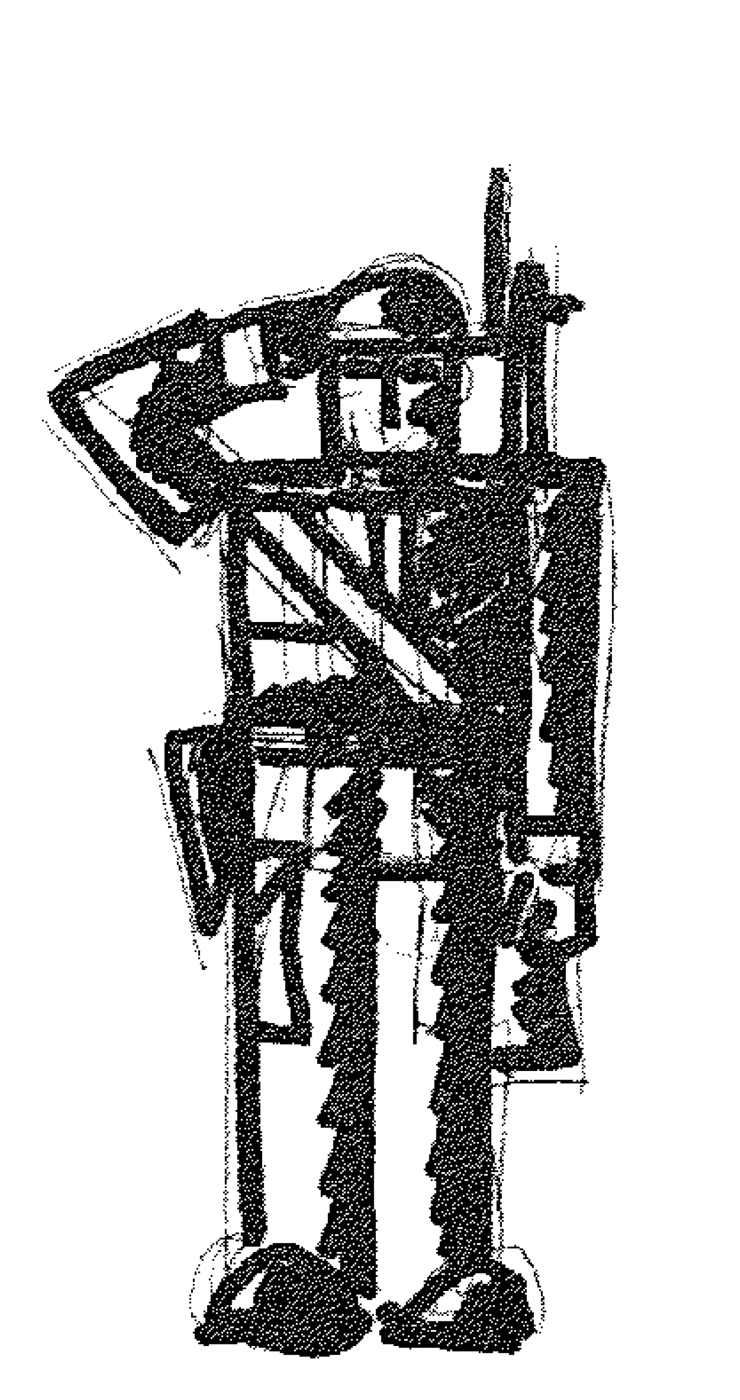
٢- الحاجات المادية والاقتصادية والعاطفية: وكما يقول جيل، فإن هذه الحاجات تشكل نقاط ضعف تستطيع الأجهزة الاستخبارية استغلالها لتجنيد العملاء.

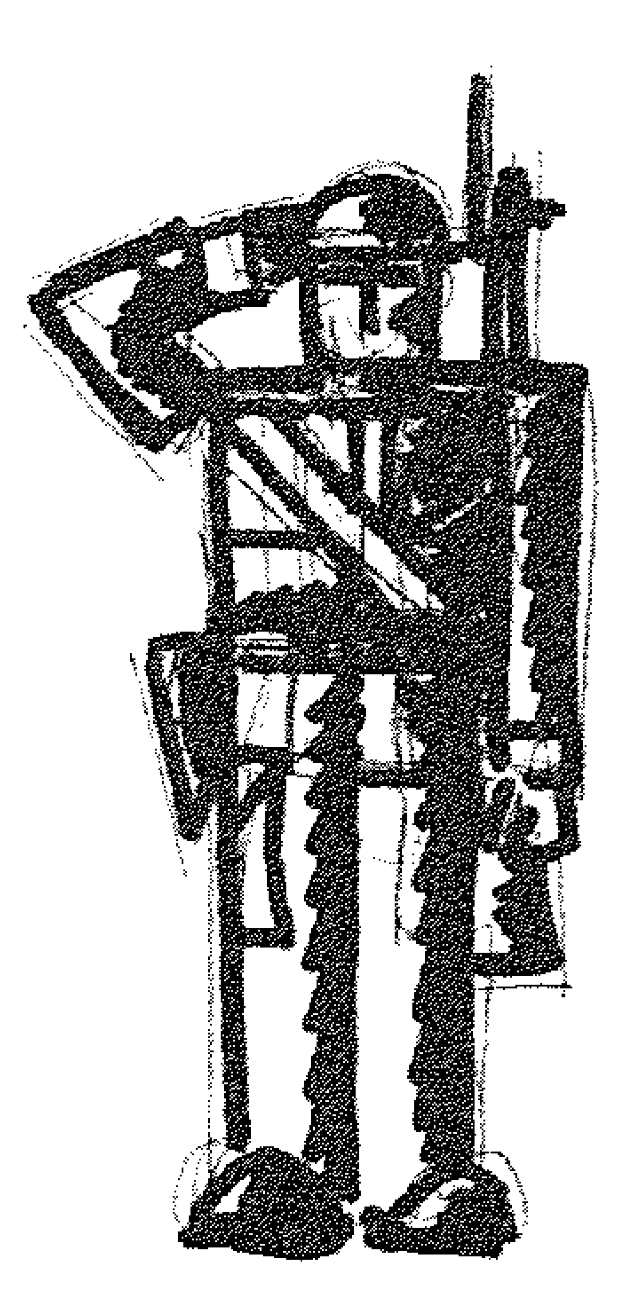
٣- ضعف الشعور بالانتماء الوطنى: يربط













الجنرال جادى ايزنكوف، أن غياب معلومات استخبارية نوعية، يعنى أنه لا قيمة تذكر للتفوق العسكرى الإسرائيلى



شفطاى شفيت، رئيس جهاز الموساد السابق بين استعداد قطاعات فى العالم العربى للتعاون مع إسرائيل وبين وجود الأنظمة الشمولية القمعية فى العالم العربى. ويضيف فى مقابلة مع التليفزيون الإسرائيلى بتاريخ ٢٢-٥-٢٠٠٤ أن حكم الأنظمة الشمولية فى العالم العربى هو عامل مهم فى تقليص الشعور بالانتماء الوطنى بسبب قمعها، الأمر الذى يجعل بعض مواطنى الدول العربية مستعدين للتعاون مع إسرائيل احتجاجاً على حكوماتهم وأنظمتهم.

٤- ضعف المستوى التعليمى وانعدام الثقة بالذات: على الرغم من نجاح الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية فى تجنيد أشخاص من مختلف المستويات، إلا أنه لا خلاف بين قادتها على أنه كلما ارتفع المستوى التعليمى للفرد كلما كانت عملية تجنيده أكثر صعوبة. ولا خلاف أيضاً على أن الثقة بالذات تمثل عنصراً مهماً فى قبول أو رفض التعاون مع دولة الاحتلال.

وتنقل الإذاعة العبرية بتاريخ ١٤-٤-٢٠٠٣ عن أحد ضباط جهاز «الشاباك» قوله إنه فى أحد الأيام استدعى أحد الشباب الفلسطينى فى أحد مخيمات اللاجئين فى الضفة الغربية. وبعد أن تحدث معه حول أموره الشخصية، عرض عليه التعاون مع المخابرات الإسرائيلية. فرفض الشاب. فما كان من هذا الضابط إلا أن أخرج عدة صور لهذا الشاب وهو يمارس الجنس مع إحدى النساء. وتوجه للشاب قائلاً «حسناً، ماذا تقول الآن. بإمكانى أن أوصل هذه الصور لعائلة الفتاة وعندها سيقتلونك».

ويضيف الضابط «لهول مفاجآتى، فإذا بهذا الشاب يبتسم ابتسامة خبيثة ويقول لى: حسناً، لا عليك، أنا سأريحك، فإذا سحبت لى مزيداً من هذه الصور، سأقوم بتعليقها فى شوارع المعسكر».

ويقول الضابط «لقد جن جنونى بعد أن تبين لى أن مناورتى التى نجحت مع العشرات من الشباب الفلسطينى فشلت مع هذا الخنزير، لأنه علم أننى لست معنياً فى الحقيقة بنشر الصور، فطردته من المكتب، وأنا أكن له كل احترام وتقدير». ولا يفوته أن يشير إلى أن هذا الشاب أصبح متديناً وتحول للعمل المقاوم عندما اندلعت الانتفاضة الأولى، حيث قضى نحبه فى إحدى العمليات.

٥- ضعف أو قوة الوازع الدينى: لا خلاف لدى ديختر، على أن الوازع الدينى لدى العرب والفلسطينيين يمثل درعاً واقياً يقلص استعدادهم للتعامل مع المخابرات الإسرائيلية.

ويورد ديختر حادثة ذات دلالة. ويقول أنه عندما كان مسئولا عن تجنيد العملاء فى منطقة شمال قطاع غزة، استدعى شاباً فلسطينياً لمحاولة تجنيده، وبعد أخذ ورد، كما يقول ظهر لدى هذا الشاب استعداد للتجاوب. وفجأة، فإذا بالمساجد فى المنطقة تصدع بأذان الظهر. فما كان من هذا الشاب، إلا أن ارتعد وزمجر وصرخ فى وجهى «لن أخون الله ووطنى أيها الحقير».

الموساد وآلية «شفط العملاء»

جهاز «الموساد»، الذى يعنى بشكل مباشر بالتجسس على الدول العربية، لا يملك القدرة على الاحتكاك بمواطنى الدول العربية بسهولة، كما هو متاح لجهاز «الشاباك»، المسئول عن تجنيد العملاء من بين الفلسطينيين.. ولعدم قدرة «الموساد» على العمل بشكل مباشر فى العالم العربى، فإن المسئولين عن تجنيد العملاء فى هذا الجهاز يسعون إلى استدراج المرشحين للإسقاط إلى خارج العالم العربى لكى تتاح ممارسة أساليب التأثير التى يحاول الموساد من خلالها تجنيد هؤلاء لصالحه، وهو ما يطلق عليه شفتاى شفيط، آلية «شفط العملاء». وتتم هذه الآلية بأشكال مختلفة، حسب الظروف:

١- هناك مواطنون عرب يتوجهون من تلقاء أنفسهم، وبسبب ضائقة مالية أو مشاكل اجتماعية، أو بدافع الانتقام من أوطانهم، إلى السفارات الإسرائيلية لعرض خدماتهم فى مجال التجسس على طاقم السفارة.

وتدلل اعترافات بعض العملاء الذين ألقى القبض عليهم فى الدول العربية، وتحديداً فى مصر أن هؤلاء بادروا إلى عرض خدماتهم على الموساد. وتكمن أهمية هذا النوع من العملاء، أن بعضهم يبادر إلى ذلك وهو يعلم أن لديه ما يمكن أن يقدمه. وبالطبع هذه الطريقة الأيسر فى تجنيد العملاء.

٢- محاولة تجنيد المواطنين العرب الذين يتوجهون للخارج سواء للدراسة أو العمل، واستغلال مشاكلهم لعرض حلول لها، وينتهى الأمر بالسقوط فى براثن الموساد، كما حدث مع عدنان ياسين الموظف فى مكتب حكم بعلاوى عضو اللجنة المركزية لحركة «فتح» عندما كانت قيادة منظمة التحرير فى تونس، وكان بعلاوى مسئولاً عن الأمن فى مقر المنظمة.

فعندما توجه ياسين للعلاج فى مطلع الثمانينيات من القرن الماضى للعلاج فى فرنسا، وكان يواجه مشاكل مالية جمة، عرض عليه عناصر الموساد تقديم الدعم المالى له مقابل موافقته على التعامل معهم، فوافق على ذلك.

فما كان منه إلا أن قدم أخطر المعلومات الاستخبارية عن قيادة منظمة التحرير، وهى المعلومات التى سمحت لحكومة رابين قبيل الخوض فى مسار «أوسلو» بالتأكد من أن هذه القيادة أصبحت جاهزة لأى حل يعرض عليها.

يعترف الجنرال يوسى كابروفسير، الذى كان يشغل منصب رئيس قسم الأبحاث فى شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية المعروف بـ«أمان» أن مصر تمثل «هدفاً استخبارياً من الطراز الأول»

فبناء على تعليمات الموساد قام ياسين بإهداء أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى ذلك الوقت محمود عباس، الرئيس الفلسطينى الحالى، مصباحاً مكتبياً غالى الثمن لوضعه على مكتبه الخاص فى مقر المنظمة فى تونس، وكان «الموساد» قد زرع فى هذا المصباح جهاز تنصت، استطاعت إسرائيل من خلاله أن تطلع أولاً بأول على ما يجرى من مداولات فى مكتب أبو مازن، قبل وأثناء المفاوضات السرية على اتفاقية «أوسلو».

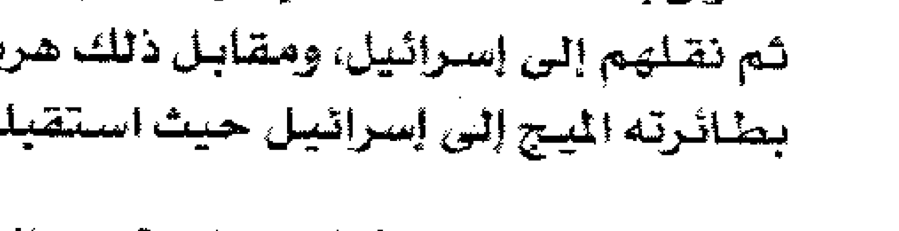
وقال عوزى عراد الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب مدير قسم الأبحاث فى جهاز «الموساد» إن المعلومات التى نقلها ياسين كان لها بالغ الأثر فى بلورة قناعة لدى دائرة صنع القرار فى إسرائيل أن قيادة منظمة التحرير فى أقصى درجات تهافتها على البحث عن تسوية تضمن لها بقاء دورها فى قيادة منظمة التحرير، بعد أن اتضح لها أنها توشك على فقدان زمام المبادرة.

٣- تحديد هوية أشخاص فى العالم العربى ومحاولة إسقاطهم بشكل مباشر بسبب مواقعهم الحساسة، مثل عملهم فى المؤسسات الأمنية أو السياسية، أو المنشآت الاستراتيجية. حيث يقوم «الموساد» بإرسال من يقوم بالاحتكاك المباشر مع هؤلاء فى الدول العربية ذاتها، لاستدراجهم.

وفى الأغلب يكون العنصر النسائى هو العنصر الأساسى فى عمليات الاستدراج. وتعتبر قصة الطيار فى الجيش العراقى منير دفة مطلع السبعينيات من القرن الماضى مثالاً حياً على هذه الوسيلة.

فقد كان «الموساد» معنيا بالحصول على معلومات عن سلاح الجو العراقى، وتحديداً طائرة «الميج تسعة وعشرين»، التى كانت أحدث ما أنتجته الصناعات الحربية السوفيتية. وكانت إسرائيل معنية بتزويد هذه الطائرة للولايات المتحدة من اجل التعرف على التقنيات التى قامت عليها، من أجل تعزيز مكانة تل أبيب لدى الإدارة الأمريكية.

فقام الموساد بإرسال إحدى عميلاته الحسناوات التى انتحلت صفة سائحة غنية، وحرصت على الاحتكاك بدفة فى إحدى الحفلات ذات المستوى العالى، وقد شغف دفة بها وعرض عليها الاتصال الجنسى على الرغم من أنه متزوج، فوافقت على العرض مقابل أن يتم فى الخارج، فسافر معها إلى باريس وهناك تم تصويره وهو يمارس الرذيلة، ومن ثم موافقته على التعاون مع الموساد، ومن فرنسا توجه دفة إلى تل أبيب، حيث تم الاتفاق معه على أن يتم وضع دفعة من المال فى حسابه فى أحد البنوك السويسرية، وأن يتم ترحيل عائلته من العراق بمساعدة العملاء الإسرائيليين، ومن ثم نقلهم إلى إسرائيل، ومقابل ذلك هرب بطائرته الميج إلى إسرائيل حيث استقبله



أصبح «الموساد» يوظف بشكل كبير الإمكانيات التى توفرها شبكة الإنترنت عن طريق استدراج الشباب العرب.



رئيس الموساد آنذاك مائير عميت، حيث تم منحه وأفراد عائلته هويات إسرائيلية.

وقد وردت تفاصيل هذه القصة فى كتاب «أمراء الموساد»، لمؤلفيه الإسرائيليين يوسى ميلمان ورفيف دان. وعلى الرغم من قلة الشواهد على هذه الآلية، فإنها قد تكون أكثر الوسائل جدوى، إذ أنها تتيح للموساد محاولة استدراج أهداف محددة، يرى أنها قد تكون مصادر استخبارية ثمينة.

٤- نشر إعلانات فى الصحف أو على مواقع على شبكة الإنترنت تحت اسم شركات وهمية تعرض فرص عمل لباحثين أو خبراء فى مجالات محددة، وعادة يكون مقر هذه الشركات الوهمى فى عواصم الدول التى يتاح للموساد فيها العمل بحرية، مثل دول جنوب شرق آسيا، وقبرص. ويتم تصميم الإعلان بحيث يهدف إلى استدراج فئات محددة يرى «الموساد» أنها يمكن أن تصل إلى مواقع حساسة فى الدولة المستهدفة بعمله الاستخباري. وتعتبر قصة إسقاط الخبير فى هيئة الطاقة الذرية المصرية مثالاً على استخدام هذا النوع من الأساليب.

٥- استغلال شبكة الإنترنت: أصبح «الموساد» يوظف بشكل كبير الإمكانيات التى توفرها شبكة الإنترنت عن طريق استدراج الشباب العرب، فيكشف الباحث وخبير الأمن الفلسطينى الدكتور خضر عباس فى كتابه «العملاء فى ظل الاحتلال الإسرائيلى»، أن «الموساد» دشن العديد من صفحات التعارف على شبكة الإنترنت، حيث يتم عرض صور لفتيات يعرضن التعارف على الشباب العرب. وعندما يتصفح شاب عربى هذه الصفحات تظهر صورة فتاة حسناء تعرض على الشاب العربى اللقاء فى أى مكان فى العالم، وتعرض هذه الفتاة على هذا الشاب دفع تكاليف الرحلة شرط أن تكون «فحولة» هذا الشاب مكتملة. فيهب بعض هؤلاء لاصطياد أولئك الفتيات، ليجد نفسه مرتبطاً بجهاز الموساد.

ويحرص عملاء الموساد على الحصول على أكبر عدد من عناوين البريد الإلكترونى للشباب العربى، ويقومون بالتسجيل لديهم على برامج «الماسنجر» بغية الدردشة بهدف الاستدراج، وينتحل رجال الموساد فى أغلب الأحيان شخصية فتاة، للإيقاع بالفريسة.

إلى جانب مشاركة رجال الموساد فى غرف الدردشة والمنتديات الشبابية بهدف الاستدراج. وأهمية شبكة الإنترنت، تكمن فى أنها تساهم فى وضع رجال الموساد فى احتكاك مع شباب عرب من مختلف أرجاء العالم العربى. وما ينطبق على الدول العربية، ينطبق على الدول التى تعتبر أهدافاً استخبارية من الطراز الأول للموساد، وتحديداً إيران.

«الشاباك» وآليات التجنيد التقليدية

منذ أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة فى العام ١٩٦٧، أصبحت تتحكم فى كل مناحى الحياة للفلسطينيين، فحصول الفلسطينى على تصريح للعمل، أو العلاج، أو إذن بالسفر للخارج من أجل الزيارة أو مواصلة التعليم كان مرهوناً فقط بموافقة سلطات الاحتلال. فى نفس الوقت كانت هذه السلطات منذ العام سبعة وستين وحتى تشكيل السلطة الفلسطينية فى العام أربعة وتسعين، هى الجهة المسئولة عن استيعاب عشرات الآلاف من الفلسطينيين فى سلك التعليم والصحة وقطاع الخدمات. إسرائيل لم تتوان للحظة فى استغلال ما تتمتع به من نفوذ من أجل مساومة الكثير من الفلسطينيين وابتزازهم من أجل دفعهم إلى التعاون مع مخابراتها، ممثلة بجهاز «الشاباك». صحيح أن المخابرات الإسرائيلية فشلت فى ابتزاز معظم الذين حاولت مساومتهم على أن يصبحوا عملاء لها، إلا أن احتكارها للقوة والنفوذ دفع الكثير من ضعاف النفوس للسقوط فى براثن العمالة، وأصبحوا أدوات رخيصة وطيعة فى أيدى عدوهم. انحطاط المعايير الأخلاقية للمحتل جعله يستخدم وسائل قذرة فى تجنيد العملاء من بين الفلسطينيين، وكما بات معروفاً الآن، فقد عمد «الشاباك»، إلى استدراج الشباب الفلسطينى إلى ممارسات غير أخلاقية، حيث يتم تصويرهم فى أوضاع مشينة، وبعد ذلك يقوم عناصر «الشاباك» بتخييرهم بين العمالة، أو فضح أمرهم. وقد دلت التحقيقات التى أجرتها الأجهزة الأمنية الفلسطينية، فضلاً عن التحقيقات التى أجرتها فصائل المقاومة الفلسطينية مع مئات العملاء عن أن هذه الطريقة هى الأكثر شيوعاً فى تجنيد العملاء. ويجمع كل الذين تعاملوا مع ملف العملاء على أن الحصول على سقطات أخلاقية، وبالذات جنسية على الشباب الفلسطينى توظف من قبل ضباط المخابرات الإسرائيلية فى دفع الشباب الفلسطينى. فعلى سبيل المثال نقدم قصة «ن. ج» هو أحد عناصر الأمن الوطنى الفلسطينى، من عائلة تسكن فى المنطقة الوسطى من قطاع غزة، ومعتقل فى سجون السلطة فى غزة بعد اعترافه بالتعامل مع المخابرات الإسرائيلية. التقى به كاتب هذه السطور فى السجن ليتحدث عن طريقة إسقاطه. يقول «ن. ج» إنه فى العام ٢٠٠٠ انضم للأمن الوطنى الفلسطينى، فقررت قيادة الأمن الوطنى إرساله إلى العمل فى منطقة «بيت لحم» فى الضفة الغربية. فكان عليه، كما هو الحال مع جميع عناصر الأمن الوطنى الذين سينتقلون للعمل فى الضفة أن يحصلوا على تصريح للسفر للضفة. ويضيف «ن. ج» أنه توجه إلى مكتب الارتباط العسكرى الإسرائيلى فى حاجز «ايرز» الذى يصل شمال القطاع بإسرائيل، ليحصل على التصريح. هناك قام الجنود بإدخاله إلى مكتب كبير، حيث كان شاب يلبس الزى المدنى ينتظره، وبعد أن قام بتعريفه على نفسه بأنه «الكابتن جمى» من جهاز المخابرات الإسرائيلية، عرض عليه أن يتعاون معه من أجل «الحفاظ على السلام من الحركات المتطرفة فى الجانبين». لم يتلق «الكابتن جمى» من «ن. ج» إجابة بسرعة، ولم يحاول استثمار جهده فى إقناعه، فخرج من المكتب، وبعد خمس دقائق دخلت مجندة حيث قامت ببعض المداعبات الجنسية لـ «ن. ج»، وبعد ذلك خرجت. وعلى أثرها دخل «الكابتن جمى». وهو يقهقه، وكان يحمل بعض الصور التى كانت تظهر «ن. ج». وهو يتلقى المداعبات الجنسية من المجندة. كان «جمى» صارماً فى حديثه لـ «ن. ج»: إما أن توافق على التعاون معنا، وإما نقوم بنشر هذه الصور فى..(أحد معسكرات اللاجئين يقطن فيه ن. ج). يقول «ن. ج» إنه وافق بدون تردد على عرض «جمى». وهكذا شرع هذا الشاب البائس الذى لم يحصل حتى على الشهادة الابتدائية فى طريق قاده إلى إحدى الزنازين المظلمة فى سجن «السرايا». واعترف أنه جمع المعلومات الاستخبارية وفق تعليمات «جمى» وبعد ذلك «الكابتن متير»، وتدرج فى تنفيذ المهام الاستخبارية لدرجة أنهم قاموا بإرساله لتصفية أحد المقاومين الفلسطينيين فى إحدى بلدات جنوب الضفة الغربية، ولم ينجح لحدوث طارئ حال دون وجود الهدف فى المكان الذى كان من المقرر أن تتم فيه عملية الاغتيال. وتحدث كاتب هذه السطور مع عدد من الذين اعترفوا بالتعاون مع «الشاباك»، وكلهم أكدوا أنه تم جرهم للعمالة بطريقة الابتزاز الجنسى.

مهام متعددة

إلى جانب رصد المقاومين والوشاية بهم، ومحاولة اختراق حركات المقاومة الفلسطينية، بغرض إحباط عملياتها، فإن العملاء يواصلون رصد المقاومين حتى بعد أن يتم إيداعهم السجن. فمنذ أوائل السبعينيات عرفت الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة فى سجون الاحتلال ظاهرة «العصافير»، وهم عملاء تقوم المخابرات الإسرائيلية باعتقالهم لكى يقوموا باستدراج المقاومين الذين يتم اعتقالهم للإدلاء باعترافات وذلك فى فترة التحقيق مع هؤلاء الأسرى. وحسب ما أفاد به عدد كبير من الأسرى تحدثت إليهم «الشرق الأوسط»، فإن «العصافير» هم الذى يقومون بالدور الحاسم فى استدراج الأسرى للاعتراف بما تنسبه إليهم المخابرات الإسرائيلية.

لكن إلى جانب كل ذلك فإن العملاء لعبوا دورا هاما فى دفع المشاريع الاستيطانية فى الضفة الغربية والتهويدية فى القدس المحتلة. جهاز المخابرات العامة الفلسطينية شن فى الفترة بين العامين ستة وتسعين وألفين حملة شاملة على العشرات من سماسرة الأراضى من الفلسطينيين الذين كانوا يقومون بتزييف وثائق أراض تعود لفلسطينيين غائبين أو متوفين، وبعد ذلك يقومون ببيعها لجمعيات يهودية وتهويدية. وقد كان القاسم المشترك لهؤلاء السماسرة هو أنهم جميعاً عملاء مرتبطون بجهاز «الشاباك». ولعل أحدث قضية تكشف عن دور العملاء فى دفع المشاريع الاستيطانية، ما كشف عنه العميل محمد مرقة من بلدة «سلوان» الذى أجرت معه صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية مقابلة مطولة كشف النقاب فيها عن دوره فى تزويد جمعية «عطيرات كوهنيم» اليهودية التى تنشط فى مجال تهويد مدينة القدس ومحيطها، بمستندات ووثائق خاصة بمنازل وعقارات فلسطينية فى بلدة «سلوان»، والقدس الشرقية. لكن هناك أهدافا أخرى سعت إسرائيل لتحقيقها من خلال تجنيد العملاء:

١- زعزعة ثقة الفلسطينيين بقضيتهم: كما يقول جدعون عيزرا، النائب السابق لرئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية الداخلية «الشاباك»، فإن مجرد اكتشاف الفلسطينيين لقدرة «الشاباك» على تجنيد عملاء فى صفوفهم كفيل بزعزعة ثقتهم بالقضية والمقاومة الفلسطينية. فى حين يقول حاييم بن عامى، الرئيس السابق لقسم التحقيقات فى «الشاباك»، «نجاحنا فى اختراق التنظيمات الفلسطينية عبر تجنيد عملاء لنا من بين عناصرها، له بالغ الأثر فى سيادة أجواء عدم الثقة فى أوساط عناصر المقاومة، بشكل يجعلها أقل كفاءة.

٢- محاولة التأثير على أجندة المجتمع الفلسطينى، بما يتوافق مع المصلحة الإسرائيلية. حيث كان للعملاء دوماً أثر فى إثارة الفتن الداخلية بين الفلسطينيين. فضلاً عن تداول الشائعات التى هى جزء من الحرب النفسية التى تخوضها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى.

٢- تجنيد أكبر عدد من العملاء جاء لتحييد أوسع قطاعات من الشباب الفلسطينى، وإبعادهم عن صفوف المقاومة. ■



.. فى نهاية النفق!

جوناثان رابان

هل يفهمنا هؤلاء الغربيون حقًا. هذه الرواية Terrorist لكاتبها الأمريكى الشهير تأخذنا إلى موضوع قتله البحاثة الغربيون بحثًا: «لماذا يتحول بعض الشباب المسلم إلى إرهابيين؟» حسب لغتهم وتوصيفاتهم. هل هى كراهية المجتمع الليبرالى وثقافته المنفتحة، أم هو مجرد التزام بالتعاليم الدينية التى تحض على ذلك، أم أن الأمر كله لا يخرج عن عملية غسيل مخ تقوم بها جماعات منظمة للمراهقين من الشباب.
السؤال الذى بات بندًا ثابتًا على أجندة المراكز البحثية الغربية، تعالجه الرواية معالجة يبدو أن فيها من السذاجة ما قد تفرضه طبيعتها الدرامية. وإن كان يحسب لها على أية حال اقترابها «المجرد» من قضية الهاجس الإيمانى فى المجتمع المادى لما بعد الحداثة. وربما يحسب لها أنها «فى نهاية النفق» تقودنا إلى الحقيقة المطلقة: «الإيمان لا يقتل».

إن كل ما نعرفه عن حياة الإرهابيين الإسلاميين الجدد يؤكد أن منابع الجهاد ضد الغرب لا تقع فى الشرق الأوسط وإنما فى ضواحى المهاجرين الحقيرة فى مدن الغرب الكبرى، مثل ضاحية «هاربورج Harburg» على الضفة الأخرى من النهر القادم من هامبورج، حيث جرى هناك فى مسجد متواضع تكليف «محمد عطا» ورفاقه بمهمتهم السماوية كشهداء، أو ضاحية «بيستون Beeston» فى ليدز بإنجلترا، حيث جمع «صديق خان» عصابته من مفجرى لندن، أو ضاحية «لافابيس Lavapies» فى مدريد، حيث كان يقطن «جمال زوقام» المتهم بتفجيرات قطارات مدريد. وعندما وصل خاطفو طائرات الحادى عشر من سبتمبر إلى الولايات المتحدة، تمركزوا فى «باترسون Paterson» فى نيوجيرسى. وقد وجد المتآمرون فى تلك الضاحية المنزوية متعددة الجنسيات منخفضة الإيجارات ذات العمارة المتداعية والاقتصاد البائس، وجدوا ضالتهم لإخفاء هويتهم عن ملاحقيهم والوقوف شاهدا على انحطاط الرأسمالية الغربية التى كانوا يتوقون لتدميرها.

فى روايته «إرهابى» أبدع «جون أبدايك» فى تصوير مشهد لمدينة بائسة يقطن فيها مجاهدوه التخيليون. فمدينة «نيو بروسبكت New Prospect» فى روايته وهى ضاحية تخيلية ليس لها وجود فى الواقع، ومن المفارقة أن اسمها يعنى «الأمل الجديد»، والتى تقع بنيوجيرسى، لها تقريبا نفس الإحداثيات الجغرافية لـ «باترسون»، وكانت فى أوج عظمتها فى القرن التاسع عشر كمدينة صناعية. ومنذ ذلك الوقت، تدهور بها الحال إلى درجة شديدة من الانحلال والتداعى، فأصبحت أحياؤها السكنية خليطا قبيحا من العشوائيات والبنايات المجددة بلا ذوق، أما المنطقة التجارية فلم تكن بأفضل حال. وفى شوارعها القذرة، يتدافع المهاجرون الجدد من الكاريبى والهند وكوريا والشرق الأوسط مع البائسين المتحدرين من عمال المصانع الأصليين والأمريكيين الأفارقة الآتين من المناطق السكنية المتعددة بالمدينة. وتوفر «نيو بروسبكت» التى لم يغادرها «الكساد العظيم» على الإطلاق، لـ «أبدايك» معملا مثاليا يزرع فيه جرثومة الجهاد الإسلامى.

يعد «أحمد مولوى» فى الرواية نتاجا نموذجيا لبوتقة «نيو بروسبكت». ولد أحمد لأب مصرى تخلى عن الأسرة عندما كان أحمد فى الثالثة من عمره، فقامت على تربيته والدته الأمريكية من أصل أيرلندى والمرتدة عن الكاثوليكية، التى تعمل ممرضة وتدخن السجائر، والتى قامت برسم الصور التجريدية المبهرجة التى تزين الجدران الواهية لشقتهم الحقيرة المستأجرة. اكتشف أحمد فى سن الحادية عشرة المسجد الذى كان فى السابق صالة للرقص والواقع بالطابق الثانى فى البناية رقم ٢/٢٧٨١ فى الشارع الرئيسى الغربى التى يقع مدخلها الحقير بين صالون تجميل للأظافر ومكتب صرافة. وعلى يد إمام يمنى ماكر متهكم يدعى الشيخ راشد، كرس أحمد نفسه للصراط المستقيم للإسلام كمنزلة عالية يحاول أن ينظر منها بنظرة المؤمن الصادق إلى الفوضى والتجاوزات فى أمريكا الملحدة متعددة الثقافات. ونظرا لعزلته المؤلمة عن زملاء الدراسة، يتجه أحمد - بحثا عن الصداقة والحياة الاجتماعية - إلى الأمة الإسلامية (أو التجمع العالمى للمؤمنين المسلمين)، والذى نما فى الواقع نموا عظيما منذ انتشار الإنترنت.

يبدأ ظهور أحمد فى الرواية فى سن الثامنة عشرة بينما هو على وشك التخرج من مدرسته الثانوية. يبدو أحمد كمراهق نموذجى، مهذب لأقصى درجة، خجول، ذكى، شديد الملاحظة، شخص لا يكاد يستطيع أن يعبر الطريق أو ينظر إلى إنسان آخر دون أن يراجع كل مفاهيمه بمنتهى الدقة. وكذلك تبدو مفاهيمه الدينية متميزة، فإله أحمد هو معبود شخصى بدرجة مدهشة، يتصوره أحمد كتوأمه السيامى أو والده الغائب أو الأخ الأكبر الذى لم يكن لديه قط، وكذلك كوجود حى قريب جدا منه كالوريد النابض فى عنقه.

منذ الجملة الأولى فى الرواية، ينظر أحمد إلى عقيدته باعتبارها مهددة، كنبتة غضة ضعيفة يحميها من المخاطر

Terrorist
(إرهابى)
John Updike
$24.95. 310pp..Knopf

بترتيب مع: مجلة
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحى

إنه نموذج الجندى المطيع الذى لا يسأل أبداً والمستعد دائماً
لأن يقتل عندما يصدر له الأمر بذلك..
بالضبط مثل جنودنا العاملين فى العراق



بقوة إرادته. وهو يشك بأن معلمه - الشيخ راشد - قد فقد إيمانه، ويحثه هذا الشك على التشبث بالله بقوة باعتباره أقرب وأغلى صلة لديه. ربما بدت تلك الأفكار عن الله كرفيق حميم وعن الإيمان كعلاج نفسى جماعى، ربما بدت مسيحية - بروتستانتية بالتحديد - أكثر من الإسلام التقليدى، ولكن أحمد حديث عهد بالإسلام، وربما تعكس عقيدته الغريبة الهجينة ما يمكن أن يحدث للإسلام عندما تصبح له جذور فى التربة الأمريكية المسيحية. المهم هنا هو أن «أبدايك» يجعلنا نؤمن بما يؤمن هو به.

من عنوان الكتاب يتضح مستقبل أحمد. وفى الفصل الأول يخبر أحمد «جاك ليفى» اليهودى غير الملتزم والعضو فى المجلس الاستشارى للمدرسة الثانوية بأن الشيخ راشد نصحه بعدم الذهاب للجامعة وأن يجلس إلى «المقود» حتى يتدرب ليكون سائق شاحنة. وحتى لا نغفل أيا من إيحاءات تلك المهنة فإن «ليفى» يسردها هنا:

«تقود شاحنة؟ أى نوع من الشاحنات؟ هناك العديد من أنواع الشاحنات. إنك فى الثامنة عشرة. أنا واثق أنك لا تستطيع الحصول على رخصة لقيادة جرار نقل أو صهريج نقل أو حتى حافلة مدرسية قبل ثلاث سنوات. إن اختبار الحصول على رخصة سائق تجارى صعب. وإلى أن تصبح فى الحادية والعشرين لن يمكنك القيادة خارج الولاية أو نقل مواد خطرة».

قبل ذلك ببضع صفحات، وبينما كان «ليفى» عابسا تجاه المشهد الكئيب لمدينته فى الفجر، أدلى بملاحظة لزوجته: «إن هذا الحى بكامله يمكن أن ينصلح حاله بقنبلة جيدة». وحتى قبل أن يعرف أحمد مصيره بفترة طويلة، فإن القارئ يدرك بأنه فى نهاية الكتاب سيكون جالسا إلى مقود شاحنة مفخخة. وهذا مجال غير مألوف لـ«أبدايك» الذى كانت أعماله حتى اليوم احتفالا مسهبا للإرادة الحرة فى أمريكا المعاصرة. إن تلك الحرية ليست متاحة لأحمد. فمصيره مقدر منذ عنوان الكتاب وحتى نهايته المحتومة: منعطف فى نفق لنكولن مع شاحنة محملة بأربعة أطنان من نترات الأمونيوم وسبابة أحمد مترقبة فوق زر تفجير أحمر.

إن حبكة زر التفجير تجعل «إرهابى» أكثر رواية تقنية كتبها «أبدايك» حتى الآن، وكثير من القراء سيبقون يقظين طوال السويعات التى سيقلبون فيها صفحاتها. فمع وجود بطل جديد ومشهد واقعى جدا للمدينة ووتيرة سردية مثيرة مثل قصص الرعب، توفر رواية «إرهابى» الكثير من المتعة للقراء تجعلهم يغضون البصر عن كل ما هو غير قابل للتصديق فيها.

نشر «أبدايك» منذ عشرين عاما رواية «نسخة روجر Roger's Version» والتى تقدم من عدة أوجه وبصورة مخيفة لرواية «إرهابى». ويتبادر إلى الذهن فصل محدد منها. وهو الذى يدخل فيه اليهودى المتعصب «ديل كولر Dale Kohler» فى جدل مع اللاهوتى القنوع الساخر «روجر لامبرت Roger Lambert». يبدأ «كولر» بالحديث:

«الشيطان هو الشك. إنه من يجعلنا نرفض عطايا الرب لنا ويجعلنا نحتقر الحياة التى منحها لنا».

«عجبا. كان من الممكن أن أقول العكس، بالنظر إلى ما يمتلئ به حاضرنا من آيات الله «يقصد أمثال الخمينى» والزعماء المستبدين. إن الشيطان هو غياب الشك. إنه من يدفع الناس إلى تفجير أنفسهم وإقامة معسكرات الإبادة. إن الشك هو ما يجعل لعشائك مذاقا غريبا، ولكن الإيمان هو الذى يذهب ليقتل».

يصلح تعبير «الإيمان يقتل» عنوانا لرواية «إرهابى». إن خضوع «أحمد مولوى» لتعاليم الصراط المستقيم وإمامه الغامض قاده - فى رواية «أبدايك» المثقلة بالهموم - إلى طريق سريع يؤدى لنفق لنكولن، كما لو كان الإيمان وحده كافيا لتحويل هذا الشاب الطيع المهذب الودود إلى قاتل جماعى متطوع.

منذ بداية الرواية، يردد أحمد أقاويل إسلامية عامة جاهزة مثل: «العاصمة واشنطون يديرها اليهود الماكرون»، «الكفار الذين يحيطون بالمدرسة هم شياطين أنجاس يعبدون الصور»، «المسيحيون يعبدون إلهًا ميتًا»، «أمريكا ترتكب الفظائع فى الشرق الأوسط». ولكن المرء لا يشعر بعاطفة حقيقية وراء تلك الملاحظات الطقوسية المجردة، والتى تتناقض تماما كلما نظر أحمد من عليائه إلى العالم. فهو هنا على سبيل المثال يمتدح «جوريلين جرانت» السمراء زميلة فصله الدراسى والتى سيزور كنيستها لاحقا ليسمع غناءها:

«هناك شعور محبب فى الطريقة التى تملأ بها استدارات جسدها البنى ملابسها المؤلفة من جينز مرقع مزين بالترتر وباهت من الخلف، وقميص أحمر قصير يظهر أكثر مما يخفى. وهناك مشابك بلاستيكية تشد إلى الخلف شعرها المتلألئ الطويل، وتحمل شحمة أذنها اليمنى صفا من الأقراط الفضية الصغيرة. وهى تغنى مع المجموعة أغانى عن عيسى «عليه السلام» وعن الإيحاءات الجنسية. وكلاهما من الموضوعات البغيضة بالنسبة لأحمد. ومع ذلك كان سعيدا أنها لاحظته وأنها تراود خياله بين الحين والآخر مثل اللسان عندما يداعب أحد أسنان الفم».

لا يوجد كاتب على قيد الحياة يتناول المظاهر الخارجية الأمريكية بمثل هذا التعاطف مثل «أبدايك» الذى يداعب أسلوبه النثرى كل شىء يصادفه. فى هذا العمل فإن الشخصيات التى تحصل على درجات سيئة فى الأخلاق، مثل «رابيت أنجستروم» تتطهر دائما بمشاركة الخالق قوى خارقة فى ملاحظة الخير. ولذلك فإن أحمد مولوى المراهق الذى يحمل سجادة الصلاة لا يستطيع أن يمتنع عن حب أمريكا التى عليه أن يصبح عدوا لها.



فى إحدى المرات يسأله الشيخ راشد: «ألم تكتشف أن الجزء الأمريكى من العالم له رائحة نتنة من الفساد والجشع والفسق والعبث واليأس والفتور بسبب الجهل بالحكمة الملهمة للنبى «صلى الله عليه وسلم»؟». يجيبه أحمد: «أعتقد أن هذا الجزء من العالم ليس الأكثر وهما رغم أن له نصيبا من الخاسرين، ولكنى فعلا استمتعت بالوجود هنا. فالناس ودودون للغاية غالبا». وبعد ذلك بلحظات يوافق أحمد على قيادة الشاحنة الانتحارية. «سوف أموت إذا كانت تلك هى إرادة الله».

وبمعنى آخر، فإن «أبدايك» يصر على أن أحمد لم يكن مدفوعا من قبل عقيدة مهتاجة وإنما من قبل البراءة والالتزام بالصراط المستقيم والفطرة السليمة الطبيعية والتعود على طاعة معلمه. إنه نموذج للجندى المطيع الذى لا يسأل أبدا والمستعد دائما لأن يقتل عندما يصدر له الأمر بذلك. إنه لا يبحث عن إجابة أو سبب، بل ينفذ ما يقال له ويموت. إذا كان ذلك كافيا لجنود «لواء تنيسون الخفيف» «العامل فى العراق» والذى كان وقودا سيئ الحظ للمعارك، فلماذا لا يصلح لمتطوع متواضع من المجاهدين الأمريكيين العرب؟

ينكر «أبدايك» بقوة أن أحمد كانت لديه معرفة كاملة بالإسلام الأصولى، ذلك الخليط القابل للانفجار من التعصب السلفى والعنف والمعاداة الشديدة للاستعمار والرؤية الإنجيلية لانهيار الغرب، والذى يدين بالكثير لمؤلفين أوروبيين مثل «توينبى Toynbee» و«شبنجلر Spengler». والغريب فى رواية «إرهابى» أنه لا يبدو أن هناك شخصية واحدة فى الكتاب تأخذ القضية الإسلامية على محمل الجد. ورغم أن الشيخ راشد لا يتوقف عن الكلام عن الانحلال الغربى، إلا أنه أكثر اهتماما باستخلاص ما هو غامض وساخر من سور القرآن بعقلية محرر عتيق الطراز فى مجلة «نيو كريتيك New Critic». أما رئيس أحمد المباشر فى العمل بشركة «الأثاث المتميز»، وهو أمريكى لبنانى مرح يدعى «شارلى شهاب»، والذى خطط لمكيدة القنبلة، فإنه يشبه أسامة بن لادن بـ«جورج واشنطون» ويقارن المجاهدين بثوار عام ١٧٧٦ الأمريكيين. ولكن ملاحظاته تمر مرورا عابرا باعتبارها لا تزيد عن كونها مداعبات شفهية. ولم يتعرض أحمد أو القارئ فى أى موقع من الكتاب لنوع الغضب السياسى العارم الذى أدى بالفعل لوقوع الهجمات الإرهابية فى عالم الواقع. فالمتآمرون فى الرواية يمارسون أدوارهم بلا عاطفة كما لو كانوا يخططون للسطو على بنك. ولكن عمليات السطو على البنوك لها حافز واضح، بينما يبدو أن الحافز وراء القنبلة فى نفق لنكولن لا يزيد على استياء غامض من طريقة الحياة الأمريكية و- فى حالة أحمد - الاستعداد لمخالفة فطرته

كى يسعد معلمه ويرضى إلهه الذى لا يؤمن به إيمانا واثقا.

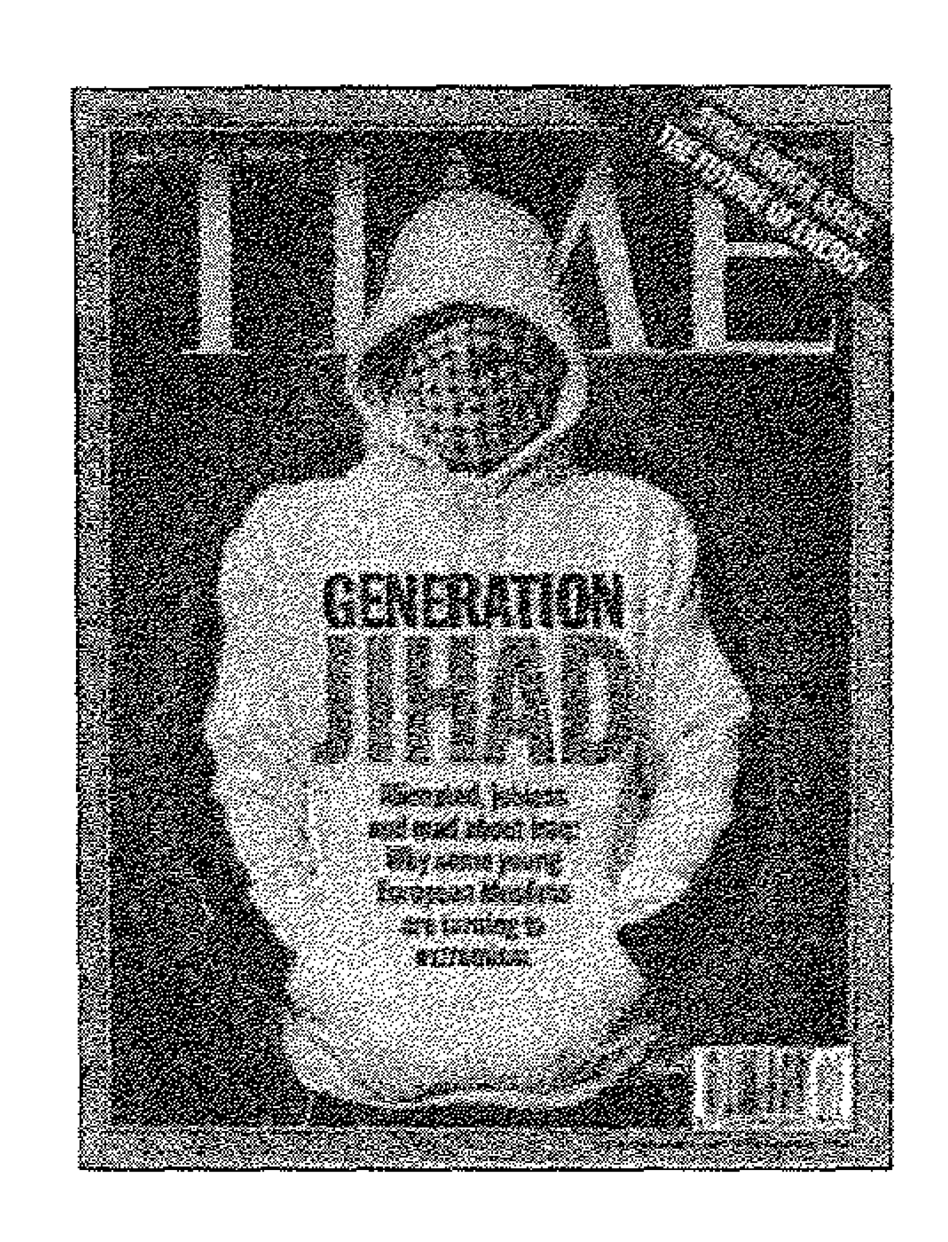
من الصعب التأكد ما إذا كان الغياب الكامل للعاطفة الدينية فى الرواية عفويا أم مقصودا. ربما كانت سياسات العنف خارج اهتمامات «أبدايك» وكان عازفا عن التورط فيها. أو ربما قصد من وراء منح أحمد الحد الأدنى من الدوافع أن يوحى بأن التقوى العادية يمكن تحويلها بمنتهى السهولة إلى حرب دينية حاقدة. ومهما كانت نوايا «أبدايك»، فإن رواية «إرهابى» تولد لدى القارئ انطباعًا بأن الإسلام هو دين خطير بدرجة غير مسبوقة، على عكس المسيحية التى يتم الاحتفاء بها بحرارة فى فصل مطول رائع عندما يزور أحمد كنيسة «جوريلين»، وأن من المحتمل جدا لأى شاب قليل الخبرة ويسهل التأثير عليه وبمجرد أن يضع قدمه فى مسجد، أن ينتهى به الأمر إلى ارتكاب مثل هذه الفظائع.

فى مشهد الكنيسة كانت الخطبة الحماسية الرائعة للقس عن موسى (عليه السلام) «الذى قاد الشعب المختار بعيدا عن العبودية ومع ذلك أصبح هو نفسه محروما من الدخول إلى الأرض الموعودة».

يعلن الكاهن بصوت خطابى أجش: «الإيمان، لم يكن لديهم إيمان. لذلك فإنهم كانوا جمعا شريرا. ولذلك فقد أصيب الإسرائيليون بالطاعون ولحق بهم الخزى والهزيمة فى المعركة».

إن الكاهن على خطأ بالتأكيد. فأحمد لديه إيمان. ونحن نعلم منذ بداية الكتاب إلى أى شر سيقوده هذا الإيمان. إن مشكلته تكمن فى أنه انطلاقا من ولائه تجاه أبيه الهارب فإنه - وبسبب غفلته - اختار الإله الخطأ. كل شخص يمكن أن يحدث له ذلك.

وإذا كان طريق أحمد المحتوم إلى نفق لنكولن هو المحور الأساسى للرواية، فإن العديد من الشخصيات الإنسانية ترد فى المشاهد التى تذكر باللقاءات بين «ديل كولر» و«روجر لامبرت» فى «نسخة روجر»، والتى تحرض أحمد - شديد السذاجة - ضد مذهب الشك الذى يمثله «جاك ليفى» مستشاره فى المدرسة الثانوية. لقد دونت تلك المقابلات بأسلوب غريب، فهى تشبه الحوارات السقراطية الرسمية أكثر من اللغة الواقعية لرواية تقليدية. ففى تلك المقابلات يتحدث «الإيمان» إلى «الشك»، و«الشك» إلى «الإيمان». وربما كان التكلف ضروريا هنا، كما لو كان «أبدايك» يستدعى لغة «تقدم الحجيج



Pilgrim's Progress»، رواية لـ «جون بونيان John Bunyan»، نشرت عام ١٦٧٨» أو مسرحية أخلاقية من القرون الوسطى.

أما «ليفى» المتزوج من امرأة بدينة تجسد تجاوزات وفساد وجشع الحياة الأمريكية (كما يراها الشيخ راشد شديد النحافة)، فيصبح وهو فى الثالثة والستين غير مبال بدنو أجله:

المهمة الوحيدة الباقية لـ «جاك ليفى» هى أن يموت ويساهم بذلك فى توفير مساحة صغيرة ومجال بسيط للتنفس فوق هذا الكوكب المزدحم فوق طاقته. وتبقى تلك المهمة معلقة فى الهواء فوق ذلك الوجه المؤرق مثل نسيج عنكبوت يقبع فى مركزه عنكبوت بلا حراك.



وبذلك فإن «ليفى» يواجه غفلة الملحد، بينما يواجه أحمد الفردوس الحسى للشهيد المسلم. ومع ذلك ينحاز «ليفى» المعلم المهذب بشدة إلى جانب الحياة. حياة تلاميذه على الأقل إن لم تكن حياته هو. ويتوحد مصيره مع أحمد وأيضا - لأنها رواية لـ «أبدايك» - مع «تيرى» والدة أحمد ذات «التضاريس الجسدية المثالية الرائعة» والتى تخطت الأربعين من عمرها، كان قدر «ليفى» أن يشترك فى رحلة النفق كى تجرى مواجهة كلامية مطولة بين مشورة مدرسية فظة وإيمان دينى صبيانى مضلل.

وقد احتاج الأمر لكم هائل من الجهد الروائى الشاق لجمع الاثنين معا فى الشاحنة فى طريقها إلى الانفجار العظيم الذى سيفتح النفق إلى نهر «هدسون Hudson». لم يكن مطلوبا من أحمد أن يكون فقط طيعا مثل العجينة الرخوة فى يد إمامه ورئيسه فى العمل، ولكن كان على «أبدايك» أن يلوى الحقائق الظاهرية لتمييع الأمور كى يصل إلى النهاية المطلوبة. فتتوالى المصادفات غير المحتملة بلا منطق. ومن أجل حبكة الرواية، يتصادف أن شقيقة زوجة «ليفى» هى المساعد الشخصى لوزير الأمن الداخلى، وهو شبيه ضخم الجسم لـ «توم ريدج Tom Ridge» «الحاكم السابق لبنسلفانيا وأول وزير للأمن الداخلى». ويتصادف أنه عندما يعثر «شارلى شهاب» على عاهرة لأحمد كى يفقد عذريته قبل أن يغادر هذا العالم، تكون العاهرة هى «جوريلين» محبوبته القديمة من المدرسة. ويتصادف أن مدينة كبيرة مثل «نيو بروسبكت» ليس لها سوى مدخل منحدر وحيد إلى الطريق السريع بين الولايات رقم ٨٠، بحيث يتمكن «جاك ليفى» من اعتراض الشاحنة المفخخة عند توقفها - الملائم - عند إشارة حمراء، و- للغرابة - يقوم أحمد - المؤدب دوما - بفتح باب الشاحنة ويسمح له بالركوب. ومرة بعد مرة ندرك أن المؤلف يجبر الشخصيات والعالم الذى يحيط بها أن تتواءم مع إرادته. ومن المثير للأعصاب فى رواية تفيض بالخوف من الاستبداد الدينى أن نجد «أبدايك» نفسه يلعب دور الإله المستبد.

وفيما بين «نيو بروسبكت» والنفق تسير حركة المرور ببطء شديد فى وقت الذروة، بما يسمح لأحمد و«ليفى» بمحاورة أخيرة غير متعجلة. ورغم وجود الزر الأحمر بين كرسيهما واقتراب الدقائق من نهايتها، فإنهما يتحدثان كما لو كانا فى محاضرة مملة للعلوم الاجتماعية:

يقول «ليفى»: «لا أستطيع أن أصدق أنك تنوى فعلا قتل مئات الناس الأبرياء».

«من الذى يقول أن الكفر برىء؟ الكفار هم من يقول ذلك. يقول الله فى القرآن: أشداء على الكفار «سورة الفتح، الآية ٢٩». أحرقوهم واسحقوهم، لأنهم نسوا الله. إنهم سعداء بما هم فيه ويحبون الحياة الحالية أكثر من القادمة».

«ولذلك نقتلهم الآن؟ يبدو ذلك قاسيا للغاية».

«بالنسبة لك طبعا. أنت يهودى غير ملتزم على ما أظن. لا تؤمن بشىء. يقول القرآن: «إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين» «سورة آل عمران، الآية ٩١».

يتنهد «ليفى». ويستطيع أحمد أن يسمع قطرات صغيرة من الخوف تحشرج فى أنفاسه. ثم يقول: «نعم، حسنا، هناك الكثير من السخافات الكريهة فى التوراة أيضا. إن الكهنة يحاولون أن يتحكموا فى الناس عن طريق الخوف».

وفى مكان آخر من الرواية، يقحم «أبدايك» مثل هذا الحديث الوهمى غير المألوف ضمن مجموعة من التفاصيل المشروطة الدقيقة. لقد تم تصوير حركة المرور البطيئة والمناظر الطبيعية التى يمران بها والقرميد المبطن للنفق بإبداع يغوى عين القارئ بينما تتمرد أذناه. وتتمكن موهبة «أبدايك» الواقعية الفنية الرائعة (مثل وصفه لطائرة بأنها «وميض فضى صليبى الشكل يفر من مطار نيو آرك الدولى») من التعويض - إلى حد كبير - عن عدم المصداقية المتأصل فى كثير من أحداث الرواية.



عميقا تحت نهر «هدسون»، قبيل المنحنى الذى يخطط أحمد لتفجير قنبلته فيه، تصل المحادثة إلى أعلى درجات عدم المصداقية:

يستدير أحمد ليسأل «جاك ليفى»: هل قرأت قبل ذلك فى دراساتك للشاعر والمفكر السياسى المصرى سيد قطب؟ لقد جاء للولايات المتحدة منذ خمسين عاما وشعر بالصدمة تجاه التمييز العنصرى والخلاعة المطلقة بين الجنسين. وقد انتهى إلى أن الأمريكيين هم أكثر الناس بعدا عن الله وعن التقوى. ولكن مفهوم الجاهلية الذى يعنى حالة الجهل الموجودة قبل محمد «صلى الله عليه وسلم» يمتد أيضا ليشمل المسلمين الدنيويين ويجعل منهم أهدافا مشروعة للاغتيال.

يبدو ذلك منطقيا. لو قدر لى أن أعيش فسوف أجعل من سيد قطب مادة اختيارية للقراءة. لقد ارتبطت بتدريس دورة فى العلوم المدنية فى الفصل الدراسى القادم. لقد مللت الجلوس طوال اليوم فى دولاب المعدات القديم هذا

محاولا إقناع هؤلاء المختلين بعدم ترك الدراسة. ستكون فلسفتي الجديدة «دعهم يذهبون».

«سيدي، يؤسفني أن أقول أنك لن تعيش. سوف أرى وجه الله بعد دقائق قليلة. إن قلبي يفيض باللهفة».

هنا يختزل كتاب سيد قطب «معالم في الطريق»، أهم مصادر الجهاد المعاصر، إلى مجرد مادة اختيارية للقراءة. لا أكاد أصدق على الإطلاق أن مفجراً انتحارياً يستطيع أن يتحدث عن سيد قطب بتلك العبارات المعتدلة الموضوعية. يجرد «أبدايك» بذلك أحمد من أي أثر باق لإيمانه الإسلامي ويجعل من وجوده داخل الشاحنة ضربا من الجنون. يجب بالطبع ألا نحكم على الأدب بمنطق الصحافة وعلم الاجتماع، ولكن قصص حياة المفجرين الانتحاريين الحقيقيين توضح بجلاء أنه كانت تتملكهم فكرة مغيبة متطرفة - كان سيد قطب أول من صاغها - دفعتهم إلى مهاجمة الغرب بإخلاص وضراوة شديدين. أما أحمد فلم تكن تتملكه تلك الفكرة، بل كانت - من وجهة نظره الخاصة المشوشة - مجرد ملاحظة غير ضارة تعد ضربا من الوهم.

بينما تزحف الشاحنة داخل النفق يظهر من الشباك الخلفي للسيارة الفولفو الإستيشن البرونزية التي تسير أمامه طفلان صغيران من السود - صبي وفتاة - يحاولان جذب انتباه أحمد. لو نجح في مهمته فسوف يفجر هذين الطفلين إلى أشلاء. ومع اقتراب المنعطف - الجزء الأضعف في بنية النفق - يغوص أحمد - وإصبعه على الزر - في أحد أحلام اليقظة الدينية:

يتحدث الله في سورة الواقعة عن اللحظة التي تصل فيها روح المحتضر إلى حلقه. تلك هي اللحظة الحالية. ومع ذلك، ففي نفس السورة يسأل الله: «نحن خلقناكم فلولا تصدقون. أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون» «الآيات ٥٧-٥٩». إن الله لا يريد أن يدمر، إنه خالق هذا العالم.

كان نمط قرميد جدار النفق وقرميد السقف المائل للسواد بسبب عادم السيارات - تكرار متلاحق لا يحصى من المربعات مثل ورق رسم عملاق يدور في بعد ثالث - يتفجر في عقل أحمد الذي كان يفكر في حكمة الخلق، موجات مركزية متلاحقة تدفع كل منها الأخرى بعيدا من نقطة الفراغ، كانت إرادة الله أن يتحول العدم إلى وجود. تلك كانت إرادة الرحمن، الرحيم، الحي، الحليم، الكريم، الكامل، النور، الهادي. إنه لا يريدنا أن ننتهك قدسية خلقه بالسعي للموت. إنه يريد الحياة.

يرفع أحمد يده اليمنى عن الزر ويعيدها إلى عجلة القيادة.

إن ما يميز هذه الرواية المعقدة أن وقائعها مقنعة في بلاغتها السلسة (الاستعارة البديعة في النفق، دوران ورق الرسم، حكمة الخلق) و- في الوقت نفسه - التجلي الزائف المبتذل. إن كل عبارة تقريبا كتبها «أبدايك» من وجهة نظر أحمد تؤكد لنا أنه يعشق الحياة كثيرا وكذلك مستقبله فيها بما يناقض تطوعه كمفجر انتحاري، أما كون إلهه إلهاً للحب وليس الكراهية فهو ما كان بالفعل معروفا لأحمد - ولنا أيضا - منذ البداية. أما نقمة وكراهية الفكر الجهادي تجاه أمريكا وكل ما تقترفه فهو إحساس ليس من الصعب أن يتخلى عنه أحمد حيث لم يكن يشعر به حقا في أي وقت.




تحفل رواية «إرهابي» بأشياء رائعة كثيرة، فهي غنية بالمشاهد أو - على الأقل - اللقطات المتألقة البارعة، كما أنها تجذب القارئ إلى قصة مثيرة شائقة، حتى أنه قد يبدو من الصعب أن ننتقد نقطة الضعف الوحيدة فيها، ألا وهي التناول الخيالي لجذور وشخصية الجهاد الإسلامي ضد الغرب. وحيث إن «أبدايك» قد تقاعس عن توفير أي مصداقية حقيقية لـ «العقيدة» التي توجه حبكة الرواية (بكل ما تتضمنه تلك الكلمة من معنى)، فقد أصبح الكتاب فاتنا بصورة مؤقتة ولكنه في النهاية قصة فارغة طويلة سخيفة الأحداث. ولو كان المؤلف قد خصص مزيدا من الوقت كي يعيش في عالم الريبة والغضب الذي عاشه سيد قطب وأتباعه، ومنح أحمد رصيدا فكريا وعاطفيا كافيا كي يبرر سلوكه الطريق المنحرف للعنف الصالح، فربما أصبحت «إرهابي» عندئذ ضمن أفضل أعمال «أبدايك». أما والحالة هكذا، فإنها لا تزيد عن كونها معالجة نشطة مسلية ولكن - للأسف - مبتورة لموضوع على تلك الدرجة من الأهمية. ■



صباح ٤ فبراير

مذكرات اللورد كيلرن

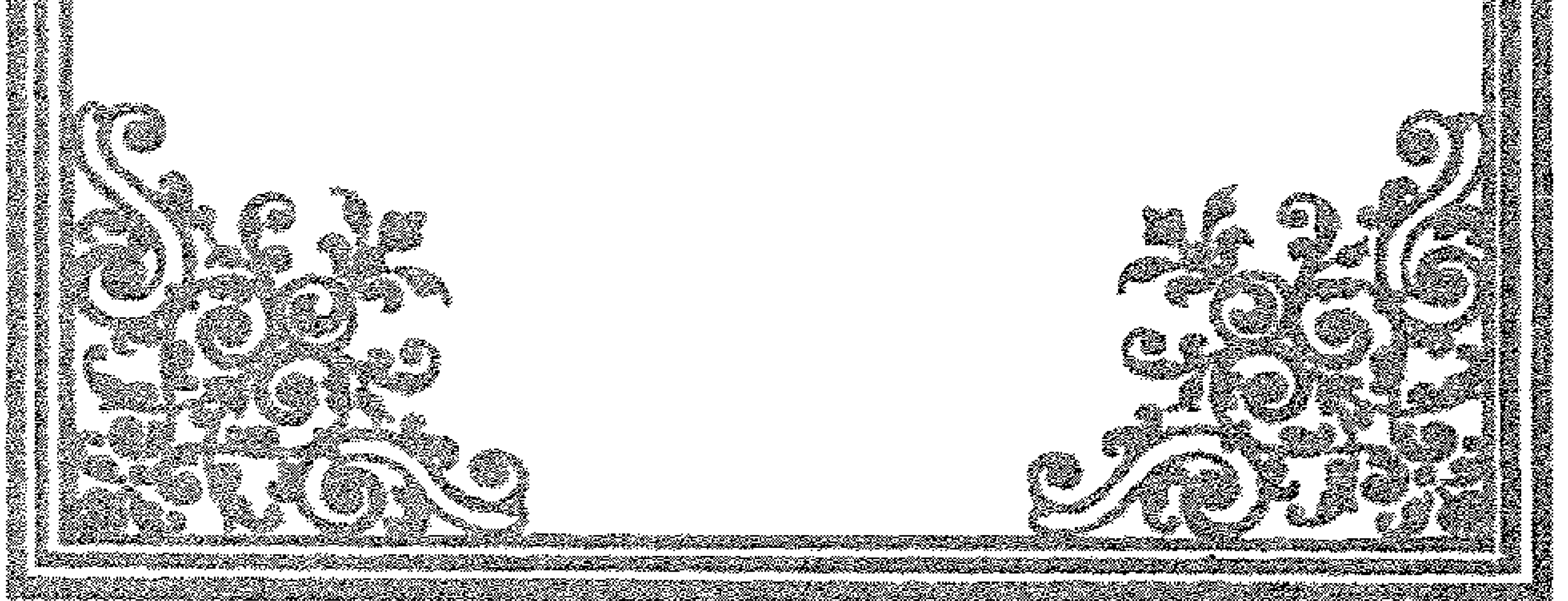
في الصباح الباكر، بينما كنت أحاول أن أفتح عينيّ المنتفختين سمعت هنري هوبكنسون Henary Hopkinson قد وصل ويلح في طلب مقابلتي على وجه السرعة، وصعد إلى غرفة نومي ليخبرني بأن حسنين (رئيس الديوان الملكي) طلبه تليفونيًا، وطلب مني ضرورة مقابلتك على وجه السرعة ليناقش معي الخطة التي سوف أنتهجها لمواجهة هذه الأزمة.

وقد أخبرني هنري بأنني غير موافق على مقابلته لحسنين تحت أي ظرف أو على أقل تقدير لست مستعدًا للإذعان في مقابلة حسنين لأوليفر ليتليتون خاصة بعد أن وصلنا إلى اتفاق تام.

ركبنا السيارة لتنطلق بنا إلى مقر اجتماع مجلس دفاع الشرق الأوسط (C.W.E.M) والمقرر عقده في تمام الساعة ١٠ صباحًا، وفي طريقنا إلى مقر المجلس قلت لهنري إن هناك وسيلتين لمواجهة مثل هذه الأزمة:

الأولى: أن نكون حازمين إلى أبعد حد، وهذا ما فعلته، وأن نحبط أي محاولة للتملص أو المناورة معنا بأي صورة.

الأخرى: أن يلتزم هو، وجميع المسئولين البريطانيين المعنيين بحيث نتوخى جميعًا أعلى درجات الوضوح والصراحة، ولست مستعدًا في الاستمرار في المساومة أو التسويف، وأني مصمم على خلعه من العرش، لدرجة أن هنري هوبكنسون انزعج حين سماعه هذا القرار، ولكن أعتقد أن هذا أمر مطلوب.



بتـــــرول العـــــراق

ليس السبب وراء إصرار جورج دبليو بوش على إمكانية تحقيق «النصر» فى العراق هو أنه واهم أو منعزل أو جاهل أو منفصل عن الواقع أو يتلقى مشورة غير سليمة. كلا، بل يرجع ذلك إلى أن تعريفه لـ «النصر» يختلف عما يردده الآخرون فى ساحات الحوار المطبوعة وعلى الإنترنت. بالنسبة لبوش فإن النصر بيده فعلا. ومن الممكن أن يتحقق فى أى لحظة الآن، وربما كان قد تحقق فعلا عند قراءة هذا المقال. أما القوة الدافعة وراء هذا «الزج» بالقوات الأمريكية فهو الحاجة للحفاظ على ثمار النصر التى تنضج الآن فى يده.

هناك مشروع قانون للنفط فى العراق صاغته - بالتأكيد - إدارة الرئيس بوش وتابعه البريطانى. وسيؤدى مشروع القانون الجديد إلى «إعادة تشكيل جوهرية لصناعة النفط العراقية وفتح الباب على مصراعيه إلى ثالث أكبر احتياطى نفطى فى العالم. وسيسمح لشركات النفط الأجنبية بالعمل هناك على نطاق واسع لأول مرة منذ تأميم الصناعة عام ١٩٧٢».

وسوف يقدم القانون فرصا سخية للغاية وغير مسبوقة لشركات «إكسون موبيل Exxon Mobil» و«بى بى BP»



.. الجـــائـزة الكــبـــرى!

كـــريـــس فــلـــويــــد

و«شل Shell» وغيرها من أصدقاء البيت الأبيض العاملين فى مجال الطاقة، مما يسمح لها بضخ أرباح هائلة طوال عقود قادمة من حقول البترول العراقية المملوكة - صوريا - للدولة. وقد بدأ العمل على إعداد هذا القانون منذ بداية الغزو، بل - فى الواقع - قبل أشهر من بداية الغزو، عندما استدعت إدارة الرئيس بوش «فيليب كارول Phillip Carroll» كبير المسئولين التنفيذيين السابق لشركتى «شل» و«فلور Fluor» وهى مؤسسة الخدمات البترولية ذات الصلات السياسية، لوضع «خطط طوارئ» لاقتسام النفط العراقى بعد الغزو. وكما ذكر «جوشوا هولاند Joshua Holland» من «Alternet.com» فى مقالين رائعين عن المناورات الخفية حول النفط العراقى بعنوان «كتلة بوش النفطية تستحوذ تقريبا على نفط العراق Bush's Petro-Cartel Almost Has Iraq's Oil» و«الاستيلاء الأمريكى على النفط العراقى The US Takeover of Iraq's Oil»، فبمجرد انتهائه من وضع المرسوم، تم تعيين «كارول» رئيسا لـ «اللجنة الاستشارية» الأمريكية المشرفة على صناعة النفط بالعراق المحتل.

منذ تلك الأيام الأولى وحتى الآن، وخلال كل المناورات والدم والفوضى الناتجة عن الاحتلال، كانت عين إدارة بوش دائما على الجائزة. ويوفر القانون الجديد لقراصنة النفط فى الغرب مجموعة رابحة من اتفاقيات المشاركة فى الإنتاج، والتى ستحافظ على ورقة التوت للملكية العراقية الصورية لصناعة النفط الوطنية، بينما تسمح لرفاق بوش من أقطاب البترول بنهب ما يصل إلى ٧٥٪ من كل أرباح النفط لفترة غير محددة سلفا إلى أن يقرروا هم أن «استثماراتهم فى البنية التحتية» قد تم استردادها. وحتى فى ذلك الوقت، فإن الاتفاقيات تمنح كبار شركات النفط الغربية نسبة غير مسبوقة تبلغ ٢٠٪ من أرباح النفط العراقى، وهى تبلغ - كما ذكرت «الإندبندنت» - أكثر من ضعفى متوسط النسبة السائدة فى الاتفاقيات المماثلة.

من المؤكد أن «الوضع الأمنى» الراهن، أى الجحيم الحالى للموت والمعاناة والذى جلبته حرب بوش «المختارة» فى العراق، يمنع بارونات النفط من ترسيخ أعمالهم فى حقول النفط السليبة. ومن هنا كانت الرغبة العارمة لبوش للزج بمزيد من القوات رغم المعارضة العنيفة لخطته من قبل الكونجرس والبنتاجون وبعض أعضاء حزبه. ويؤمن بوش وأعضاء دائرته المقربة، بمن فيهم مستشاره الرئيسى رجل النفط القديم «ديك تشينى»، أن جرعة أكبر من الدماء والحديد فى العراق ستحقق درجة كافية من الاستقرار تسمح لشركات النفط الكبرى بتحصيل أرباح اتفاقيات المشاركة فى الإنتاج والتى اشتراها بأرواحهم أكثر من ثلاثة آلاف جندى أمريكى.

وكما نشرت جريدة «الواشنطون بوست the Washington Post»، فسوف يتم دمج «الاندفاع» الأمريكى ضمن الجهود الصارمة التى أعلن عنها رئيس الوزراء العراقى نورى المالكى: حرب شاملة تشنها «قوات الأمن» الحكومية - التى تشكل معظمها ميليشيات الشيعة - على مناطق السنة فى بغداد. وسوف «تدعم» القوات الأمريكية جهود التهدئة لما يطلق عليه المالكى «اكتساح مناطق السنة من منزل إلى منزل». وهناك بالطبع تعبير آخر لهذا النوع من العمليات: «التطهير العرقى».

سوف يتم الدفع بتلك القوات - وهى فى الغالب وحدات خدمت لوقت طويل وأصيبت بالإجهاد - إلى أتون تلك الدوامة العنيفة للحرب الأهلية والاغتيال العرقى، مع الانحياز مؤقتا إلى أحد أطراف الحرب الأهلية العراقية متعددة الرؤوس. وبينما يستمر الصراع - وسوف يستمر طويلا - ستواصل إدارة بوش مساندة أى جانب يتعهد بتأييد «قانون النفط» والاتفاقيات المربحة للمشاركة فى الإنتاج. ولو أن تنظيم القاعدة فى العراق تعهد بفتح صنابير النفط العراقى لشركات «إكسون» و«فلور» و«هاليبرتون»، فسوف يجد نفسه فجأة وقد انتقل من خانة «الإرهابيين» إلى «المعتدلين»، كما حدث فعلا مع المالكى وحزبه الطائفى العنيف (الدعوة) الذين قاموا فى الماضى بقتل أمريكيين فى أعمال إرهابية، ولكنهم يقابلون الآن بالترحاب باعتبارهم أبطالا للحرية.

ولذلك فسوف يجارى بوش الآن المالكى وتطهيره العرقى. ولو أدت تلك الجهود إلى انهيار كارثى يزيد الأمور سوءا - وهو أمر مؤكد تقريبا - فسوف يعتلى بوش - ببساطة - ظهر جواد آخر. إن ما ينشده بوش فى العراق ليس الحرية والديمقراطية وإنما «الاستقرار» وحكومة من أى شكل ولون تؤمن ما هو مطلوب. وكما علقت صحيفة «الإندبندنت» بسخرية، فإن «ديك تشينى» نفسه كان قد كشف عام ١٩٩٩ عن الهدف الحقيقى للحرب، فى خطاب كان قد ألقاه عندما كان لا يزال المسئول التنفيذى الأول فى «هاليبرتون»، عندما تساءل «من أين سيأتى النفط لإرواء العطش المتزايد دائما للعالم؟». وكان «الشرق الأوسط بما يمتلكه من ثلثى نفط العالم وبأرخص التكاليف هو المكان الذى تقبع فيه الجائزة فى النهاية» هو إجابته عن السؤال.

وفى هذا الخصوص يكمن هنا جانب خفى آخر للحرب. فالعراق لا يمتلك فقط ثانى أكبر احتياطى نفطى فى العالم، بل إن نفطه هو الأيسر استخراجا. وكما علقت «الإندبندنت» بإيجاز، فإن «كلفة استخراج برميل النفط فى العراق هى من بين الأدنى فى العالم، نظرا لقرب الاحتياطيات من السطح نسبيا. ويتعارض ذلك بشدة مع الأعماق المكلفة والمغامرة التى يتوجب على صناعة النفط أن تغوص إليها للبحث عن احتياطيات جديدة فى أماكن أخرى. ويمكن معاينة ذلك فى عمليات الحفر البحرية العميقة جدا والأساليب عالية الكلفة اللازمة لاستخراج النفط من رمال القطران فى كندا».

هذا بالضبط ما كان يلمح إليه «تشينى» فى حديثه عام ١٩٩٩ أمام «معهد البترول Institute of Petroleum». وفى عالم تتناقص فيه موارد النفط، فإن من يسيطرون على احتياطيات ضخمة رخيصة الكلفة سوف يحصدون أرباحا تفوق التصور. وسوف يحتلون قمم الاقتصاد العالمى. والأمر بالطبع لا يتعلق فقط بالأرباح، فالسيطرة على تلك الموارد ستوفر امتيازات إستراتيجية هائلة لكل من يسعى نحو «الهيمنة الكاملة على كافة المستويات» على شئون العالم. وهو ما كانت عصبة بوش-تشينى وأتباعهم من المحافظين الجدد والمتعصبين للعظمة الوطنية يسعون إليه علنا منذ سنوات. وبمحركيهما المزدوجين من الجشع الاقتصادى والإمبراطورية العسكرية، تعتبر الحرب فى العراق زواجا تم عقده فى قاعات استقبال الأبطال الشهداء.

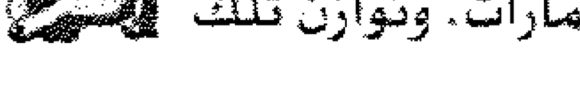
سيناريو الفوز للجميع

وهذا الاتحاد غير المقدس هو ما يقصده بوش حقا عندما يتحدث عن «النصر». وهو السبب وراء معظم انحراف واضطراب وفوضى وعجز الاحتلال فى العراق. فبوش وجماعته لا يأبهون فعلا لما يحدث على الأرض هناك، وإنما ينصب اهتمامهم على ما يستخرج من الأرض. والغاية - الربح والهيمنة - تبرر أية وسيلة. وما يحدث للبشر المحصورين فى الحرب لا يمثل أهمية قصوى، والأمر يستحق أى قدر من التضحيات.

فى واقع الأمر، فإن زمرة بوش تشينى - ومصالح الصفوة التى يمثلانها - قد فازت فعلا بالحرب فى العراق.



ببساطة، فإن عائلة بوش وحلفاءها ورفاقها يمثلون محصلة ثلاثة عناصر راسخة للسلطة لدى الصفوة الأمريكية: النفط والسلاح والاستثمارات، وتوازن تلك



ما ينشده بوش فى العراق ليس الحرية والديمقراطية وإنما «الاستقرار» وحكومة من أى شكل ولون تؤمن ما هو مطلوب

نشر هذا المقال على موقع:
www.truthout.org

ترجمة: عادل فتحى السيد

بترول العراق الجائزة الكبرى

الجماعات بين مصالحها الخاصة وثرواتها وامتيازاتها مع مصالح الأمة - بل والعالم كله - إجمالا. وهم يحافظون على تلك المصالح بكل سلاح فى متناول يدهم، بما فى ذلك الحرب والتعذيب والخداع والفساد. إن الديمقراطية لا تعنى لهم شيئا - حتى فى وطنهم كما رأينا فى انتخابات عام ٢٠٠٠. وليست القوانين سوى سياط للحفاظ على القطيع فى الصف، وهى لا تطبق على الصفوة، حيث أكد محامو بوش وأتباعه علانية فى المذكرات والبيانات الموقعة وقضايا المحاكم والمراسيم الرئاسية التى تخول «المسئول الأوحد» السلطة اللازمة لدهس أى قانون يرغب فى تجاوزه.

لقد كانت حرب العراق مربحة جدا لجماعات النفوذ المرتبطة ببوش (ولصناعاتها الفرعية مثل الإنشاءات)، وقد تدفقت إلى خزائنهم بالفعل مليارات الدولارات من الأموال العامة. وانطلقت «هاليبرتون» من حافة الإفلاس إلى ذرى الأرباح المضمونة غير المحدودة وبلا منافس. كما تلتهم «مجموعة كارليل Carlyle Group» عقود الحرب. ويسلك أفراد من عائلة بوش مسلك اللصوص فيما يتعلق بالاستثمارات المتصلة بالحرب، بينما حصد العشرات من أتباع بوش - مثل «ريتشارد بيرل Richard Perle» و«جيمس وولسى James Woolsey» وجو آلباو Joe Allbaugh» - نصيبهم من الأرباح من الأموال الملطخة بالدماء.

وتنبئ عواقب الحرب بثروات مماثلة، إن لم تكن أكبر. فحتى لو حافظت الحكومة العراقية الجديدة على سيطرة صورية للدولة على صناعة النفط، فلا تزال هناك مليارات لا تحصى تجنى من اتفاقيات المشاركة فى الإنتاج الخاصة بالحفر والتكرير والتوزيع وخدمة حقول وأنابيب النفط وتأمينها. وبالمثل، فإن قوات الجيش والشرطة العراقية الجديدة سوف تحتاج للمليارات أخرى من السلاح والمعدات والتدريب، والتى يتم شراؤها من صناعة السلاح الأمريكية ومن صناعة «الأمن الخاص» سريعة الانتشار وقوات المرتزقة ذات الصلات السياسية والتى تمثل أحدث استحواذ مربح للصفوة المسيطرة. وكما هو الحال بالنسبة للمملكة العربية السعودية، فإن أموال نفط العراق الجديد سوف تضخ مليارات لا تحصى إلى البنوك ومؤسسات الاستثمار الأمريكية.

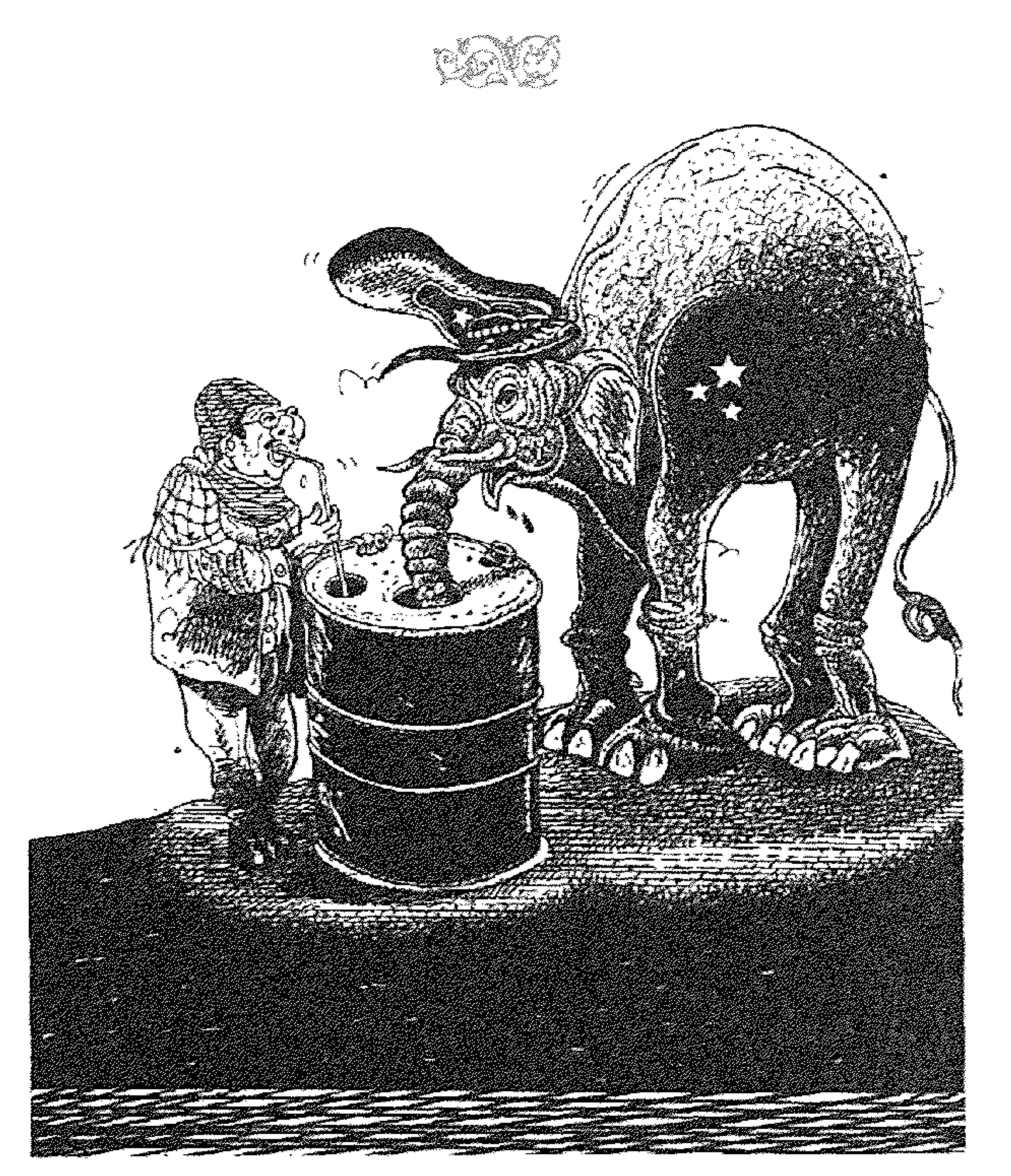
ولكن ذلك ليس كل شىء. فحتى على أسوأ الاحتمالات، لو اضطر الأمريكيون للانسحاب غدا تاركين خلفهم كل شىء - قواعدهم وعقودهم وعملاءهم - فستكون جماعات نفوذ بوش فى المقدمة أيضا. ليس فقط لأن ثرواتهم السابقة التى لا تحصى قد تضاعفت كثيرا (مع تعويض أى خسائر محتملة من أموال دافعى الضرائب الأمريكيين)، ولكن لأن هيمنتهم المحصنة الراسخة على المجتمع الأمريكى قد تضاعفت أيضا بصورة هائلة. وليس من المهم أن يسيطر على الحكومة أى من الحزبين، فإن عملية عسكرة الولايات المتحدة قد مضت بعيدا حتى أصبح من المستحيل تصور أى

قانون

حسين عبدالله



حجم ما يتم نهبه من النفط العراقى يتراوح بين ١٠٠ و٣٠٠ ألف برميل بترول يوميا. وتتراوح قيمة النهب والسرقات بين ٥ و١٥ مليون دولار يوميا



■■ لا بد لفهم تلك الملاحظات والتوصيات من تقديم خلفية موجزة حول النفط العراقى الذى تم تأميمه عام ١٩٧٢ وانتفع بما تحقق فى ظل حرب أكتوبر ١٩٧٣ من رفع السعر من ٣ دولارات إلى نحو ١٢ دولارا، ومن ثم تراكمت لدى العراق وباقى دول الخليج فوائض نفطية كبيرة كان من الممكن استثمارها اقتصاديا للتحرر من السيطرة الغربية الأمريكية. غير أن الغرب أفلح فى إفشال المشروع العربى إذ اقتنصت مصارفه تلك الفوائض، وقامت بتجميد بعضها أو تآكلت قيمتها بالتضخم، كما نجح الغرب فى حصار أوبك من نواح عدة أفقدها الكثير من قوتها التفاوضية. فمن ناحية استدرجت الدول المصدرة للنفط لإنتاج فائض قامت الدول الغربية بالاحتفاظ به فى صورة مخزون استراتيجى لمواجهة أى انقطاع فى الإمدادات ولاستخدامه فى الضغط على الأسعار. ومن ناحية أخرى قام الغرب بترشيد استخدام النفط بحيث أمكن خفض الاستهلاك العالمى بنحو ٦ مليون ب/ى كما قامت شركاته بتكثيف البحث عن النفط فى دول خارج أوبك بحيث ارتفع إنتاجها بنحو ٨ مليون ب/ى. وكانت المحصلة تقليص نفط أوبك من ٣١ مليون ب/ى عام ١٩٧٩ إلى النصف وانهيار السعر فى ١٩٨٦ من ٢٨ دولارا للبرميل إلى ١٣ دولارا مع استمرار تآكله خلال الفترة ١٩٨٦-٢٠٠٣ بحيث لم يتجاوز السعر ٥ خمسة دولارات مقوما بدولار ١٩٧٣ الذى صححت فيه الأسعار من ٣ إلى ١٢ دولارا.

من ناحية أخرى، ولكى تتبخر مدخرات الدول العربية التى تساندها فيما لو اضطرت لخفض إنتاجها من النفط مساندة للأسعار، قامت الولايات المتحدة - التى تستهلك ربع إنتاج العالم وتستورد ربع وارداته - ببث الوقيعة التى أدت إلى اشتعال الحرب بين العراق وإيران على امتداد الفترة ١٩٨٠-١٩٨٨ وتحولت خلالها الدولتان من دول فوائض إلى دول مثقلة بديون باهظة. وبذلك فقدت قدرتها على تحمل انقطاع الإنتاج. ثم جاءت الطامة الكبرى بالتحريض الأمريكى لصدام حسين كى يحتل الكويت، وتتابعت الأحداث التى جرت المنطقة العربية إلى ما تعانيه اليوم من انكسار.

وتقدر الاحتياطيات المؤكدة للنفط العراقى بنحو ١١٢ مليار برميل، وهو ما يعادل ١٠٪ من الاحتياطيات العالمية، بالإضافة لنحو ١٠٠ مليار برميل كاحتياطيات محتملة. ويتميز النفط العراقى بضآلة مخاطر التنقيب نتيجة لاكتشاف عدد كبير من حقوله مما يجعله جاهزا للإنتاج وبنفقات ضئيلة.

وقد بلغ ما تم اكتشافه للآن نحو ٧٨ حقلا سوف تلحق بياناتها كملاحق بالقانون، وهى:

الملحق (١): ويضم ٢٧ حقلا منتجا حاليا وتتبع شركة النفط الوطنية العراقية INOC.

الملحق (٢): ويضم ٢٥ حقلا تم اكتشافها قرب التسهيلات الإنتاجية ولم تطور وتتبع شركة INOC.

الملحق (٣): ويضم ٢٦ حقلا تم

تراجع رئيسى لآلة الحرب الأمريكية الجهنمية - ٧٢٥ قاعدة عسكرية فى ١٣٢ دولة، وميزانيات عسكرية سنوية تبلغ ٥٠٠ مليار دولار، بالإضافة لمبلغ تريليون دولار جرى اعتمادها بالفعل لأنظمة تسليح جديدة. وبالفعل، فإن «المعارضة» الديمقراطية تعهدت بزيادة الإنفاق على الجيش.

كما أنه ليس من المحتمل أن يتحدى أى من الحزبين سطوة عمالقة الطاقة، أو يقف فى وجه مطالب الشعب الأمريكى من البنزين الرخيص والسيارات الكبيرة والاستهلاك غير المحدود لنسبة هائلة من نفط العالم. وفيما يتعلق بـ «وول ستريت Wall Street» (شارع المال فى أمريكا) فإن كلا من الحزبين كانا دوما قبلة الصفوة الاستثمارية، وطالما أرسلا الجيوش إلى جميع أنحاء العالم لحماية مصالحهم المالية. وسوف تستمر جماعات النفوذ التى تزايدت سطوتها كثيرا نتيجة لحرب بوش فى السيطرة على الأمور بغض النظر عن نتائج الانتخابات.

بالمناسبة، فإن الاعتقاد بأن كل ذلك قد حدث نتيجة لقيام عصبة صغيرة من المؤيدين المتطرفين - المحافظين الجدد - بالسيطرة على السياسة الخارجية الأمريكية لتحقيق أحلامهم الكبرى لـ «تحرير» الشرق الأوسط بالقوة وتدمير أعداء إسرائيل، هو محض هراء. إن جماعات نفوذ بوش كانت قد عقدت العزم بالفعل على انتهاج سياسة خارجية هجومية، وقد استغلوا المحافظين الجدد وحقيبة ألاعيبهم . بلاغتهم القوية وإخلاصهم التآمرى وصلاتهم المريبة فى الشرق الأوسط وإيمانهم بالقوة الغاشمة فى سبيل القضايا «الأسمى» . كأدوات وغطاء لمساعدتهم فى شن حرب طويلة الأمد لا علاقة لها بالديمقراطية أو الأمن أو أى عقيدة أخرى ذات صلة سوى سعى لا يرحم نحو الثروة والسلطة والرغبة العمياء للوصول لقمة السلطة.

وهكذا فإن بوش وجماعته قد فازوا حتى لو فشلت حملتهم وانزلق العراق إلى فوضى دائمة، أو تحول إلى دولة دينية متطرفة. وهم قد حققوا النصر بالفعل حتى لو اشتعلت المنطقة بأسرها ووصل الإرهاب إلى مستويات غير مسبوقة، لأن كل ذلك لن يمثل لهم سوى مزيد من التربح من الحرب والخوف. وهم فازوا بالفعل حتى لو خسروا أغلبيتهم فى مجلس النواب أو حتى فقدوا منصب الرئاسة عام ٢٠٠٨، لأن الحرب والخوف سيواصلان ملء خزائنهم وتوفير النفوذ والسلطة لهم أثناء تمضية الوقت فى ظل فترة من حكم «معتدل» للحزب الديمقراطى الذى لن يتمكن - فى أفضل الظروف - سوى من الاقتيات على أطراف الدولة العسكرية، إلى أن يعودوا للسلطة مرة ثانية. إن السبيل الوحيد لخسارتهم الحرب هى أن يتم القبض عليهم فعلا ويلقون فى السجون جراء جرائمهم فى الحرب. ونحن جميعا نعلم أن ذلك لن يحدث.

ولذلك فإن خيلاء بوش الواثقة وبياناته الرسمية المتواصلة غير الحاسمة حول الحرب وابتساماته المصطنعة اللطيفة ولا مبالاته غير الرحيمة تجاه الأهوال التى لا توصف والتى أطلقها من عقالها فى العراق، كل ذلك ليس من سمات خداع النفس أو الجهل المقصود أو الانفصال عن الواقع. فهو وشركاؤه فى الجريمة يدركون الواقع تماما ويحبونه.

المحتل!

اكتشافها بعيدا عن التسهيلات الإنتاجية ولم تطور ولا تتبع .INOC

كما يضم الملحق الرابع المناطق الاستكشافية القابلة للتنقيب ويبلغ عددها ٦٥ قطاعا ولكن لم يتم بعد اكتشاف ما تحتويه من النفط.

وفى ظل الخطة الخمسية الأولى ١٩٧٦-١٩٨٠ ارتفعت القدرة الإنتاجية إلى ٣.٨ مليون ب/ى عام ١٩٧٩، كما كانت الخطة الثانية تستهدف بلوغ الإنتاج ٥,٥ مليون ب/ى بحلول ١٩٨٣ إلا أن نشوب الحرب العراقية الإيرانية عطل تنفيذها، مع ذلك حافظ الإنتاج على مستوى ٣.٥ مليون ب/ى عام ١٩٩٠ كما حافظت صادراته النفطية على ٣ ملايين ب/ى خلال الربع الأول من العام المذكور، إلى أن تلقى الضربة المدمرة بنشوب حرب ١٩٩١ التى فرضت الحصار الدولى على العراق واقتصر إنتاجه على ما يفى باحتياجاته.

وبصدور قرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ عام ١٩٩٥ بالموافقة على برنامج النفط مقابل الغذاء عاد النفط العراقى يتدفق إلى الأسواق العالمية من ١٩٩٧، محققا نحو ٢.٣٤ مليون ب/ى سنويا خلال ١٩٩٨-٢٠٠٢، وإن كانت تلك الفترة قد لطخت بفساد طال عائداته كما طال الهيئات الدولية التى أشرفت على البرنامج.

وفى ٢٠٠١ بدأت محاولة لتحديث صناعة النفط العراقية التى تهالكت بعد أن حرمت لأكثر من عشر سنوات من قطع الغيار والأجهزة اللازمة لاستحداثها. وكان من أولويات تلك الخطة الحفاظ على قدرة إنتاجية فى حدود ٣.٥-٤ مليون ب/ى بالجهود الذاتية، مع الاستعانة بشركات عالمية لإضافة قدرة إنتاجية جديدة.

ومرة ثالثة تدمر الطاقة الإنتاجية للنفط العراقى بالغزو الأمريكى فى مارس ٢٠٠٣ وما تلاه من تخريب بحيث انخفض إلى نحو ١.٣٤ مليون ب/ى، كما عجز عن الوفاء باحتياجات المصافى المحلية مما اقتضى استيراد كميات متزايدة من المنتجات النفطية. وتطول قصة الفساد الذى أحاط بالمشروعات الأمريكية لإعادة تأهيل النفط العراقى من فساد على يد الشركات الأمريكية بقيادة Halliburton التى كان يرأسها تشينى نائب الرئيس الأمريكى، والذى انكشفت بعض أبعاده بالكتب التى أرسلها هنرى واكسمان عضو مجلس النواب الأمريكى الى جوشوا بولتن مدير الموازنة الأمريكية.



أما الآن، وبعد أن مضى على الاحتلال الأمريكى أربع سنوات، فان النفط العراقى ما زال يعانى من الكثير من المآسى وفقا للتقرير الذى أعدته جهة رقابية أمريكية US Government Accountability Office وأذيع جانب من محتوياته خلال شهر مايو ٢٠٠٧. ولعل أخطر تلك المآسى أن حجم ما يتم نهبه من النفط العراقى يتراوح بين ١٠٠ و٣٠٠ ألف ب/ى من جملة إنتاجه الذى يتعثر فى حدود مليونى ب/ى. وتتراوح قيمة النهب والسرقات بين ٥ و١٥ مليون دولار يوميا على امتداد السنوات الأربع الماضية، أى بإجمالى قد يصل إلى ٢٤ مليار دولار كما أكده المفتش العام العراقى على لسان السيد/ عاصم جهاد المتحدث باسم وزارة النفط العراقية خلال برنامج «حديث الساعة» الذى بثته الإذاعة البريطانية BBC يوم السبت ٢٠٠٧/٥/٥ وشارك فيه السيد/ عاصم مع كاتب هذه الملاحظات.

وتعتبر تلك السرقات المنظمة أخطر ما يصيب النفط العراقى. فالتخريب الذى يلحق بالمعدات والأنابيب على أيدى المقاومة العراقية لا تتجاوز خسائره كميات محدودة إذ يتوقف ضخ النفط فور انكسار الخط ويتم إصلاحه خلال فترة وجيزة، أما النهب المنظم فيتجاوز تلك الكميات بمراحل، فضلا عن اختلاف الهدف فى الحالتين، بين هدف نبيل وبين آخر يتسم بالخسة.

وتتسم تلك الخسة فى ضوء اعتماد العراق شبه المطلق على عوائده النفطية لتمويل احتياجاته وبخاصة الكهرباء والوقود والمياه التى حرم منها المواطن العراقى. ففى عام ٢٠٠٦ بلغت موازنة الدولة نحو ٤٠ مليار دولار مولت عوائد النفط نحو ٩٠٪ منها ويتوقع أن يتكرر الموقف عام ٢٠٠٧ . يأتى هذا على خلفية الوعود الوهمية التى تلقاها العراق فى مؤتمر مدريد أكتوبر ٢٠٠٣ وتعهدت فيه الولايات المتحدة بتقديم منحة ١٩ مليار دولار كما بلغت جملة التعهدات ٣٣ مليار وذلك لإعادة تأهيل قطاع النفط الذى قدرت نفقاته بنحو ٥٦ مليار دولار. فأين تلك المنح والتعهدات، وعلى أية صورة تم ما أنفق منها، وكيف يمكن للمواطن العراقى مواجهة تضخم يبلغ ٦٠٪ سنويا ودينار عراقى تهاوت قيمته إلى ١٢٦٠ لكل دولار، بينما كان يعادل ٣ دولارات قبل أن يقع فى الفخاخ الأمريكية؟

فى ضوء ما تقدم يمكن إبداء الملاحظات التالية حول مشروع القانون الذى أودع مجلس النواب بعد أن وافق عليه مجلس الوزراء ويتوقع أن يثور حوله الكثير من الخلاف السياسى والاقتصادى:

أولا ـ تأجيل اعتماد القانون إلى أن يتم إعداد منظومة نفطية متكاملة

بداية نرى إرجاء التصديق على القانون فى الوقت الحاضر وذلك للأسباب التالية:

(١) يحيل القانون فى مواضع مختلفة إلى قوانين مكملة تصدر مستقبلا، ومن أمثلتها قانون شركة النفط الوطنية العراقية، وقانون وزارة النفط الذى سيتم بمقتضاه إعادة هيكلة وارتباط الشركات والوحدات التنظيمية بالوزارة (المادة ٧ ب)، ثم ملاحق للقانون تتضمن نماذج للعقود التى يتم التعاقد على أساسها مع الشركات، سواء كانت عقود خدمة، أم عقود تطوير وإنتاج، أم عقود اقتسام الإنتاج PSA (المادة ٨ ت). ولما كانت تلك القوانين تعتبر أجزاء من منظومة نفطية متكاملة، فإنه يحسن إرجاء إصدار القانون الحالى إلى أن تعد القوانين المرتبطة به وتصدر جميعها فى منظومة



متكاملة وذلك تفاديا لوقوع تناقضات بين أجزاء المنظومة تعيد من جديد مناقشة القانون الأساسى وتعديله.

(٢) يعانى قطاع النفط العراقى فى الوقت الحاضر من فساد مستفحل على نحو ما ذكرنا. ومن المعروف أن الفساد المحلى لا ينتعش إلا إذا التقى بفساد دولى، إذ يصعب تسويق ما ينهب من النفط داخل الدولة المنتجة وإنما يلزم تصريفه فى أسواق خارجية بمعرفة أفراد أو شركات أجنبية. ومن هنا فان التوسع فى إنتاج النفط العراقى - وهو ما يستهدفه القانون المعروض - فى ظل الاحتلال الجاثم على صدر العراق من شأنه التشجيع على اتساع حلقة الفساد الحالى ولا يترك مجالا لمن يرغب فى محاربته، إذ تتكاثف حلقات الفساد الداخلية مع نظيرتها الأجنبية لنهب المزيد من الثروات النفطية.

(٣) ولعل مما يساند فكرة التأجيل ما جاء بتقرير US Government Accountability Office السابق الإشارة إليه مؤكدا لعدم وجود أجهزة لقياس النفط المنتج فى الحقول وفى أرصفة الشحن والتحميل (وهى الأجهزة المشار إليها فى المادة الرابعة الفقرات ٣٠ و٣٢ و٣٣ من مشروع القانون). ومؤكدا أيضا أن ما يوجد من تلك الأجهزة لا يعمل بالكفاءة المطلوبة. ولذلك نوصى بعدم التعاقد مع شركات أجنبية - حتى لو صدر هذا القانون الآن - قبل أن يتم إصلاح تلك الأجهزة والتأكد من أنها تعمل بالكفاءة المطلوبة.

(٤) وإذ تقضى أحكام القانون الدولى بعدم شرعية ما يبرم من اتفاقيات تتعلق بالثروات الطبيعية للدولة الخاضعة لاحتلال أجنبى، فإن ذلك من شأنه تثبيط رغبة الشركات العالمية ذات السمعة الطيبة فى الإقدام على إبرام اتفاقيات نفطية مع العراق فى ظل قانون يصدر أثناء خضوعه لاحتلال أجنبى. خاصة بعد أن صدق مجلس الأمن على وصف الولايات المتحدة كدولة احتلال. ولن يجدى فى ذلك ما نصت عليه المادة (٨ ث) من ضرورة بذل الجهود الحثيثة من أجل ضمان التطوير العاجل والفعال للحقول المكتشفة غير المطورة كليا او جزئيا عند تاريخ صدور هذا القانون بالتعاون مع شركات نفط ذات سمعة محمودة.

(٥) هذا، وتتفق توصيتنا بتأجيل القانون - مع اختلاف الأسباب - مع توصية تقدم بها للبرلمان العراقى بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٥ ووقعها نحو ٦٠ من خبراء النفط العراقيين المقيمين بالخارج. فقد طلب هؤلاء الخبراء بموجب خطاب مفتوح عقب المناقشات التى دارت فى اجتماع عقد بالأردن يوم ٢٠٠٧/٢/١٧ إرجاء النظر فى القانون إلى أن يمكنهم وغيرهم من المواطنين العراقيين مناقشة مشروع القانون ومعالجة أوجه النقص التى تشوبه، وذلك فى إطار من الشفافية والحرص على الصالح العام.

ثانيا - ملاحظات شكلية

(أ) إن لغة القانون تسهب فى الوصف باستخدام ألفاظ غير محددة المعنى فنيا مما يفسح المجال لالتقاط ما يحمل منها معانى مختلفة ويطلق الخلاف حول تفسيرها، وذلك على خلاف اللغة القانونية المستخدمة فى قوانين النفط فى مختلف الدول والتى تتسم بالدقة واستخدام لغة فنية ذات تعريفات محددة ومعان متفق عليها مما لا يسمح بالاختلاف حول تفسيرها.

(ب) إن الموضوع الواحد جرت معالجته بالتجزئة فى أكثر من مادة واستخدمت فى كل موضع لغة قد تفتح المجال للاختلاف حول تفسيرها. ومن أمثلة ذلك تناول وزارة النفط تحت المادة (٥ ت) ثم تفصيلا تحت المادة (٧). كذلك توزعت معالجة شركة النفط الوطنية العراقية بين المادة (٥ ج) والمادة (٦).

ثالثا - ملاحظات موضوعية

(١) أهم النقاط السلبية عدم النص على سلطة مجلس النواب فى التصديق على الاتفاقيات التى تبرم مع الشركات الأجنبية للتنقيب عن النفط وتطويره وإنتاجه، وذلك خلافا للقاعدة العامة المستخدمة تقريبا فى جميع الدول النفطية وهى ضرورة صدور كل اتفاقية بقانون - سواء كانت اتفاقية اتحادية أم اتفاقية إقليمية - وذلك لضمان موافقة ممثلى الشعب على الاستثمار الأمثل لثروة الشعب الأساسية والتى تمثل عائداتها أكثر من ٩٠٪ من موارد الدولة. ولا يكفى فى ذلك أن يعهد بهذه المسئولية إلى «المجلس الاتحادى للنفط والغاز» كما تقضى بذلك المادة (٥ ت)، إذ لا يعدو هذا المجلس أن يكون جزءا من السلطة التنفيذية، والتى تخضع لرقابة الهيئة التشريعية وفقا للمبادئ الدستورية الثابتة.

(٢) أما النص فى المادة (٥ أولا) على مصادقة مجلس النواب على الاتفاقيات النفطية الدولية التى تعقد مع الدول فإنه لا يشمل العقود التى تبرم مع الشركات للتنقيب عن النفط والتى ينبغى صدورها بقانون.

(٣) أوصى من واقع الخبرة الشخصية فى التفاوض على إبرام العقود النفطية أن ينص فى كل قانون يصدر باعتماد العقود التى تبرم مع الشركات على ما يلى:

إذا حدث بعد تاريخ السريان تغيير فى التشريعات أو اللوائح القائمة والمطبقة فى الدولة مما يكون له تأثير هام على المصالح الاقتصادية فى غير صالح الشريك الأجنبى، حينئذ يتفاوض الطرفان لتعديل الاتفاقية بما يعيد التوازن الاقتصادى الذى كان موجودا فى تاريخ السريان. ولا يجوز بأى حال من الأحوال أن تؤدى هذه التعديلات إلى انتقاص أو زيادة فى حقوق والتزامات الشريك الأجنبى عما تم الاتفاق عليه عند تاريخ السريان.

(٤) تقضى المادة الثانية من مشروع القانون على أن يستثنى من الخضوع له تكرير البترول وتصنيع الغاز واستخداماتهما الصناعية وكذلك خزن ونقل وتوزيع المنتجات النفطية. ونحن لا نرى مبررا لاستثناء هذه الأنشطة من الخضوع للقانون. وإذا كان لابد من معالجتها بطرق تتفق مع طبيعتها فلا مانع من استصدار قانون خاص بها يلحق بالمنظومة النفطية المتكاملة التى أشرنا إليها فيما سبق.

(٥) يلاحظ أن مسئوليات ووظائف وزارة النفط قد تم تحجيمها فى نطاق أقل مما يمنح عادة فى دول نفطية مماثلة، كما سلخ من إشراف الوزارة شركة النفط الوطنية التى صارت تتبع المجلس الاتحادى للنفط والغاز. وهذه نقطة ايجابية ورؤية سليمة بعدم إخضاع الشركات التنفيذية للوزارة وقصر مسئوليات الوزارة على تمثيل سلطة الدولة ومن ثم تضييق الفرص المتاحة لنمو الفساد.

(٦) كذلك يدخل فى نطاق الإيجابيات فصل نشاط شركة النفط الوطنية العراقية INOC واقتصاره على عمليات التنقيب والإنتاج دون تسويق هذا الإنتاج. فكما تقضى المادة (٥ ج أولا) تلتزم تلك الشركة ببيع حصتها من النفط الخام إلى شركة تسويق النفط SOMO بسعر التسليم الذى يغطى الكلفة بالإضافة إلى ربح معقول يمكن الشركة من التطور بصورة حيوية فى مجالى التنقيب والإنتاج. ذلك لأن توزيع العمل بين شركتين تتخصص كل منهما فى مجالها من شأنه رفع الكفاءة الإنتاجية ووضع الخبرات البشرية المتخصصة حيثما ينبغى أن تكون تحت إدارة مستقلة، بينما يؤدى دمج النشاطين تحت إدارة واحدة إلى انخفاض الكفاءة وتهيئة الفرص لانتشار الفساد كما يحدث فى الدول التى اختارت دمج النشاطين، على تفصيل لا يتسع المجال لمعالجته.

(٧) يجب أن تتضمن المادة (٦ ثالثا)



الفساد المحلى لا ينتعش إلا إذا التقى بفساد دولى، إذ يصعب تسويق ما ينهب من النفط داخل الدولة المنتجة وإنما يلزم تصريفه فى أسواق خارجية بمعرفة أفراد أو شركات أجنبية

نصا يتيح إعطاء الأولوية للشركة الوطنية فى الحصول على ترخيص للتنقيب والإنتاج فى مناطق جديدة خارج المناطق الخاضعة لعملياتها متى تعادلت شروطها مع شروط الشركات الأجنبية المنافسة.

(٨) يبقى أهم شرط لضمان الحرص على الصالح العام فى قطاع النفط، وهو نزاهة واستقلالية القائم بالتفاوض على العقود التى تبرم مع الشركات للتنقيب عن النفط وتنميته وإنتاجه. ذلك لأن نموذج العقد المعتمد بالقانون يترك فراغات لا تملأ إلا بالتفاوض. ومن ذلك كمثال حجم ما يحصل عليه الشريك الأجنبى سدادا للنفقات التى يقوم بإنفاقها على التنقيب والإنتاج، ومدة استرداد تلك النفقات، وحجم ما يحصل عليه الشريك الأجنبى كحصة فى الإنتاج مقابل أرباحه، وأسعار الغاز الذى تحصل عليه الدولة من نصيبه لأغراض الاستهلاك المحلى، وحجم ما تلتزم به الشركة المنتجة كإتاوة Royalty تحصل عليها الدولة بمجرد استخراج النفط مقابل نضوبه وباعتبارها ثمنا للخام مستقلا عن التكاليف وذلك بصرف النظر عما يلحق بالنفط من ربح أو خسارة. كذلك يقضى مشروع القانون بتصفية الشركات المؤهلة للتعاقد على التنقيب والتطوير فى صورة قائمة مختصرة Short list (المادة ٩ ب سابعا).

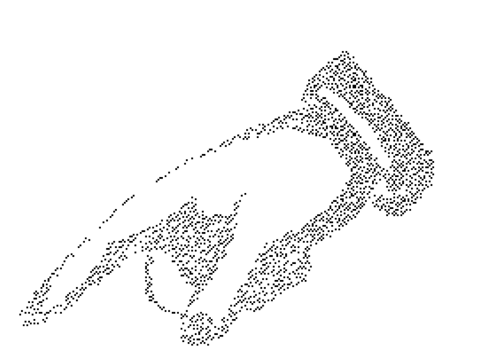
(٩) وفى اعتقادنا أنه سيكون صعبا، إن لم يكن مستحيلا، أن يحتفظ المفاوض العراقى باستقلال قراره أثناء التفاوض مع الشركات فى ظل احتلال أمريكى سيحاول دون شك إسناد أهم أنشطة النفط العراقى للشركات الأمريكية وبشروط سخية تخدم الاقتصاد الأمريكى أكثر مما تخدم الاقتصاد العراقى.

(١٠) تتضمن المادة ١٠ (آليات التفاوض والتعاقد) مددا قصيرة للتفاوض وتقييم العقود تلزم بها الأجهزة المشاركة فى تلك العمليات. وتشمل تلك الأجهزة شركة النفط الوطنية، والهيئة الإقليمية، والوزارة، والمجلس الاتحادى، ومكتب المستشارين المستقلين الذى يتبع المجلس. ويقضى النص باعتبار الاتفاقية موافقا عليها تلقائيا إذا انقضت المدد المقررة دون إجابة. وفى رأينا أن تلك المدد تحد من كفاءة عمليات التقييم، وخاصة عندما تزدحم الاتفاقيات فى وقت واحد نتيجة لطرح عدد كبير من القطاعات فى المناقصات العامة. ولذلك نوصى بعدم تحديد مدد لهذه الأنشطة وتركها لتقدير الجهات القائمة بها والتى يفترض أنها تتمتع بجانب كبير من الخبرة والمسئولية، مما يجعلها أكثر دراية بالمصلحة العامة.

(١١) أخيرا، يتردد فى وسائل الإعلام أن حكومة إقليم كوردستان KRG تعترض على القانون وتحاول الانفراد بالسيطرة على الحقول الواقعة فى نطاق الإقليم بدءا بإبرام الاتفاقيات مع الشركات الأجنبية وانتهاء بالعوائد النفطية، وأن تلك الحكومة تهدد باستئناف التفاوض مع الشركات وإبرام التعاقد معها إذا لم يصدر القانون محققا لمطالبها. وفى هذا المجال نرى أن السيطرة على قطاع النفط يجب أن تكون مركزية وأن تجزئته بين سلطات مختلفة داخل الدولة الواحدة يؤدى إلى نتائج سلبية خطيرة لا يتسع المجال لسردها. ومن التجارب التى تؤكد رؤيتنا ما قام به شافيز رئيس فنزويلا من إصلاحات فى قطاع النفط الذى استقطبته الشركات الأمريكية على امتداد عشرين عاما وحرمت الدولة من ثمار ثروتها الطبيعية الأساسية، حتى وهى فى أشد الحاجة إليها. وكان من أهم تلك الإصلاحات استعادة مركزية السلطة المشرفة على قطاع النفط. وقد قمنا بشرح أبعاد تلك التجربة بالتفصيل فى دراستنا المنشورة بعنوان «فنزويلا .. الدولة الرائدة بين مصدرى النفط، فى التقرير السنوى «الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية»، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بدار الأهرام المصرية، يناير ٢٠٠٧ .

(١٢) أما باقى مواد القانون فإنها تنظم الأمور الفنية، والتى تتضمنها عادة أغلب قوانين النفط فى الدول المنتجة للنفط، وهى مواد نمطية ومقبولة ولا تحتاج منا لملاحظات. ■





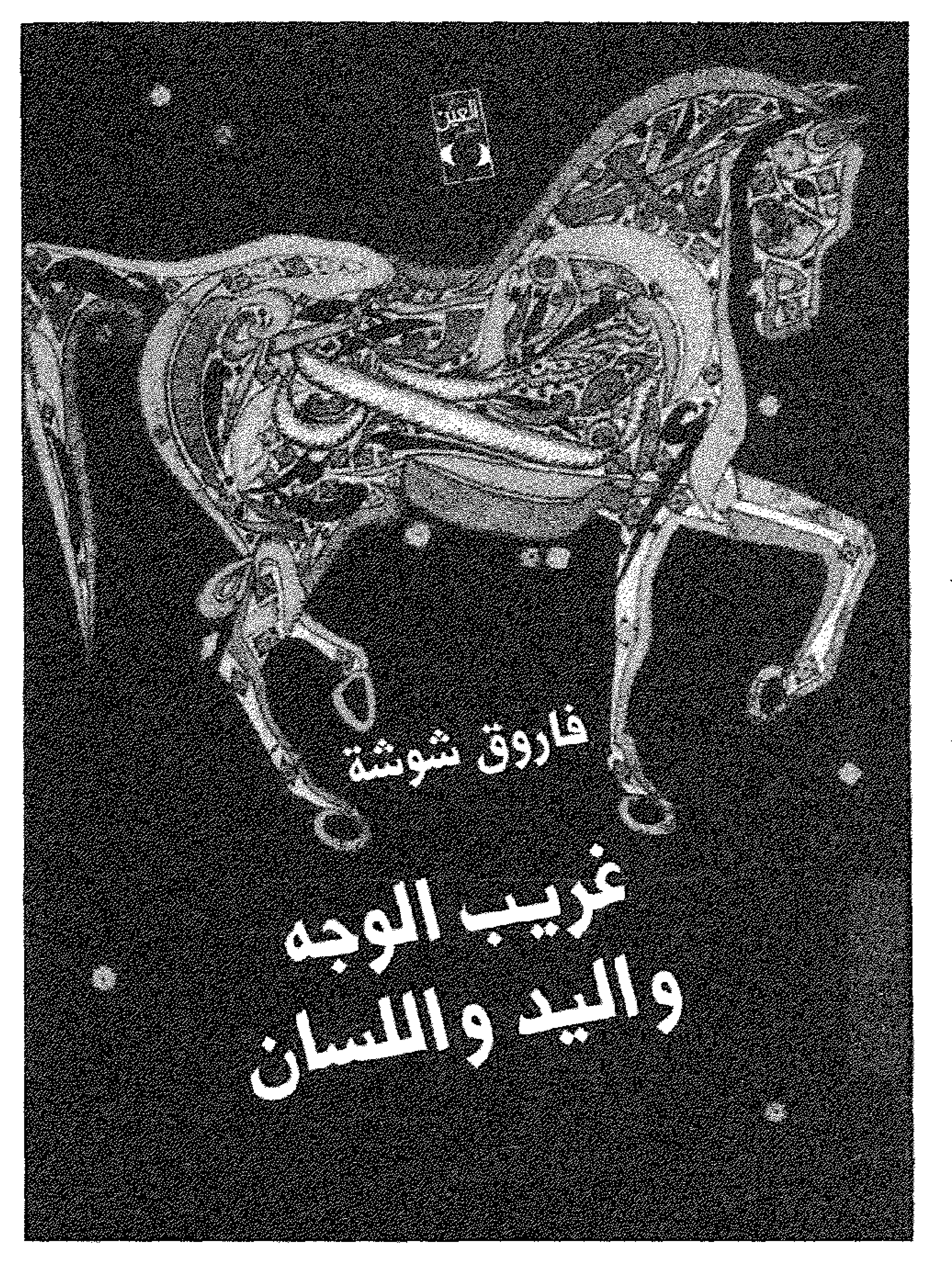
اجتماع شارع الطلمبات

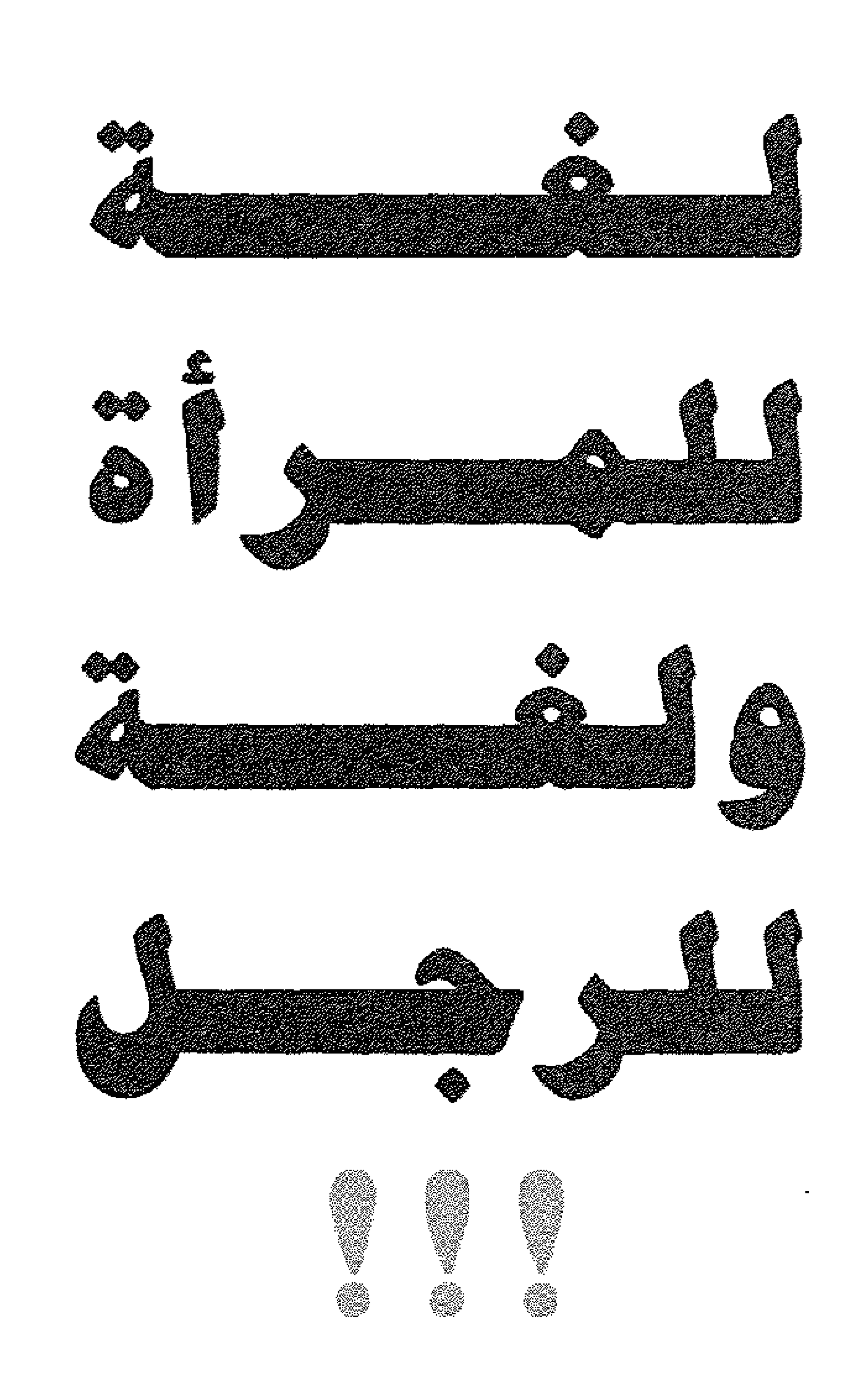
مذكرات اللورد كيلرن

وحينما وصلنا إلى ١٠ شارع الطلمبات اجتمع مجلس دفاع الشرق الأوسط للنظر فى جدول الأعمال، وعندما تعرضنا لموضوع الشئون الخارجية، شرحت إلى المجلس تطور الأحداث الجارية، وكنت أرغب فى استطلاع وجهات نظرهم فى حالة إعطاء فرصة أخرى للنحاس ليقابل الملك، ولقد كانت المناقشة مفيدة للغاية، ووافق الجميع على أن أقابل حسنين فوراً (وقد حددت موعداً لذلك بالتليفون) وأبلغته بهذه الرسالة الشفوية وهى: «ما لم أسمع قبل الساعة ٦ مساء اليوم بأنه تم تكليف النحاس بتشكيل الحكومة، فإن جلالة الملك فاروق عليه أن يتحمل تبعات ذلك».

ثم ناقشنا بعد ذلك بعض التفصيلات الأخرى، وقد وافق المجتمعون بأن جلالته ما لم يذعن وينفذ هذا الإنذار قبل الساعة ٦ مساء فإن القوات البريطانية ستتحرك لاتخاذ مواقعها المحددة، وعند هذا الحد من النقاش كلف الجنرال ستون Ston بالتعليمات اللازمة ولكى نعطى له فسحة كافية من الوقت، فقد حددنا الساعة ٨ مساء لكى أنزل أنا وستون وبعض المرافقين، متجهين إلى القصر، وعندئذ نخبر الملك بأنه يجب أن يقدم تنازله عن العرش.

ومن أجل أن نمنع حدوث أى اضطرابات أخرى تعوق تنفيذ مهمتنا فإن بعض الحراس سوف يرافقوننا إلى داخل القصر، وقد ناقشنا كل الاحتمالات والحيل التالية والمتوقع حدوثها، وكانت خطتنا واضحة، بأننا سوف نأخذ الملك معنا بعيداً، سواء تنازل عن العرش أو لم يتنازل، مع ملاحظة أن وثيقة التنازل عن العرش جاهزة فى جيبى.





فاروق شوشة

■■ لماذا يجعلنا الموت المباغت نعود إلى كتابات من رحلوا من الأصدقاء والأحباء، نقرؤها فى ظل إحساس عارم بالفقد، ونرى فيها ما لم نكن نراه فى حياتهم، حين كنا نكتفى بالنظرة العابرة أو التصفح السريع، ولا نعطى لما يكتبونه أو يبدونه ما يستحقه من نظر واهتمام؟ ها نحن أولاء أبناء جيل تمرس بالكتابة طويلاً، زمناً يتراوح بين عقود أربعة أو خمسة، نعيش جميعاً هذه الحال من الأسف والندم ولوم النفس، حين نكتشف - بعد فوات الأوان - أن الذين أهدونا كتبهم وإبداعاتهم - فى مناسبات شتى - كان من حقهم علينا أن يظفروا بكلمة تعبر عن اهتمامنا بما كتبوا، وانشغالنا بما أنجزوا وأضافوا، بدلاً من الصمت المطبق، نلوذ به ونعتصم، ربما لأننا لم نجد الفرصة المواتية - فى زحام الشواغل والهموم والضغوط اليومية - للقراءة الهادئة المتأنية، أو حتى القراءة العابرة. وربما قرأنا وأمسكنا عن الكلام بخلاً أو تجاهلاً أو نسياناً، دون أن نحس بما يحدثه هذا التجاهل أو البخل أو التناسى من أسى موار عند من كان ينتظر كلمة تشير، أو لفتة تضىء، أو تعليقاً يوحى بالإقبال والاهتمام، ولكن دون جدوى.

هذه حالى مع الصديق العزيز العالم اللغوى، فقيد مجمع اللغة العربية والدراسات اللغوية، الدكتور أحمد مختار عمر، عندما اضطرنى رحيله المفاجئ وتكليف المجمع لى بتأبينه، إلى إعادة قراءته من جديد، وقراءة ما كنت قد عبرته -حين أهدانى إياه- فى قراءة سريعة، مؤملاً أن أعود إليه فى يوم من الأيام. ومن بين هذا الجديد كانت كتبه ومؤلفاته: لغة القرآن، ومعاجم الأبنية فى اللغة العربية، ومعجم القراءات القرآنية، واللغة واختلاف الجنسين.

هأنذا أعود إلى كتابه «اللغة واختلاف الجنسين» متأملاً فى البداية المنهج الذى صممه لكتابه، من خلال ثلاثة أبواب يتناول أولها بعض المباحث التمهيدية فى فصلين اثنين هما: أثر العوامل الاجتماعية فى اختلافات الجنس اللغوية ودور الحركات النسائية ومظاهر اهتمامها بلغة المرأة. أما ثانيها فيتناول نظرة اللغة إلى الجنس وكيفية تعاملها مع ظاهرة التذكير والتأنيث فى فصول ثلاثة هى: تصنيفات الجنس، واللغة بين الحياد والتحيز للذكورة، واللغة العربية بين الجنس النحوى والجنس الطبيعى. أما ثالث هذه الأبواب فيعرض الجانب الثانى من القضية، وهو تعامل الجنس مع اللغة، والخصائص التى تميز طريقة كل جنس فى هذا التعامل. وقد ضم هذا الباب مستويات التحليل اللغوى الثلاثة: الصوتية واللفظية والتركيبية مضيفاً إليها فصلاً رابعاً ضم جملة من الخصائص اللغوية الأخرى التى ترددت فى كلام الدارسين، وهى اختلاف الموضوع والمضمون، واتصاف المرأة بالثرثرة، والتدخل فى حديث الآخرين ومقاطعتهم، وميلها إلى الابتداع والخروج عن المألوف. ثم هو يتبع هذا الفصل بفصلين آخرين لم تتناولهما التحليلات السابقة وهما: الاختلاف بين الرجل والمرأة فى استخدام وسائل التفاهم غير اللفظية، واختلاف لغة الطفل باختلاف جنسه.

أحمد مختار عمر يدرك منذ احتشاده لموضوع كتابه، الذى هو أول كتاب بالعربية فى موضوعه، أنه يخوض فى مجال ليس وقفاً على علماء اللغة والاجتماع والأنثروبولوجيا، فقد دخل الميدان علماء النفس والتربية والأسلوبية والنقد الأدبى، فضلاً عن مشاركة الحركات النسائية، ودعوات المساواة بين الجنسين وتحرير المرأة - بكل ثقلها - منذ الستينيات. كما يدرك أن هذه الدراسة الجديدة - التى لم تلق اهتماماً من الباحثين العرب حتى الآن - سوف تلقى الضوء على جانب من علم اللغة الاجتماعى، وأنه لابد له من الإجابة عن تساؤل غائب هو: هل هناك لغة نسائية؟ فى مقابل التساؤل المطروح دائماً: هل هناك أدب نسائى أو نسوى؟

من الناحية التاريخية يشير الدكتور أحمد مختار عمر إلى كتاب «روبين لاكوف» الذى صدر فى عام ١٩٧٣ بعنوان: اللغة العربية ومركز المرأة، باعتباره بذرة لدراسات تالية، وإلى أهم كتاب صدر فى الثمانينيات عام ١٩٨٦ من تأليف جنيفر كوتس بعنوان «النساء والرجال واللغة»، وكانت المؤلفة تشغل درجة محاضر أول فى اللغة الإنجليزية وعلم اللغة فى أحد معاهد لندن، بعد أن نشرت بحثاً فى الموضوع نفسه عام ١٩٨٤ بعنوان: «اللغة والتحيز الجنسى». تقول فى كتابها: «إن

غريب الوجه
واليد واللسان
فاروق شوشة
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧

اللغة واختلاف الجنسين
أحمد مختار عمر
القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٦

فيما يتصل بالثرثرة وكثرة الكلام تعرض الدراسات لعبارات شاعت فى عدد من اللغات مثل: حين توجد امرأة لا يوجد صمت، الثعالب ذيل فقط والنساء لسان فقط، اللسان هو سيف المرأة وهى لا تتركه مطلقاً حتى يصدأ، يمشى الرجل ميلاً بعد العشاء أما المرأة فتفضل أن تتكلم ساعة



الاختلافات اللغوية مجرد انعكاس للاختلافات الاجتماعية، وما دام المجتمع يقدم كلا من المرأة والرجل على أنهما جنسان مختلفان، وغير متساويين، فستبقى الاختلافات اللغوية بين الاثنين».

عن اللغة بين الحياد والتحيز للذكورة يقول أحمد مختار عمر: لما كانت معظم المجتمعات تفضل الذكر على الأنثى، وتتعامل مع الرجل على أنه أكثر قيمة من المرأة، فقد ظهرت هذه النظرة الدونية للمرأة فى التصنيفات اللغوية، ومن بينها التصنيف على أساس الجنس، فمعظم اللغات التى تفرق بين المذكر والمؤنث بلاحقة إضافية تتخذ من صيغة المذكر أصلاً ومن صيغة المؤنث فرعاً، ويندر العكس. ومعظم الثنائيات المعطوفة تبدأ بالمذكر، فيقال: شمشون ودليلة، روميو وجولييت، قيس وليلى، أنطونيو وكليوباترة، حسن ونعيمة، عنتر وعبلة، ياسين وبهية، الصفا والمروة، ويقل العكس مثل ليلى والمجنون، ناعسة وأيوب، عزيزة ويونس، شفيقة ومتولى. وقد اطرد الاستعمال القرآنى على تقديم الذكر على الأنثى فى كل الآيات التى اجتمعا فيها مثل: ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى. يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى. «كما اطرد فى الآيات التى يجتمع فيها ما يدل على الذكور وما يدل على الإناث مثل: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، إن الصفا والمروة من شعائر الله، والذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ولم يخرج القرآن عن هذا النمط إلا لحكمة».

وحين يجتمع الذكر والأنثى ويراد الجمع بينهما فعادة ما يغلب الذكر على الأنثى، كإطلاق العرب الأبوين على الأب والأم، والقمرين على الشمس والقمر، والموصلين على الجزيرة والموصل، والأذانين على الأذان والإقامة، والعصرين على الغداة والعصر، والفراتين على نهرى دجلة والفرات..

وتقضى قواعد اللغة العربية بأنه إذا اجتمع المذكر والمؤنث وأريد الإخبار عنهما غُلب المذكر، فمثلاً تقول: الرجل والمرأة قاما، قالوا: لأن المذكر هو الأصل والمؤنث مزيد عليه.

وتقول: محمد وفاطمة ابنا علىّ فعلا كذا وكذا، فتغلب المذكر على المؤنث فى النعت كذلك.

ويشير الدكتور أحمد مختار عمر إلى اتفاق معظم علماء الأصوات على وجود مكونات صوتية تميز صوت المرأة عن صوت الرجل يمكن أن تسمى البصمة الصوتية للجنس، وحدد العلماء عدداً من هذه المكونات أو الخصائص الصوتية التى تميز نطق كل جنس. من بينها حدة صوت المرأة بالنسبة لصوت الرجل نتيجة قصر الوترين الصوتيين عندها وقلة ضخامتهما بالنسبة لوترى الرجل، الأمر الذى يؤدى إلى زيادة سرعتهما وزيادة عدد ذبذباتهما فى الثانية، وهذا بدوره يؤدى إلى حدة الصوت. ولا يمكن التمييز بين أصوات الجنسين فى مرحلة الطفولة المبكرة حتى إن الأم لا تستطيع أن تميز بين صراخ البنت وصراخ الولد حتى سن السادسة، وتعد السنة الحاسمة لتمييز صوت الذكر عن الأنثى هى الثانية عشرة للبنات وأكبر من هذا قليلاً للأولاد.

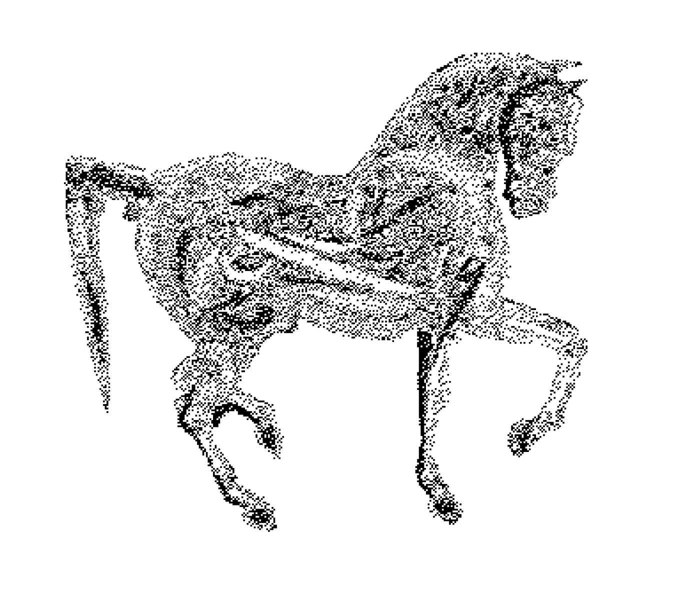


من بينها أيضاً تليين بعض الأصوات وبخاصة المفخم منها، ونطقها بطريقة تنحو بها نحو نظيراتها المرققة، كما يحدث فى كلمات مثل: القرآن، والقاهرة، والطيور، والضعيف، والصراخ. ولعل هذا هو الذى عناه القرآن الكريم حين نهى نساء النبى عن إخضاع القول فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض فقد فسر القرطبى الإخضاع بترخيم الصوت وتليينه. ونص علماء التجويد على ضرورة تفخيم الأصوات عند القراءة. وفُسر التفخيم بأن يقرأ على قراءة الرجال، ولا يخضع الصوت فيه ككلام النساء.

من بينها أيضاً ما لوحظ من أن النساء أكثر ميلاً لاتباع «المودة» أو طريق النطق الحديث، ولذا عد بعضهم دور المرأة فى التطوير الصوتى أكثر خطراً من دور الرجال. وفسر ذلك بأن النساء لا يعشن جيلهن فحسب، بل يشاطرن الأجيال الناشئة حياتها كذلك، فهن أكثر من الرجال صلة بالأطفال والفتيان. ومعنى هذا أن البيئة اللغوية للمرأة هى بيئة الجيل الجديد، بينما البيئة اللغوية للرجل هى بيئة الشباب والكهول والشيوخ. كما أثبتت التجارب أن المرأة تملك القدرة على إحداث تنوعات فى درجة صوتها، وفى نماذجها التنغيمية، بما يسمح لها أن تستعمل تنغيمات معينة لا يستعملها الرجال عادة مثل نموذج الدهشة الذى يبدأ مرتفعاً ثم ينخفض.

كما أنها تميل إلى استخدام التنغيمات الدالة على التساؤل وطلب المساعدة، وهى نماذج تحب المرأة أن تستعملها.

ويشير المؤلف إلى أن الغالبية العظمى من الدارسين تذهب إلى وجود عدد من الخصائص التركيبية والأسلوبية تميز لغة المرأة من لغة الرجل مثل: استخدام نغمة الاستفهام مع الجمل الخبرية وما يمكن أن يسمى الكلام المائل. واستخدام الأسئلة التذييلية والأسئلة المركبة، واستخدام الصفات الحشوية الضعيفة، والصفات الفارغة، والكلمات العديمة المعنى، والمبالغة فى الكلام، والاستعانة بالكلمات الدالة على التقوية. واستخدام الصيغ المبالغة فى التأدب، والميل نحو الأساليب غير التأكيدية، واستخدام عدد من أساليب التعجب بصورة متكررة، والطلاقة فى التعبير والإقلال من استخدام أسلوب الأمر المباشر، واستعمال الأفعال السكونية، وكثرة استعمال الأفعال المبنية للمجهول، والميل نحو العبارات الاسمية لا الفعلية، وتفضيل صيغة التصغير، واستخدام الجمل الناقصة، وعدم ربط الجمل وترتيب بعضها على بعض.



معظم اللغات التى تفرق بين المذكر والمؤنث بلاحقة إضافية تتخذ من صيغة المذكر أصلا ومن صيغة المؤنث فرعاً، ويندر العكس



من الخصائص الأخرى التى تميز لغة المرأة من لغة الرجل، ما كشف عنه تحليل الموضوع والمضمون. والثرثرة وكثرة الكلام والتدخل والمقاطعة والسيطرة على الحديث، والميل إلى الابتداع والخروج على المألوف.

تقول نتائج الدراسات التحليلية لمضمون الأحاديث التى يمارسها كل من الرجال والنساء إن الرجل يهتم أكثر بموضوعات العمل والسياسة والدين والقانون والضرائب ومصاريف المنزل والأجهزة الإلكترونية وأنواع الرياضة والصحة والعلاقات الإنسانية والسيارات والتنافس والعدوانية الجسمية والتفوق والمال والوقت والفضاء والمدركات الحسية والترفيه. بينما تهتم المرأة أكثر بموضوعات الحياة الاجتماعية والكتب والشراب والطعام ومتاعب الحياة والعناية بالزوج والبيت والأسرة والسن والمشاعر الخاصة والغسل والحياكة وأعمال المطبخ والملابس والديكور والنساء الأخريات.

وفيما يتصل بالثرثرة وكثرة الكلام تعرض الدراسات لعبارات شاعت فى عدد من اللغات مثل: حين توجد امرأة لا يوجد صمت، الثعالب ذيل فقط والنساء لسان فقط، اللسان هو سيف المرأة وهى لا تتركه مطلقاً حتى يصدأ. يمشى الرجل ميلاً بعد العشاء أما المرأة فتفضل أن تتكلم ساعة، بُح بسرك لامرأة تبح به للعالم كله، قوة المرأة فى لسانها، لا يوجد شىء أغرب من رجل ثرثار وامرأة نزرة الكلام!

وعلى الرغم من شيوع هذه المقولات فقد ثبت من التحليل لأحاديث كثير من الرجال والنساء عكس ذلك تماماً. فقد توصل نيكولاس إملر خبير علم النفس البريطانى فى دراسة نشرتها الصحف عام ١٩٧٧ إلى أن الرجل أكثر ميلاً إلى الثرثرة وكثرة الكلام من المرأة. وإن كان يغلف حبه للكلام بادعاء إلمامه بالسياسة! وفى بعض المؤتمرات المتخصصة تبين أن الوقت العادى لمن تُعلق من النساء كان أقل من نصف الوقت الذى استعمله الرجال. وفى أبحاث أجريت فى أعوام ١٩٥٧، ١٩٦٦، ١٩٦٨، ١٩٧٥ لقياس مدار الكلام، تبين أن الرجال قد تكلموا أكثر.. وفى دراسة تحليلية قام بها «أوتو سوندر» لعدد من المناقشات التى ضمت مجموعة من الرجال والنساء تبين أن عدد



الكلمات التى نطقها الرجال كانت أكثر من تلك التى نطقتها النساء.

وهى نتائج يثبتها الدكتور أحمد مختار عمر فى كتابه «اللغة واختلاف الجنسين» لينصف المرأة، ويفند كثيراً من المقولات الشائعة التى تتهمها بالحق وبالباطل.

هل المرأة متفوقة لغوياً

أ - ما زلنا مع العالم اللغوى الراحل الدكتور أحمد مختار عمر فى دراسته الرائدة «اللغة واختلاف الجنسين» وكتابه الذى يعد أول كتاب عربى يتناول قضية العلاقة بين اللغة والجنس من جانبين متكاملين هما: نظرة اللغة إلى الجنس وكيفية تعاملها مع ظاهرة التذكير والتأنيث من ناحية، وتعامل الجنس مع اللغة، والخصائص التى تميز طريقة كل جنس فى هذا التعامل من ناحية أخرى. ويحاول الكتاب الإجابة عن التساؤل الغائب: هل هناك لغة نسائية؟ فى مقابل التساؤل المطروح دائماً: هل هناك أدب نسائى أو نسوى؟

يضيف المؤلف إلى ما لاحظه العلماء من وجود اختلافات بين الرجل والمرأة فى اللغة اللفظية - والمقصود باللغة غير اللفظية الإشارات التى تجمع تعبيرات الوجه (بإمكان الجهاز العضلى الوجهى أن يصدر نحو مائتى ألف تعبير وجهى مختلف) التحديق، والملامسة، وحركة الجسم، ووضعه وغير ذلك مما يدخل تحت علم «الحركيات»، وكذلك الإشارات النطقية - غير اللفظية - التى تتمثل فى استخدام الصفات المميزة للصوت، والتى يمكن أن تحمل معنى، وتعطى إشارات صوتية منطوقة ذات خصائص معينة، ويشمل ذلك: ارتفاع الصوت، ورنينه، ومعدل سرعته ومجال درجة الصوت، ونوعية الصوت، واستمراريته، وغير ذلك مما يدخل تحت تنغيمات الصوت ومحدداته من ناحية: الشدة - الدرجة - العلو، وكيفياته من ناحية أخرى: السرعة - الرنين - مجال درجة الصوت. كما يشمل أيضاً عدداً من الصفات المميزة، مثل الوشوشة (التى تدل على أن المتكلم ينقل معلومات خاصة) وعكسها الصياح (الذى يدل على أن المتكلم يوسع من مجال نظامه الاتصالى) كذلك مما يدل على عدم الطلاقة أو أن المتكلم واقع تحت ضغوط ما مثل السكتات والأصوات الحشوية أو الطفيلية التى تتمثل فى التكرار والتهتهة أو اللعثمة وعثرات اللسان، وإدخال أصوات مثل آآآ أو آه أو حسَن، والتنهد أو التثاؤب والنفخ لطرد الهواء وإحداث صوت باللسان علامة عدم الرضا وغير ذلك.

ويعرض المؤلف لما خرجت به الدراسات العديدة من نتائج تؤكد جوانب لاختلافات الجنس فى تعبيرات الوجه تشمل حجم الاستخدامات لهذه التعبيرات، من أمثلة ذلك ما ثبت من استخدام المرأة للتبسم والضحك أكثر من الرجل، واستخدامها للتحديق أو النظر بصورة أكثر كذلك، كما تشمل استخدام المرأة لحركات وجهها بصورة أكثر تعبيرية للدلالة على الحرارة أو الصداقة أو البهجة أو بث الهدوء فى نفس السامع، أو إحراز موافقته، كما ثبت أن المرأة تنتج نماذج أكثر من التقطيب والعبوس وغيرهما، الأمر الذى يدخل تحت التعبير الوجهى السلبى.



وأن المرأة تستخدم التحديق أو إدامة النظر - سواء أثناء الاستماع أو أثناء الكلام - بصورة تزيد على الرجل فى حالة الصداقة والتواصل المريح، أو حالة قرب المسافة بينها وبين جليسها.. وأن المرأة تفضل إطالة النظر على تكراره بعكس الرجل الذى يفضل تكرار النظر على إطالته. كما توجد جوانب لاختلافات الجنس كذلك بالنسبة لحركة الجسم ووضعه، فالنساء يملن إلى الاحتفاظ بأرجلهن متلاصقة على عكس الرجال، والنساء يملن إلى حمل كتبهن أمام صدورهن، فى حين يفضل الرجال حملها بجانبهم، ويقال دائماً إن النساء يتحركن بطريقة أنثوية، ودون إفراط فى حركاتهن الجسمية، فى حين أن الرجال يتجنبون الحركات الناعمة، ويملكون حرية أكثر فى حركاتهم الجسمية مثل الاتكاء والميل إلى الوراء وتحريك الجزء الأسفل من الجسم والاسترخاء والجلوس، ووضع الذراعين بين الرجلين، وتشبيك الأصابع ومسح الأنف.

وفى مجال السلوك الحوارى أو التدخل فى كلام الآخرين ومقاطعتهم أو أخذ الدور خلال الحوار أو قطع الصمت (حين يوجد صمت) بأخذ المبادرة فى الكلام، أثبتت الدراسات أن الرجال يستخدمون المقاطعة أكثر من النساء، بالإضافة إلى إكثارهم من التعليقات المتداخلة. أما النساء فيكثرن من التدخل حين تكون تدخلاتهن استفهامية أكثر. كما يختلف معدل التشابك والتداخل فى الثنائيات المتحدة الجنس (أى عندما يكونان رجلين أو امرأتين) عنه فى الثنائيات المختلفة. ففى دراسة تحليلية أجراها العالمان: وست وزيمرمان شملت عشرين ثنائياً من الجنس نفسه وأحد عشر ثنائياً مختلطاً كان عدد التداخلات فى الأول ٧ فقط، ووصل إلى ٤٨ فى الثانى، خص الرجال منها ٤٦ تداخلاً والنساء تداخلان اثنان فقط.

وفيما يتصل بالطلاقة المنطقية أو المقدرة التواصلية أثبتت الدراسات أن الرجال يميلون إلى كثرة الكلام عن النساء، وأن تفوق المرأة فى استخدام التعبيرات العاطفية غير اللغوية وفهمها جاء نتيجة عوامل بيئية واجتماعية بالإضافة إلى بدء كل من الجنسين حياته بقدرات مختلفة تتعلق بالاكتشاف والاستجابة لإشارات الآخرين. وأن حساسية المرأة للإشارات غير اللفظية نبعت من حاجتها إلى الفهم الدقيق لأنواع السلوك سواء كان لفظياً أو غير لفظى، مثل أية مجموعة مسلوبة النفوذ لابد أن تعرف كل السلاسل التى تربطها والقيود التى تتحكم فيها، ولأنهن يندمجن - عادة - مع مراكز القوة كزوجات أو سكرتيرات، ولحاجتهن إلى معرفة كل ما يؤثر فى حياتهن والاستفادة من هذه المعرفة فى صراعهن من أجل التحرير. فضلاً عن أن الإشارات - غير اللفظية - تمد المرأة بمرونة فى التعبير عن نفسها أكثر مما تمدها به الإشارات اللفظية، نتيجة لإحساسها بقيود عليها فى تراكيب اللغة - التى هى من وضع الرجال غالباً - فيصرفها ذلك إلى التعبير غير اللغوى تعويضاً عن نقص الجانب اللفظى فى التعبير.

كذلك فإن تفوق المرأة فى إرسال الإشارات غير اللفظية واستقبالها ظهر نتيجة حاجتها إلى فك شفرة الإشارات غير اللفظية التى يصدرها الطفل للتعبير عن العاطفة أو القصد أو الحاجة. وقد ساعدتها المهارات التى تكونت نتيجة رعايتها للطفل، على الحساسية فى التعامل مع الآخرين.

وخلاصة هذه الأبحاث - كما يوردها مؤلف الكتاب - أن الإناث أفضل من الذكور فى حل الشفرة غير اللفظية، وفى التعرف على الوجوه، وفى التعبير عن الانفعالات من خلال التعبير غير اللفظى. وأنهن يملكن كذلك وجوهاً أكثر تعبيراً ويبتسمن أكثر ويستخدمن حركة الجسم وأوضاعه التى تدل على التعلق أو الصراحة بصورة أقل من الرجل، وتلك التى تدل على الانهماك أو التوضيح أو الإحساس بالذات بصورة أكثر من الرجل. وأخيراً فهن يقعن فى أخطاء نطقية أقل، ويستخدمن كلمات حشوية لملء الفراغ بصورة أقل.

من أطرف فصول الكتاب ما يتعرض لاختلاف الجنس والتفوق اللغوى، مشيراً إلى أن كثيراً من الدارسين يميلون إلى إثبات تفوق البنت على الولد لغوياً، فالبنات الصغار - بوجه عام - يتكلمن قبل الأولاد وأسرع منهن، وأنهن يتفوقن عليهم فى الصحة اللغوية، وأن نطقهن لا يتأثر بالعادات السيئة أو اللامبالاة التى تميز عادة نطق الأولاد.

كما أيدت الدراسات وجود اختلاف فى صالح البنات بالنسبة لوجود جوانب اللغة تقريباً: (النطق - طول الجملة - المفردات - الطلاقة اللفظية - تركيب الجمل - التزام القواعد النحوية - الهجاء). وذكرت بعضها أن مرحلة النضج اللغوى تتأخر عند الولد بنحو ستة أشهر



تقضى قواعد اللغة العربية بأنه إذا اجتمع المذكر والمؤنث وأريد الإخبار عنهما غُلِّب المذكر، فمثلاً تقول: الرجل والمرأة قاما، قالوا: لأن المذكر هو الأصل والمؤنث مزيد عليه





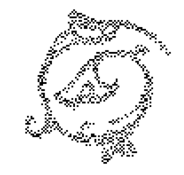
عن البنت العادية، كما يبدو الولد أبطأ في ممارسة القراءة.

ولا تقف الجدارة اللغوية للبنت عند قدرتها الكلامية، بل تتجاوز ذلك لتشمل تعلمها متى تتكلم، ومتى تصمت، وكيف تتكلم عن الشيء في ظروف مختلفة، وكيف تتجاوب مع الآخرين. بعد أن ثبت أن معرفة النمو والصوتيات ومعجم المفردات ليست كافية لتحقيق الجدارة، بل لابد كذلك من السيطرة على القواعد الخاصة بالاستعمال الصحيح للغة، وعلى المعايير الثقافية للتواصل الكلامي.

غير أن التزام المؤلف: العالم اللغوي الراحل الدكتور أحمد مختار، بالمنهج العلمي - في أمانة ودقة - يدفعه إلى إيراد ما يراه بعض العلماء من أن الشواهد على وجود اختلافات مطردة للجنس بالنسبة للنمو اللغوي تعد شواهد ضعيفة، وتحمل تناقضاً بين بعضها والبعض الآخر. الأمر الذي يجعل من الصعب قبول القول بتفوق أحد الجنسين على الآخر لغوياً.

ومن أن منحنيات الأداء اللغوي لكلا الجنسين تبدو متشابهة جداً، وكل جنس يملك أفراداً في داخله يمثلون كل درجات المدى للقدرات الإنسانية.

كما أن بعض العلماء يردون ما قد نجده من اختلافات لغوية عند الأطفال لا إلى الجنس، وإنما إلى جملة تفاعلات بين الطفل ومواهبه المعينة من ناحية، ووالديه من ناحية أخرى، بما يشمل طرق الكلام الخاصة إليه وصور الحساسية نحوه.



من أطرف التجارب التي أُجريت لتحديد الصفات التي تلحق بكلام كل جنس، التجربة التي عُرضت فيها نماذج كلامية لأطفال من كلا الجنسين، وطلب من كل مُحكَم بعد أن يسمع الصوت أن يضع علامة على طاقم متدرج من الصفات، فقد ترددت الصفات الآتية في أحكام خمسة عشر مُحكماً بالنسبة لوصف أصوات ستة أطفال، فبالنسبة للذكور: خائف، مُمل، مرح، مشوش، قانع، هش، عميق، متصف بالأنفية، سريع، بريء، معوق، متردد، عالٍ، ذكر، متوسط الدرجة، رتيب، حزين، واعٍ بقيمته، خجول، غليظ، مشدود، متعب، غير عاطفي، غير واضح، غير ممتع، غير متأكد، منتحب. وبالنسبة لأصوات الإناث: ملائكي، رسمي، رائع، جرسي، لامع، بيّن، بارد، جسور، تمثيلي، موضح، مؤنث، بنت، حسن، سعيد، ذكي، صغير، محبوب، تنغيمي، عادي، مسعد، متوازن، صافٍ، واثق، جنسي، ناعم، ثابت، واضح، مُوشوش.

في ختام كتاب «اللغة واختلاف الجنسين» يورد المؤلف ملحقاً بعنوان: «النساء والرجال واللغة»، وهو عنوان لبحث لغوي اجتماعي للفروق الجنسية في اللغة للباحثة جنيفر كوتس نشرته عام ١٩٨٦ دار لونجمان (لندن / نيويورك) ونشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية (العدد الحادي والثلاثون - المجلد الخامس- صيف ١٩٨٨) جامعة الكويت. ولأهميته، فقد جعله الدكتور أحمد مختار ملحقاً لكتابه. من أهم نتائج الدراسة التي أوردتها الباحثة أن دور المرأة اللغوي دور ابتداعي تغييري وبخاصة أثناء ممارستها دورها كأم، وأن التغيير اللغوي مرتبط بالاختلافات اللغوية بين الجنسين أكثر من ارتباطه بجنس معين. وما قاله علماء اللهجات عن أهمية الدور الذي تؤديه المرأة في التغيير اللغوي أن ما تختاره المرأة ينتقل إلى الأجيال القادمة عن طريق الأبناء. كذلك فهي تؤكد أن جزءاً من اختلافات الجنس اللغوية - وإن كان يعود مباشرة إلى أسلوب القهر الذي تتعرض له الأنثى منذ الصغر - فإن معظمها يعود إلى اختلاف الثقافة الفرعية لكل جنس.

كما أشارت إلى أنه - حتى عهد قريب - كانت دراسات اختلاف الجنس منوطة بالرجال، وهذا يعني أن الراوي اللغوي الذكر كان يتحدث مع باحث ميداني ذكر مثله، في حين أن الراوية اللغوية الأنثى كانت تتحدث مع باحث ميداني ذكر.

فهل ما سجله الباحثون الميدانيون عن «تأدب» المرأة مرتبط بجنسها حقاً، أو هو نتيجة اختلاف جنس الباحث والراوي اللغوي؟

إن كتاب «اللغة واختلاف الجنسين» لفقيد الدراسات اللغوية والمجامع اللغوية الدكتور أحمد مختار عمر، يجعلنا نُطل على جانب واحد من الجوانب العديدة والمهمة في التراث العلمي لفقيدنا الراحل، وعلى ارتياده لمجالات في البحث اللغوي، لم تكن متاحة لنا من قبله، ما أجدرها بأن نعود إليها بالقراءة والتأمل والاهتمام، واكتشاف حجم الدور الذي قام به عالماً، وباحثاً، ورائداً في ميدانه. ■

لغة متمردة!

ديمتريوس ثاناسولاس

■ تبقى العلاقة الوثيقة بين اللغة وجنس المتكلم من القضايا الرئيسية والمعقدة في علم اللغة الاجتماعي. وبتحديد أكبر، «لماذا يختلف كلام المرأة عن كلام الرجل؟». سوف نناقش بعض العناصر التي تحفز المرأة على استخدام لغة مختلفة تبدو اكثر تهذيبا في التعبير. سنركز على اختلافات اللغة حسب الجنس في المجتمعات الغربية، حيث إن الوضع في الدول غير الغربية يختلف اختلافا بينا حيث يتحدث الرجال والنساء لغات مختلفة تماما داخل نفس الجماعة (ربما يشير إلى اللغة اليابانية وقد درس الاختلافات فيها بعض الباحثين - المترجمة).

من أجل محاولة الإجابة عن سؤالنا، يجب أن نعامل اللغة باعتبارها ممارسة اجتماعية مثقلة بالقيم تعكس شبكة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية والعمرية داخل المجتمع. مثلا في مجتمع حيث يكون الرجال في مرتبة أعلى اجتماعيا من النساء، تكون الاختلافات اللغوية بين الرجال والنساء مثالاً واحداً على اختلافات أخرى أعمق لها علاقة بهيكلة المجتمع نفسه. لا يمكن إنكار أن السلوك اللغوي لا يمكن فصله عن المجتمع وقيمه. أي اختلاف في اللغة بين الجنسين يكشف أن النساء في ذلك المجتمع لسن على قدم المساواة مع الرجل. في هذه المقالة سنحاول أن نلقي بعض الضوء على هذه القضية التي طالما أثارت الجدل.

بعض اللغويين يرون أن النساء يعلمن بتدني وضعهن في المجتمع ونتيجة لذلك يستخدمن أشكالا قياسية من الكلام في محاولة لادعاء النوعية أو بلوغ وضع اجتماعي أرقى.. بمعنى أنهن يتصدين لمجتمع الرجل. «سيبدو إذن أن النساء لم يقبلن عموما بوضعهن في مراتب أقل وأنهن إدراكا بذلك يتمردن - لغويا - بطريقة مقبولة اجتماعيا ولا تعرضهن للعقاب». وأكثر من ذلك وكما يقترح ترودجيل:

«النساء اكثر انغماسا بتربية الأطفال وبتغير الثقافة ولهذا هن أكثر إدراكا - لصالح أطفالهن - بأهمية حيازة سلوك مهيب (برستيج). اعتادت مجتمعاتنا أن تقيّم الرجال بمهنهم وبقوتهم في كسب المال وربما بقدراتهم - بتعبير آخر - بما يفعلونه. وربما لهذا، تقيّم النساء وإلى حد أكبر من الرجال، حسب الصورة التي يظهرن بها.

قد توحي هذه الطريقة من التفكير أن المرأة في وظيفة مدفوعة الأجر يجب أن يكون لديها الميل لاستخدام أشكال لغة قياسية أقل من المرأة التي لا تعمل طالما أن السابقة قد حققت، إلى حد أكبر أو أقل، نوعا من الوضع الاجتماعي. ولكن على أية حال، هذا ليس هو الوضع، في الواقع إنه العكس تماما. كشفت دراسة أمريكية أن النساء في الوظائف مدفوعة الأجر يستخدمن أشكالا من اللغة القياسية أكثر من اللواتي يعملن في منازلهن. ولهذا سبب معقول. حيث إن المجموعة الأولى يقضين معظم وقتهن يتحدثن إلى أناس غرباء عنهن في حين أن المجموعة الثانية يتعاملن مع أفراد من نفس العائلة. من الواضح أن هذا الدليل يلقي بعض الشك على مفهوم أن المرأة تتصرف برسمية أكثر وتستخدم لغة سليمة للوصول إلى وضع اجتماعي أعلى أو للظهور بمظهر الذكية أو المهذبة.

تفسير معقول آخر لحقيقة أن النساء يستعملن لغة سليمة أكثر من الرجل يتعلق بالطرق التي يعاملهن بها المجتمع. مثلا، الناس عادة أكثر صبرا وتسامحا مع سلوك الصبيان في حين أن سوء تصرف الفتاة يعرضها إلى العبوس في

ترجمة: بثينة الناصري

بعض اللغويين يرون أن النساء يعلمن بتدنى وضعهن فى المجتمع ونتيجة لذلك يستخدمن أشكالا قياسية من الكلام فى محاولة لادعاء النوعية أو بلوغ وضع اجتماعى أرقى



وجهها أو العقاب فورا. وطبقا لجانيت هولمز (١٩٩٢ /١٧٣) فإن الدور المرسوم للنساء هو «تقديم نموذج التصرف الصحيح فى المجتمع» وفى ضوء هذا يتوقع من النساء التحدث بلغة سليمة. وعلى أية حال هذا ليس صحيحا دائما. نحن ندرك تماما أن تبادل الحديث بين الأم وطفلها أو بين الزوج وزوجته عادة يكون غير رسمى وحافلا بالتعبيرات السوقية أو أشكال دارجة من اللغة.

وأكثر من هذا، لا يقبل من المرأة استخدام التعبيرات القوية الدالة على الاستهجان أو الدهشة أو الاستنكار مثل (اللعنة damn) أو (هراء shit) فى الواقع أن كلمة shit والتى تستخدم كثيرا بين ثنايا الحديث من قبل الرجال والنساء أيضا ولكن بشكل أقل، أقوى من هراء كما يعلم كل من له معرفة بسيطة باللغة الإنجليزية أو يتابع الأفلام الأجنبية ولكنى لم أستطع ترجمتها حرفيا - المترجمة)، يمكنها أن تقول بدلا من ذلك «أوه يا ربى» أو «هراء fudge » (تصوروا بالمقارنة بالكلمة الرجالية السابقة كلمة فودج تعنى نوعا من الحلوى - المترجمة). وتعتقد روبين لاكوف أن تركيبة لغوية تستخدمها النساء أكثر من الرجال هى السؤال الذيلى tag question كما فى «لن تفعل ذلك، أليس كذلك؟» ويعلق فاسولد (١٩٩٠: ١٠٤) «لجوء النساء إلى استخدام هذا النوع من تراكيب الجمل يعنى أنها تقدم نفسها على أنها غير متأكدة من أفكارها، وبالتالى كأنها لا تملك أفكارا ذات قيمة».

تفسير ثالث هو أنه باستخدام أشكال مهذبة من الكلام، تحاول المرأة أن تحفظ ماء وجهها. وهو تعبير يستخدم غالبا فى علم اللغة الاجتماعى للتعبير عن حاجات ورغبات الشخص فى علاقته مع الآخرين - لتفاصيل أكثر اقرأ براون وليفنسون ١٩٧٨ . بكلمات أخرى تحاول المرأة الوصول إلى مرتبة اجتماعية أكبر. واستخدامها لغة سليمة مهذبة لا يلبى فقط حاجاتها لحفظ ماء الوجه ولكن أيضا للناس الذين تتعامل معهم وبهذا تتفادى الاختلافات وتسعى إلى الحصول على الموافقات والاتفاقات.

فى مقالتها المعنونة «اللغة ومكانة المرأة» (1973a: 46, cited in Fasold, 1990: 107) لاحظت لاكوف ببصيرة ثاقبة: «سنجد كما أعتقد أن المرأة تمر بتجربة الاضطهاد اللغوى بطريقتين: فى الطريقة التى تعلمت أن تستخدم اللغة وفى الطريقة التى تواجه بها استخدام اللغة ضدها». ومن الواضح أنها تشير إلى الكلمات التى تشير إلى الجنسين باستخدام معنى ذكورى. دعونا نقرأ بعض الأمثلة:

الاسم man بالإشارة إلى الإنسان

الفعل manned فى إشارة إلى ركاب أو جمهرة

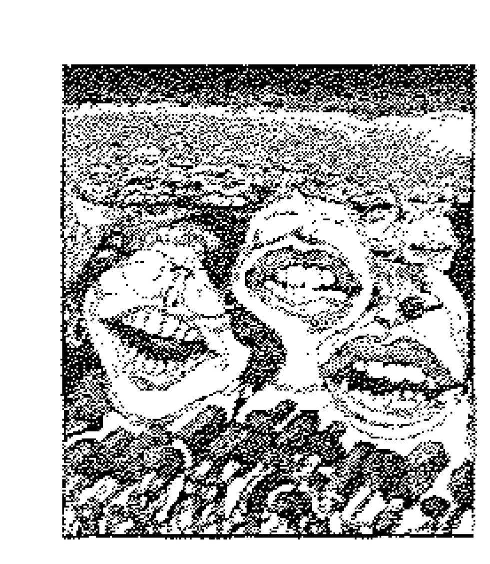
الاسم mankind النوع البشرى

وإلى جانب مشكلة التعبيرات الموحية بالذكورة كما فى الأمثلة السابقة، هناك الكلمات المختلفة حسب الجنس والتى تحمل معنى واحدا ولكنها توحى بصورة سلبية عن المرأة فى حين أنها تحمل صورة إيجابية عن الرجل.. والمثال الذى تتكرر الإشارة إليه هو كلمتا (أعزب - عزباء) ففى حين ينظر للأعزب على أنه رجل حر سعيد «ينطلق على هواه» توحى كلمة عزباء بصورة امرأة قبيحة فاتها قطار الزواج وتملؤها المرارة لجلوسها على الرف! إضافة إلى أن استخدام اللغة يبدو وكأنه يوحى بقدر من الانحلال الجنسى لدى النساء. مثلا كلمة (مدام) التى تخاطب بها المرأة تعبيرا عن الاحترام، هى نفسها الصفة التى تطلق على مديرة بيت الدعارة. فى حين إذا كان مدير مثل هذا البيت رجلا فلا يمكن تصور إطلاق كلمة (سير) التى تقابل كلمة مدام فى التخاطب المهذب، عليه.

ختاما، يمكن القول إن فحص استخدام اللغة قد يقودنا إلى «اكتشافات» مهمة تتعلق بتركيبة المجتمع أو جماعة محددة وقيمها - والتوقعات الملازمة - التى تحدد الطرق التى ينظر فيها للأفراد ويعاملون بها. من المثير للاهتمام أن اللغة دائما توحى أكثر مما تعنيه حرفيا. كل ما فعلناه هو الإشارة إلى بعض العناصر المسئولة عن الاختلافات فى سلوك المرأة اللغوى. ولم نقل كلمة عن سلوك الرجال اللغوى، رغم أننا يجب أن نقر بأننا انجرفنا مع الميل السائد للنظر إلى سلوك الرجل بشكل عام وسلوكه اللغوى بشكل خاص كمعيار على أساسه يتم تقييم تصرفات المرأة. إن المقالة الراهنة بعيدة كل البعد عن أن تكون شاملة. فى الواقع لقد قشطنا سطح الموضوع. ولكن رغم قصورها ورغم نواقصها نأمل ألا تكون المقالة قد فشلت فى تحقيق هدفها الرئيسى وهو دفع الناس للتفكير كما يقول برتولد بريخت. ■

BIBLIOGRAPHY
* Fasold, R. W. (1990) The Sociolinguistics of Language. Oxford: Blackwell.
* Holmes, J. (1992) An Introduction to Sociolinguistics. London: Longman

للسومريات.. فقط



فى كتاب «المرأة المبدعة فى حضارات العراق القديم» الصادر عن دار عشتار القاهرة - ١٩٩٩، تقول الكاتبة العراقية لطفية الدليمى:

«وجدت قبل نحو خمسة آلاف سنة فى بلاد سومر جنوب العراق لغة خاصة للنساء تحدثت بها النساء فى المجالس وصيغت بها أحاديث وحوارات النساء وأقوالهن فى النصوص الأدبية والملاحم، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت لغة النساء فى سومر (لغة الأدب) التى يتداولها الشعراء والأدباء فى المدن السومرية ثم ما لبثت هذه اللغة الخاصة بالنساء أن امتزجت باللغة العامة مكونة اللغة السومرية التى كتبت بها المدونات الدينية والأدبية فى العصر البابلى القديم. يذكر أستاذ اللغة السومرية د. فوزى رشيد فى كتابه قواعد اللغة السومرية حول لغة النساء ما يلى:

(من الأساليب التى اكتسبت مكانة خاصة ضمن الأساليب السومرية الأدبية أسلوب لغة (emesal) الذى يعنى لغة النساء ويلفظ باللغة الأكدية على هذا النحو Lisani saliti أى اللسان السليط أو لغة الشجار والعراك).

وهذا يعنى أن نساء سومر امتلكن خطاب أدب خاصًا بهن قبل خمسة آلاف سنة من ظهور دعوات الناقدات النسويات لإيجاد خطاب أنوثة فى الأدب. لقد امتلكت السومريات خطابا خاصا أفرد لأدبهن مكانة وحيزا كان يحول دون ذوبان وجودها فى الخطاب العام الذى يهيمن عليه الذكور من الكتاب.

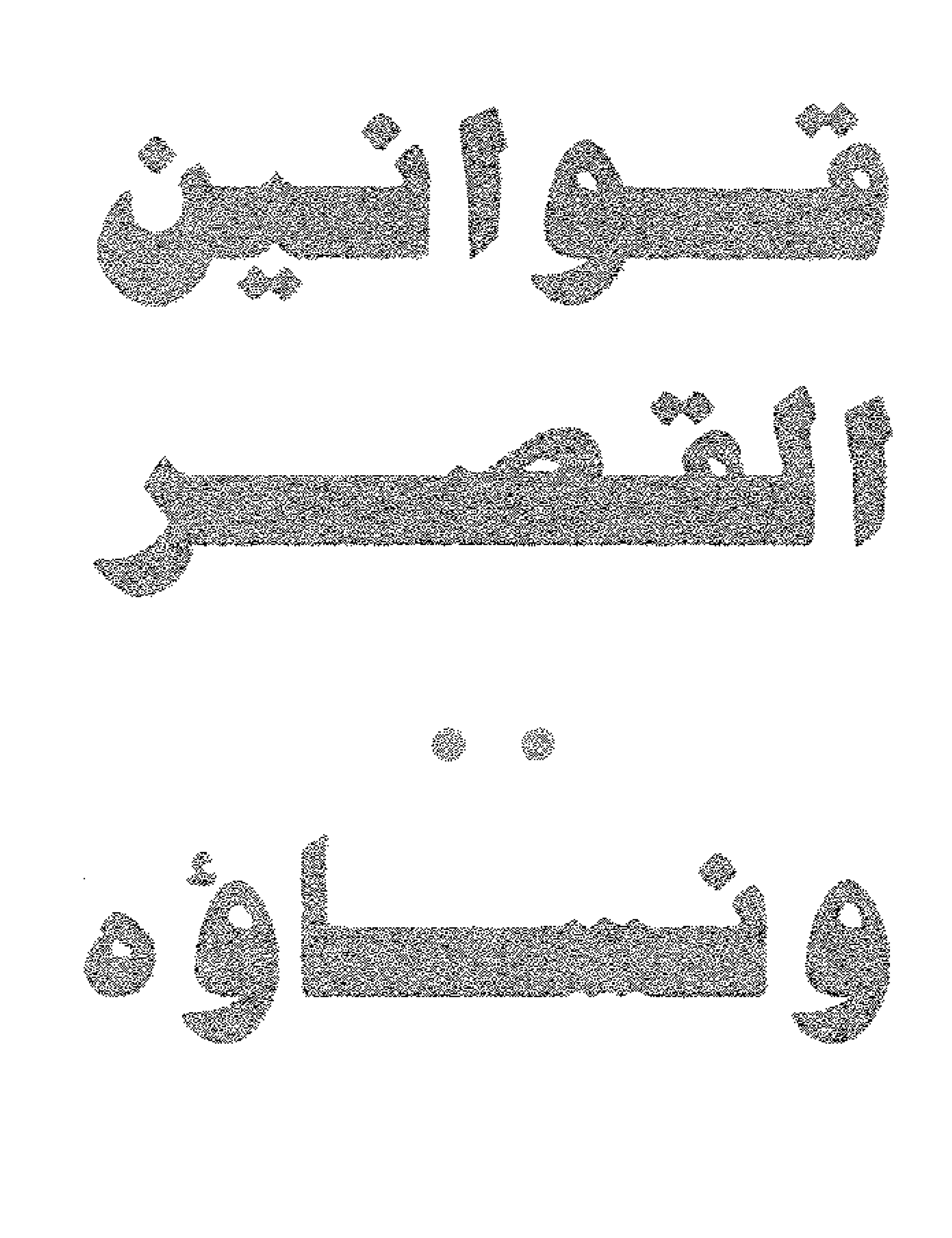
ولابد أن لهذه اللغة التى كانت تستخدمها النساء سماتها الخاصة التى تنفرد بها عن الأساليب واللهجات السومرية الأخرى التى يذكر منها د. فوزى رشيد: اللغة الكبيرة واللغة العالية واللغة المنتخبة واللغة الشاذة.

ظهرت لغة النساء (emesal) فى عصر احتدام حضارى جليل هو العصر البابلى القديم المبكر، وبدأت تخترق لغة النصوص المدونة من سومرية وأكدية واستخدمت اللغة كما يذكر د. رشيد فى تدوين أحاديث النساء فى النصوص الأدبية أما فى المدونات الأخرى فإن أحاديث النساء تكتب باللغة العادية.

ويبدو أن قدرة هذه اللغة الخاصة بالنساء على التعبير بشكل حر وساخن وحيوى دفعت بالأدباء السومريين إلى استخدامها لكتابة النصوص الأدبية لأنها تعبر عن سعة الاطلاع ودقة الوصف وصدق المعانى ومثلما يحدث فى كل الأزمنة ومع معظم اللغات حيث تسود لغة الأقوى والأوسع تداولا بين الكتاب والمدونين، فقد فرضت لغة النساء (emesal) حضورها وصارت أسلوبا للتعبير الإبداعى وبمرور الوقت وانتشار فن الكتابة تمازجت اللغة الاعتيادية مع أسلوب (emesal) التى تلفظ كثيرا من المفردات السومرية على نحو مختلف عن لفظها باللغة الاعتيادية.

كما نعرف، اللغة هى تعبير عن نمط التفكير، وعلى هذا فإن فكر المرأة السومرية كان مستقلا ومفردا ولها نزوعات محددة اتسمت بها ووسمت الأوضاع النسوية بخاصة فى مجال الأدب ولكن هذه اللغة تراجعت واندمجت بالخطاب العام، الخطاب الباحث عن اكتماله فى وجهيه المذكر والمؤنث داخل وعاء اللغة العامة».

المترجمة



قوانين القصر.. ونساؤه

محمد عبد الرحمن يونس

■■ ما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب، وبالدرجة الأولى - إعجابي بكتاب ألف ليلة وليلة، وقدرته على استجلاء مظاهر المدن، سواء أكانت مُتخيلة أم واقعية، على المستويين: الاجتماعي والسياسي، وإعجابي بعنصر السرد الأخاذ الذي اعتمده رواة ألف ليلة وليلة، وقدرته العجيبة على إضفاء وشاح من السحر والخرافة على واقع المدن الإسلامية وغير الإسلامية، ومن ثم لإدانة المدن نفسها، بسلطاتها، وعاداتها وقيمها، وطبقاتها الاجتماعية، والسياسية، وعلاقاتها الجنسية المنتهكة أحيانا، والمشروعة أحيانا أخرى، مع فسادها في الوقت نفسه.

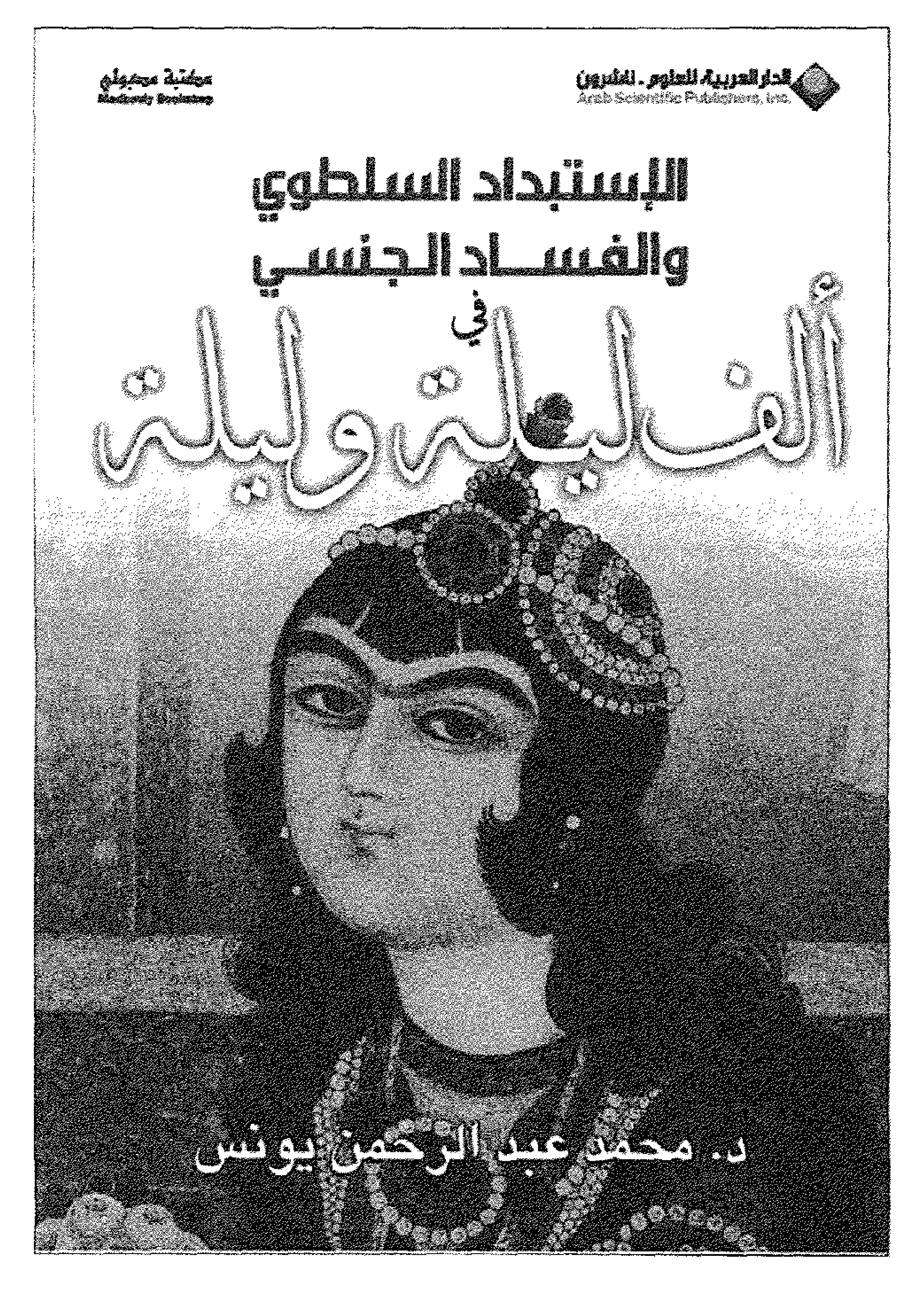
ويرجع سبب اقتران الاستبداد السلطوي بالفساد الجنسي في كتابي هذا إلى أن وجود الجماعات السياسية التي تحكم مدن ألف ليلة وليلة وتدير شؤونها، تقوم على رأسها سلطات فاسدة باطشة متجبرة تحركها شهواتها الجنسية وتتحكم في قراراتها، وتبطل إعمال العقل، إذا حضر الجسد الشهواني المكتنز إثارة وجمالا جنسيين، وعلى الرغم من كل ذلك، نجد أن سكان مدن ألف ليلة يعتقدون أن ملوكهم أو خلفاءهم هم ظل الله على الأرض، والأوصياء على شريعته. ونظراً لأن سلطات هذه المدن سلطات استبدادية فإنه يُلاحظ أن قوانين هذه المدن وأعرافها وتقاليدها تتشكل بالدرجة الأولى تأسيساً على قوانين سلطة القصر ورغباتها، قبل أن تُستمد من رغبات الشعب وآماله وتطلعاته.

وإذا كان حكام ألف ليلة وليلة خلفاء أو ملوكاً يستشيرون وزراءهم أو قادة جيوشهم العسكرية، أو خاصة المقربين منهم في بعض الأحيان، فإن هؤلاء الحكام يظلون في نهاية المطاف أنانيين وفرديين وطغاة يتعاركون لأجل النساء، ويبددون أموال دولهم للحصول على هاته النساء اغتصابا أو امتلاكا.. ومن هنا بدا لي أن دراسة ملامح حكام ألف ليلة وليلة يجب أن تكون متزامنة مع دراسة ملامح الجانب الجنسي الشبقي لدى هؤلاء الحكام.

كنت أشعر حين قراءتي لنصوص ألف ليلة وليلة بمتعة عارمة تستوطن ذاكرتي، فقد كانت قادرة على إيقاظ جميع أحلامي الجامحة الملغاة، المتوثبة أبداً صوب مدن نائية مسكونة بالدهشة والغرابة. وهذه المتعة التي كنت أعايشها كانت أكبر من جميع المتع التي كنت أجدها في الخطابات الأدبية الأخرى، من شعر قديم وحديث وقصة ورواية ومسرح وتراث أدبي وتاريخي. مسكوناً بالدهشة والأحلام الجامحة التي لم تتحقق طوال حياتي، رحت أقرأ هذه النصوص بشغف العاشق المنبهر بجمالها، وسحرها وصدقها وكذبها في آن. ولعل هذه الدهشة هي السبب الرئيس الذي دفعني لكتابة كتابي هذا ونتيجة لإعجابي بهذا العمل: عكفت منذ سنوات على قراءته قراءة المستمتع، ثم حاولت دراسته وفهم نصوصه، وبعد ذلك أنجزت فيه عدة أبحاث طويلة نُشرت في المجلات العربية(١).

وقد لاحظت، من خلال كثير من الدراسات حول ألف ليلة وليلة، والتي استطعت الاطلاع عليها، سواء أكانت مترجمة إلى اللغة العربية أم مكتوبة بها، أن هذه الدراسات لم تدرس موضوع الفساد السلطوي دراسة مستقلة ومستفيضة، ولا موضوع الفساد الجنسي، ولذا كان كتابي محتفيا بهذا الموضوع..

ومن هنا، فإن الآراء التي تطالب بالتوقف عن البحث في حكايات ألف ليلة وليلة، بدعوى أن هذه الحكايات قد استوفت حقها من الدراسة والتحليل(٢)، ليست صائبة تماماً، لأن نصوص الليالي قابلة لمزيد من الدرس والتحليل، ومن زوايا نظر متعددة، بتعدد الباحثين وقدراتهم ومواهبهم، وطرائقهم المختلفة في التحليل والدراسة. فالأبحاث في ألف ليلة وليلة لا يمكن أن تكون نهائية، لأن هذه النصوص تنفتح على تاريخ الأمم والحضارات، وميثولوجياتها، وعاداتها وقيمها وثقافتها، وحروبها وانتصاراتها وهزائمها، وعلى ما هو جميل وقبيح، وخير وشرير فيها. وبالتالي فإن البحث في هذه النصوص يظل قائماً ومشروعاً، لأن نصوص ألف ليلة وليلة تظل نصوصاً خالدة على مر العصور، وقادرة على أن



الاستبداد السلطوى والفساد الجنسى فى ألف ليلة وليلة
محمد عبدالرحمن يونس
بيروت. الدار العربية للعلوم. ناشرون. ٢٠٠٧

يرجع سبب اقتران الاستبداد السلطوي بالفساد الجنسي إلى أنّ وجود الجماعات السياسية التي تحكم مدن ألف ليلة وليلة وتدير شؤونها، تقوم على رأسها سلطات فاسدة باطشة متجبرة تحركها شهواتها الجنسية وتتحكم في قرارتها، وتبطل إعمال العقل



تكون منبعاً ثراً لكثير من النصوص الإبداعية الحديثة، سواء في الشعر، أو في القصة، أو في الرواية، أو في المسرح، أو في السينما.

ومن هنا بدا لي أنّ المنهج الذي يمكن أن يساعدني على فهم نصوص حكايات ألف ليلة وليلة وتحليلها، وعلى دراسة نقاط التلاقي بين ما جاء في هذه الحكايات وبين ما هو قائم في المجتمعات العربية والإسلامية، هو منهج الدراسات الاجتماعية، ولذا فقد اعتمدت بعض معطياته في دراسة نصوص الليالي وقارنت بين ما جاء في هذه النصوص وبين ما هو قائم أساساً على أرض الواقع، ففي نصوص ألف ليلة وليلة لا يمكن الفصل بين النصوص الحكائية وبين الواقع الاجتماعي الذي فرز هذه النصوص، لأنّ هذه النصوص هي مرآة للحضارة العربية والإسلامية بوجهيها السلبي والإيجابي.

وقد أفدت أيضاً من معطيات المنهج التاريخي في إلقاء الضوء على ما ورد في الليالي، وقد ساعدني هذا المنهج على فهم حركات الأبطال والجماعات الإنسانية في مجتمعات ألف ليلة وليلة ومواقفهم، لأنّ النصوص التاريخية التي استطعت الاطلاع عليها شكّلت خلفية مرجعية مهمّة ساعدتني على فهم نصوص الليالي، وكانت وسيلة من وسائل كشف ما خفي في هذه النصوص، وبالتالي كان لها الدور الكبير في تعليل الأحكام واستنتاجها. وعلى الرغم من أنّ قسماً من حكايات الليالي يوغل بعيداً في عمق الزمن التخييلي، فإنّ قسماً من هذه الحكايات يستمد مقومات أحداثه من أحداث التاريخ، بل نجد أحياناً أنّ غير حكاية من حكايات الليالي ترد بالأحداث نفسها في المصادر التاريخية، فعلى سبيل المثال نجد أنّ حكاية: «الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان» ترد بالأحداث نفسها وأسماء شخوصها عند الأبشيهي في كتابه: «المستطرف في كل فن مستظرف»، وترد عند الأصفهاني في كتابه: «الأغاني»، وعند ابن عبد ربه الأندلسي في كتابه: «العقد الفريد». ونجد أنّ إحدى الحكايات المتشعبة من حكاية «الأحدب وملك الصين»، وهي حكاية «التاجر البغدادي مع إحدى جواري السيدة زبيدة»، تتناص بشكل واضح مع إحدى حكايات التنوخي في كتابه: «الفرج بعد الشدة»، والتي يسميها التنوخي بـ: «أقسم أن يغسل يديه أربعين مرة إذا أكل زيرباجة». ونجد أنّ حكاية: «المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر» ترد بالأحداث نفسها، وباختلاف جد طفيف في أسماء شخوصها، عند المسعودي في كتابه: «أخبار الزمان»، بالإضافة إلى عدد غير قليل من الحكايات الأخرى التي ترد في مصادر تاريخية متعددة.

أمّا مصادري ومراجعي في هذا الكتاب فهي كثيرة، بحيث يبدو الحديث عنها طويلا، ولذا فقد اكتفيت بالإشارة إليها بكلّ أمانة في هوامش الكتاب، بالإضافة إلى فهرس المصادر والمراجع والدوريّات في آخر الكتاب.

ويبقى أهمّ مصدر رئيس اعتمده هذا البحث في دراسة الموضوعات الرئيسة والفرعية، هو: ألف ليلة وليلة (بأجزائه الأربعة، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت). غير أنّ هذه الطبعة ليست الوحيدة التي اطّلعت عليها، فقد اطّلعت على الطبعات الآتية من ألف ليلة وليلة: (طبعة المكتبة الشعبيّة، بيروت، د.ت، بأجزائها الأربعة)، و(طبعة دار مكتبة التربية، بيروت، بأجزائها الأربعة الطبعة السادسة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، والطبعة المهذّبة التي أعدّها رشدي صالح (دار الشروق، القاهرة، جزءان)، وهي طبعة ناقصة، وبالتالي كان طبيعياً أن لا يعتمدها هذا الكتاب.

أمّا سبب اعتمادي طبعة دار مكتبة الحياة فيعود إلى انه بعد مقارنتي بين الطبعات الثلاث الأولى (مكتبة الحياة - المكتبة الشعبيّة - مكتبة التربية)، وجدت أنّ الفروق بين هذه الطبعات طفيفة جداً، وأنّ هذه الطبعات تكاد تكون متطابقة تماماً، في الحكايات، والأحداث، والمدن الواقعية والمتخيّلة، وابطل من الملوك والخلفاء والنساء والتجّار. من هنا بدا طبيعياً أن أكتفي بنسخة واحدة أعتمدها من أول الكتاب إلى آخره، وهي طبعة دار مكتبة الحياة. ولعلّ السبب الرئيس في اختيار هذه الطبعة هو ببساطة: أنّ الخط الطباعي الذي طُبعت به هذه الطبعة أوضح من خلال كثافته اللونيّة، مقارنة بخط الطبعتين السابقتين. وهذا الخط، كما أرى، مريح للعينين، ويجعل من القراءة فعلاً ممتعاً وجذّاباً، أكثر مما لو كان الخط الطباعي غير واضح.



بدأت كتابي بمدخل تحدثت فيه عن فعل السلطة عبر التاريخ، ودورها في استعباد الناس وإذلالهم، وتشويه العلاقات الاجتماعية والإنسانية في ما بينهم، حتى تتمكن من قيادتهم، واثبت بعض تعريفات السلطة من خلال المراجع، وذكرت بعض الشروط التي يجب أن تتوافر في الحاكم أو الخليفة، حتى يعيش رعاياه في أمان من بطشه، تأسيساً على آراء الفلاسفة والفقهاء الإسلاميين، ثم حاولت أنّ أدرس بعض ملامح سلطة الحكّام المهمّين في ألف ليلة وليلة، كما أبرزتها.

ونظراً لأنّ حكّام مدن الليالي كثيرون جداً، فقد اكتفيت بإبراز أهم الملامح السلطوية لبعض الخلفاء، والحكّام، وركّزت على الحكّام المعروفين تاريخياً. ومن هؤلاء الحكّام: الخليفة العباسي هارون الرشيد، وابنه الخليفة عبد الله المأمون، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، والحجّاج بن يوسف الثقفي والي الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق. وعرجت على بعض الملامح الاستبدادية للملك غير معروف تاريخياً وهو الملك عمر النعمان.

ويأتي تركيزي على هؤلاء الحكّام، لأنّهم أهم الحكّام الذين يأخذون مساحات واسعة من السرد الحكائي، إذ تحتفي حكايات ألف ليلة وليلة بهم احتفاءً واضحاً يفوق احتفاءها بغيرهم من الحكام، ولأنّ الحديث عنهم في الليالي كان متعدداً ومتشعباً فقد ساعدني هذا التعدد على أن أدرس ملامحهم المتعددة والواضحة في الحكايات التي ذكرتهم، فالخليفة هارون الرشيد يكاد يكون محوراً رئيساً تدور حوله كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، وهو حاكم متعدد المواهب والملامح، ويجمع كثيراً من التناقضات في آن، ويبدو حضوره قوياً طاغياً على كل من حوله. بينما تبدو شخصية ابنه الخليفة عبد الله المأمون شخصية رئيسة نامية، متعددة الملامح والوجوه، فهي شخصية حكيمة وعاقلة وخبيرة بفنّ السياسة، ومتسامحة وقادرة على أن تعفو عن المعارضين السياسيين لحكمها، وفي مواضع أخرى تبدو شخصية عابثة لاهية عاشقة للفنّ والموسيقى، ومرة أخرى تبدو قوية وحازمة تفرض هيبتها على جميع من حولها، وبالتالي فإنّ هذه الشخصية تجمع ملامح مشتركة لعدة حكّام من حكّام الليالي.

أمّا الخليفة عمر بن عبد العزيز فإنّه يُمثّل نموذج الحاكم الأكثر عدلاً من بين حكّام الليالي، فصورته العادلة تُمثّل في النهاية آمال الطبقات الفقيرة المسحوقة، وتطلّعاتها صوب الحقّ والخير والعدل. أمّا شخصيتا الملك عمر النعمان والحجاج بن يوسف الثقفي، فإنّهما تمثّلان أهم الرموز

نصوص ألف ليلة وليلة تظلّ نصوصا خالدة على مرّ العصور، وقادرة على أن تكون منبعاً ثراً لكثير من النصوص الإبداعية الحديثة، سواء في الشعر، أو في القصة، أو في الرواية، أو في المسرح، أو في السينما





الاستبدادية السلطوية في حكايات ألف ليلة وليلة، الرموز التي تطمح الطبقات الشعبية إلى الانتقام منها، وإسقاط نظام حكمها، والسخرية بها. ومن هنا فإن دراسة ملامح هاتين الشخصيتين يمكن أن تشكل محاور بديلة من دراسة ملامح كثير من حكام الليالي، الذين يلتقون معهما في ملامح الظلم والاستبداد والجبروت والاعتداء على حريات مواطنيهم.

إن دراسة ملامح هؤلاء الحكام يمكن أن تقدم صورة واضحة عن جميع خلفاء مدن ألف ليلة وليلة وحكامها، سواء كانوا واقعيين أم من نسيج الخيال، وبالتالي كان التركيز عليهم من دون غيرهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد اكتفيت بدراسة ملامحهم منعاً للتكرار والإطالة، لأن دراسة ملامح الحكام الآخرين لن تضيف جديداً إلى هذا الكتاب.

وحاولت إبراز الوجه الاستبدادي لبعض نساء السلطة في ألف ليلة وليلة. ومن هؤلاء النساء: السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، وجارية مستبدة من جواريها، وملكة أسطورية من ملكات ألف ليلة وليلة، وهي الملكة منار السنا، وأميرة أخرى غير معروفة تاريخياً، وهي الأميرة دنيا بنت الملك شهرمان. وهذه النساء يمكن أن تكون أهم الرموز الاستبدادية من بين نساء ألف ليلة وليلة جميعها، ولذا فقد اكتفيت بدراسة ملامحهن من دون غيرهن من النساء السلطويات الأخريات.

وعرجت على أهم ملامح بعض النساء السلطويات الفاسدات الزواني، وبعض ملامح الإيديولوجيا الرجولية المعادية لهن. ولم أدرس ملامح المرأة السلطوية العادلة الورعة، الأم والأخت، والزوجة الوفية المستقيمة في أخلاقها وسلوكها، لأن حكايات ألف ليلة وليلة تكاد تخلو من هذا النموذج. وحاولت أن أبين إلى أي مدى تمارس النساء الجميلات من سلطة قوية على رجال السلطة، ثم أنهيت الفصل بدراسة تحت عنوان: سلطة الحكاية وسلطة القتل في ألف ليلة وليلة، درست فيها مدى تأثير سلطة الحكاية العجائبية على رجال السلطة، ودورها في إنقاذ الشخوص الرواة من بطش رجال السلطة المروي لهم.

الخاتمة

تقوم ألف ليلة وليلة في بنية حكاياتها على مبدأ الثنائيات الضدية: الخير والشر، الفقر والغنى، العدل والظلم، الواقعي والتخيلي، الأمان والطمأنينة والخوف وفقدان الأمان، والأفراح الكبيرة والأحزان الكبيرة... الخ. وتتوزع هذه الثنائيات في معظم الفضاءات التي يرتحل السرد منها وإليها. وقد أسهمت هذه الثنائيات في جعل نصوص ألف ليلة وليلة تنفتح على مزيد من التناقضات والاحتمالات، وتستوعب أنماطاً عديدة من الشخوص المتلاقية المتحاورة تارة، والمتصارعة المتنافرة تارة أخرى، إذ تتحرك هذه الشخوص في فضاءات مكانية تحمل أيضاً مزيداً من التناقضات. فعلى سبيل المثال يلاحظ أن مدن ألف ليلة وليلة آمنة وغير آمنة في الوقت نفسه، والملك أو الخليفة أو الحاكم فيها عادل حكيم تارة، سفيه أحمق ظالم مغرور تارة أخرى، إلا أنه في غالب الأحيان ظالم باطش، نزق سريع الغضب. ويلاحظ أن قسماً من سكان المدينة متدينون ورعون يخافون الله، وأن القسم الآخر من سكان هذه المدينة شهوانيون وفاجرون ولصوص ومحتالون، لا هم لهم إلا ارتكاب كل ما هو محرم ومنكر. ويبدو أن هذا التناقض طبيعي جداً، طالما أن النفس الإنسانية لا تستقر على حال واحدة في مسيرتها وعلاقاتها وقيمها، فهي متحركة ضمن مجموعة من القيم والمفاهيم والسلوكيات المنسجمة والمتناقضة في آن.

إن هذه الثنائيات ستسهم في أن تكون الأحكام والنتائج التي يفرزها هذا الكتاب قابلة لمزيد من التغاير والتناقض، وبالتالي ليست نهائية. وقد تكون في موضع من المواضع تؤكد مقولة ما، لكنها في موضع آخر تنفي هذه المقولة، ليس رغبة في النفي أو التناقض، بل لأن نصوص ألف ليلة وليلة تفرز هذا التناقض، نظراً لمفاهيمها ومقولاتها المتناقضة المتغايرة من حكاية إلى أخرى، فما يصح قوله في تحليل إحدى الحكايات قد لا يصح في تحليل حكاية أخرى.



إن الباحثين في ألف ليلة وليلة لا يخرجون بنتائج نهائية، وقلما تأتي دراسة أحدهم مشابهة لدراسة آخر، بل تحمل معظم دراساتهم مزيداً من الاحتمالات. وهنا حاول هذا الكتاب، ومن خلال قراءة نصوص ألف ليلة وليلة كاملة ولأربع مرات، أن ينطلق من بنية نصوص الليالي نفسها، وأن يعتمد بعض المراجع والمصادر التاريخية التي تحدثت عن المدينة العربية الإسلامية، وأن يقيم تحليلاته ونتائجه من داخل هذا التناقض الذي تفرزه نصوص ألف ليلة وليلة بمدنها وسلطاتها، وعلاقاتها وقيمها، واستقامة سكانها وشذوذهم وانحرافهم في آن. وإن ظهر في هذا الكتاب بعض الآراء المتناقضة أو النتائج المتغايرة من حكاية إلى أخرى، فإن ذلك يعود، بالدرجة الأولى إلى بنية النصوص الحكائية وتشعبها، وتباين رؤاها الإيديولوجية التي يبثها مجموعة من الرواة المتباينين في مشاربهم الثقافية، وبنياتهم الذهنية، وقناعاتهم الإيديولوجية.

إن نصوص ألف ليلة وليلة بتناميها وتشابكها، وجرأتها وخروجها عما هو سائد ومألوف من نصوص خجولة متزمتة اعتادها القارئ المتزمت، تمثل نسقاً معرفياً حكائياً واقعياً، وأسطورياً غرائبياً قل نظيره في الأدب العربي القديم والحديث، وربما في الأدب العالمي. فهذه النصوص بتناقض شخوصها، وصراحتهم وجرأتهم وجنونهم وتمردهم، واستكانتهم واستسلامهم المطلق للغيب والسلطة أحياناً، وقدراتهم الخارقة للعادة والمألوف أحياناً أخرى، هي نصوص خصبة منفتحة على الأزمنة والأمكنة المتباعدة، والحضارات الأخرى بثقافاتها وآدابها وفنونها. ومن هنا فإن خصوبتها قادرة على أن تشكل خلفية معرفية مرجعية لكثير من الأعمال الإبداعية المعاصرة، من شعر وقصة ورواية ومسرح. فقارئ ألف ليلة وليلة يجد نفسه أمام حقل ثقافي متعدد المشارب، يتوغل إلى أبعد الحضارات، يتثاقف ويتأثر، ثم يتلاقى ويتحاور، لينسكب هادئاً عذباً على المدن والحضارات العربية والإسلامية.

إن نصوص ألف ليلة وليلة نصوص مثيرة جريئة. إنها تخدش أعماق الإنسان في حاضره وماضيه، وما توسوس به نفسه الأمارة بجميع المعاصي، ولا تخشى أحداً. تعلن مشروعها الإيديولوجي لتدين النساء والرجال، والمدن وقيمها، والملوك واستبدادهم، والأسواق وعلاقاتها الاجتماعية والتجارية. إنها شمولية في إدانتها وفي امتدادها إلى أبعد الحضارات وأقربها، فعلى سبيل المثال نجد أن المرأة في ألف ليلة وليلة هي كل نساء الحضارات الأخرى، وخطابها الكيدي والاحتيالي هو خطاب المكيدة أنى كان - في أي زمان وأي مكان - فلم تترك نصوص ألف ليلة وليلة امرأة من نسائها



الخليفة هارون الرشيد يكاد يكون محوراً رئيساً تدور حوله كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، وهو حاكم متعدد المواهب والملامح، ويجمع كثيراً من التناقضات في آن، ويبدو حضوره قوياً طاغياً على كل من حوله



تسود في مدن ألف ليلة وليلة كل المحرّمات، فهناك الخمّارات، وقتل النفس التي حرّم الله قتلها، والزنى والشذوذ الجنسيّ، والاستبداد في أوجه، وهناك الملوك والخلفاء المسلمون الذين يكرعون الخمرة أرطالا



المنتميات إلى حضارات ومذاهب عديدة إلاّ وكشفت عن أهمّ الجوانب الدفينة في أعماقها، ولم تترك سلطاناً أو حاكماً من حكّامها إلاّ وتوغلت إلى أبعد دهاليز قصوره ومقصوراتها الخاصة، وعرّت نساءه وجواريه الحظايا، وطقوس فرحه وحزنه وجسده، وخطاباته الفكرية والسياسية، وعلاقاته مع أفراد شعبه، وسلّطت الضوء على طعامه الفاخر، وخموره المعتّقة، فشعّت متلألئة شهيّة على وقع الصاجات والدفوف، وقامات الجواري المليئات جمالاً اللواتي تهتزّ مغناجة مثيرة. فهذه النصوص تتمرّد ثائرة على معظم الخطابات التاريخية، والقصصية، والحكائية التي سبقتها والتي عاصرتها، غير أنّ هذا التمرّد يبقى مغلّفاً بشال من الحرير المعطّر سحراً وأساطير. إنّ لها القدرة السحرية على التوغّل إلى أعماق الذات لتعري خطاباتها الفكرية، وتناقضاتها، وأدقّ خفاياها، وسكينتها واستسلامها المطلق لقدرها الغيبيّ، ولسلطات مدنها الغاشمة، ومن ثم لتنقلها إلى مدن جديدة سحرية على أجنحة خيال أسطوري حالم تارة، متوثب جامح تارة أخرى. فتحلّق هذه الذات حالمة بالنساء الشهيّات، والثراء الفاحش، مع الجنّ والأحصنة الطائرة المسحورة، والمصابيح السحرية، وخواتم شبيك لبيك (المال والقصور وجواري الأرض بين يديك، اطلب تُطَع. إن أنت دعكت هذا الخاتم السحري، أنا المارد خادم هذا الخاتم القادر على فعل العجائب. سأكون حالاً بين يديك)، وتحلّق صوب المدن الفاضلة التي لا خوف فيها ولا بطش ولا استبداد، عندها تسكن الروح عميقاً، وتستسلم لحالة من الطمأنينة والرضى، والأحلام الشفيفة التي لن يتحقق منها شيء، لأنّ واقع مدن ألف ليلة وليلة واقع مهان محكوم بحضنة من الحكّام الظلمة، الذين لا يعملون إلاّ على تحقيق مصالحهم الخاصة، وإشباع نزواتهم المتأجّجة دائماً.

إنّ معظم رواة ألف ليلة وليلة مؤدلجون إسلامياً، فهم يتعاطفون مع الدين الإسلامي، ويفضلونه على بقية الأديان الأخرى، ويؤكدون أنه لا نجاة من الحياة الدنيوية المليئة بالشرور والآثام، ولا انتقال إلى عالم الملكوت الأعلى إلاّ باعتناق الدين الإسلامي الذي هو خاتمة الأديان وخيرها، ويطمحون إلى سيادة الإسلام فوق بقاع المدن كلها: الواقعية والتخيلية الأسطورية، ولذا فهم يبثّون مفاهيم الإسلام وقيمه وأخلاقياته من خلال السرد الحكائي، إلاّ أنه من المستغرب أنّ هؤلاء الرواة المتعصّبين للإسلام لا يدينون مدنهم الإسلامية الغارقة بالمعاصي المنافية لأخلاق الإسلام، إذ تسود في مدن ألف ليلة وليلة كل المحرّمات، فهناك الخمّارات، وقتل النفس التي حرّم الله قتلها، والزنى والشذوذ الجنسيّ، والاستبداد في أوجه، وهناك الملوك والخلفاء المسلمون الذين يكرعون الخمرة أرطالاً، وينكّلون بأفراد شعوبهم، ويقضون معظم أوقاتهم بين أحضان جواريهم وسراريهم. ولا يتوانون في الزواج بأية امرأة جميلة، إمّا بالرضى وإمّا بالاغتصاب أو الاحتيال، وهم مستعدون للزواج بكل امرأة جميلة، حتى ولو كانت عاهرة. وعلى الرغم من كل ذلك نجد أنّ بعض هؤلاء الرواة يتغاضون عن سلوك هؤلاء الحكّام، ويتجاوزون عن أخطائهم، وكأنّ شيئاً لم يكن، في حين أنّ هؤلاء الرواة يسارعون في الطعن بأخلاق الحكّام غير المسلمين، ويقللون من شأنهم، ويدينون أخطاءهم، ومهما كانت بسيطة.



وليست حكايات ألف ليلة وليلة ترفاً لفظياً، أو رحلة وصفية في الزمان والمكان، بل إن لها غايات وظيفية، فالسرد الحكائي لا ينمو ولا يدخل فضاءات مدن ألف ليلة وليلة إلاّ ليعبّر عن أطروحات فكرية وسياسية وغايات أخلاقية في كثير من الأحيان. ومعظم رواة الليالي يحمّلون السرد الحكائي كثيراً من المقولات الفكرية والإيديولوجية التي يؤمنون بها، وبالتالي ينفون مقولات أخرى يستهجنونها، ويدينونها.

إنّ رواة ألف ليلة وليلة، من خلال الوصف وقطع السرد ووصله، ومن خلال تداخل الحكايات فيما بينها، ومن مواقف الأبطال وطبيعة تفكيرهم، يكرّسون كلّ معارفهم، وما يؤمنون به، ليبثّوا خطاباتهم الإيديولوجية المعادية لخطابات أخرى.

هذا ويقدّم رواة ألف ليلة وليلة نساء مدنهم السلطويات وغير السلطويات على شكل نماذج مثيرة طاغية الجمال، بحيث تبدو هذه النساء أجمل من حوريات الجنة. فالقمر يخجل من جمالهنّ، والشمس تحسدهنّ على وضاءة وجوههنّ، أمّا أكفالهن الثقيلة فإنها تبدو وكأنها كثبان من الرمال، وتبدو نهودهن أكثر تماسكاً وتكوّراً من كل رمان مدن ألف ليلة وليلة، وكل واحدة منهنّ ذات خدّ أسيل وقدّ مليح. وهذا التقديم في بنيته العميقة يدل على نزعة هؤلاء الرواة الشبقيّة التي تشير إلى أنّ هؤلاء الرواة، الذين هم ممثلو القطاع الذكوريّ المهان في ألف ليلة وليلة، قد عانوا عبر تاريخهم الطويل من حرمان جنسي مزمن، وقهر تاريخي وضعهم في طبقة متدنية محرومة، وحرمهم من هاته النسوة المثيرات اللواتي اعتبروهنّ أعظم وأغلى السلع التي يطمح هؤلاء الرجال إلى امتلاكها، في حين أنّ أيّ ملك أو أمير كان باستطاعته أن يحصل على ما يشاء من هاته النسوة المثيرات، طالما يملك المال والسلطة. غير أنّ هؤلاء الرواة لم يقفوا عند هذه الملامح الجمالية لهاته النسوة الطاغيات إثارة وتكوّرات لحمية فحسب، بل رأوا أنّ معظم هاته النسوة المثيرات فاسدات وعاهرات، ومنقادات لرغباتهن الشهوانية المسعورة، ويتقنّ فنون المكايد والاحتيال بامتياز - وبطبيعة الحال هناك استثناءات طفيفة -. أمّا ملامح نساء السلطة، بالإضافة إلى الملامح السابقة، فهي ملامح استبدادية باطشة، إذ لا تتوانى هاته النساء في البطش بأقرب المقرّبين منهنّ، فبعضهنّ يفوق الرجال السلطويين بطشاً وظلماً، على أنّ استبداد هاته النسوة، في المحصلة الأخيرة، هو نتيجة لاستبداد الرجال، ومستمدّ منه، لأنّ المرأة السلطوية تستمدّ قدرتها على البطش، بمن في قصرها من العبيد والجواري وبمن في مدينتها من المواطنين، من سلطة زوجها المطلقة، بوصفه الرأس الأعلى، وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة في دولته. وأمام استبداد نساء السلطة في ألف ليلة وليلة يُلاحظ أنّ الرواة يجترئون عليهنّ، ويصفون بعضهنّ بالزواني والخبيثات.

ونلاحظ في حكايات ألف ليلة وليلة أنّ ثمّة قطيعة إنسانية تعمل السلطة على تكريسها في علاقاتها بالطبقات الأدنى منها، وتتمثّل هذه القطيعة بالاحتقار والاضطهاد والجلد والتهديد بالقتل، والقتل، والإكثار من مظاهر الأبهة والثراء، والإكثار من اتّخاذ الحرّاس والحجّاب الذين يحيطون بالسلطة كظلّها،

بحيث يبدو رجال السلطة آلهة متوّجين بالأبّهة والعظمة، مما يجعل الطبقات الأخرى في حالة خوف دائم، وقناعة مطلقة باستحالة قدراتها على تغيير نظام السلطة أو الثورة عليها. فمعظم سلطات مدن ألف ليلة وليلة الإسلامية وغير الإسلامية لا تقرّب إلاّ الأذلاّء الخانعين لها خنوعاً مطلقاً، والأعوان الباطشين المستبدين في آن، والمهرّجين والندماء المتملّقين، والأبواق المرددين إيديولوجيتها وعظمتها وحقها الإلهي في وراثة الحكم،



أمام استبداد نساء السلطة في ألف ليلة وليلة يُلاحظ أنّ الرواة يجترئون عليهنّ، ويصفون بعضهنّ بالزواني والخبيثات





والشعراء المنافقين المادحين مدحاً تكسبياً كاذباً.

إن للحكاية في ألف ليلة وليلة سلطة على الشخوص السلطويين المروي لهم، إذ تأسرهم هذه الحكاية بفتنة سردها، ونسائه الجميلات المثيرات، ومدنه، وحوادثه العجائبية التي تنشلهم من هموم السياسة والحكم، وتقذفهم صوب البلاد السحرية العجيبة. وسلطتها هذه تعمل على إنقاذ الرواة وأبطالهم من القتل، فالراوي أو البطل المحكوم عليه بالقتل - سواء أكان الحكم من قبل السلطة، أم من قبل شخص مستبد أقوى منه - يسارع إلى فداء نفسه بقص حكاية غرائبية مثيرة، وبعيدة في التخيل، شرط أن تكون هذه الحكاية جديدة لم يسمع بها الشخص السلطوي المروي له. وعندما يسمع المروي له هذه الحكاية الجديدة المثيرة فإن أزمته الاجتماعية أو النفسية تنفرج أمام السرد العذب، ويتصالح مع الراوي، ويعفو عنه، وأحياناً يجعله من ندمائه الخاصين.

إن هذه الموضوعات التي تطرق إليها هذا الكتاب ليست هي وحدها الموضوعات المهمة في ألف ليلة وليلة، بل ثمة مواضيع أخرى كثيرة - لم تبحث بعد باستفاضة - وجديرة بالاهتمام والدراسة من قبل الباحثين، ويمكن أن تشكل محاور رئيسة وفرعية لعدد غير قليل من الكتب والدراسات، ويبدو أن البحث في هذه الموضوعات ممتع وشيق. وقد يكون من هذه الموضوعات ما يلي:

١. التناص بين حكايات ألف ليلة وليلة وبين المصادر الأدبية والتاريخية التي ذكرت كثيراً من حكايات ألف ليلة وليلة، وبتحويرات جد طفيفة. ومن هذه المصادر: الفرج بعد الشدة لأبي علي المحسن بن علي التنوخي، والمستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، وأخبار النساء لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي (ابن قيم الجوزية)، والروض العاطر في نزهة الخاطر لمحمد بن أبي بكر بن علي النفزاوي، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ومصارع العشاق لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج، وتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) لمحمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي (ابن بطوطة).

٢. ملامح إيديولوجيا الرواة الإسلاميين، ومعاداتهم للمسيحيين واليهود والمجوس.

٣. ظاهرة اللهو والمجون في فضاءات قصور ألف ليلة وليلة.

٤. المقاييس الجمالية المرغوبة في نساء ألف ليلة وليلة كما تحددها أذواق الرجال الرواة.

٥. نشاط الحركة التجارية في ألف ليلة وليلة، وعلاقة التجار بطبقة السلطة، وملامح إيديولوجيا الرواة المعادية للتجار والتجارة من جهة، والمساندة لهم من جهة أخرى.

٦. تأثير ألف ليلة وليلة في الرواية العربية المعاصرة، وبخاصة في روايات نجيب محفوظ وهاني الراهب وجمال الغيطاني ويوسف القعيد.

٧. تأثير ألف ليلة وليلة في المسرح العربي الحديث والمعاصر، وبخاصة في مسرحيات توفيق الحكيم وعلي أحمد باكثير وألفريد فرج وسعد الله ونوس ومحمد الشرفي ونعمان عاشور.

٨. دور المال في مدن الليالي وعلاقات سكانها، وتقديس بعض الشخوص له.

٩. الجريمة والقتل في ألف ليلة وليلة، وبخاصة جريمة بتر الأطراف.

١٠. ظاهرة الشذوذ الجنسي في ألف ليلة وليلة: مظاهرها، ودوافعها.

١١. التكرار في ألف ليلة وليلة، وذلك في وصف أشكال النساء، وطرائق احتيالهن، ووصف القصور، والتكرار في حركة الأبطال وفي أحداث بعض الحكايات.

١٢. طبيعة العلاقة بين السياسي السلطوي والمعرفي: الزهدي والفقهي والديني، وانضواء المعرفي تحت جناح السلطوي من جهة، ورفض المعرفي للسياسي وإدانته، والابتعاد عنه من جهة أخرى.



وأمام ألف ليلة وليلة، هذا العمل الحكائي المتميز، لا عجب أن يقف المستشرق الدانماركي ج. أوستروب(٣) مأخوذاً بالإعجاب والتقدير، ثم يقول: «فيما عدا الكتاب المقدس لا توجد سوى كتب قليلة حققت انتشاراً واسعاً وطافت العالم بأرجائه مثل مجموعة الحكايات العربية الشهيرة، والتي عرفت تحت اسم «ألف ليلة وليلة»، فمن جهة أولى اكتسبت أهمية مباشرة، لأنه يكاد لا يوجد في معظم البلدان المتحضرة من لم يقرأ هذا الكتاب بسرور واهتمام مرة واحدة على الأقل في حياته ويستوح منه عدداً كبيراً من الصور البراقة الرائعة والتي ظلت على الدوام عالقة في ذاكرته، ومن جهة ثانية اكتسبت أهمية غير مباشرة لأن أجيالاً متعاقبة من الأدباء كانت تنهل مادتها من هذا النبع الذي لا ينضب».

هوامش

(١) هذه الأبحاث هي:

أ - المرأة وخطاب الجنس في ألف ليلة وليلة، مجلة المعرفة السورية، وزارة الثقافة، دمشق، العددان ٣١٦/ ٣١٧ أكتوبر، نوفمبر، ١٩٨٩م.

ب - مدخل إلى دراسة المرأة في ألف ليلة وليلة، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الثقافة، تونس، العدد السابع والخمسون، العام ١٩٩٠م.

ج - خطاب الحب والجنس والسياسة وعلاقته بمكونات البنية الحكائية في ألف ليلة وليلة، مجلة دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت، العددان ١٠/١١، أغسطس، سبتمبر، ١٩٩٠م.

د - مجتمعات ما تحت المجتمع - ألف ليلة وليلة، فضاء السرد، الجسد، المكان، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، العدد الثالث عشر، ١٩٩٢م.

هـ - ألف ليلة وليلة - جدل الجنس والسلطة، مجلة الناقد، دار رياض الريس، لندن، العدد الثاني والخمسون، أكتوبر ١٩٩٢م.

و- نقد خطاب الحب والسلطة في «تاريخنا الليلي»، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد الثاني والسبعون، ابريل، يونيو، ١٩٩٣م.

ز - بنائية الأمثلة الوظائفية في الحكاية الشعبية، حكاية علاء الدين أبي الشامات/انموذجاً/، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد الثالث والثمانون، صيف ١٩٩٥م.

(٢) في خبر صحافي وتعليق على أهمية «ألف ليلة وليلة» والأبحاث حولها، وتحت عنوان «مذاق ألف ليلة وليلة» - دون ذكر لاسم معد الخبر - قام معد الخبر بنقل رأي الباحثة المصرية أماني أبو الفضل، التي أعدت رسالة ماجستير حول ألف ليلة وليلة، والذي يقول: «إن «ألف ليلة وليلة» استوفت حقها تماماً (من البحث) وآن الأوان لإعطاء الأعمال العربية الأخرى حقها من الدراسة».

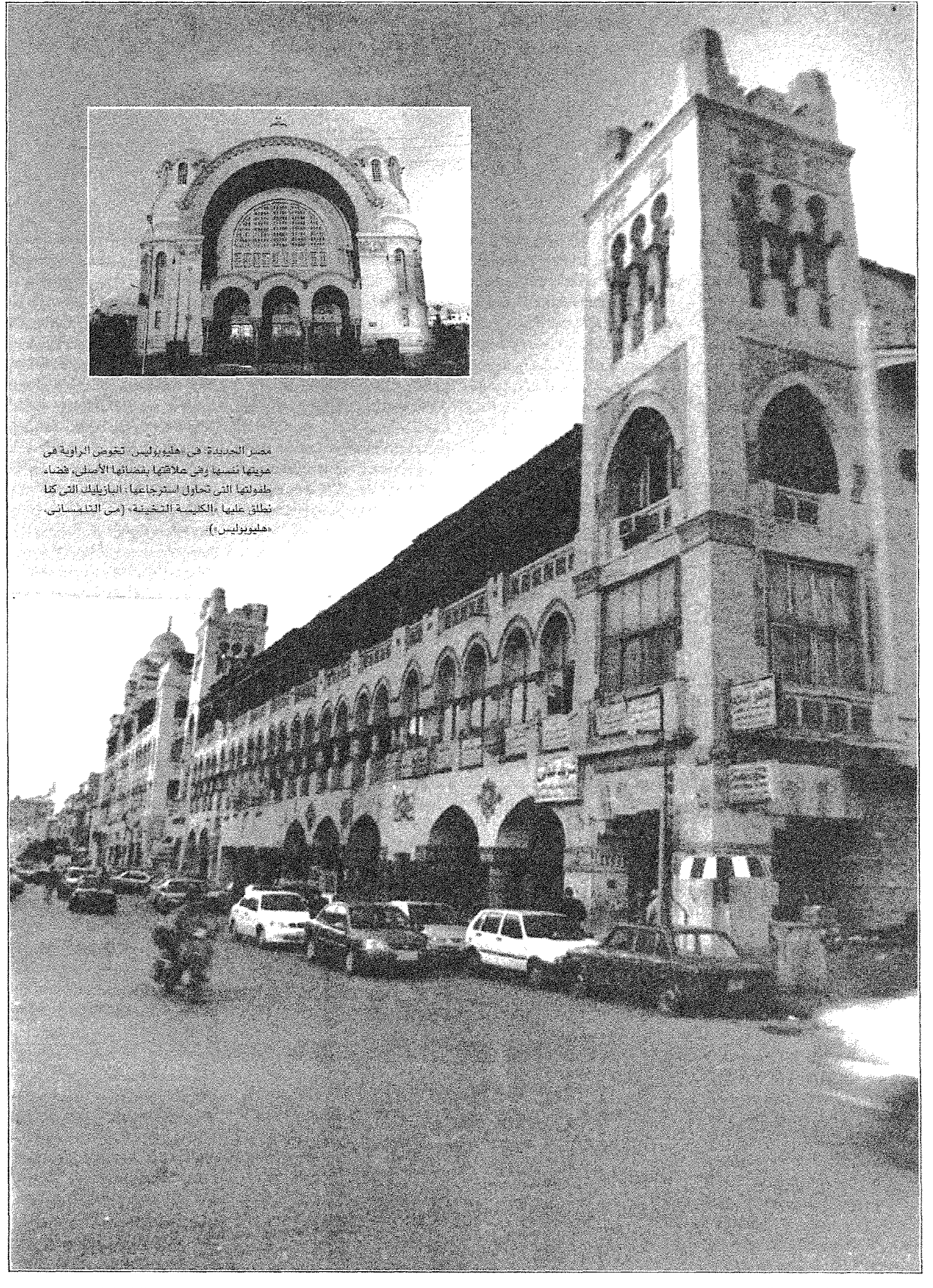
- ينظر: مجلة الشاهد، شركة الشاهد للنشر المحدودة، نيقوسيا/ قبرص، العدد الخامس والسبعون، السنة السابعة، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١م، ص ٩٧.

(٣) عن/مومسن، كاترينا: غوته وألف ليلة وليلة، ترجمة د. أحمد الحمو، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٠م، ص ٤. ولم تذكر اسم المرجع الذي اقتبست منه.



الراوي أو البطل المحكوم عليه بالقتل - سواء أكان الحكم من قبل السلطة، أم من قبل شخص مستبد أقوى منه - يسارع إلى فداء نفسه بقص حكاية غرائبية مثيرة، وبعيدة في التخيل





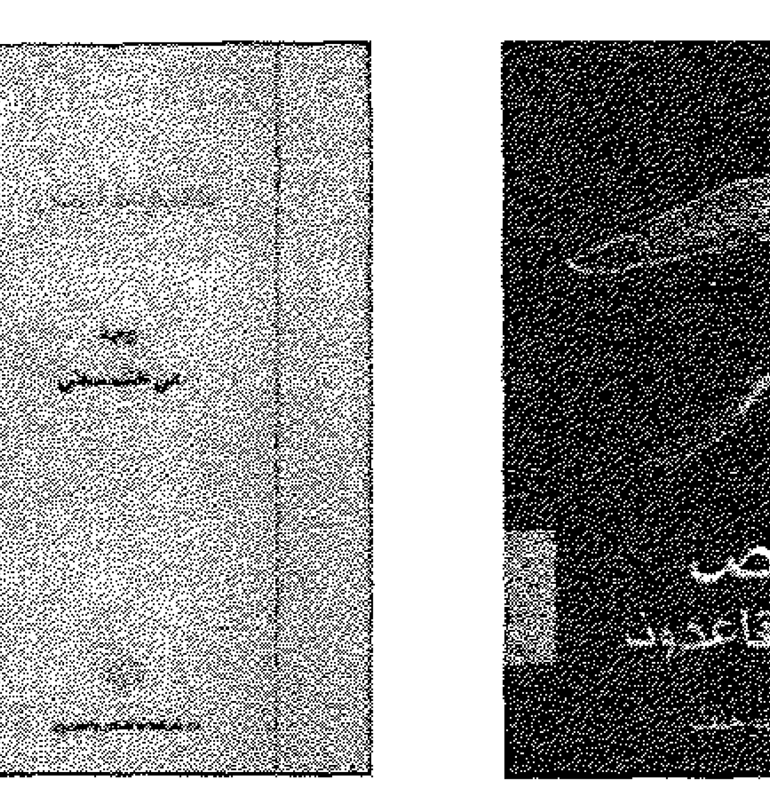
مصر الجديدة، فى «هليوبوليس» تخوض الراوية فى هويتها نفسها وفى علاقتها بفضائها الأصلى، فضاء طفولتها التى تحاول استرجاعها: البازيليك التى كنا نطلق عليها «الكنيسة التخينة» (مى التلمسانى، «هليوبوليس»).

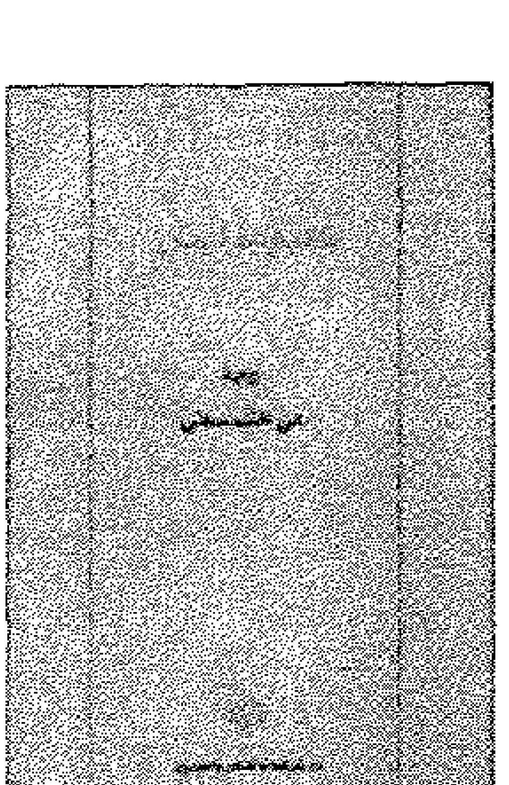
دينا حشمت











من حلم المدينة الكبيرة إلى عزلة الضواحي

قاهرة الرواية العربية

■■ القاهرة هى تلك المدينة الضخمة المخيفة غير واضحة المعالم ذات الوجوه الألف التى يصعب الوقوف أمامها دون اتخاذ موقف منها؛ مدينة تدعو العابرين وسكانها - لاسيما الفنانين منهم- إلى الاندماج فيها، أو البقاء خارج ممراتها وأسرارها الدفينة. كما نجد تمثيلاً لذلك العنف فى الأدب المصرى الحديث والمعاصر، فالعديد من الروايات والقصص القصيرة والقصائد الشعرية تأثرت بإشكالية المدينة. هكذا تنطلق هذه الدراسة من تحليل ستة نصوص أدبية: «زقاق المدق» لنجيب محفوظ[1]، «النداهة» ليوسف إدريس[2]، «عصافير النيل» لإبراهيم أصلان[3]، «لصوص متقاعدون» لحمدى أبو جليل[4]، «هليوبوليس» لمى التلمسانى[5]، و«قانون الوراثة» لياسر عبد اللطيف[6]. لم يكن الهدف هنا هو تعميم صورة المدينة فى هذه النصوص على مجمل الأدب المصرى، بل تفكيك التصور الذى يقدمه كل كاتب عن المدينة نفسها فى أوقات مختلفة من تاريخها، وتقديم تفسير عن هذه التصورات المختلفة. وبالطبع، فإن إحدى تفسيرات تطور تصور القاهرة فى روايات نشرت بين ١٩٤٧ و٢٠٠٢ هو تطور المدينة نفسها.





عرفت مدينة القاهرة عملية تطور مستمر منذ أن أسسها الفاطميون واكتسبت المعالم التى نراها عليها اليوم منذ فترة الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩). فتحت تأثير أعمال التطوير التى أدخلها هوسمان على العاصمة الفرنسية، قام الخديو ببناء مدينة حديثة شوارعها واسعة وفسيحة وآثارها ملائمة لمتطلبات العصر، ومثال على ذلك دار الأوبرا المصرية. جاءت معالم هذا التحديث بجوار المدينة القديمة، فلم تؤد هذه العملية إلى تحديث فضاء المدينة كما كان فى ذلك الوقت، بل أدت إلى تقسيمه إلى فضائين شبه منفصلين، أحدهما حديث والآخر قديم. ولم يغير استيلاء الضباط الأحرار على السلطة سنة ١٩٥٢ «التنظيم الاجتماعى لفضاء القاهرة»، ولم يحطم الحواجز القائمة بالرغم من الإجراءات التى اتخذت فى مصلحة السكن العمالى. بدأت ملامح المدينة تتغير بشكل عنيف بدءا من السبعينيات، فى ظل الزيادة السكانية وسياسة الانفتاح الاقتصادى. فى هذه الفترة تفاقمت بشكل غير مسبوق ظاهرة بناء ما سمى بعد ذلك بال«عشوائيات»، وما سماه أبو زيد راجح «المدينة الثالثة». وهى مدينة من إبداع المواطنين أنفسهم، الذين لم يجدوا حلا اخر لمواجهة مشكلة السكن. وأصبحت القاهرة مدينة ضخمة ظهرت على أطرافها عشوائيات ينقصها العديد من مرافق الحياة الحضرية الحديثة، مثل الماء والكهرباء. وظهرت حديثا أحياء جديدة للأغنياء فى المناطق الصحراوية المحيطة للعاصمة مزودة بحمامات السباحة وملاعب الجولف، تحت مسميات مثل «دريم لاند» أو «بافيرلى هيلز». وأدى هذا التطور إلى تجاوز التناقض القديم بين المدينة الحديثة والمدينة القديمة، اللتين تغيرت أدوارهما، فلم تعد المدينة الحديثة تلك فضاء للنخبة، ولم تعد المدينة القديمة بمثابة هامش للمدينة، مع انخفاض نسبة الكثافة السكانية فيها وتحويلها إلى مركز تجارى وسياحى. من ناحية أخرى، فإن ظهور «المدينة الثالثة» قد جعل حياة أغلبية سكان المدينة غير مستقرة فى الوقت الذى جعل مستقبل هذا الفضاء الحضرى ككل غير مستقرا أيضا وقد لاحقته التغييرات فى الحركة وسرعة التنقلات بينما كانت الحدود والحواجز تعيد بناء نفسها فى مكان آخر.

وكان لا بد من هذه المقدمة لتطور فضاء المدينة كى تشكل خلفية لتحليل النصوص الأدبية الست. تبين لنا من خلال هذا التحليل أن نصى «زقاق المدق» و«النداهة» يتميزان بما سميناه «شاعرية التناقضات». فيعتمد هذان النصان على هيكل درامى قائم على مواجهة بين عالمين لا إمكانية للتصالح بينهما: عالم الريف أو المدينة القديمة فى مواجهة المدينة الحديثة التى تصبح موضوعاً للرغبة، حيث تشتاق الشخصيات المركزية إليها وتتعطش إلى حداثتها الباهرة. وفى الحالتين نجد أن الشخصية المركزية امرأة تبحث عن الخروج بأى ثمن من «وسطها الطبيعى»، الذى نشأت فيه - وهو الزقاق بالنسبة لحميدة، بطلة نجيب محفوظ، ذلك الذى تراه «قذراً ونتن»، والذى تشعر بازدراء شديد تجاهه؛ وهو الريف فى حالة فتحية، بطلة ادريس، الذى تراه مرتبطا بالفقر. ولا تشكل المدينة الحديثة بالنسبة إليهما إلا فضاء طالما حلما به، فضاء الحلم والرغبات. يصف النصان بأدق التفاصيل لحظات مواجهتهما الأولى مع هذه المدينة التى تحدث لهما انبهارا حسياً موصوف بدقة فى النص. الحقل المعنوى المهيمن هو حقل الضوء

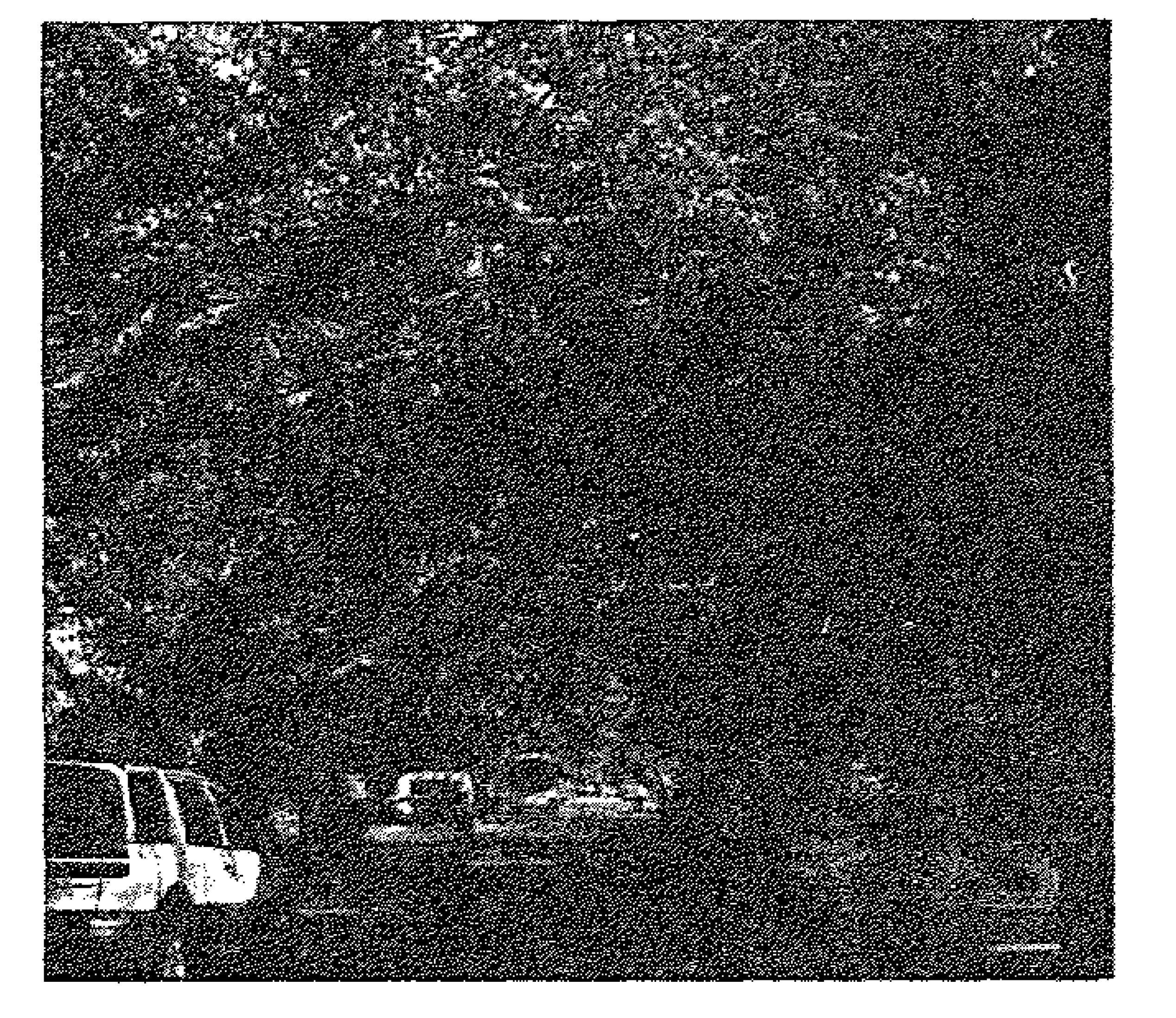
المقالة تلخيص لرسالة حصلت بها الباحثة على درجة الدكتوراة بعنوان:
L'évolution des représentations de la ville du Caire dans la littérature égyptienne moderne et contemporaine
(تطور تمثيل مدينة القاهرة فى الأدب المصرى الحديث والمعاصر)
تحت إشراف: د. هايدى تولو
لجنة المناقشة: د. لوك ديهوفيلس، د. بطرس الحلاق، د. أمينة رشيد، د. هايدى تولو
جامعة باريس ٣ - السوربون الجديدة - فبراير ٢٠٠٤

«يوجد شارع ضيق، أليق به أن يكون حارة، لكنه سمى شارعا لأن بداخله عطفة صغيرة تحمل اسمه تحت تصنيف حارة. والشارع الحارة، والحارة العطفة هو شارع البلاسقة. وبذلك الشارع يوجد ضريح لمتصوف مجهول يدعى «الشيخ حمزة»».

• • •

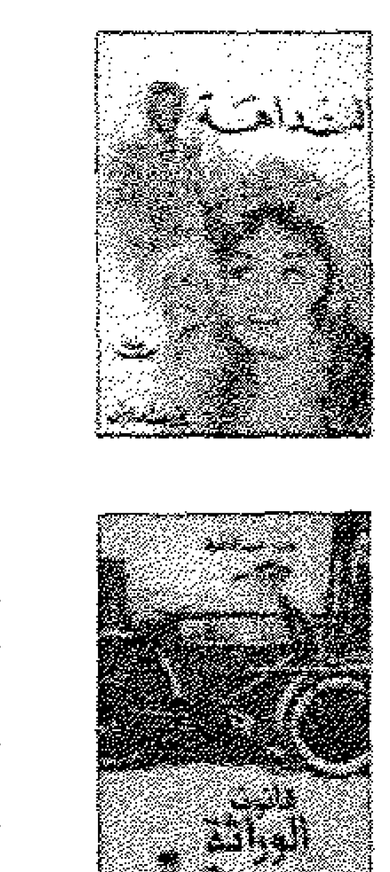
«كان الشارع غارقا في ظلامه، والفوانيس الكابية تزيده غموضا وقد امتد أمامنا صامتا يحيطه جلال الدير ومعهد اللاهوت اللذان يؤطران جانبيه بأسوارهما المنيفة وصفى أشجار السرو والكافور اللذين يوازيان الأسوار». (ياسر عبد اللطيف، «قانون الوراثة»).



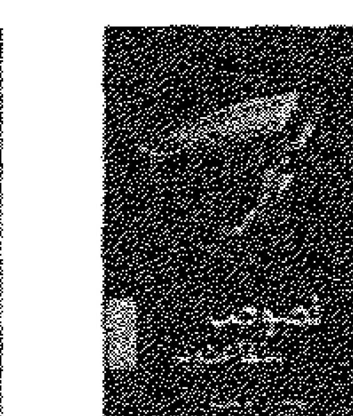
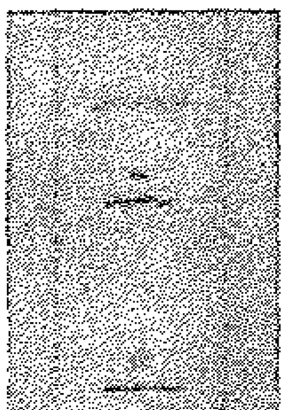


والسعادة: فعندما تذهب حميدة لأول مرة إلى المدينة الحديثة، «قلقت عيناها بين الأنوار التى تتخطفهما، فلاحت لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة»[٧]. وتماما مثل حميدة، تنبهر فتحية بالمدينة، «حيث الشوارع الواسعة الحلوة النظيفة» و«النور الكثير البراق»، الذى يحول الليل إلى نهار ساطع. فالقاهرة هى مدينة «الطعام الكثير والروائح الحلوة واللوكاندات وبحر النيل الأعظم حيث يبدأ النيل وينبع». وعندما تنظر إلى الشارع ترى «النور.. النور ذا الألوان السبعة»، وتسمع «الهيصة والدوشة والمولد»[٨]. ويختلط هذا الانبهار فى الحالتين بالانجذاب نحو «إنسان الحضر» homo urbanus، رجل يمثل بشكل من الأشكال «روح المدينة». فرج إبراهيم فى «زقاق المدق» والأفندى الذى لا اسم له فى «النداهة»، وهما شخصيتان أنيقتان وغنيتان وأهم ما يميزهما هو أنهما من المستغلين. فيضعان استراتيجية للاقتراب تعتمد على فهم دقيق لطبيعة فريستيهما، اللتين ينتهى بهما المطاف إلى السقوط، بعد مقاومة مستميتة فى حالة فتحية، ودون أى شعور بالندم بالنسبة إلى حميدة. ولكن النتيجة لا تختلف كثيرا، فمن أجل الوصول إلى ما يرغبان فيه، من أجل الولوج فى العالم الحضرى، تخلت هاتان المرأتان عن هويتهما الأولى. ففى نهاية الرواية، تركت حميدة الزقاق وأصبحت عاهرة أنيقة، وهكذا دخلت فى «الوجود الحضرى»، هكذا اكتسبت المعرفة التى تحتاجها المرأة كى تبرز جمالها، وتعلمت التعقيد الذى يعتبر إحدى خاصيات الحضرية. أما مصير فتحية الأكثر تعقيدا فهو مرتبط بالاغتصاب الذى تعرضت له والذى يجعلها للمرة الأولى تحقق رغبتها فى المدينة. فتترك القرية وعالمها التقليدى كله. وقرارها بالفرار فى المدينة هو فى الحقيقة نتيجة لفعل جنسى، وفضلا عن ذلك فإنه يلغى تقريبا هوية فتحية كأم، والتى لا نعرف عنها ما إن كانت ستلقى نفس مصير حميدة. فى كل الأحوال، فإن الدخول فى عالم المدينة وفى عالم التحرر (اكتساب القدرة على اتخاذ قرار يخص مستقبلها)، يتم من خلال وبعد فعل اتصال جنسى، مثلما

مقهى «زقاق المدق» لم يتغير تقريبا منذ ١٩٠٤





يحدث فى «زقاق المدق»، وبالتالى يتخذ هذا الفعل هنا موقع التدشين المعرفى الضرورى لاكتساب ملكة الفعل savoir faire، أى القدرة على الذوبان فى عالم المدينة، وتقرير المصير كإنسان. فإن التطور الدرامى لهاتين الشخصيتين من أجل تحقيق رغبتهما يعبر عن عدم إمكانية التصالح بين المدينتين.

كتب نصا نجيب محفوظ ويوسف إدريس فى فترة كان فضاء القاهرة فيها يقسمه تناقض بين مدينة قديمة وأخرى حديثة. ويعبر هذان النصان بشكل واضح عن هذا الواقع. فى الحقيقة فإن الوضع الاجتماعى لهذين الكاتبين وموقعهما فى الحقل الأدبى هو الذى يسمح لهما بأفضل تعبير عن هذا الواقع. ينتمى محفوظ وإدريس إلى أوساط برجوازية صغيرة، ويتحركان بكل سلاسة بين عالمين، فيتردد محفوظ فى نفس الوقت على المدينة القديمة التى نشأ فيها وعلى المدينة الجديدة حيث يعمل كموظف وحيث كان قد بدأ فى تكوين موقع لنفسه فى الحقل الأدبى فى الفترة التى كتب فيها رواية «زقاق المدق».

أما إدريس فقد ولد فى الريف وهو يعرف هذا العالم جيدا، ولكن بسبب أصوله الاجتماعية وعمله كطبيب وأهميته كمثقف وكاتب فإنه موجود أيضا فى الحقل الأدبى القاهرى. إن مرور هذين الكاتبين من مدينة إلى أخرى (بالنسبة إلى إدريس فى نفس الوقت من المدينة إلى الريف ومن مدينة إلى أخرى) ومن عالم إلى آخر، هو الذى يجعلهما «شاهدين من الخارج»، فهما يميزان جيداً بين العالمين ويعرفان أن قدرتهما على التنقل بينهما لا يمتلكها إلا قلة من المحظوظين. وهما فى نفس الوقت يعيشان فى فترة تشكل فيها إشكالية الحداثة الموضوع الأهم. فالمدينة القديمة كانت قد صارت متخلفة فى حين أن المدينة الحديثة تمثل وعداً بالتقدم، إنه الأفق الضاحك للشوارع الواسعة وعقلانية المدينة، أى أمل التطور الذى قد يطال المدينة كلها.

إن هذا التمثيل الثنائى الذى يصاحبه صورة امرأة تحركها رغبة لامنطقية نحو قاع المدينة، ينتمى الآن إلى التاريخ. فلا يوجد فى روايتى إبراهيم أصلان وحمدى أبو جليل، «عصافير النيل» و«لصوص متقاعدون»، اللتين تتميزان بإبراز إشكالية «تريف المدينة»، ما أسميناه برغبة المدينة، شاعرية التناقضات التى تميز «زقاق المدق» و«النداهة».

فلا نجد فى «عصافير النيل» مكانة مركزية لإشكاليات المواجهة بين الريفى والحضرى أو بين أجزاء مختلفة من المدينة. تدور هذه الرواية فى حى إمبابة بنفس شاعريته الخاصة التى صبغت رواية إبراهيم أصلان الأولى، «مالك الحزين»، بصبغة الحنين القوية تلك، المبنية على العلاقة مع النهر. وكما فى أحياء شعبية أخرى فى الضواحى، نجد فى حى إمبابة كل خواص تريف فضاء المدينة، التى يصفها النص عبر أنماط السكن والملبس والعادات الغذائية. وتعطى «عصافير النيل» فى نفس الوقت مكانة مهمة للفضاء الريفى وللعلاقات بين الشخصيات والبلد الأصل.

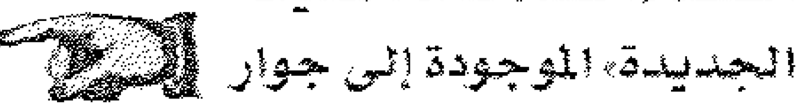


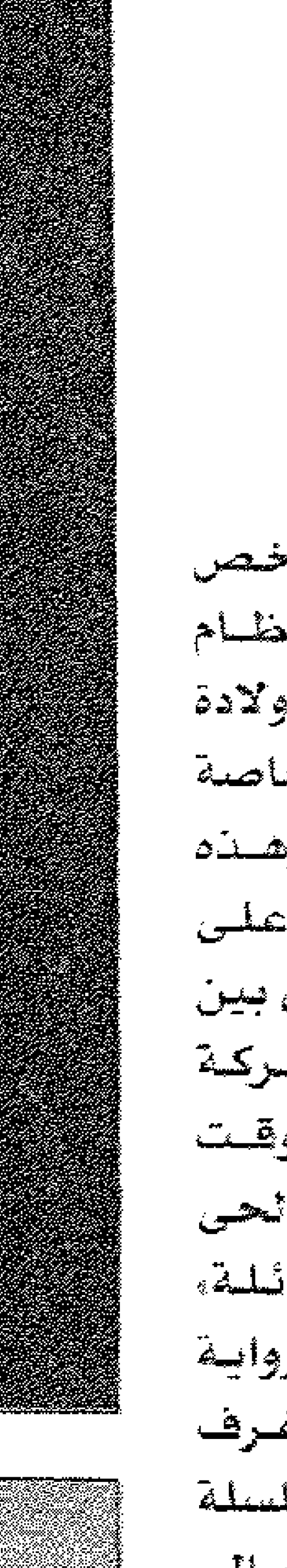
ومع أن هذه العلاقات تراجعت مع الزمن فإنها لا زالت مستمرة من خلال الزيارات للقرية وخاصة خلال الإشارة إلى الأرض التى ما زالت تملكها الأسرة فى القرية التى يشار إليها فى النص بتعبير «البلد»، دون ذكر أى اسم محدد لها. إن عدم تسمية «البلد»، وأهمية الجدة، تلك الشخصية التى ما زالت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقرية، يؤدى إلى تقديس هذا الفضاء الريفى. ومن ناحية أخرى، من خلال التأكيد على دورة الحياة والموت التى تقع فى مركزها المرأة/الجدة، الحامل الرئيسى لسلسلة الحياة والمفتاح الذى يفضى إلى جنات الذاكرة الجماعية، حتى وإن كانت هى شخصيا قد فقدت الذاكرة، تخفف رواية «عصافير النيل» من حدة المواجهة بين الريف والمدينة. فهى رواية تنتمى إلى تلك النصوص التى «تلح على آخرية عالم القرية لا على تخلفه» (سامية محرز). وفى الحقيقة فإن إشكالية التصالح مع الجذور تلك هى التى تمنعنا من التوصل إلى النتيجة بأن «عصافير النيل» هى تصوير لجيتو حضرى. فهنا على العكس يذوب الفضاء الريفى والحضرى معاً ليشكلا ما سميناه «شاعرية مزدوجة للفضاء».

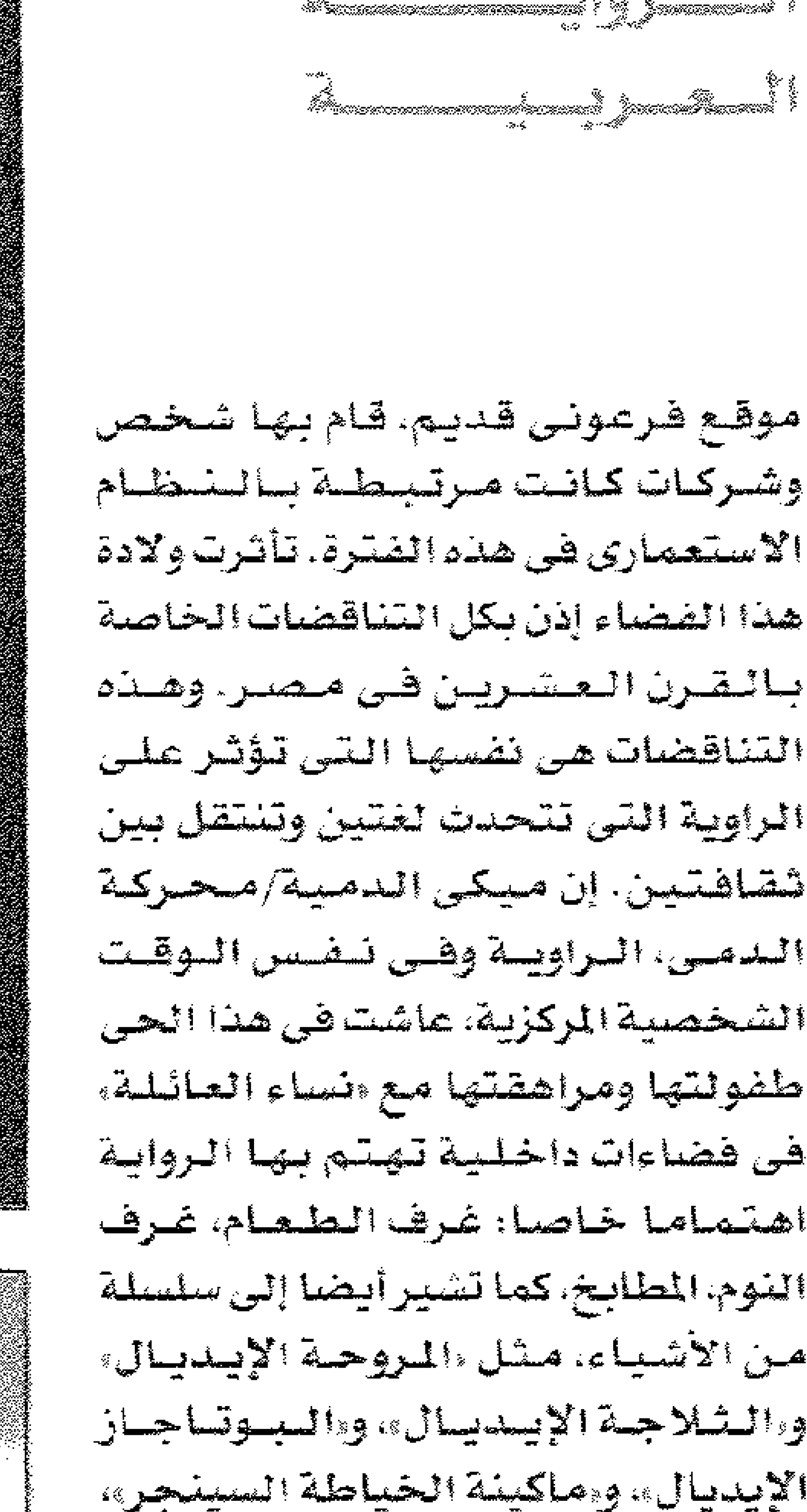
وتقع رواية «لصوص متقاعدون» فى منشية ناصر، وهو الحى الذى أنشئ لإيواء عمال مصانع حلوان القريبة. وهذا الفضاء، الذى يصفه النص على أنه حى جيتو عشوائى، له هويته الفضائية الخاصة، بنظام قيمه الخاص المشترك بين أغلب الشخصيات التى تنحدر فى معظمها من جذور ريفية أو بدوية ومميزة بين هويات مختلفة. وإذا كان النص يعبر عن هذا التمزق فى العلاقة بالفضاء مستخدما المسافة والسخرية، فإن هذه السخرية تشكل أيضا تعبيرا مريرا عن اضطهاد يعاش فى داخل حيز المدينة. فالسخرية هى رد فعل استهزائى أمام هذا الاضطهاد. وتعبر المسافة الناتجة عن لعبة السرد (إدخال الراوى كشخصية فى النص)، عن إمكانية فعل كل شىء على الورق، إمكانية كسر الحدود بين الواقع والخيال، إمكانية التحرر من الحدود التى تؤطر فضاء المدينة بعنف، خاصة بالنسبة للذين أتوا من فضاء لا حدود للأفق فيه. فلا شاعرية للمدينة فى منشية ناصر، كما وجدناها فى «عصافير النيل». فسكان منشية ناصر لا يمتلكون حتى جزءا صغيرا من النيل، فيصير اضطهاد المدينة أكثر قسوة. ولكن هناك فى المقابل عدة عناصر مشتركة بينها وبين «عصافير النيل»: فلا تتناول الرواية لحظة الانبهار الأولى أو صدمة الوصول إلى المدينة، ولا يشكل هذا الحدث بؤرة الهيكل السردى. والعنصر المشترك الثانى، هو أن هناك نوع من التأكيد على انتماء الراوى للثقافة البدوية (الريفية فى «عصافير النيل»)، من خلال الإشارة إلى النجع الأصلى الذى لا اسم له (تماما مثل «البلد» فى «عصافير النيل»)، وإن لم تسلم هذه الثقافة من سخريته اللاذعة والمريرة.

إن روايتى إبراهيم أصلان وحمدى أبو جليل نشرتا سنة ١٩٩٩ و٢٠٠٢، بعد «زقاق المدق» و«النداهة» بسنوات، وبعد نشأة المدينة الثالثة بحوالى ٣٠ سنة. وتهتم هاتان الروايتان بضواحى المدينة التى يسكنها فى الأغلب مهاجرون ريفيون. والكاتبان كلاهما ينتمى إلى طبقة شعبية وقد أقاما فى وقت أو آخر فى هذه الأطراف وهما ليسا من أبناء العاصمة. كيف نفسر إذا الفرق بين صورة المدينة فى «عصافير النيل» وفى «لصوص متقاعدون»؟ ففى حين أن أصلان يؤكد على الانتماء الثنائى، إلى فضاء القرية الأصل وفضاء الحى الشعبى فى آن واحد، يقدم لنا أبو جليل حى منشية ناصر كجيتو سكانه منفصلون عن الفضاءات التى أتوا منها وهم أيضاً غير مندمجين بشكل طبيعى فى فضاء القاهرة. ويمكن تفسير هذا الفارق بالفارق بين موقع أصلان وموقع أبو جليل فى الحقل الأدبى فى الوقت الذى كتبا فيه هاتين الروايتين. ففى حين أن أصلان، الذى كان فى البداية عامل بريد ثقف نفسه بنفسه، فأصبح كاتبا مرموقا فى الحقل وأصبح له دخل ثابت من خلال عمله فى جريدة «الحياة» ومسئولياته المتعددة فى مؤسسات تابعة لوزارة الثقافة. لا يزال أبو جليل غير معروف نسبيا ويمارس عمله كصحفى شاب فى جريدة «الاتحاد» التى تصدر فى الإمارات، حتى وإن كان يشغل منذ عدة سنوات نفس نوعية الوظائف التى تركها أصلان. ويختلفان أيضا من حيث علاقتهما بالفضاء الحضرى. وفى الوقت الذى استقر فيه أصلان فى القاهرة منذ طفولته، لم يستقر أبو جليل فى المدينة إلا فى سن كبيرة نسبياً، ساكنا فى عدة ضواحى مختلفة فى وضع يتسم بعدم الاستقرار. بالنسبة إليه -القادم الجديد- لم تكن الأشياء مكتسبة فى حين أن أصلان كان له موقع اجتماعى ومصداقية ككاتب.

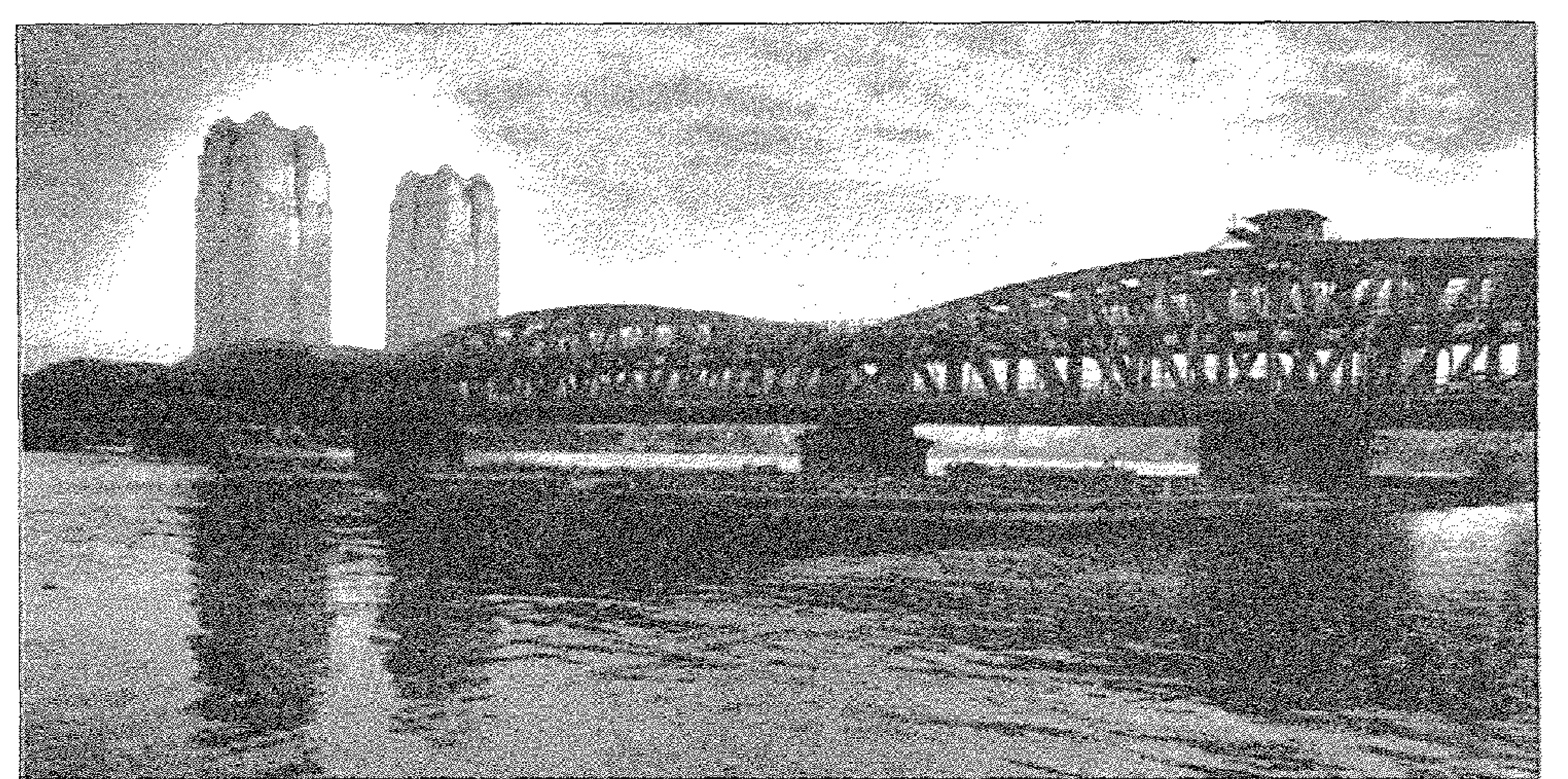
أما الروايتان الأخيرتان، رواية مى التلمسانى «هليوبوليس» ورواية «قانون الوراثة» لياسر عبد اللطيف فهما يتميزان بإشكالية الانطواء على الضاحية. فى الرواية الأولى يقدم حى هليوبوليس على أنه فضاء مثالى مرتبط بالماضى أكثر مما هو مرتبط بباقى المدينة، فتصفه الراوية من خلال دمجها فى متن السرد نفسه عناصر حول تاريخ هذا الفضاء، سواء كان من التاريخ الفرعونى أو من التاريخ الأحدث، تقتبسها أحيانا من الكتب التاريخية. وتؤكد ما بين أشياء أخرى على أن نشأة حى مصر الجديدة ترجع لاستثمار البارون إمبان فى هذا الحى فتطرح هكذا بشكل غير مباشر تساؤلا حول هوية هذا الفضاء: نشأة هذه «المدينة الجديدة» الموجودة إلى جوار











إمبابة. الكوبرى القديم فوق النيل ووراءه البرجان اللذان بنيا منذ عدة سنوات. ديسمبر ٢٠٠٣م.

موقع فرعونى قديم، قام بها شخص وشركات كانت مرتبطة بالنظام الاستعمارى فى هذه الفترة. تأثرت ولادة هذا الفضاء إذن بكل التناقضات الخاصة بالقرن العشرين فى مصر. وهذه التناقضات هى نفسها التى تؤثر على الراوية التى تتحدث لغتين وتنتقل بين ثقافتين. إن ميكى الدمية/محركة الدمى، الراوية وفى نفس الوقت الشخصية المركزية، عاشت فى هذا الحى طفولتها ومراهقتها مع «نساء العائلة» فى فضاءات داخلية تهتم بها الرواية اهتماما خاصا: غرف الطعام، غرف النوم، المطابخ. كما تشير أيضا إلى سلسلة من الأشياء، مثل «المروحة الإيديال» و«الثلاجة الإيديال» و«البوتاجاز الإيديال» و«ماكينة الخياطة السينجر» و«البيك آب» إلخ. تلك الأشياء التى تقوم بدور الحفاظ على ذاكرة حقبة زمنية بكاملها. ومن خلال إعادة بناء هذا الفضاء فى النص، مستعينة فى الوقت نفسه باقتباسات عن تاريخ حى مصر الجديدة، تخلط الراوية بشكل عميق بين «أنا» السرد، والفضاء الذى تصفه. فتقوم الراوية/محركة الدمى هكذا بتحريك شخصياتها/الدمى، بما فى ذلك ميكى نفسها، وتعيد ترتيبها فى الفضاءات التى تبدو لها مناسبة لإعادة خلق فضاء طفولتها التى تحاول استرجاعها[1]. ففى «هليوبوليس» تخوض الراوية فى هويتها نفسها وفى علاقتها بفضائها الأصلى وليس للرواية أى ادعاءات أخرى، مما يفسر تصوير الفضاء مكتفياً بحى واحد وعدم تناول المدينة كلها.

ففى حين أن هيكل السرد فى «زقاق المدق» مبنى حول المواجهة بين المدينة القديمة والمدينة الحديثة، تضع «هليوبوليس» بكل بساطة باقى مدينة القاهرة خارج السرد. مما يشكل انطواء على الفضاء الأكثر ألفة. فلا دخل لشخصيات «هليوبوليس» فى تناقضات المدينة المتفجرة.



أحداث «قانون الوراثة»، فتقع فى عدة فضاءات وفى أزمنة مختلفة: زمن الراوى فى قاهرة التسعينيات، بين ما يسميه «قلب المدينة» وضاحية المعادى، وزمن جدوده، المهاجرين النوبيين إلى العاصمة، ما بين الموطن الأصلى فى النوبة البعيدة وقاهرة بداية القرن العشرين. وإذا كان النص لا يصف صدمة الوصول الأولى إلى المدينة، فإن قاهرة بداية القرن العشرين هى مدينة عنيفة ليس من السهل الاندماج فيها بالنسبة إلى هؤلاء الذين نزحوا من الجنوب، وهى المدينة المقسمة اجتماعيا وثقافيا بشكل صارم. إلى جانب وصف الراوى الذى يندد بشكل واضح بهذا العنف، إلى جانب الإشارة الدائمة للجيتو النوبى التى تذكر القارئ باستمرار بتقسيم المدينة بين عدة فضاءات اجتماعية أو جاليات، إلى جانب كل هذا، فإن مسيرة الشخصيات هى التى تدلنا فعليا على طبيعة المدينة غير المتسامحة، وعلى صعوبة الاندماج بالنسبة للغريب. فإذا كانت استراتيجيات اندماج الرجال الثلاثة -جد الراوى، وفتحى ابن أخ الجد، وشاكر قريبه- فى فضاء القاهرة الحضرى تتشابه فى اختيارها الخروج من الجيتو النوبى، فالوحيد الذى نجح فى اندماجه الاجتماعى هو الجد. فمغامرة فتحى الالتحامية مع «قاع» المدينة هى مؤقتة؛ ولا يجد شاكر فى الطريقة الصوفية التى التحق بها سند كى يمتلك مفاتيح الحياة المهنية والاجتماعية فى القاهرة؛ وبالتالى الجد هو الوحيد الذى فقد أحفاده المستقرون فى العاصمة الرابط مع الأراضى النوبية الأصلية. فالراوى يعيش بين ما يسميه «قلب المدينة» وهو فضاء طفولته وأيضا فضاء اللقاء بالمثقفين، وهناك أيضاً جامعة القاهرة ومظاهرات ١٩٩١، وضاحية المعادى حيث يتسكع مع أصدقائه ويتعاطى المخدرات. وتشكل المخدرات فى «قانون الوراثة» انطواء على الذات وأيضا على «شلة» الأصدقاء وعلى الحى. إنه انطواء الأطراف الذى يعبر عن المقاومة السلبية فى مواجهة المدينة الكبيرة. إن شباب الضواحى الذين يتمايزون «بالفردية المقموعة» يتماثلون مع فضاء حياتهم ويشعرون بوزن المركز العنيف وبدكتاتورية المدينة. وبهذا المعنى يمكننا أن نتحدث عن «ثقافة الأطراف» كما يتحدث عنها المؤلف نفسه. يضع النص هذه «الأطراف» فى مواجهة مركز المدينة دون أن يفصلها عنه، فالمرور من فضاء إلى آخر يشكل جزءا لا يتجزأ من هوية الراوى. فتعدد الفضاءات، وبالتالى تعدد التناقضات فيما بينها، هو ما يميز هذه الرواية. فالتناقض بين النوبة والقاهرة يخففه غياب صدمة الوصول الأولى إلى المدينة، كما يخففه الوجود الهامشى لفضاء النوبة فى النص، إلى جانب أن هذا الفضاء نفسه تمزقه عدة تناقضات أهمها التناقض بين النوبة القديمة، وهو فضاء يحن إليه الناس ويحلمون به أكثر مما يعرفونه فعليا، و«أماكن الهجرة الجديدة». هناك أيضا التناقض بين الجيتو النوبى وباقى المدينة، ما بين الضاحية والمركز. إن تعدد الانتماءات والتناقضات يخفف من حدتها. هنا أيضا يتضح الفرق مع تصوير «زقاق المدق» أو «النداهة» شديد الثنائية، الذى يجعل من التناقض بين الفضاء الريفى والحضرى المحور الرئيسى.

وهاتان الروايتان هما أيضا نصان حديثان مكتوبان على خلفية مدينة هى المدينة الثالثة، وكاتباها ينتميان، كما ينتمى حمدى أبو جليل إلى جيل التسعينيات. وتحتل الضاحية مكانة مركزية كما لدى أبو جليل (الفضاء الوحيد لدى التلمسانى، ولكن ليس لدى عبد اللطيف) وكما نجد الحال عند أبو

إنه الأفق الضاحك للشوارع الواسعة وعقلانية المدينة: «قلقت عيناها بين الأنوار التى تتخطفهما، فلاحت لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة». (نجيب محفوظ، «زقاق المدق»).

جليل، فإن الكتابة دون أن تسمى نفسها كتابة سيرة ذاتية نراها تقترب منها كثيرا. فبناء السرد ليس بناءا كلاسيكيا وكل النصوص تدمج الراوى فى النص. وتؤكد هذه النقاط الثلاث تحليل صبرى حافظ بأن شكل النصوص الأدبية فى التسعينيات متأثر بشكل واضح بتطور الفضاء الحضرى.

«فإذا كانت روايات نجيب محفوظ مثلا هى التعبير الأدبى - من حيث بنائها ولغتها وعالمها - عن العلاقة بين المدينتين، فإن روايات التسعينيات هى بنت المدينة الثالثة تعبيريا وتصويريا على السواء»[10].

يشرح حافظ أن «ضيق التنفس الاجتماعى فى المدينة قد أدى إلى قصر النفس الروائى فى النص» فهناك «هذه الرغبة الملحة فى التناول التفصيلى للمكان» و«تقديم المكان (...) يتعمد تغريبه عن القارىء» و«كتابة الجسد»[11].



ووجدنا هذه الصفات الثلاث من خلال تحليلنا للنصوص الثلاثة المكتوبة فى التسعينيات.

ولقد أدى بنا تحليلنا لنصى التلمسانى وعبد اللطيف إلى الاستنتاج بأنهما يقدمان صفات مختلفة عن نص أبو جليل. فـ «لصوص متقاعدون» هو أكثر هذه النصوص قتامة وسخرية: فيقتل الراوى/الشخصية المركزية أحد جيرانه لأسباب تافهة فى مشهد عبثى تماما. فى حين أن رواية «هليوبوليس» تعطى لنا إمكانية تفسير كناية الماريونيت ومحركة الماريونيت/ الراوية كمحاولة للتحرر من خلال الكتابة لتجاوز آثار التربية البرجوازية الصارمة للبنات. فى نص ياسر عبد اللطيف يشكل التنقل بين عالمين مختلفين (الضاحية ووسط البلد) وهويات متعددة (قاهرية ونوبية) انفتاحا ممكنا وومضة أمل. وينتمى هذان الكاتبان إلى الطبقة الوسطى ولا يسكنان فى هذه المدينة الثالثة - وهو ما يفرقهما عن أبو جليل. فإذا كانت الخلفية الحضرية تؤثر على صورة المدينة، فإن وضع الكاتب الاجتماعى ووضعه فى الحقل الأدبى يؤثر عليها أيضا، ويجعلها أكثر تعقيدا فى نفس الوقت. نريد من خلال هذه الملاحظة أن نخفف من كلام صبرى حافظ الذى يؤكد أن كتاب التسعينيات حتى من هم « ليسوا من أبنائها (من أبناء المدينة الثالثة) عضويا نجد أنهم أبناء تصورها وزمنها وإيقاعها»[12]. فإن نص أبو جليل هو الوحيد الذى يعبر بهذا الوضوح عن الأفق المغلق وغياب الأمل الذى يعيشه الشباب فى ضواحى القاهرة الجديدة.

إن مفهوم «الحقل الأدبى» الذى أطلقه بورديو وطبقه ريشار جاكمون[13] على الواقع الاجتماعى والأدبى فى مصر كان مفيدا هنا لإلقاء الضوء على وسيط للتأثير، أى لتفسير كيف ولماذا نستنتج أن الواقع الاجتماعى والأدبى قد يؤثر على صورة المدينة فى هذه النصوص الأدبية. فيسمح مفهوم الحقل الأدبى بعدم الربط المباشر بين تطور الفضاء الحضرى وأشكال السرد فى كل عمل أدبى كما «يسمح مفهوم الحقل بألا نربط مباشرة بين باريس هوسمان وأشكال لوحات إدوار مانيه». وإذا رافقناه بعامل مثل الخلفية الحضرية قد يسمح هذا المفهوم بإعطاء تفسير لصورة المدينة فى هذا العمل الأدبى أو ذاك، تلك المدينة المنقسمة إلى فضاءين لا إمكانية للمصالحة بينهما أو ذلك الفضاء الحضرى المشتت التائه فى مدينة أصبحت أشبه بشبكة العنكبوت الضخمة. ■

هوامش:

(١) نجيب محفوظ، «زقاق المدق»، دار القلم، بيروت، ١٩٧٢، (الطبعة الأولى ١٩٤٧).

(٢) يوسف إدريس، «النداهة»، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٩.

(٣) إبراهيم أصلان، عصافير النيل، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٩.

(٤) حمدى أبو جليل، لصوص متقاعدون، ميريت، القاهرة، ٢٠٠٢.

(٥) مى التلمسانى، هليوبوليس، دار شرقيات، القاهرة، ٢٠٠٠.

(٦) ياسر عبد اللطيف، قانون الوراثة، ميريت، القاهرة، ٢٠٠٢.

(٧) نجيب محفوظ، «زقاق المدق»، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ١٥٦.

(٨) يوسف إدريس، «النداهة»، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٤-١٦.

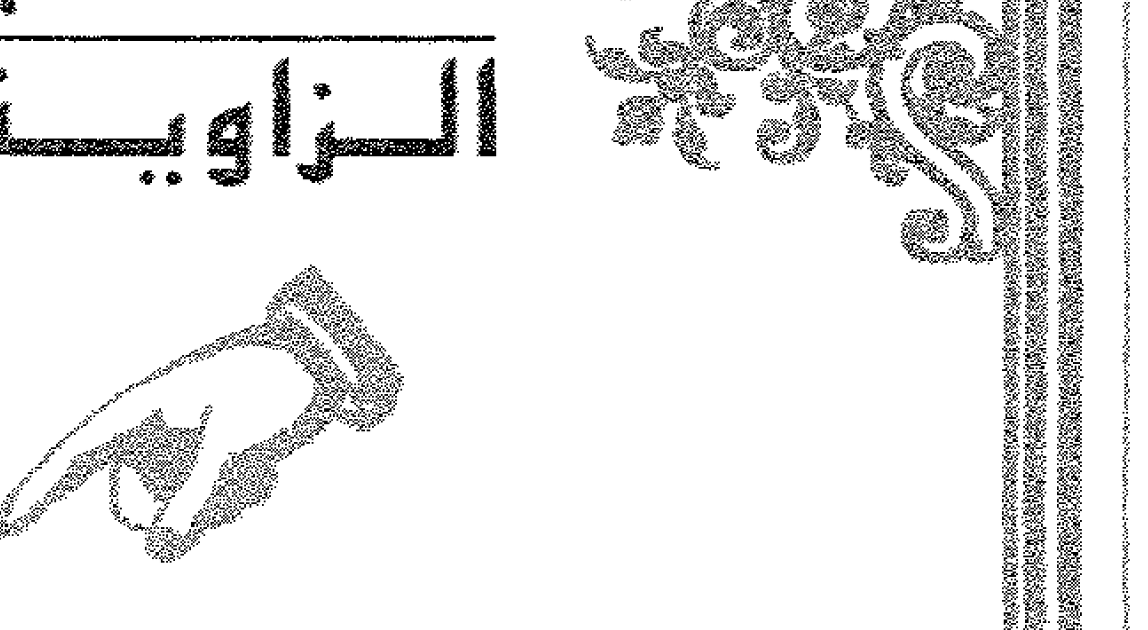
(٩) نفين النصيرى، «مكانيات التاريخ فى السرد، القاهرة أو البحث عن المكان المفقود، دراسة مقارنة بين قطعة من أوروبا» لرضوى عاشور، «خرائط للموج» لسهام بيومى و«هليوبوليس» لمى التلمسانى، ورقة تم تقديمها يوم ١٩ أكتوبر ٢٠٠٣ فى مؤتمر الرواية والمدينة المنعقد فى القاهرة من ١٨ إلى ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٣.

(١٠) صبرى حافظ، «جماليات الرواية الجديدة: القطيعة المعرفية والنزعة المضادة للغنائية»، ألف ٢١، ٢٠٠١، ص١٩٥.

(١١) نفس المصدر.

(١٢) نفس المصدر.

(١٣) ريشار جاكمون، «الحقل الأدبى المصرى منذ ١٩٦٧»، رسالة دكتوراة، جامعة أكس - مارسيليا ١، ١٩٩٩.



استدعاء حسنين باشا


مذكرات اللورد كيلرن

عدنا إلى السفارة، حيث استدعيت حسنين فى الساعة ١٢,٣٠ بعد الظهر، وكانت المقابلة لفترة قصيرة جداً، وقرأت على مسامعه بيانى الذى سجل منه نسخة له.


وقلت له: إنه ليس لدى الكثير لأضيفه ما عدا أننى كنت آمل أن يمارس ضغطه على الملك فاروق فنحن هذه المرة نظهر الضوء الأحمر بكل جدية، وبكل التأكيد على طلبى هذا، ورجوته أن يحذر الملك فاروق بأنى أتوقع رداً منه يتضمن معلومات، بأنه قد استدعى النحاس قبل الساعة ٦ مساء، وإلا ستحدث أشياء ليست فى الحسبان. والخطوة الثانية التالية كان يجب علينا أن نتأكد تماماً بأن النحاس الذى يصعب دائماً معرفة خط سيره، يكون جاهزاً بعد ظهر هذا اليوم للاستدعاء إلى القصر. وفى هذا الوقت كان من الصعب على عادة أن أعثر على أمين عثمان، ولكن أخيراً تمكنت من لقائه بدار السفارة فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر، وقد أخبرته بما قلته لحسنين، وقلت له: إن من الأمور السياسية أن يكون النحاس جاهزاً. وطلبت منه أن يبلغ النحاس نص الكلمات التى قلتها لحسنين وآمل ألا يلجأ النحاس لأى طلبات ملتوية يتنصل بها من الموقف.

وقال أمين عثمان: لن يحدث شىء من هذا القبيل. بل إن النحاس يطلب ألا يحدث أى تراجع أو مراوغة فى موقفنا نحن. وقد أكد أمين للنحاس بأننا على أهبة الاستعداد لهذا الموقف. وأضاف أمين بقوله: إن مكرم استدعى إلى القصر، وقلت له بأنى آمل بألا يلجأ مكرم إلى اتخاذ أى موقف ملتو لا نرضاه نحن قبل لحظة الصفر بالنسبة لنا وهى الساعة ٦ مساء، وألا يحدث أى لبس فى هذا الميعاد المحدد.

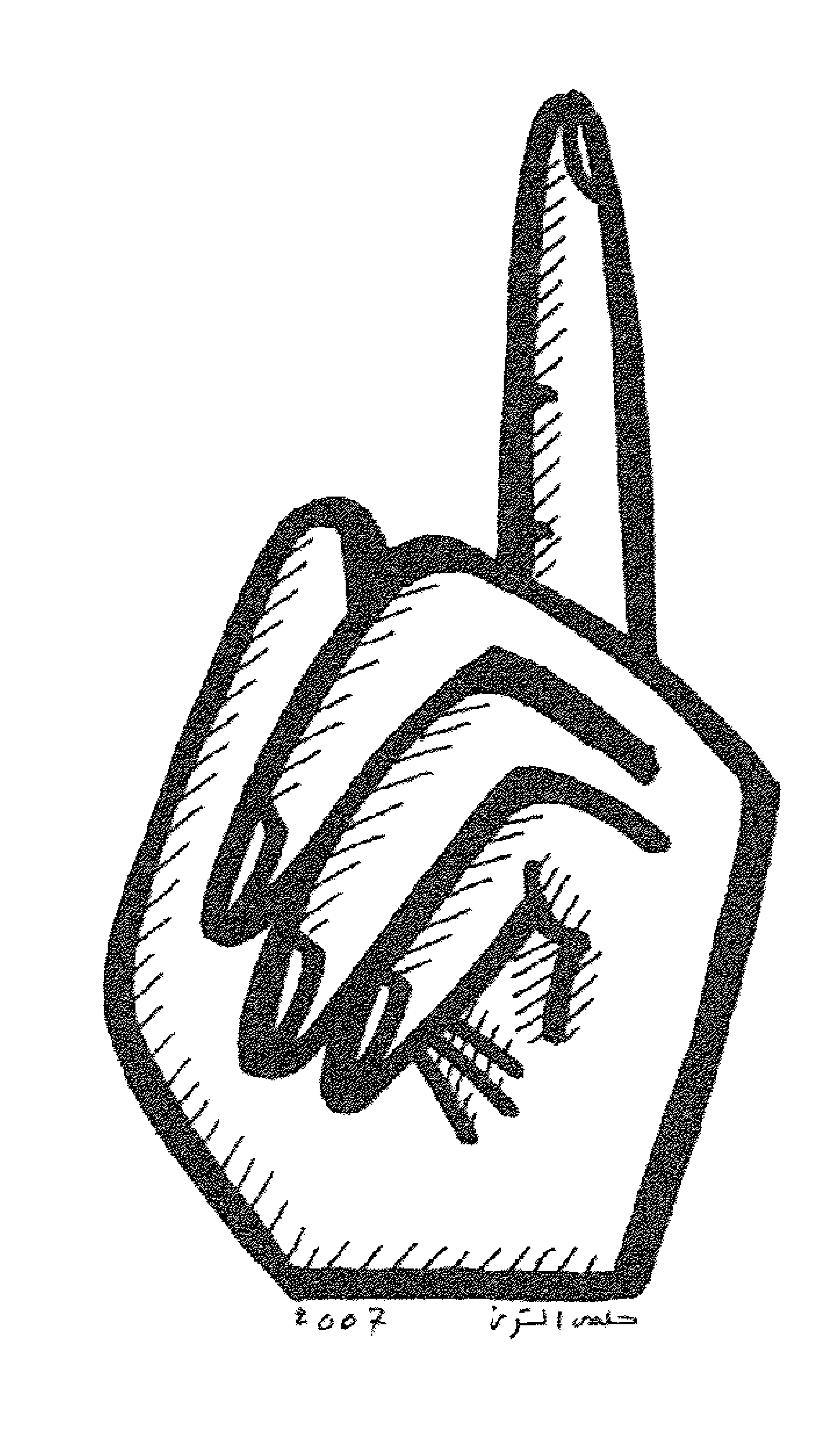


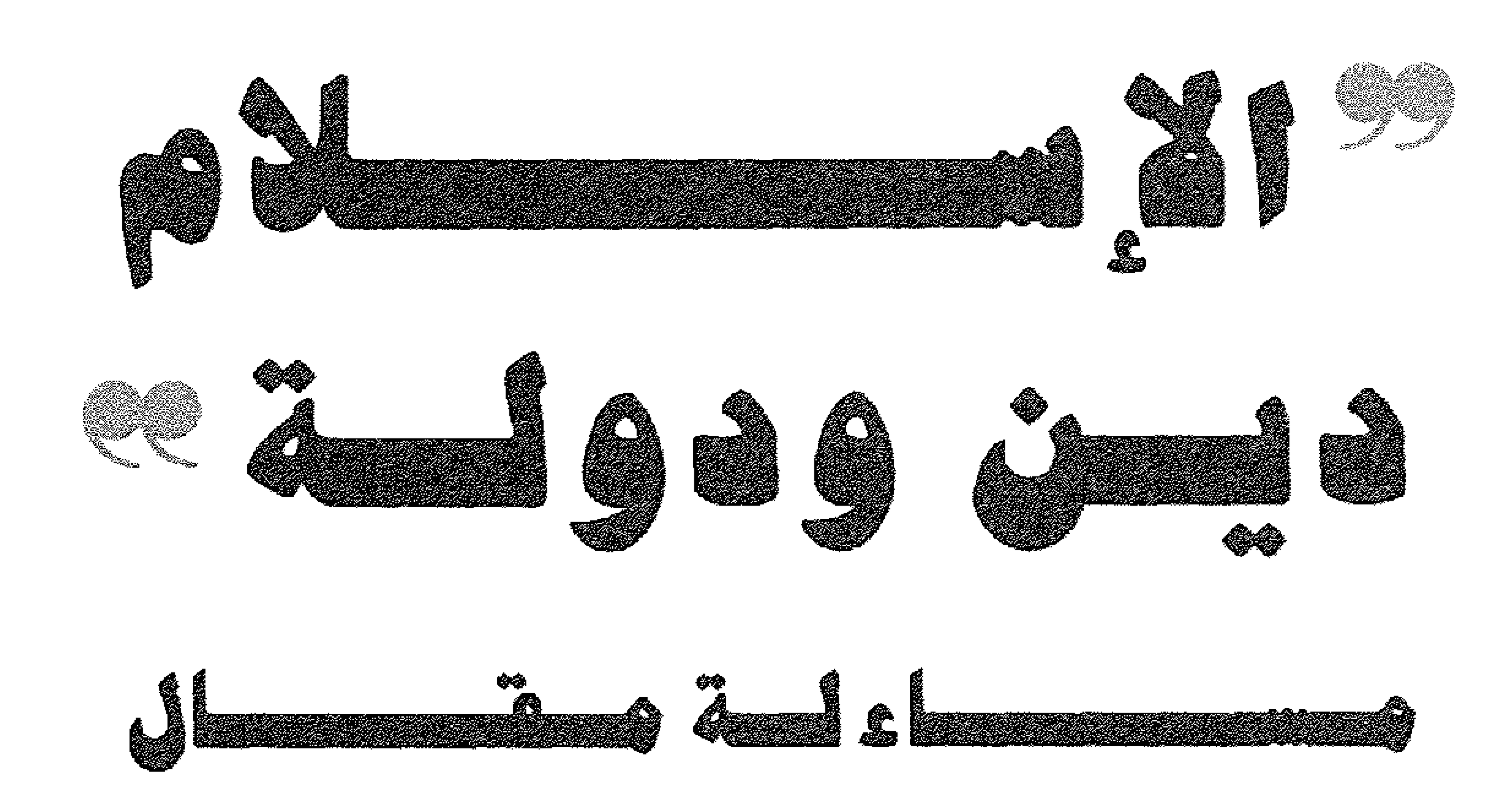


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
SGS
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com





محمد سليم العوا

حمدت الله أننى لم أستطع نشر مقالى هذا فى العدد السابق مع مقال الدكتور جابر عصفور، فلم أكن راغباً أن يشوش أحدنا على الآخر، كالذين يشاركون فى بعض البرامج التليفزيونية ليتناقضوا، فلا يستفيد المشاهد شيئاً

[١]

عندما طلب منى المسؤول عن تحرير هذه المجلة «وجهات نظر» أن أكتب مقالا حول شعار (الإسلام دين ودولة) لينشر فى عدد شهر يونيو الماضى، وعدته بالاستجابة لطلبه. وكنت صادق العزم على ذلك، راغباً فى صنعه مقبلاً عليه. ثم حالت حوائل متكاثرة بينى وبين الوفاء بوعدى. فطلبت منه راجيا أن نرجئ المقال إلى عدد شهر يوليو، ولم يكن أمامه إلا القبول لأن عدد يونيو كان. كما أخبرنى. قد دُفع به إلى المطبعة فعلا عندما أبلغته اعتذارى!

فلما صدر عدد يونيو اكتشفت أن المشاغل التى حالت بينى وبين إنجاز المقال المطلوب فى وقته كانت من النعم الخفية. فقد كان القائم على هذه المجلة. سعيا لخير مطبوعته. يريد أن يضعنى فى «مواجهة فكرية» مع الصديق الأستاذ الدكتور جابر عصفور، يستعيد بها المتابعون من جيلنا لحياتنا الثقافية تلك المواجهات الفكرية الهادئة الرصينة التى طالما أثرت حياتنا الثقافية فى سنوات القرن العشرين، ومنها ماجرى فى غضون شهرى مايو ويونيو سنة ٢٠٠٠، بمناسبة صدور طبعة مصرية حكومية من رواية (وليمة لأعشاب البحر)[١] ذلك أن الدكتور جابر عصفور قد أتحف عدد يونيو ٢٠٠٧ من «وجهات نظر» بمقاله المعنون (الإسلام دين ودولة.. مساءلة شعار). ولو كنت قد أنجزت مقالتى فى الموضوع نفسه، ونشرت مع مقالته لكنا كمتحدثين يشوش أحدهما على الآخر، أو كالذين يشاركون فى بعض البرامج التلفزيونية ليتناقضوا لمجرد التناقض. فلا يستفيد المشاهد شيئًا ذا بال، أو لا يستفيد شيئًا على الإطلاق. وأنا أربأ بنفسى، وقبلها بالدكتور جابر عصفور، أن نقع فى هذه الخطيئة! لذلك حمدتُ الله أننى لم أستطع إنجاز مقالى فى الوقت الذى حدده أيمن الصياد، لأننى بذلك نجوت، ونجوتُ أخى الدكتور جابر عصفور، من مواجهة بلا فائدة.

إن إمساك الدكتور جابر عصفور بقلمه لابد أن تكون وراءه فكرة صالحة للمناقشة، أو قضية تستحق أن تثار، أو رأى تقبله أو لا تقبله، لكنك فى جميع الأحوال تعطى صاحبه حقه من الإنصاف والتقدير. والمناقشة، والموافقة أو المخالفة لا يؤتيان أكلهما، ولا يفعلان فى الحياة الثقافية فعلهما، إلا إذا تركت لكل رأى المساحة الزمنية الكافية لينظر فيه ذوو الرأى، ويتأمله أولو النهى، ويدرك صوابه أو عكسه الموافقون والمخالفون. لذلك حمدت الله مرة ثانية أن أتيحت لى. رغماً عنى وبلا سعى منى!. فرصة قراءة مقال الدكتور جابر عصفور قبل أن أشرع فى كتابة مقالى.

[٢]

تحرير محل النزاع تعبير من التعابير الشائعة فى العلوم العربية

والإسلامية. يريد به قائله إن تحديد مواضع الاتفاق ومواضع الاختلاف يجعل الوصول إلى كلمة سواء فى المسألة التى يجرى بحثها، أو يدور الخلاف حولها، أمراً ممكنا بلا صعوبة، أو بصعوبة يحتملها البحث العلمى ولا يضيق بأعبائها أهله المؤهلون له.

ومحل النزاع فى مسألة الدين والدولة فى الإسلام، التى يعبر عنها شعار (الإسلام دين ودولة)، ليست لغوية ولا لفظية، وإنما هى مسألة موضوعية متعلقة بمنزلة الأحكام التى تنظم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وسائر أنواع العلاقات الإنسانية الفردية والجماعية. من الإسلام. وهذه المسألة نفسها هى المسألة التى يعبر عنها شعار آخر، لم يعترض عليه حتى الآن أحد، يقول: (الإسلام عقيدة وشريعة).

الإسلام عقيدة أى الإسلام دين.

والإسلام شريعة أى الإسلام دولة.

فإذا كان أحد لا يمكنه أن يمارى فى كون الإسلام عقيدة بقدر ما هو شريعة؛ فإن أحداً لا يجوز له أن يمارى فى كون الإسلام ديناً بقدر ما هو دولة.

والعقيدة (= الدين) هى الأحكام الإسلامية المتعلقة بالإيمان وما اتصل به؛ والشريعة (= الدولة) هى الأحكام الإسلامية المتعلقة بما يجب أن يفعله المؤمنون بالإسلام، وما يجب أن يمتنعوا عن فعله، وما يجوز لهم فيه أن يفعلوا أو لا يفعلوا. فالأول هو الواجب؛ والثانى هو المحظور أو المحرم؛ والثالث هو المباح.

ومن الشريعة أحكام العبادات، والمعاملات، ومن العقيدة الاحكام المتعلقة بالألوهية والنبوة والغيب بما فيه البعث والحساب والجنة والنار.

والقارئ للقرآن الكريم، والمطلع على دواوين السنة، لا يجد مناصاً من التسليم بأن القرآن وصحيح السنة يحتويان على القسمين من الأحكام جميعاً: ما تعلق بالعقيدة وما تعلق بالشريعة، أو ما تعلق بالدين وما تعلق بالدولة.

وليس مراد القائلين بأن (الإسلام دين ودولة) إلا أن المسلم كما تجب عليه الطاعة والانقياد فى شأن العقيدة وما يتصل بها، تجب عليه الطاعة نفسها والانقياد نفسه فى شأن الشريعة وما يتصل بها. ولذلك قال الشافعى فى رسالته الأصولية «ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها». وقال. أيضاً. «وقد فرض الله فى كتابه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والانتهاء إلى حكمه، فمن قَبِلَ عن رسول الله فبفرض الله قَبِل»[2].

والأحكام المتعلقة بالشريعة (= الدولة) فى القرآن الكريم والسنة النبوية محدودة العدد. والغالب من شؤون الحياة متروك ليقوم الخلق بتدبيره بحسب ما يحقق المصالح ويدفع المفاسد. بل إن من الفقهاء من يقول: «الشريعة كلها إما مصالح تجلب أو مفاسد تدرأ»[3] وقد جعلوا من قواعدهم أن «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة»[4].

ولكن القدر القليل من الأفعال المنصوص فى القرآن أو السنة على وجوبه أو تحريمه يجب، كلما عَرَضَ لمسلم، أن يمتثل فيه للأمر أو النهى، أى أن يلتزم بفعله أو بعدم فعله.

فإذا تبين هذا، ولا إخاله إلا بيناً، فإن المذهب الذى يريد أن يُخرِجَ شؤون الحياة مما يجوز أن يعنى به الدين لا يكون مذهبا سديدا فى النظر الإسلامى.

وحاصل هذا أن التسليم والقبول بحقيقة أن (الإسلام عقيدة وشريعة) أو (دين ودولة) يعنى أن المرجعية العامة فى المجتمع هى للقرآن والسنة. فالحلول التى يضعها الفقه الإسلامى (=فهم القرآن والسنة) والقانون الوضعى للمسائل الجزئية متقاربة، والخلاف فيها ليس بذى بال، والفكر الفقهى يتسع لأكثر ما يتسع له الفكر القانونى الوضعى، بل ربما كان الفكر الفقهى أكثر رحابة من الفقه القانونى. لكن المشكلة هى أين توجد المرجعية؟ عندما نقول، ونؤمن، ونعمل بمقتضى القول والإيمان، إن الإسلام دين ودولة، أو عقيدة وشريعة، فإن مرجعيتنا ستكون هى القرآن والسنة. نلتمس فيهما الحكم للمسألة التى نواجهها، أو نهتدى بقواعدهما فى الاجتهاد المحقق للمصالح المانع للمفاسد. وعندما ننكر حقيقة الجمع الإسلامى بين العقيدة والشريعة، أو بين الدين والدولة سنولى وجوهنا شطر مرجعيات شتى ليس الإسلام من بينها[5]، وهذه نتيجة يأباها تكويننا الثقافى، وهويتنا المتجذرة، وخصائص شعبنا الظاهرة والباطنة.

وللذى أسلفت بيانه كان رأى سعد زغلول فى كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، الذى أكثر من الإشادة به الدكتور جابر عصفور، هو ما سجله سكرتيره محمد إبراهيم الجزيرى وهو يحكى جواب سعد زغلول عن سؤال وجهه إليه نصه: «وما رأيكم فى كتاب (الإسلام وأصول الحكم)؟».

قال محمد إبراهيم الجزيرى: «فاستعد دولته كما يستعد المحاضر لإلقاء محاضرة، أو الخطيب لإلقاء خطبة، ثم قال: لقد قرأته بإمعان، لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب، فعجبت أولا كيف يكتب عالم دينى بهذا الأسلوب فى هذا الموضوع؟!

وقد قرأت كثيرا للمستشرقين ولسواهم، فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير، على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق.. لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنيا، ولا هو بنظام يصلح للحكم؟؟ فأية ناحية مدنية من نواحى الحياة لم ينص عليها الإسلام؟ هل البيع أو الإجارة أو الهبة، أو أى نوع آخر من المعاملات؟ ألم يدرس شيئاً من هذا فى الأزهر؟ أو لم يقرأ أن أمماً كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهوداً طويلة كانت أنضر العصور؟ وأن أمماً لا تزال تحكم بهذه القواعد. وهى آمنة مطمئنة؟ فكيف لا يكون الإسلام مدنياً ودين حكم؟؟..

وأعجب من هذا ما ذكره فى كتابه عن الزكاة؟! فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟..

....

«والذى يؤلمنى حقًا أن كثيراً من الشبان الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومى، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار، خطأ كانت أو صواباً، دون تمحيص ولا درس، ويجدون تشجيعا على هذا التحيز فيما تكتبه جريدة (السياسة) وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ على عبد الرازق، ومن تسميتها له بالعالم المدقق، والمصلح الإسلامى، والأستاذ الكبير...إلخ...

وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأى وبين قواعد الإسلام الراسخة التى تصدى كتابه لهدمها...»[6].

والحاصل أن هذه الشهادة، التى يقدمها سكرتير سعد زغلول نفسه، تثبت أن سعدا لم يكن ليبراليا علمانيا، كما تُوهم مقالة الدكتور جابر عصفور، بل كان ليبراليا مسلما، حريصا على إسلامه، خبيرا به، لا يقبل التفريط فيه. وكلماته فى انتقاد الزج باسم الإسلام فى حفل افتتاح الجامعة المصرية صحيحة. لكن هذه الكلمات الصحيحة كانت اعتراضا على «التكلف» غير اللائق، يأتى فى غير مناسبته، ولم تكن اعتراضاً . بأية حال . على الإسلام نفسه.

[٣]

كيف نشأت مشكلة الدين والدولة أو العقيدة والشريعة؟ هذا سؤال إذا لم يكن جوابه واضحا ومستحضرا لا يمكن الوصول إلى قول فصل فى شأن المشكلة نفسها.

يذهب الدكتور جابر عصفور إلى أن أصل المسألة بدأ مع كتابات محمد رشيد رضا عن الخلافة الإسلامية (التى يعتبرها الدكتور عصفور مرادفاً للدولة الدينية)، ثم تأكد العمل لها والدعوة إليها فى كتابات حسن البنا الذى تحدث عن عالمية الدعوة التى أفضت فى النهاية . حسبما يرى الدكتور عصفور. إلى «أفعال الإرهاب الدينى المجاوزة للأقطار والقارات».

وهذا التصوير يغفل عن حقيقة مهمة هى أن الدعوة إلى فكرة «شمول الإسلام» لجوانب الحياة كافة لم تظهر فى بلادنا إلا رد فعل لمحاولات ترسيخ الدعوة العلمانية، فكرا وممارسة، فى مواجهة الأصل الإسلامى القائم بنظمه الاجتماعية، وأنساقه الثقافية، وقيمه الإنسانية، ومسلَّماته الفكرية فى السياسة والاقتصاد، التى مهما حادت عنها بعض الحكومات، فإنها بقيت هى الأمر الوحيد المقبول لدى الأمة وتنظيماتها المدنية ومؤسساتها الدينية.

لقد ظهرت الحركة الإسلامية الداعية إلى استعادة حقيقة (الدين والدولة = العقيدة والشريعة) تأكيدا لفكرة «شمول الإسلام» التى هى «خاصة أصيلة فيه. وهى خاصة ملاصقة له لا تبارحه، ولا يعود الإسلام مكتملا بغيرها. هذه الصفة تمارس فى الأحوال العادية. إذا وجدت مجالاً للإعمال. فإذا تصدى لها من ينكرها ويحاول تجريد الإسلام منها، ظهرت كمطلب يؤكد عليه المسلمون، وكشعار ترفعه الحركات السياسية. وشبيه بذلك وصف الاستقلال الوطنى. وهو وصف يلازم الجماعة وتمارسه. فإذا قام من ينكره، تحول إلى مطلب، وارتفع كشعار سياسى». فالحركة الإسلامية ظهرت بسبب أن «نظماً قامت بين المسلمين، وفدت من الخارج، وعملت على إقصاء الإسلام كمصدر للشرعية والاحتكام فى المجتمع. وأدى ذلك إلى إقصاء (بعض) الإسلام من العقول. فظهرت الحركات الإسلامية... الداعية إلى منطلق الإسلام كنظام للحياة»[7] «والتأكيد على هذا المعنى الشامل (للإسلام) هو ما تمثلت به استجابة الحركة الإسلامية لما حدث فى الواقع السياسى والاجتماعى، عندما اتجهت حركة المجتمع إلى إضمار الإسلام وحصره فى نطاق العلاقة الباطنة بين الفرد وربه. وفى تقييد الإسلام فى حدود العبادات فقط وإقصائه عن أن يكون حاكما لنظام المجتمع ولعلاقاته.... إن أى كيان حى عندما يلقى تحدياً لأى من جوانب عناصره وخصائصه الرئيسية إنما يبرز لهذا الجانب من التحدى كل طاقاته، ويحشد قوة أجزائه جميعاً فى هذه الزاوية أو هذا الجانب الذى وقع فيه الخلل»[8] فليس صحيحاً. وفق هذا التحليل الصحيح، ما يذهب إليه الدكتور عصفور من أن شعار (الإسلام دين ودولة) هو شعار «الخطاب الدينى الذى تنتجه بعض أصوات المؤسسة الدينية الرسمية، والخطاب الدينى لمجموعات الإسلام السياسى الموازية (لم أستطع معرفة أى شىء توازيه مجموعات الإسلام السياسى!) التى تسعى إلى الانقلاب على الدولة المدنية وإقامة دولة دينية مقابلها، نموذجها فى ذلك بعض تجارب حدثت فى إيران... و(دولة الفاتيكان) و(إسرائيل الحاخامات)». بل الصحيح أن الأصل الإسلامى المعهود، منذ نزل القرآن وآمن به الناس، هو أن الإسلام نظام يشمل بأحكامه النصية أو الاجتهادية جوانب حياة الناس كافة.

وليس صحيحاً . بالقدر نفسه أو أكثر . قول الدكتور عصفور إن شعار (الإسلام دين ودولة) يتضمن بعده التأويلى «أن كل ما ينتسب إلى الإسلام، خصوصاً فى تأويلات نصوصه القرآنية، أو وقائع سنته، ما يصلح لكل زمان ومكان، وما يصل بين الذر والذرى»...إلخ ما جاء فى صدر مقالته. ليس هذا الفهم صحيحاً لأن الذى يقوله العلماء بالإسلام، ويدعون إليه، ويعلمونه طلابهم، ويعظون به عوام المسلمين



وخواصهم، أن التشريع الإسلامى على ثلاثة أوجه:

وجه تضمنته نصوص لا نزاع فى صحة نسبتها إلى الله . سبحانه . أو إلى رسوله . صلى الله عليه وسلم . ولا نزاع فى المقصود بها:

فعندما يقول القرآن الكريم(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) (النساء:٧) فإن أحداً لا يستطيع أن يقول، وهو مستظلٌ بظل من الإسلام واقٍ، إن النساء لا يرثن، أو لا يرثن من كل مال يتركه المورث. لأن مثل هذا القول يناقض نصاً قرآنياً صحيح الورود قاطع الدلالة بلا مراء.

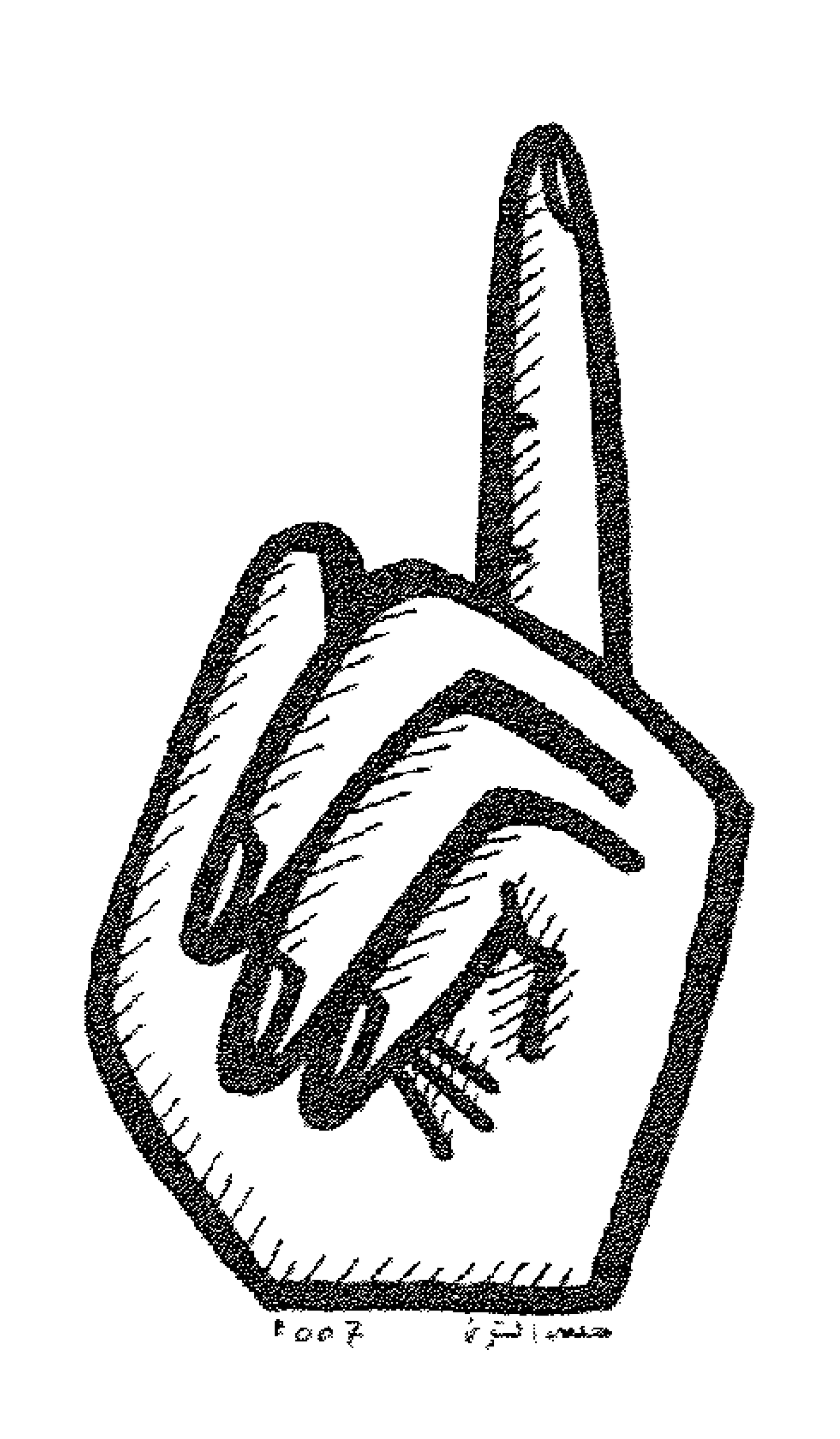
وعندما يأمر القرآن الكريم رسول الله . صلى الله عليه وسلم . بأن يشاور المسلمين فيقول له: (وشاورهم فى الأمر) (آل عمران:١٥٩) فإنه لا يجوز لأحد أن يقول، وهو مستظل بظل من الإسلام واقٍ، إن الشورى غير واجبة على أصحاب القرار من الحكام والرؤساء وزعماء الجماعة والجمعيات وسائر التجمعات البشرية. لأن وجوبها على الرسول . صلى الله عليه وسلم . يعنى ضرورة وجوبها على كل قائدٍ أو زعيم أو رئيس أو حاكم . ومن إليهم . بعده.

والأمثلة على هذا الوجه لا يجوز إحصاؤها فى هذا المقام، وقد أحصاها العلماء وفصلوا فى شأنها وأجملوا، فى كتب أصول الفقه وآيات الأحكام، فليراجعها من شاء.

والقول فى الأوامر والنواهى الثابتة بالسنة الصحيحة، مما لا يحتمل لفظه تأويلاً تسيغه اللغة، كالقول فى النصوص القرآنية سواء بسواء. ولقد نقلت من قبل قول الشافعى . رحمه الله . «فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل».

ووجه تضمنته نصوص لا نزاع فى صحة نسبتها إلى الله تبارك وتعالى. لورودها فى القرآن الكريم: أو لا نزاع فى صحة نسبتها إلى النبى . صلى الله عليه وسلم . على ما حققه علماء الحديث، ولكن ألفاظ هذه النصوص تحتمل التأويل الذى يجوز معه الاختلاف فى مراد الله، أو مراد رسوله، منها. وهو أحد أسباب الاختلاف بين الفقهاء فى الأحكام التفصيلية أو الجزئية:

فعندما يقول القرآن الكريم (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروءٍ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن)(البقرة:٢٢٨)، وكلمة (القرء وجمعها قروء) تعنى فى اللغة التى نزل بها القرآن: الطهر أو الحيض، فيختلف الفقهاء هل المراد أن تبقى المرأة معتدة حتى تنقضى بعد طلاقها ثلاثة أطهار أم حتى تنقضى بعد الطلاق ثلاث حيضات؟ فإن هذا الاختلاف . الذى تسنده اللغة . لا بأس به، ولا يجوز النعى على صاحب أى من الرأيين بسببه. والتأويلان . وأمثالهما . قسائم متساوية لا جناح على من اختار أىَّ تأويل منها فرآه صواباً وعمل به، ولا جناح على من



«الإسلام دين ودولة»



فإذا كان أحد لا يمكنه أن يمارى فى كون الإسلام عقيدة بقدر ما هو شريعة؛ فإن أحداً لا يجوز له أن يمارى فى كون الإسلام ديناً بقدر ما هو دولة



التسليم والقبول بحقيقة أن (الإسلام عقيدة وشريعة) أو (دين ودولة) يعنى أن المرجعية العامة فى المجتمع هى للقرآن والسنة



رأى الصواب فى غيره فاتبعه وأفتى الناس به.

وعبارة الآية نفسها (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) تأولها بعض الفقهاء على أن المخلوق فى الرحم هو الجنين، وتأولها بعضهم على أن المخلوق فى الرحم ما يصيب النساء عند الأقراء. ولكل من التأويلين وجه صحيح تحتمله اللغة. والقول فيهما كالقول فى سابقيهما.

وقل مثل ذلك فى الأمر بكتابة الدين: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه...) (البقرة:٢٨٢). فقد اختلف فى مقتضى الأمر بالكتابة أهو للندب والإرشاد والاستحباب أم هو للوجوب؟ فذهب إلى الأول بعض الفقهاء، وإلى الثانى آخرون، ولكل رأى سنده من العرف المقارن للنص واللاحق عليه مستمراً بعده. ولا جناح على من ذهب إلى أىٍ من الرأيين ولا إثم ولا تثريب.

وفى الحديث النبوى من هذا النوع من أنواع التشريع . أو الوجه من وجوهه . كثير يعرفه أهل العلم معرفة تجعلنى فى غير حاجة إلى التمثيل له. لكن الفارق، فى هذا المقام، بين القرآن والحديث أن القرآن كله قطعى الورود؛ والحديث منه ما هو كذلك ومنه . بل أكثره . ظنى الورود، روى بسند صحيح لكن رواته لا يبلغون حد التواتر الذى يفيد القطع بصحة نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصحة الرواية بمعايير علماء الحديث لا تمنع من الاختلاف . بالجملة . فى قبوله أو رده. والعبارة المحتملة معانى عدة لا يجوز منع العلماء من الأخذ بأحدها أو بغيره. وإذا كان النص القرآنى المحتمل لعدة دلالات يسمى (ظنىَّ الدلالة) فإن الحديث الذى لم يُروَ بالتواتر إذا احتملت عبارته معانى عدة يسمى (ظنى الورود ظنىَّ الدلالة). وليس فى القرآن ظنى الورود أصلا. وهذا هو الفارق الأساسى بين نصوص القرآن ونصوص السنة النبوية.

ووجه ثالث من وجوه التشريع الإسلامى ترك تماماً للاجتهاد البشرى الذى أرشد القرآن الكريم إلى طرقه، وأكدت السنة النبوية كيفية سلوك هذه الطرق. وغاية هذا الاجتهاد ومقصده هو تحقيق المصالح ودرء المفاسد. وهى نفسها غاية التشريع النصى.

لقد اكتفى التشريع النصى بالأمر والنهى فيما لا يتغير فيه وجه النظر إلى المصلحة والمفسدة، ودلنا على وجوب تحقيق المصلحة ودرء المفسدة فيما وراء ذلك مما يتغير الرأى فيه بتغير الزمان والمكان وظروف الإنسان.

وهذا النوع . أو الوجه . هو الأغلب الأعم فيما يعرفه الناس بالتشريع الإسلامى، وتعدد الاجتهادات فيه، وقاعدة تغيرها بتغير المصالح، وتغيرها بتغير الأعراف، ووجوب مراعاة ظروف المكان والزمان والإنسان تدل . كلها . على أن ما يقوله الدكتور جابر عصفور من أن تأويل شعار (الإسلام دين ودولة) يعنى

ثبات الأحكام الإسلامية بحيث تغطى تفاصيل هذه الأحكام كل شىء: «فى الحياة الدنيا وما بعدها، فلا يصيبه تغير الزمن المتحول، أو تجدد الحاجات الإنسانية المتغيرة التى تؤكد أننا أدرى بشؤون دنيانا» هو عكس الذى يقوله علماء الإسلام، والدعاة إلى أن يستعيد مكانته التشريعية فى بلادنا الإسلامية.

والذين يقومون بهذا الدور التجديدى فى شأن التشريع الإسلامى هم الذين اشترط الدكتور عصفور فى الواحد منهم أن يكون: «مجتهداً، جامعاً شروط العلم وأدواته التى تعينه على الفهم، ولغيره من علماء الأزهر أن يبين صوابه أو خطأه فى الاجتهاد فى إطار المجادلة بالتى هى أحسن والدعوة إلى سبيل ربنا . جل وعلا . بالحكمة والموعظة الحسنة».

وهذا الكلام فى مجمله صحيح . فإنه لا يصح أن يكون الكلام فى التشريع، وهو صناعة دقيقة، ولا فى الإسلام، وهو عشرات العلوم المتداخلة، مباحاً لكل من هبَّ ودبَّ. بل يجب أن يقتصر ذلك . كما يقتصر الكلام فى كل تخصص . على أصحابه المؤهلين له.

ولكن قَصر الدكتور عصفور حق الاختلاف على (علماء الأزهر) فيه تضييق لواسع لا يملك تضييقه أحد. وهو ينقل عن الإمام محمد عبده . نقلا صحيحاً . أن الإسلام ليس فيه سلطة دينية، إنما السلطة فيه لمن جمع أدوات العلم وآلاته، وهى سلطة إبداء الرأى الذى يحتمل أن يكون صوابا بقدر ما يحتمل أن يكون خطأ . لذلك يبقى حق الاختلاف والمناقشة والمحاورة مكفولا لكل عالم، أزهرياً كان أو غير أزهرى، وإلا لم يكن جائزا للدكتور عصفور نفسه أن يدلى بدلوه فى موضوع هذا الحوار، ولا أن يعتنى به المعتنون ويوافقه الموافقون أو يخالفه المخالفون. وهى نتيجة لا أرضاها، وأوقن أنه لم يقصدها.

[٤]

متى عرفت الأدبيات الدستورية والقانونية فى مصر، ومن بعدها فى العالم العربى، وصف الدولة بأنها ذات دين؟

إن الدكتور جابر عصفور يصف دستور (١٩٢٣) بأن منطلقه كان الشعار الذى رفعه سعد زغلول: (الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة). ويقول عن هذا الدستور إنه كان: «نموذجاً مضيئاً لدستور الدولة المدنية التى لا تسمح بوجود ديكتاتوريات مطلقة، وتجعل الوطن ملكاً للجميع بالفعل».

هذا الدستور نفسه هو أول وثيقة تأسيسية فى مصر تذكر أن للدولة ديناً. وأن هذا الدين هو الإسلام. ففى الجلسة السابعة عشرة، من جلسات لجنة وضع المبادئ العامة للدستور، المنعقدة يوم الجمعة ١٩٢٢/٥/١٩ اقترح فضيلة الشيخ محمد بخيت (مفتى الديار المصرية فيما بعد) أن ينص فى الدستور على أن «الدين الرسمى للدولة المصرية هو الإسلام». فوفق على هذا الاقتراح بالإجماع؟. ثم عرض النص بصيغة: «الإسلام هو الدين الرسمى للدولة» فى اجتماع اللجنة العامة لوضع الدستور فى جلستها الثامنة عشرة، المنعقدة يوم الاثنين ١٤/ ١٩٢٢/٨ فوافق عليه بالإجماع.ثم عرض مرة ثانية فى اجتماعها المنعقد يوم الثلاثاء ١٩٢٢/١٠/٣ بصيغة جمعت بين الدين واللغة: «الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية» ووافقت اللجنة العامة عليه بالإجماع[11].

واللجنة التى قررت هذا النص، وغيره من النصوص التى سيأتى ذكرها، لم يكن فيها أحد ممن يمكن أن يقال إنه ممثل (لمجموعات الإسلام السياسى الموازية)! بل إن ما يسمى (التيار الإسلامى) لم يكن قد عرف فى الحياة السياسية أو الثقافية أصلاً، فهو لم يوجد إلا مع اتساع نطاق نشاط الإخوان المسلمين منذ سنة ١٩٣٦[12].

وكانت لجنة المبادئ العامة للدستور مكونة من ثمانية عشر عضواً خمسة منهم من الأقباط، وواحد يهودى، وواحد من علماء المسلمين هو الشيخ محمد بخيت المطيعى، وكان سائر أعضائها من ذوى الثقافة الغربية الخالصة، أو تكاد! وكان فيها من ذوى الثقافة الإسلامية شيخ الطرق الصوفية ونقيب الأشراف السيد عبد الحميد البكرى، والشيخ محمد خيرت راضى، وإن لم يكن لوجودهما أثر يذكر فى أعمال اللجنة. ولم يعترض أحد من أعضاء اللجنة، مسلمين أو غير مسلمين على اقتراح النص على أن (الإسلام دين الدولة).

ومن الطريف أن الاقتراح الذى اعترض عليه فى تلك اللجنة، ونوقش مناقشات مستفيضة أدت إلى سقوطه ورفضه بالإجماع، كان اقتراح تمثيل الأقلية الدينية بنسبة خاصة فى البرلمان بل إن الأقباط من خارج اللجنة، وخارج التجمعات السياسية، أرسل بعضهم إلى اللجنة يقول: «الأقباط قبل المسلمين يعارضون تخصيص مراكز برلمانية للأقباط.... وكل تخصيص من هذا النوع هدم للقومية المصرية... ولن يخرج قبطى على الأمة بتقدمه للانتخابات لتمثيل الأقلية»[13].

ولم يكن نص المادة (١٤٩) من دستور (١٩٢٣) هو وحده الذى يشير إلى الدين. بل وردت الإشارة إليه فى المادة (١٢) «حرية الاعتقاد مطلقة». وفى المادة (١٣) «تحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقاً للعادات المرعية فى الديار المصرية، على ألا يخل ذلك بالنظام العام ولا ينافى الآداب».

وأشارت المادة (١٥٣) إلى سلطة الملك وكيفية مباشرتها فيما يختص «بالمعاهد الدينية، وبتعيين الرؤساء الدينيين، وبالأوقاف التى تديرها وزارة الأوقاف وعلى عموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها فى البلاد...».

فالملك لم يكن رئيساً لدولة علمانية لا شأن لها بالدين، بل كان رئيساً لدولة دينها الإسلام، ودستورها يخوله سلطات على عموم المعاهد الدينية، والرؤساء الدينيين، والأوقاف، وعموم المسائل الخاصة بالأديان المسموح بها فى البلاد!!

هذا هو الدستور «الليبرالى» «العلمانى» الأول فى تاريخ الدولة المصرية الحديثة[14].

وتوالت الدساتير المصرية (١٩٣٠) الذى عمل به لمدة خمس سنوات عاد بعدها العمل بدستور (١٩٢٣) إلى أن قامت (الحركة المباركة) فى يوليو (١٩٥٢)، ثم مشروع دستور (١٩٥٤) الذى لم يصدر، ثم دستور (١٩٥٦)، ثم دستور (١٩٦٤)، ثم الدستور الدائم (١٩٧١) الذى هو دستورنا الحالى (المعدَّل ثلاث مرات حتى الآن)! ولم يخل دستور من هذه الدساتير من النص على دين الدولة ولغتها، ولا من نصوص أخرى تدل على إسلاميتها، واحترامها الأديان السماوية كافة[15].

وفى التعقيب على ظهور نص (دين الدولة) فى دستور (١٩٢٣)، وما تلاه من الدساتير، يقول المستشار الجليل طارق البشرى: «أقرَّ بذلك معه (أى مع الشيخ محمد بخيت المطيعى) أهل جيله كله من الفقهاء بأن يكون للهيئة دين، وأن الدين ليس من خصائص الإنسان فقط، إنما يمكن أن يكون للهيئات التى تنظم أمور البشر وتدير شؤونهم وتتكون منهم»[16].

فالنظام السياسى فى مصر، إذن، لم يكن أبداً فى تناقض مع الدين، ولم يكن فى حال عداء مع علمائه أو دعاته. ولم يحدث مثل هذا التناقض، ولم ينشأ مثل هذا العداء، إلا بعد وقوع الخلاف بين ثورة يوليو وجماعة الإخوان المسلمين. وهو خلاف سياسى بحت لا شأن للدين ولا للتدين، ولا بموقف الدولة منهما، بأسبابه وملابساته ونتائجه[17].

والنص على أن (الإسلام دين الدولة) شأنه شأن النص على أن (اللغة العربية لغتها الرسمية) كلاهما نص كاشف وليس نصاً منشئاً. معنى النص الكاشف أنه نص يصف حالا كانت قائمة قبله، مستقرة فى ضمير الجماعة، معروفة من شأنها دون حاجة إلى البحث عن سند لها فى النصوص التى تنظم اجتماعها. ومعنى النص المنشئ أنه نص يقرر حكماً جديداً جاء به المشرع الدستورى لأول مرة ليفرض وصفاً غير مألوف ولا معروف من قبل، ويدخل ما يترتب عليه من آثار ونتائج فى جملة موجهات التشريع، أو موجهات العلاقات الاجتماعية، فى الجماعة السياسية التى ينظمها ويحكم علاقاتها هذا الدستور.

ولأضرب مثلاً بما فى نصوصنا الدستورية الحالية من نصوص لأبين المعنيين اللذين ذكرتهما.

إن نص المادة الأولى من الدستور، قبل تعديله فى الاستفتاء الذى أعلنت نتيجته يوم ٢٠٠٧/٣/٢٧، كان يقرر أن مصر «جمهورية اشتراكية ديمقراطية تقوم على تحالف قوى الشعب العاملة». ويقرر أيضاً أن «الشعب المصرى جزء من الأمة العربية....إلخ».

فكون مصر جمهورية اشتراكية... إلخ معنى أنشأته النصوص الدستورية التى قررت الاشتراكية مذهباً اقتصادياً لمصر وهو معنى بدأ تقريره فى دستور (١٩٦٤) ولم يكن موجوداً قبل ذلك؛ وعدل دستور (١٩٧١) صيغته وإن لم ينل من محتواه. ثم جاء تعديل هذا النص سنة ٢٠٠٧ ليلغى ذكر الاشتراكية وذكر تحالف قوى الشعب العاملة. وكان السبب الداعى إلى هذه التعديلات، وبعض التعديلات الأخرى هو، بحسب ما طلبه الرئيس من مجلسى الشعب والشورى: «تحقيق التلاؤم مع الأوضاع الاقتصادية والسياسية المعاصرة وعدم فرض نظام اقتصادى معين على المجتمع لا يمكن العدول عنه إلا بتعديل النص وتجنب العبارات التى تفيد الانتماء لنظام اقتصادى بذاته يمكن أن يتجاوزه الزمن بما يفرزه من تطورات ومستجدات».

واستجابة لهذا الطلب الرئاسى عُدِّل نص المادة الأولى من الدستور فحذفت منه الإشارة إلى النظام الاشتراكى، والإشارة إلى تحالف قوى الشعب العاملة. وجاء النص الجديد (الذى تقرر بالاستفتاء المعلنة نتيجته فى ٢٠٠٧/٣/٢٧) مضيفاً معنى قائماً فى ضمير الجماعة مستقراً فى وجدانها هو أن نظام الحكم «يقوم على أساس المواطنة» وبذلك أصبح نص المادة الأولى

. بعد تعديل فقرتها الأولى . خالياً من أى نص منشئ لحكم جديد، إذ المواطنة معنى مستقر فى الضمير السياسى المصرى بغير نص، تدل على ذلك المناقشات التى جرت فى لجنة إعداد دستور (١٩٢٣) حول فكرة تمثيل الأقلية. فلم يأت النص فى المادة الأولى من الدستور الحالى . بعد تعديله باستفتاء ٢٠٠٧ . بجديد فى شأنها.

وقد ألغيت المادة (٥٩) من الدستور. بموجب الاستفتاء المذكور. فيما كانت تتضمنه من أن «حماية المكاسب الاشتراكية واجب وطنى...إلخ». وهو نص كان منشئاً لحكم جديد أتى به المشرع الدستورى من خارج المعانى المستقرة فى تاريخ الجماعة ووجدانها السياسى. وحل محل «حماية المكاسب الاشتراكية». بعد استفتاء ٢٠٠٧/٣/٢٧ . نص يقول «حماية البيئة واجب وطنى...إلخ». وسوف يختلف التفسير حول هذا النص: أهو كاشف أم منشئ، وهو اختلاف لا حاجة بنا إلى الإدلاء فيه برأى فى هذا المقال!

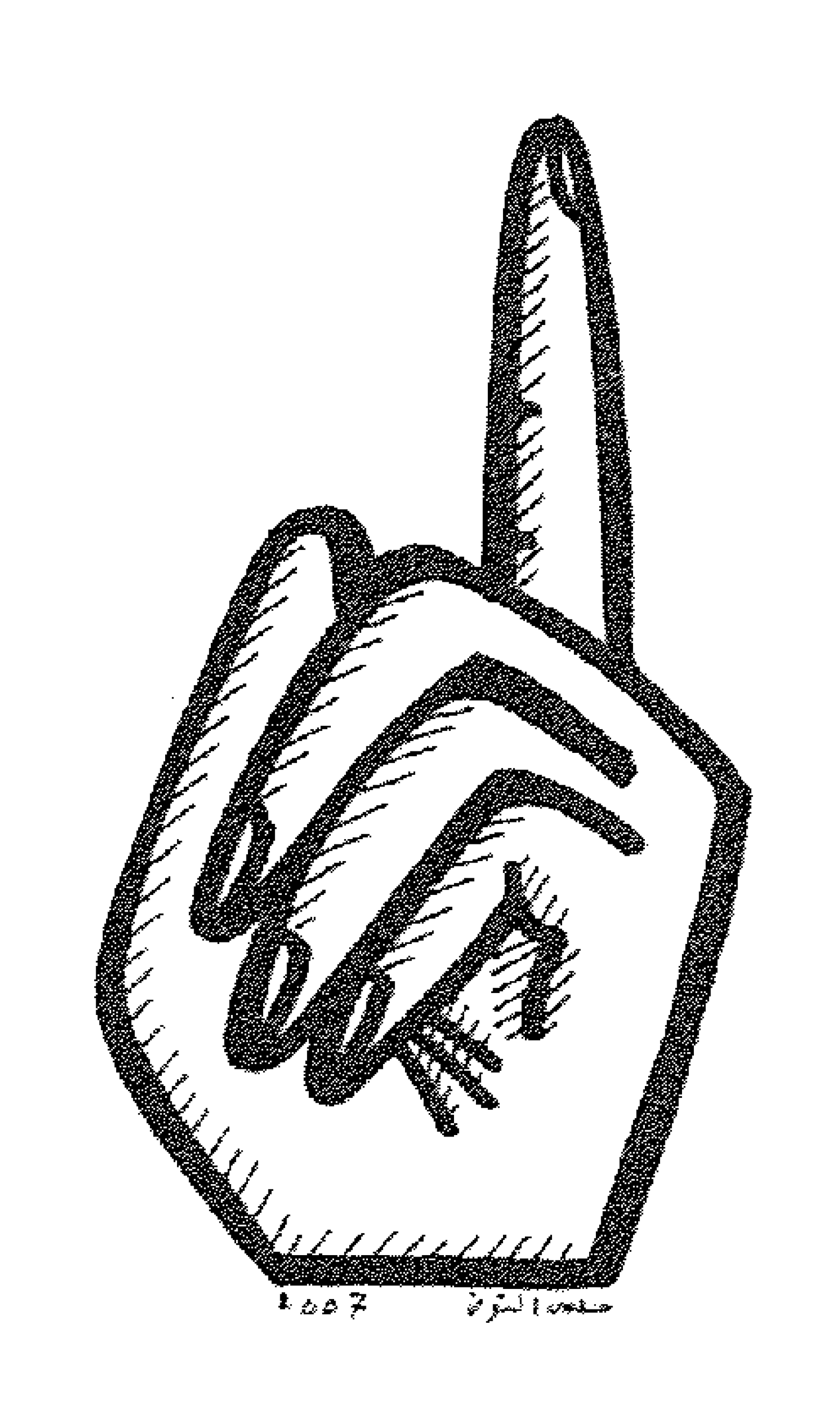
والنص على أن «الشعب المصرى جزء من الأمة العربية...إلخ» نص يعبر عن حال قائمة فى الجماعة، مستقرة بها، لا توصف الجماعة بغيرها. فهو يصف هذه الحال القائمة دون أن يوجدها من العدم، ويعترف بقيامها دون أن يقحمها إقحاماً على التنظيم السياسى أو حقائق الاجتماع الإنسانى المصرى. ولذلك لم تتناولها يد التعديل فى استفتاء (٢٠٠٧). ولو أنه عُدِّل لما أثر هذا التعديل على الحقيقة الواقعية. فمصر شعبها جزء من الأمة العربية بنص وبغير نص!

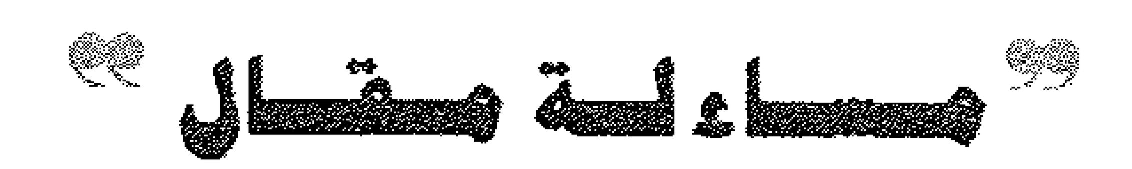
والنص فى المادة الخامسة من الدستور على أن يقوم النظام السياسى المصرى «على أساس تعدد الأحزاب» نص منشئ فلم يكن فى مصر، منذ إلغاء الأحزاب السياسية بقرار من مجلس قيادة الثورة سنة (١٩٥٣)، أحزاب يقوم عليها النظام السياسى. واستمر النظام السياسى فى ظل دستور (١٩٧١) قائماً على تحالف قوى الشعب العاملة من خلال الاتحاد الاشتراكى العربى إلى أن عدّل نص المادة الخامسة بموجب إعلان نتيجة الاستفتاء الذى أجرى فى ٢٢/٥/١٩٨٠. وليست فكرة الأحزاب من مقومات الجماعة السياسية أو الدولة فكلتاهما قائمة بوجود الأحزاب وقائمة دون وجودها.

والتعديل الذى أصاب هذا النص بمقتضى استفتاء ٢٠٠٧/٣/٢٧ أضاف إليه حكماً جديداً يمنع «مباشرة أى نشاط سياسى أو قيام أحزاب سياسية على أية مرجعية دينية أو أساس دينى، أو بناء على التفرقة بسبب الجنس أو الأصل». وهذه الفقرة تجمع بين حكمين أحدهما مفروض على الجماعة من خارجها، لا يقره وجدانها الجمعى، ولا تقبله تجاربها المستمرة على امتداد الدولة الحديثة فى مصر، وهو حكم منشئ لا كاشف، أعنى بذلك منع «مباشرة أى نشاط سياسى... على أساس مرجعية دينية أو أساس دينى». لذلك كانت المعارضة لاقتراح هذا النص، قبل إقراره، عالية النبرة، متسعة النطاق، ولا يزال الرضا به محدود المدى إذا قورن بالاعتراض على وجوده. والحكم الثانى فى هذه الفقرة نفسها يتضمنه نص كاشف لا منشئ. وأعنى به الحكم الذى منع قيام النشاط أو الحزب السياسى على «التفرقة بسبب الجنس أو الأصل». فهذه التفرقة لم تعرفها الجماعة السياسية المصرية فى تاريخها كله، وهى ممقوتة فى مستوى المشاعر لدى المصريين كافة، مرفوضة فى الممارسة منهم جميعاً بنص أو بغير نص. والجمع بين النص المنشئ والنص الكاشف فى سياق واحد يُعد من بدائع الصياغة القانونية أو، إن شئت قلت من بدعها. لكن الأبدع منه عدم ذكر «التفرقة بسبب الدين» وهى المعنى المخوف أصلاً، والسلوك المراد التحوط له بالنص الدستورى المضاف!!

والنص فى المادة التاسعة من الدستور الحالى على أن: «الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق والوطنية»؛ وهو نص عرفته الدساتير المصرية منذ وضع مشروع دستور (١٩٥٤) واستمر مكرراً فى الدساتير بعده إلى دستورنا الحالى: هذا النص كاشف وليس منشئاً.

فالزواج فى مصر عقد يحكمه الدين (الإسلامى أو المسيحى أو اليهودى) الذى ينتمى إليه الزوجان، أو أحدهما عند اختلاف الدين، فى الزواج الجائز شرعاً وقانوناً بين المختلفين ديناً. والأسرة، منذ كانت فى مصر، أسرة تقوم على الدين والتدين وحفظ الأخلاق ومراعاتها







هذه الشهادة، التى يقدمها سكرتير سعد زغلول نفسه، تثبت أن سعداً لم يكن ليبرالياً علمانياً، كما توهم مقالة الدكتور جابر عصفور، بل كان ليبرالياً مسلماً، حريصاً على إسلامه، خبيراً به



ظهرت الحركة الإسلامية الداعية إلى استعادة حقيقة (الدين والدولة - العقيدة والشريعة) تأكيداً لفكرة «شمول الإسلام» التى هى «خاصة أصيلة فيه، وهى خاصة ملاصقة له لا تبارحه، ولا يعود الإسلام مكتملا بغيرها



وتلقينها للأجيال جيلاً بعد جيل، والوطنية معنى مستقر فى ضمير الجماعة لا يحترم المجتمع من لا يقيم له وزناً بحيث يحكمه فى آرائه وتصرفاته وعلاقاته.

وهكذا لا يأتى هذا النص بجديد لم يكن، ولا يُوجِد من العدم حكماً يفرضه على رقاب العباد فرضاً، إنما هو يكشف عن المعانى التى كانت، ولا تزال، ضاربة بجذورها فى تكوين الجماعة المصرية، مسيطرة عليها، منظمة لتجمعها فى شكل اجتماعى خاص هو شكل الأسرة.

والنصوص الكاشفة نصوص لا ينشئ المشرع الدستورى أحكامها بل يبين، بالنص عليها، وجود هذه الأحكام وجوداً راسخاً فى ضمير الجماعة. ولذلك يكثر فى القضاء الدستورى التعبير عن مثل هذه الأحكام بأنها «مقررة ولو بغير نص» أو «قائمة ولو لم ينص الدستور عليها» ونحو ذلك من العبارات.

ولا يؤثر خلو دستور، يعمل به فى مرحلة من مراحل التطور السياسى للوطن، من بعض النصوص الكاشفة عن بعض المعانى المستقرة فى ضمير الجماعة على وجود هذه المعانى ولا على الالتزام بها. إن هذا «الخلو» يعيب المشرع الدستورى الذى صاغ النصوص، ويعيب النصوص الدستورية نفسها بعيب النقص والقصور عن التعبير عما يكون الجماعة ويشكل توجهها فى جانب من الجوانب، لكنه لا يؤثر بأى معيار على وجود الحكم وإلزامه.

ذكرت ذلك كله، واستطردت فى بعض أجزائه، لأقرر أن هوية الدولة، وكونها إسلامية، أمر مقرر فى الوجدان المصرى سواء أنص عليه الدستور أم لم ينص. وأن ما صنعه واضعو دستور (١٩٢٣) فى هذا الشأن لم يكن أكثر من الكشف عن هذا المعنى المقرر وبيانه وذكره فى وثيقة الدستور. دون أن يعنى ذلك، بأية حال، أنهم أوجدوه من العدم، أو أتوا به من خارج الوجدان الجمعى المصرى ليفرضوه عليه فرضاً، ويحملوا الناس على الإقرار به حملاً.

ثم إن استمرار النص على المرجعية الإسلامية للدولة، وهو تقرير لأمر واقع، فى الدساتير المصرية المتوالية له «دلالة جد مهمة، لأن مقارنة هذه الدساتير بعضها ببعض، تكشف عن أنه لم يكن ثمة نظام دائم لمصر على هذا المدى (الزمنى) فيما عدا الإقرار بعدد من المسلمات منها أن دين الدولة الرسمى الإسلام. كانت هذه الدساتير تتراوح بين النظام الملكى والنظام الجمهورى، وتتراوح بين الملكية المستبدة (١٩٣٠) والملكية البرلمانية (١٩٢٣) وتتراوح فى النظام الجمهورى بين النظام الرئاسى والنظام القريب من البرلمانى، وتتراوح بين نظام الحزب الواحد ونظام تعدد الأحزاب، وتتراوح بين النظام الاشتراكى القائم على تقييد الملكية العامة وبين النظام الرأسمالى الذى يطلق حرية الملكية الخاصة، وبين.... وبين إلخ ولكن بقيت اللغة عربية والدين إسلامياً. وهذا يكشف وجه

ثبات لا يوجده الدستور ولكنه لا يملك إلا أن يعترف به، ويكشف عن أنه نص حاكم لغيره وليس محكوماً بغيره، والمعنى هنا يستفاد بالاستقراء العلمي للتجربة التاريخية للأمة ودولتها[18].

ومما لا خلاف فيه، بين أهل الاختصاص، أن إسلامية الدولة لا تنافي مدنيتها، بل هي مقررة في شريعة الإسلام وفقهه على نحو تكفي فيه الإحالة إلى بعض المصادر القريبة من يد كل باحث دون الاستفاضة في حديث متخصص يضيق بتفاصيله ما نحن بصدده من شرح شعار ومساءلة مقال[19].

[٥]

ردّ الدكتور جابر عصفور، في مواضع من مقاله، فكرة شائعة تقول إن الملك فؤاد الأول، ملك مصر، كان متطلعاً إلى تولي خلافة المسلمين «من قبيل البحث عن مدى أوسع للنفوذ». وأحال الدكتور عصفور قراءه إلى أعداد مجلة المنار في عشرينيات القرن الماضي لتأكيد ما يقول.

وهذه الفكرة الشائعة يتداولها كثيرون ممن يكتبون عن مسألة الخلافة، وعن الفكر السياسي الإسلامي، ويذكرونها كأنها مسألة مسلمة لا تحتاج إلى دليل. وأمثل من تناول هذه الفكرة طريقةً كان المستشار الجليل طارق البشري الذي لم يزد على القول بأن «الخلافة تحولت من رابطة انتماء تاريخي، ومن تشخيص للجماعة ووثاق بين عقيدة وسياسة، تحولت من ذلك إلى مجرد شعار سياسي دارج، يلعب به حكام صغار، مثلما استعمله الملك فؤاد في مصر ضد معارضيه السياسيين»[20].

وقد اهتممت منذ زمن بهذه المسألة، أعني مسألة طمع الملك فؤاد في أن يصبح خليفة للمسلمين، وإعلانه طموحه إلى ذلك، وأن كتاب الشيخ علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) كان، في حقيقة أمره، تصدياً لمحاولة الملك فؤاد إسناد منصب الخلافة الإسلامية إليه بعد أن ألغاها الكماليون في تركيا في ٣ مارس سنة ١٩٢٤. وانتهيت من بحث أصل هذه المسألة إلى أنها لا أصل لها. أو ليس لها أصل ثابت صحيح. إنما هي مقولة قيلت، ثم سرت في الناس مسرى الحقائق التي لا تحتاج إلى تمحيص ولا توثيق حتى قبلها الثقات العدول من الكتاب والمؤرخين في جملتهم.

وعندما عدت إلى أعداد المنار، بمناسبة مقال الدكتور عصفور، لم أجد في أعدادها التي تناولت مسألة الخلافة، وهي الأعداد الصادرة في سنوات ١٩٢٣ و١٩٢٤ و١٩٢٥ أي ذكر لخلافة يتولاها الملك فؤاد. بل وجدت فيها تصريحاً على لسان الشيخ محمد رشيد رضا بأن مصر لا تصلح لأن تقوم فيها الخلافة الإسلامية التي كان محمد رشيد رضا يدعو إليها.

كان الشيخ رشيد يدعو إلى خلافة في الحجاز، أو في تركيا، أو في منطقة وسطى من البلاد التي يكثر فيها العرب والترك. واقترح لذلك أن تقام الخلافة في مدينة الموصل (المتنازع عليها آنئذ بين العراق وتركيا وسوريا). أما مصر فقال الشيخ رشيد رضا عنها: «ومكانة مصر تلي مكانة جزيرة العرب في هذا الأمر (أمر استحقاق قيام الخلافة فيها) لو كانت مستقلة وأرادت إقامة الخلافة الشرعية الصحيحة ولكن المتفرنجين فيها كالمتفرنجين في الترك يأبى أكثرهم ذلك ويجهل قيمته. والدولة البريطانية عدوة الخلافة والعرب تعارض هذا وذلك بكل قواها»[21].

والدعوة إلى الخلافة التي كان يبثها الشيخ رشيد رضا، ورأى فيها الدكتور عصفور دعوة إلى الحكومة الدينية «تلقفها منه وحمل رايتها عنه حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩) مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وداعيتها الأول»؛ هذه الدعوة لم تكن أبداً دعوة إلى حكومة دينية بالمعنى الذي دندن حوله الدكتور عصفور في مقاله كله. إن محمد رشيد رضا، في مقالته عن مؤتمر الخلافة، يقول إن «المطلوب الأول منه وضع نظام للإمامة العظمى يدخل في بابين (أحدهما) قواعد حكومة إسلامية مدنية... (وثانيهما) قواعد للتربية والتعليم الجامعين بين هداية الدين ومصالح الدنيا... ويدخل في هذا.... الحث على الاشتراك مع جميع الشعوب في خدمة الإنسانية العامة، وترقية الآداب والحضارة في جميع الأمم...»[22].

فالمنار لم تتحدث عن طموح فؤاد ملك مصر لتولي الخلافة، ولم تؤيده. ولم تتحدث عن حكومة دينية، إنما تحدثت عن حكومة إسلامية مدنية تتعاون مع الشعوب في خدمة الإنسانية العامة، وتراعي حقوق جميع أصناف سكان البلاد الخاضعة لسلطانها، مراعاة قال فيها رشيد رضا: «وصدر الشرع الواسع لا يضيق بشيء من ذلك»[23].

أما طموح الملك فؤاد للخلافة فإن البحث التاريخي فيه ينطق بحقيقتين: الأولى أن ترشيح الملك فؤاد للخلافة لم يكن مطلباً له، ولا مطلباً مصرياً، وإنما هو اقتراح صحفي فرنسي (!)

يقول الدكتور يونان لبيب رزق «رأى عديدون (لا يذكر منهم أحداً) أن أكثر الشخصيات لياقة لتولي مكان الخليفة الشاغر الملك فؤاد الأول، مما عبرت عنه نفس الجريدة الفرنسية، الليبرتيه، ونقلته عنها الأهرام يوم ٢٣ يونيو (١٩٢٥) وجاء فيه أن الحل الأمثل ترشيح جلالة الملك فؤاد الأول للخلافة، فهو يجمع حول عرشه أكبر أمة إسلامية، وقد قامت الأدلة الكثيرة على ما اتصف به جلالته من سمو الأخلاق والذكاء والحكمة وحسن السياسة، تضاف إلى ذلك مكانة تاريخية مجيدة تستخلص من تقاليد أسرة محمد علي العظيمة»[24].

الحقيقة الثانية هي ما ذكره أحمد شفيق باشا، في كتابه حوليات مصر السياسية، من أن «الأمير عمر طوسون. بعد أن توارد عليه الرسائل العديدة من طبقات مختلفة، بخصوص عقد مؤتمر عام للنظر في مسألة الخلافة. كتب إلى رئيس الوزراء دولة سعد زغلول باشا خطاباً في ١٥ مارس (١٩٢٥) يسأله فيه رأي الحكومة في عقد هذا المؤتمر في مصر. وأن سعد زغلول أجاب بكتاب مؤرخ ١٨ من الشهر نفسه يقول فيه للأمير عمر طوسون إنه عرض خطابه على جلالة الملك لاختصاصه بمسألة الخلافة التي لها علاقة بشخصه الكريم، وسأبلغ سموكم بما أتلقاه من جلالته في هذا الشأن» ثم يقول أحمد شفيق باشا إن سعد زغلول قابل جلالة الملك وعرض عليه مذكرة الخلافة. فرفضها جلالته قائلاً «كيف أقوم بالواجب نحو جميع المسلمين مع أن حملي ثقيل بالنسبة لمصر وحدها؟»[25].

وهاتان الحقيقتان تؤكدان أن الملك فؤاد الأول لم يكن طامحاً بوجه من الوجوه إلى خلافة المسلمين. وأن الذين تناولوا هذا الأمر بالبحث والاقتراح إما أجانب، كصحيفة الليبرتيه الفرنسية، وإما محبون للملك، حريصون على موافقته على أي إجراء يتم في شأن الخلافة. ولو كان مؤتمراً للعلماء. مثل الأمير عمر طوسون. أما الملك نفسه فقد رفض الأمر كله عندما عرضه عليه رئيس وزرائه سعد زغلول.

ولعل أهم ما يؤكد أن كتاب الشيخ علي عبد الرازق لا شأن له بمسألة تولي الملك فؤاد الخلافة أن الكتاب. كما يقول كاتبه نفسه. كُتب عندما كان الخليفة العثماني محمد الخامس هو خليفة المسلمين. ومحمد الخامس تولى الخلافة سنة (١٩٠٩) وبقي فيها إلى عام (١٩١٨). والملك فؤاد تولى عرش مصر تحت اسم السلطان فؤاد الأول في ١٠/٩/١٩١٧ ولم يصبح ملكاً إلا في سنة (١٩٢٢)[26]، فكيف يهاجم الكتاب ملكاً لم تكن له هذه الصفة عند تأليفه؟!

أظن أن الدكتور جابر عصفور يوافقني، بعد هذه الإشارة التاريخية المعبرة، على أن موضوع الملك فؤاد والخلافة، ومجلة المنار والخلافة، يحتاجان إلى مراجعة أوفى لتحقيق الرأي في هذا الأمر.

[٦]

في مقال الدكتور جابر عصفور محاولة متكررة. ثلاث مرات على الأقل. لإقناع القارئ بعدم التمايز بين الأديان. وفي مقام البحث في مسألة الدين والدولة، وتقرير المرجعية القانونية العامة لسنا بصدد مفاضلة بين الأديان، إذ محل ذلك دروس العقيدة والمناقشات في كليات اللاهوت، ولكننا بصدد تحديد الهوية المميزة للأمة. وإن شئت قلت الشعب أو الدولة. وهي هوية لا تستقى إلا من عقيدة الأغلبية. لكن هذه العقيدة لا تحول الدولة إلى دولة دينية، ولا تؤدي في أية لحظة من لحظات استلهامها إلى حرمان الأقلية من خيرات وطنها، ولا تقود إلى القول بتفضيل دين على دين من الناحية القانونية أو السياسية، أعني من ناحية الحقوق والواجبات والمساواة الواجبة فيهما بين المواطنين كافة.

والاحتجاج بأن المقاصد الكبرى، أو الكلية في الأديان لا تتناقض فيما بينها لا يغني عن الدكتور جابر عصفور شيئاً فيما يدعو إليه من التسوية بين الأديان في الرجوع إليها لصياغة القوانين والدساتير. فالمرجعية لا تقف عند استلهام المقاصد العامة فحسب. ولكنها تشمل. في يقين المؤمنين بها. إعمال النصوص الجزئية والأحكام التفصيلية للنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية. ثم تجعل البحث عن حلول لما لا تشمله النصوص محكوماً بالمقاصد الكلية التي يتغياها التشريع ويرمي إلى تحقيقها الاجتهاد فيه. وليس لأهل دين آخر في مصر مثل هذا الوضع من شريعة حاكمة. ولو كان فإن التشريع الذي لا يجوز أن يظلم الأقلية لا يجوز. من باب أولى. أن يتجاهل حقوق الأغلبية. وعلى وجه الإجمال أقول إن كلام الدكتور عصفور في هذا الباب كلام يعرف أهل الصنعة القانونية أنه غير صحيح. ولا أريد أن أزيد.

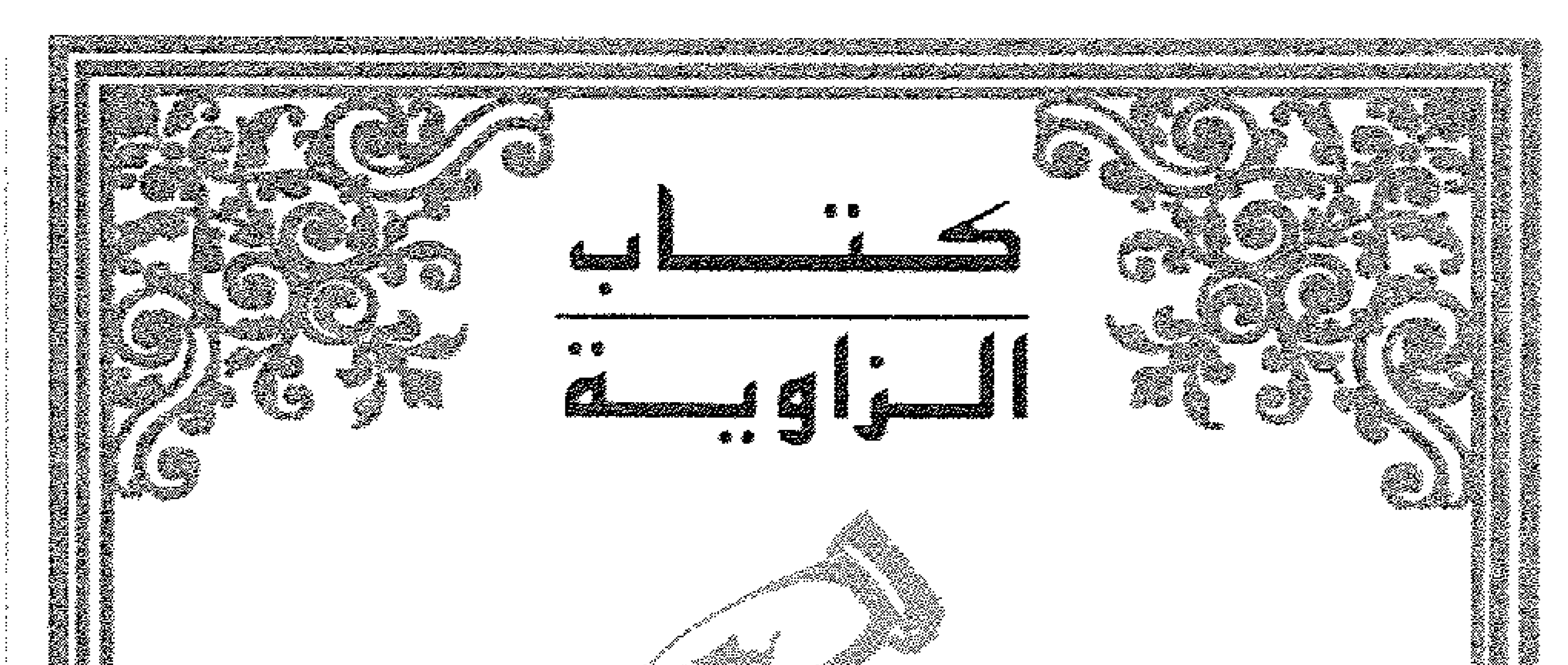
[٧]

يذهب الدكتور جابر عصفور إلى أن شعار (الدين والدولة) تلزم منه أشياء من بينها: عالمية الدعوة أو عولمتها التي تجلت في أفعال الإرهاب الديني المجاوزة للأقطار والقارات وهي النتيجة الأخيرة في المتصل الذي صاغه حسن البنا عندما ابتدأ بجعل الإسلام عقيدة وعبادة، صاعداً إلى أنه دين ودولة بلا تمييز بين ما هو ديني ودنيوي، خاتماً المتصل بذروته التي تتحول إلى إمكان للعنف حين جعل الإسلام روحانية ومصحفاً وسيفاً».

والواجب ابتداء أن نتفق على القاعدة الفكرية/الحوارية المسلمة عند المسلمين من أن (لازم المذهب ليس بمذهب) أي إن أحداً لا يستطيع أن يلزم أحداً بما يترتب على كلام قاله، في ظن السامع أو القارئ. لكن الملزم هو نص الكلام. وكل كلام له سياق إذا اقتطع منه كان المقتطع محرفاً أو مدلساً بحسب الأحوال.

ولست هنا بصدد الدفاع عن أفكار حسن البنا، ولا عن أفكار الإخوان المسلمين، فكلاهما غنيٌ بأنصاره وأتباعه والمتحمسين له عن دفاع أمثالي. ولكن الذي يعنيني، ويثير قلقي هو أن تغيب عن الدكتور جابر عصفور فكرة عالمية الدعوة الإسلامية التي يؤكدها بعث الرسول صلى الله عليه وسلم للناس كافة، وإرساله للعالمين نذيراً، وأن ترتبط هذه الفكرة الثابتة بنصوص القرآن الكريم عنده بأفعال الإرهاب الديني المجاوزة للأقطار والقارات.

أما أن الإسلام مصحف



الملك ورؤساء الأحزاب

مذكرات اللورد كيلرن

وفى تمام الساعة ٦ مساء دق جرس التليفون ليبلغنى تيمور بك بأن حسنين سوف يكون فى السفارة الساعة ٦,١٥ مساء، وقد وصل على الفور حاملاً إلىّ هذه الرسالة.. عند استلام الإنذار البريطانى، فإن الملك استدعى الأشخاص المذكورين فى القائمة المرفقة (وهى تشمل كل رؤساء الأحزاب بما فى ذلك النحاس شخصيًا) ذلك لمقابلته، وبعد مناقشة مضمون الإنذار البريطانى جاء القرار التالى: «إنهم يرون أن الإنذار يعد خرقًا للمعاهدة البريطانية ـ المصرية، كما يعد انتهاكًا لاستقلال البلاد، ولهذا السبب، وبناء على رأيهم فإن جلالته لا يستطيع أن يوافق على عمل من شأنه أن يؤدى إلى خرق للمعاهدة الإنجليزية ـ المصرية ولسيادة البلاد».

ولقد أخبرت حسنين أن هذا يعتبر أمرًا غاية فى الخطورة وأنه ينبغى على أن أصل إلى القصر فى الساعة ٩ مساء لمقابلة الملك ما لم أبلغه حتى ذلك الوقت بالعدول عن موقفى. ولقد صعق حسنين حين سماعه هذا الحديث، وقبل أن يغادر القاعة قال: أليس فى إمكانى، وإمكانك ياسير مايلز أن نجد حلاً ما؟

وأضاف إلى قوله: ومن أجل إنقاذ مهابة رؤساء الأحزاب جميعًا وتقديرهم، فإنه مستعد حالاً ـ وعلى مضض ـ أن يتولى بنفسه شئون حكومة انتقالية مؤقتة، مع ضمانه له، بأنه سوف يرتب إجراءات تولى حزب الوفد شئون الحكم خلال شهرين.

ولكنى أجبته: لقد فاض بى.. من خلال تعاملى معه (يقصد الملك) ولهذا فإنى أرفض اقتراحه، ولن أقبله.



وسيف فهو كلام صحيح في حدود ما استقر عليه الفقه الإسلامي المعاصر من التزام الأمة بجهاد الدفع دون جهاد الطلب؛ بعد أن أصبحت الدعوة إلى العقائد كافة متاحة مباحة، بفضل وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، في الدنيا كلها.

إن الشيخ محمد رشيد رضا، الذي أقام الدكتور جابر عصفور جزءاً كبيراً من بنيان مقاله على انتقاد دفاعه عن الخلافة يقول: «وحرية الاعتقاد في أكثر حكومات هذا العصر تغني خليفة المسلمين عن القتال لحماية الدعوة وحرية الدين كما كان عليه خلفاء العرب من الأولين»[٢٧]، فإذا كان جهاد الطلب قد سقط عن عاتق حكام المسلمين وجيوشهم ودولهم بقيام حرية الاعتقاد فإن التعبير عن القوة التي تحمي الإسلام (بالسيف) لا يكون له معنى إلا في جهاد الدفع الذي يعني مقاومة الغازي والمحتل والمستعمر والمعتدي على الوطن وأهله. وأنا موقن أن الدكتور عصفور لا يمنع هذا النوع من الجهاد، ولا يعترض عليه، ولا يأباه، لأنني أوقن من ولائه لوطنه ووفائه له.

وليس لهذا كله شأن بأن تكون عالمية الدعوى مؤدية إلى الإرهاب الديني المتجاوز للأقطار!!

والحمد لله رب العالمين. ■

الهوامش

(١) في ٢٠٠٠/٥/١٤ شاركت الأستاذ الدكتور جابر عصفور، والصديق الأستاذ الدكتور صلاح فضل في حلقة من برنامج (على الهواء) مع الإعلامي اللامع الأستاذ عماد الدين أديب حول تلك الرواية. وكنت قد ناقشتها معه وحدي مساء ١٣/ ٥/.٢٠٠٠ وفي عدد يونيو من مجلة (الكتب وجهات نظر) نشرت دراسة حول الرواية بعنوان (أعشاب وطحالب في حياتنا الثقافية).

(٢) الإمام الشافعي، الرسالة، ط الشيخ أحمد محمد شاكر، القاهرة ص ٢٠ و٢٢ .

(٣) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ط ٢، مؤسسة الريان للطباعة والنشر بيروت ١٩٩٨ ص ١١ .

(٤) السيوطي، الأشباه والنظائر، ط دار السلام القاهرة ١٩٩٨، تحقيق محمد تامر وحافظ عاشور، ج ١ ص ٢١٧ .

(٥) طارق البشري، الوضع القانوني بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، دار الشروق، ط الثانية ٢٠٠٥ ص ١٣٧ .

(٦) محمد عمارة، معركة الإسلام وأصول الحكم، دار الشروق ١٩٨٩، ص ١٤٩، وهو ينقل من كتاب: محمد إبراهيم الجزيري، سعد زغلول. ذكريات تاريخية طريفة، ط كتاب اليوم، ص ٩١ -٩٣.

(٧) طارق البشري، الحوار الإسلامي العلماني، دار الشروق، ط الثانية ٢٠٠٥ ص ٢٧ .

(٨) طارق البشري، السابق، ص ٢٦ .

(٩) محاضر اجتماعات لجنة المبادئ العامة (لدستور ١٩٢٣)، المطبعة الأميرية، ١٩٢٧ ص ٥٠-٥١ .

(١٠) محاضر اجتماعات اللجنة العامة (لدستور ١٩٢٣) المطبعة الأميرية، ١٩٢٤ ص ٦٩-٧٠ .

(١١) المصدر السابق، ص ١٤٥.

(١٢) طارق البشري، الحوار الإسلامي العلماني، السابق ذكره، ص ٢٦ .

(١٣) محمد سليم العوا، الدين والدولة، التجربة المصرية، دار سفير الدولية ٢٠٠٧ ص ٧-٨ . وقد وقع خطأ مادي في ذكر عدد أعضاء اللجنة من الأقباط فذكرت هناك أنهم كانوا ثمانية، وهو سبق قلم، والصحيح أن عددهم كان خمسة منهم النائب البطريركي، البطرك فيما بعد ، الأنبا يؤانس.

(١٤) محمد سليم العوا، السابق، ص ٨-٩..

(١٥) تفصيل ذلك في المصدر السابق، ص ٩-١٣..

(١٦) طارق البشري، حول المادة الثانية من الدستور، الأهرام، السنة ١٣١، العدد ٤٣٩١٣، الأربعاء ١٠ من صفر ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧/٢/٢٨م.

(١٧) محمد سليم العوا، ثورة يوليو والإسلام، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦ ص ١٧-٢٠ .

(١٨) طارق البشري، حول المادة الثانية من الدستور، سابق ذكره.

(١٩) راجع على سبيل المثال فقط: محمد عمارة، المصدر السابق ص ١٥٦ وما بعدها؛ ومحمد عمارة، الإسلام والسلطة الدينية، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٩ ص ٨٩؛ ومحمد عمارة الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، دار الشروق ١٩٨٨ ص ٥٣ وما بعدها وص ٢٠٨ وما بعدها؛ وعبد الحميد متولي، مبادئ نظام الحكم في الإسلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٢ وبوجه خاص الباب الثاني منه، ص ٩٢ وما بعدها؛ وصلاح سلطان (محرر) الحكومة المستقبلية بين الإسلام والعلمانية: مناظرة مصر بين الدولة المدنية والدولة الإسلامية (نادي المهندسين بالإسكندرية: ٢٢ رجب ١٤١٢هـ = ١٩٩٢/١/٢٧ وهي مناظرة شارك فيها الدكتور محمد عمارة والدكتور فرج فودة والدكتور فؤاد زكريا والدكتور محمد سليم العوا وأدارها الدكتور الشافعي بشير)؛ ومحمد ضياء الدين الريس، الإسلام والخلافة في العصر الحديث، مكتبة دار التراث بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٧.

(٢٠) طارق البشري، الحوار الإسلامي العلماني، السابق، ص ٢٥.

(٢١) مجلة المنار، الجزء الثاني، المجلد ٢٤، الصادر في ٣٠ من جمادى الآخرة ١٣٤١ = ١٩٢٣/٢/١٦، ص ١٠٢ وص ١٠٨-١٠٩.

(٢٢) مجلة المنار، الجزء السابع، المجلد ٢٥، ربيع الأول ١٣٤٣ = أكتوبر ١٩٢٤، ص ٥٣٣.

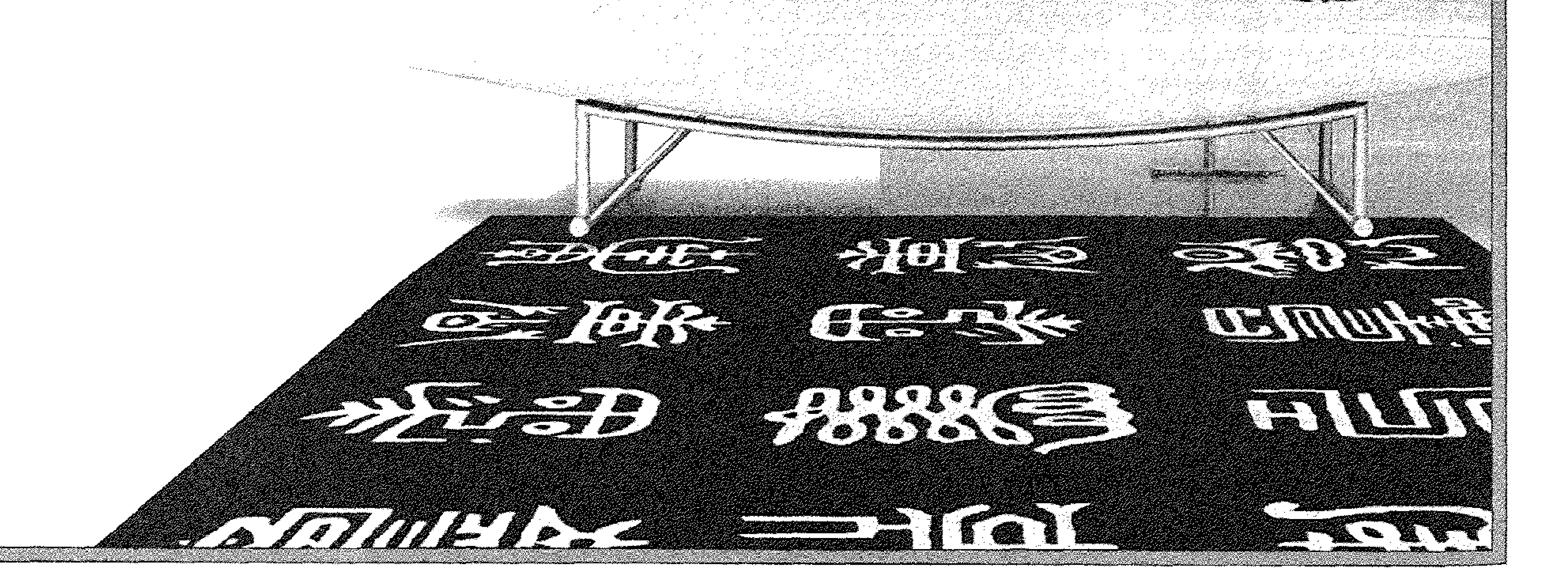
(٢٣) المصدر السابق.

(٢٤) يونان لبيب رزق، ديوان الحياة المعاصرة، الكتاب الحادي عشر، الأهرام ٢٠٠٤ ص ٦٢ . ويلاحظ أنه لا يذكر اسم أحد من مؤيدي هذا الترشيح في مصر، كما يقول إن اللجنة التي شكلها علماء الأزهر لتنظيم مؤتمر الخلافة كان واضحاً أنها تتمتع بتأييد قصر عابدين الذي صدر عن اقتناع الملك فؤاد بأنه الأكثر أهلية بين المرشحين للمنصب الشاغر. لكنه لا يقدم أي دليل على هذا التأييد (!)

(٢٥) محمد ضياء الدين الريس، المصدر السابق، ص ٦٧-٦٨، وهو ينقل عن حوليات مصر السياسية لأحمد شفيق باشا. والكلام عن هذا الموضوع في الحولية الثانية الخاصة بسنة ١٩٢٥ .

(٢٦) علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، ط الدكتور ممدوح حقي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦، ص ٧٠؛ محمد ضياء الدين الريس، الإسلام والخلافة، سابق ذكره، ص ١١٣.

(٢٧) مجلة المنار، ج ٢ مجلد ٢٤، السالف ذكره، ص ١٠٤.



الدين والسياسة فى مصر من تأليه

عمار علي حسن

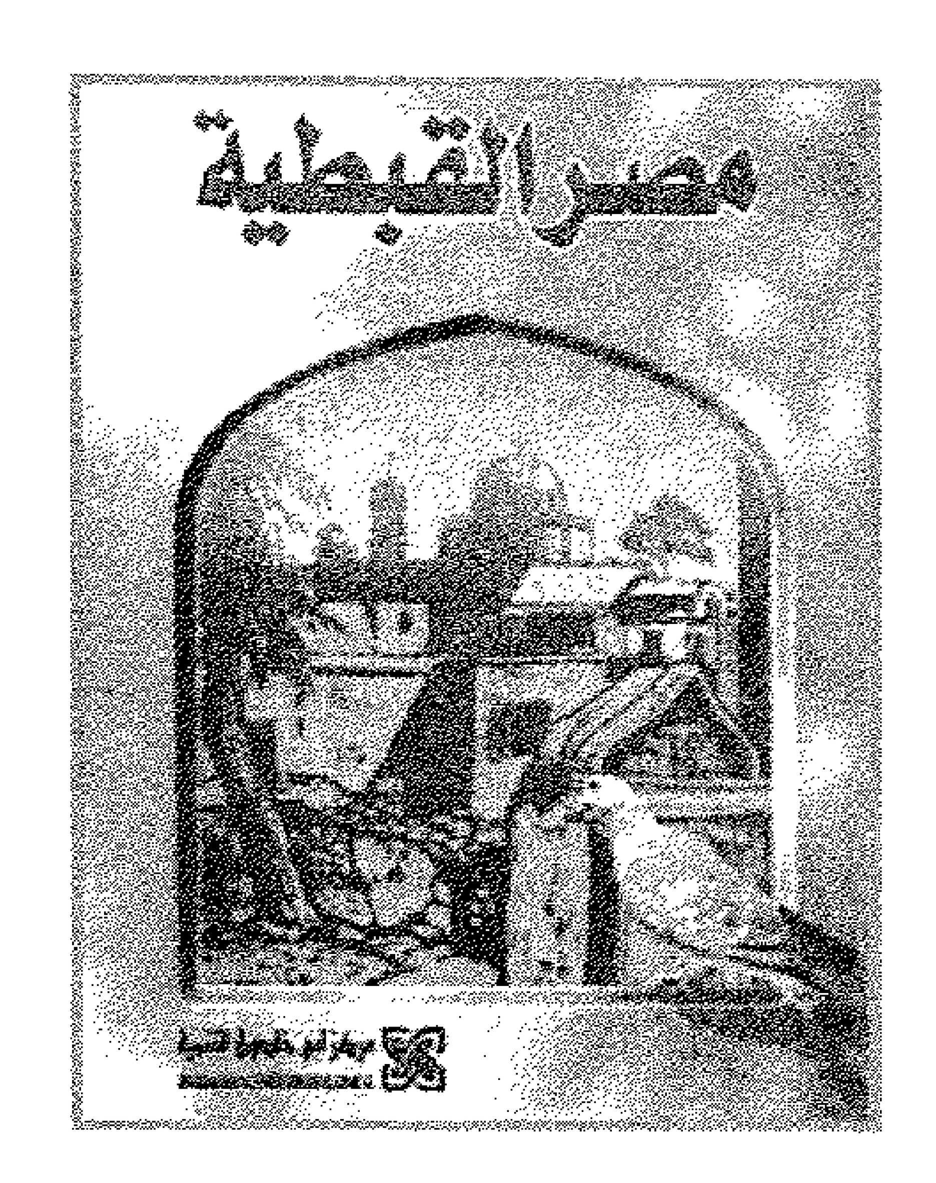
■■ إذا كانت مصر «الجغرافية» هبة النيل، فمصر «التاريخية» تعد فى أغلبها هبة الدين، فالأخير شكل برقائقه المتتابعة فى معابد الفراعنة وكنائس المسيحيين ومساجد المسلمين، مكونا رئيسيا للشخصية المصرية، فبدت مصر وثيقة من جلد رقيق؛ الإنجيل فيها مكتوب على ما خطه هيرودت، وفوقهما القرآن، وتحت الجميع لا تزال الكتابة القديمة تقرأ بوضوح وجلاء.

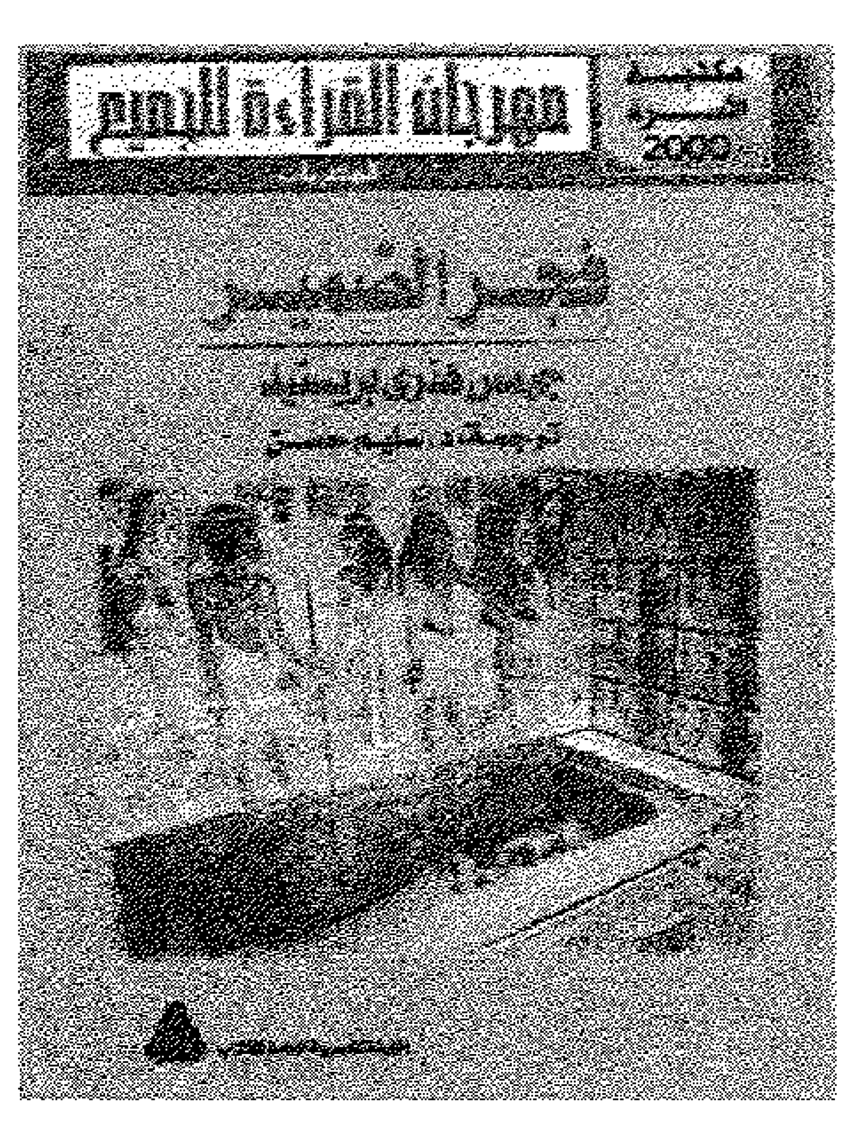
والدين كان دافع الفراعنة إلى التفوق العلمى، فى بحثهم عن الخلود بعد الموت، وهو الذى مثل جوهر الصراع بين الرومان والمسيحيين الشرقيين، والإسلام منح مصر هويتها العربية، منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا، والدفاع عنه، فى مواجهة الصليبيين والتتار، شكل الملمح الرئيسى لتاريخ مصر فى العصر الوسيط. وهذا التراكم متعدد الأبعاد جعل الشخصية المصرية متدينة بطبعها، ولذا لا عجب من أن عدد الجمعيات الخيرية بمصر هو الأكبر فى العالم أجمع.

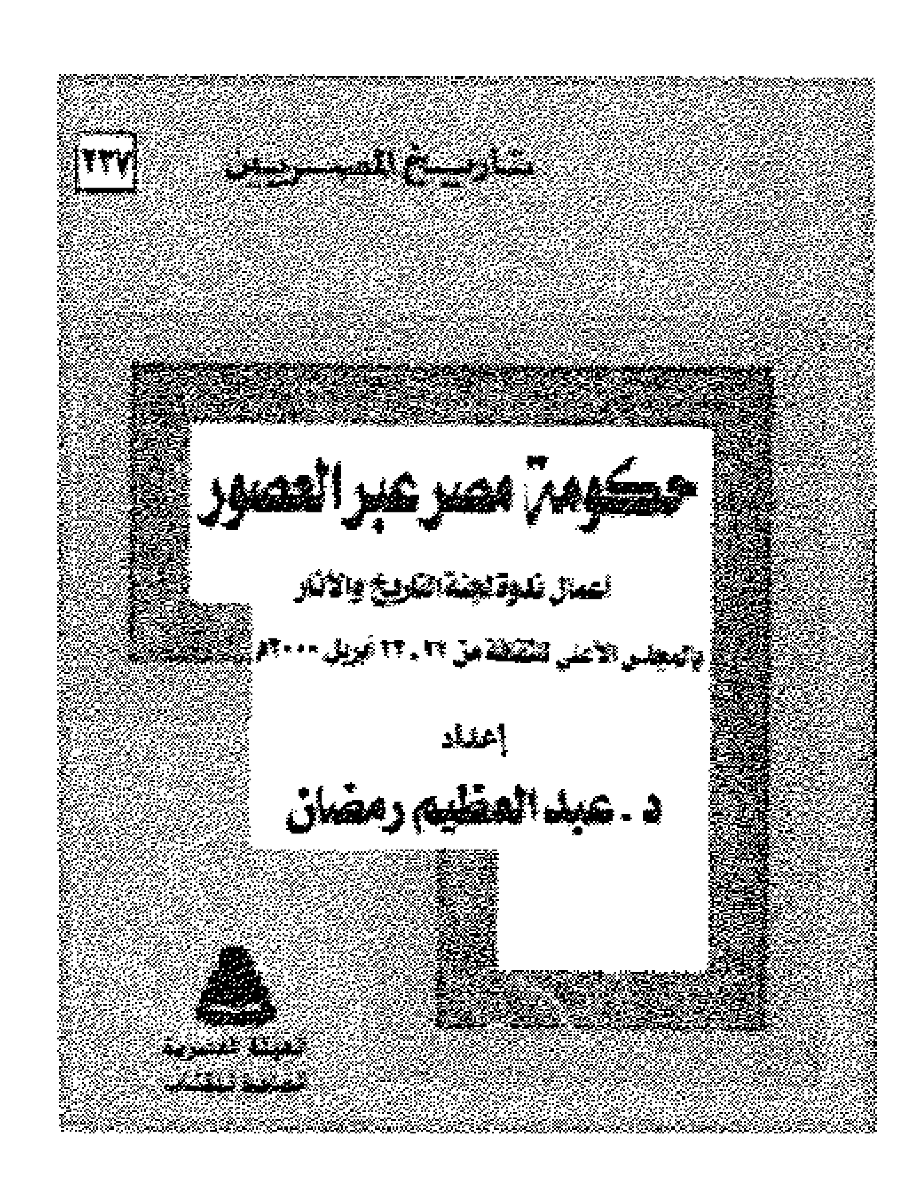
هنا يصبح الحديث عن بعد دينى للثقافة السياسية المصرية مبررا، ربما أكثر من أى مكان على سطح الأرض، خاصة مع ظاهرة «الإحيائية الإسلامية»، التى نقلت التصور الدينى من رؤية إصلاحية نظرية لدى محمد عبده ورشيد رضا إلى حركة سياسية فى الواقع المعيش على يد حسن البنا، لتفرض مع موجة العنف التى لطمت الحياة السياسية المصرية فى أواخر القرن المنصرم تساؤلا حول إمكانية تفنيد المقولات التى سادت لعقود فى الأدبيات المصرية حول دور الدين فى نشر «السلبية السياسية»، أو «الخنوع»، إلى جانب ما تردد حول «الفرعونية السياسية» و«سمات المجتمع النهرى».

وتدل كثير من الكتب أن تناول الدين كمكون للثقافة السياسية المصرية استوجب فى نظر الباحثين السعى أولا إلى تحديد العلاقة بين الظاهرتين الدينية والسياسية، على المستوى النظرى، ثم فى الحقل الميدانى المصرى، واحتاج ثانيا إلى تجلية «الوزن النسبى» للدين بين العناصر الأخرى التى تشكل القيم والاتجاهات وقبلهما المعارف السياسية للمصريين.

تأسيسا على ما تقدم تعاقبت مسائل عدة بحيز اختبار الكثير من الأدبيات السياسية والاجتماعية لدور الدين فى







تشكيل الثقافة السياسية المصرية، وتوزعت على روافد أساسية أربعة على النحو التالى:

١. موقع الدين فى تاريخية الثقافة السياسية المصرية، ودوره فى تحديد الهوية.

٢. ما ينتجه الهيكل التنظيمى للمؤسسات الدينية المصرية من قيم سياسية.

٣. ما تنتجه الأفكار الدينية المصرية من قيم ومعارف سياسية.

٤. مستقبل العقل السياسى المصرى بين «التمدين» و«التدين»، خاصة فى ضوء التداعيات والضغوط التى ترتبت على حدث ١١ سبتمبر، وحض الداخل المصرى حيال الإصلاح والتحديث.

ومن خلال مطالعة عشرات الكتب التى تناولت جوهرا أو عرضا الدين فى مصر استقرت فى يقينى عناصر عدة يمكن دراستها على نحو متعمق فى أبحاث لاحقة لدور الدين فى تشكيل الثقافة السياسية للمصريين، يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

أ. استخدام الحكام للدين فى كسب الشرعية، وتبرير الأوضاع القائمة.

ب. دور الدين فى تحديد الهوية المصرية عبر تاريخ البلاد الطويل.

ج. ما لعبه الدين فى إيجاد هذا الفاصل التاريخى بمصر بين المجتمع والسلطة.

د. ما خلفه الدين فى العقلية المصرية من غلبة «الرفض السياسى» على «النقد السياسى».

هـ. دور الدين فى بناء الثقافة المؤسسية لدى المصريين، نظرا لأنه توسل بالمؤسسة طيلة تاريخه (المعبد. الكنيسة. المسجد).

وما إذا كان الدين قد ساعد المصريين على بناء تصورات فى مقاومة السلطة، أو على النقيض، ما تركه، عبر بعض التأويلات والتفسيرات، من سلوكيات سلبية حيال السلطان.

ودراسة هذه العناصر كافة لا يمكن لها أن تنجز على وجه أكمل من دون تلمس الخطين الأساسيين اللذين سارت فيهما الرؤى والدراسات التى تناولت تاريخ مصر، منذ المنشأ المعروف وحتى اللحظة الراهنة، وهما إما أن تاريخ مصر يتسم بالاستمرارية التى تصل عند البعض إلى حد الزعم بأن مصر الحديثة لا تزال فرعونية الجوهر، أو تلك التى تميل إلى أن تاريخ مصر متنوع، ويتكون من طبقات ورقائق حضارية بعضها فوق بعض، وتصل إلى حد الزعم بأن مصر التى ولدت مع دخول الإسلام إليها منبتة الصلة بما قبلها.

لكن أيا من هذه الأدبيات لم يتابع الخيط الممتد فى الزمن لقيام الدين بتشكيل علاقة المصريين بحكامهم، رغم أن أيا من العناصر السابقة، فى ظنى، لم يكن له قوة تأثير وأهمية ما رسبه الدين من تصورات لعلاقة المحكومين بالحاكم فى مصر طيلة تاريخها القديم والأوسط والحديث والمعاصر. أو أن هذه الجزئية لم تحظ بالقدر الكافى من الدراسة، مع أنها تشكل عصب هذا الموضوع فى بلد قيل أن ما يبدو فيه للوهلة الأولى هو ظاهرة «السيد المطاع والعبد المطيع»، أو أنه البلد الذى علم العالم بأسره «الحكم الإلهى»، كما يذهب محمد سعيد العشماوى فى كتابه الشهير «الإسلام السياسى»، إذ يرى أن فكرة «حاكمية الله» التى رفعتها الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامى أصلها مصر القديمة، التى جعلت من الحكام آلهة.

موقع الدين فى السياسة المصرية

زاول الدين فى تاريخ المجتمعات السياسية دورا لا يدانيه فيه أى عامل آخر، بدءا من المجتمعات الطوطمية حتى حلول عصر الإيمان وبعث الرسالات السماوية، مرورا بالمجتمعات القبلية والعشائرية. وكانت اللحظة الفارقة فى تاريخه هى تلك التى تمرد فيها الأوروبيون على سلطة الكنيسة، وبزغ نجم «العلمانية»، التى يقوم جزء كبير منها على فصل الدين عن الدولة، لتخترق حدود القارة العجوز، وتهز ما كانت تعتقده مجتمعات أخرى «ثوابت» أو «مقدسات»، مع أن السياسة فى إجراءاتها وتفصيلاتها «صناعة بشرية»، أراد الحكام فى العالم الإسلامى وأوروبا على مدار القرون التى خلت أن يضفوا عليها ثوبا مقدسا، وقال بعضهم صراحة أنه يحكم باسم الله، كما تقدم.

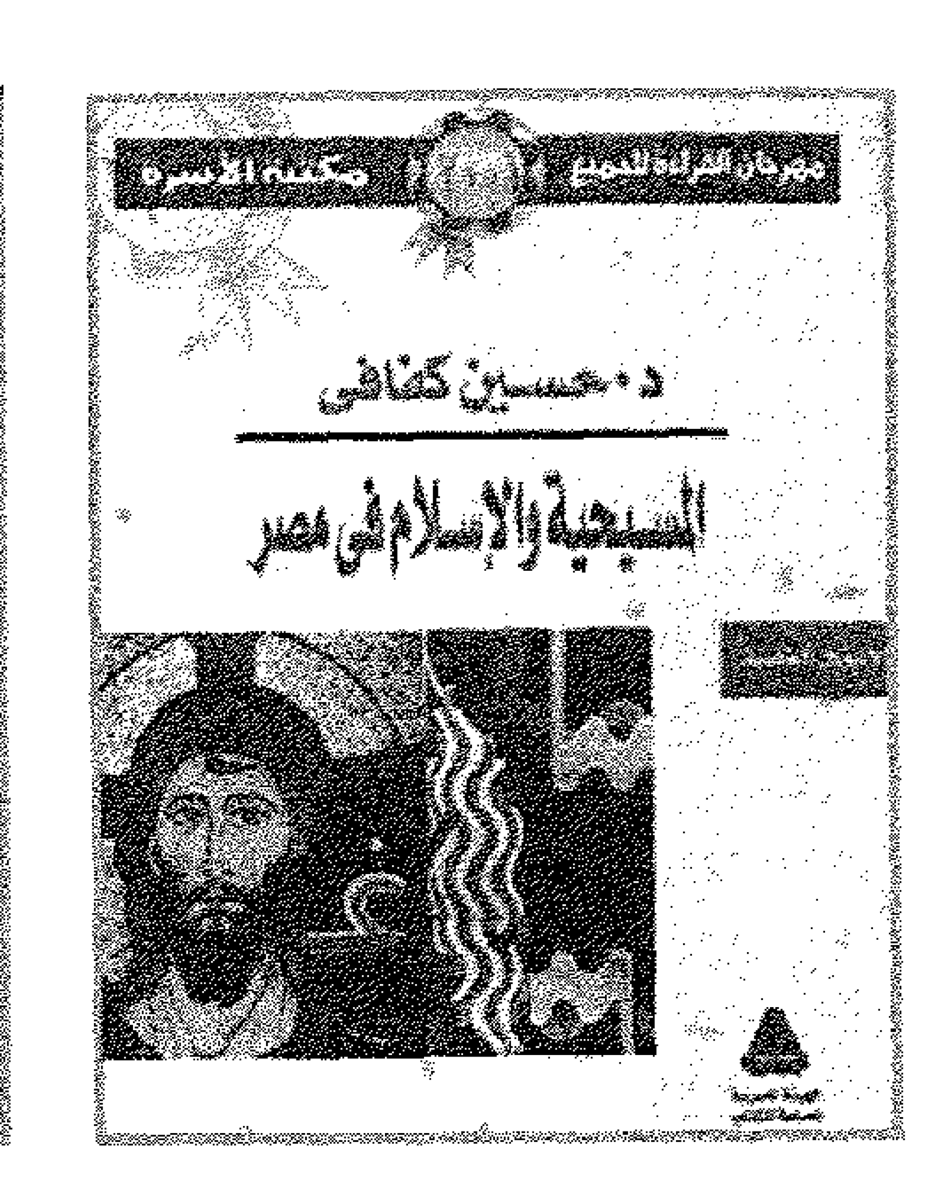
ويرصد لنا كتاب «الدين فى المجتمع العربى» الذى ألفته مجموعة من الباحثين والصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت تراجعا لدور الدين فى الحياة العامة للعرب المحدثين. ففى النشاط الاقتصادى، باتت الكلمة العليا للربح والدعاية والتنافس من دون الارتكان، فى الغالب الأعم، إلى

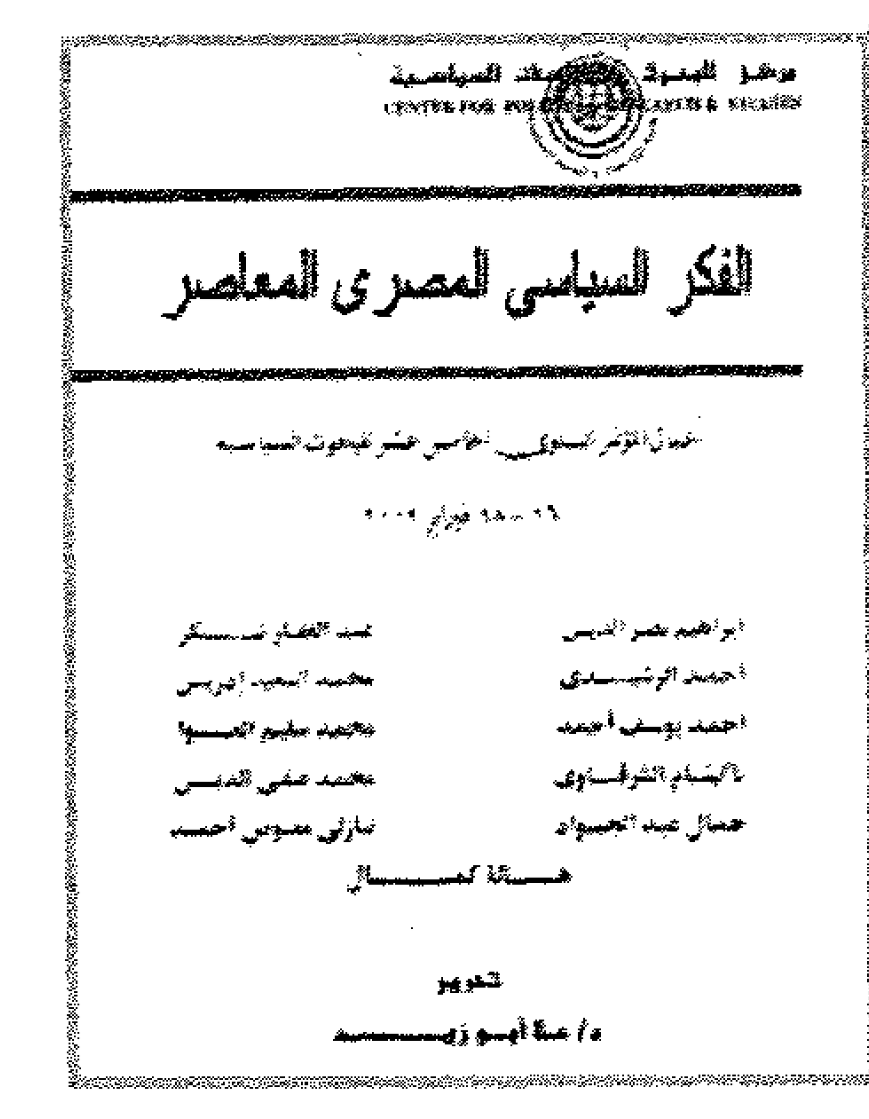
الحـــكام إلـى تكفيــرهم!

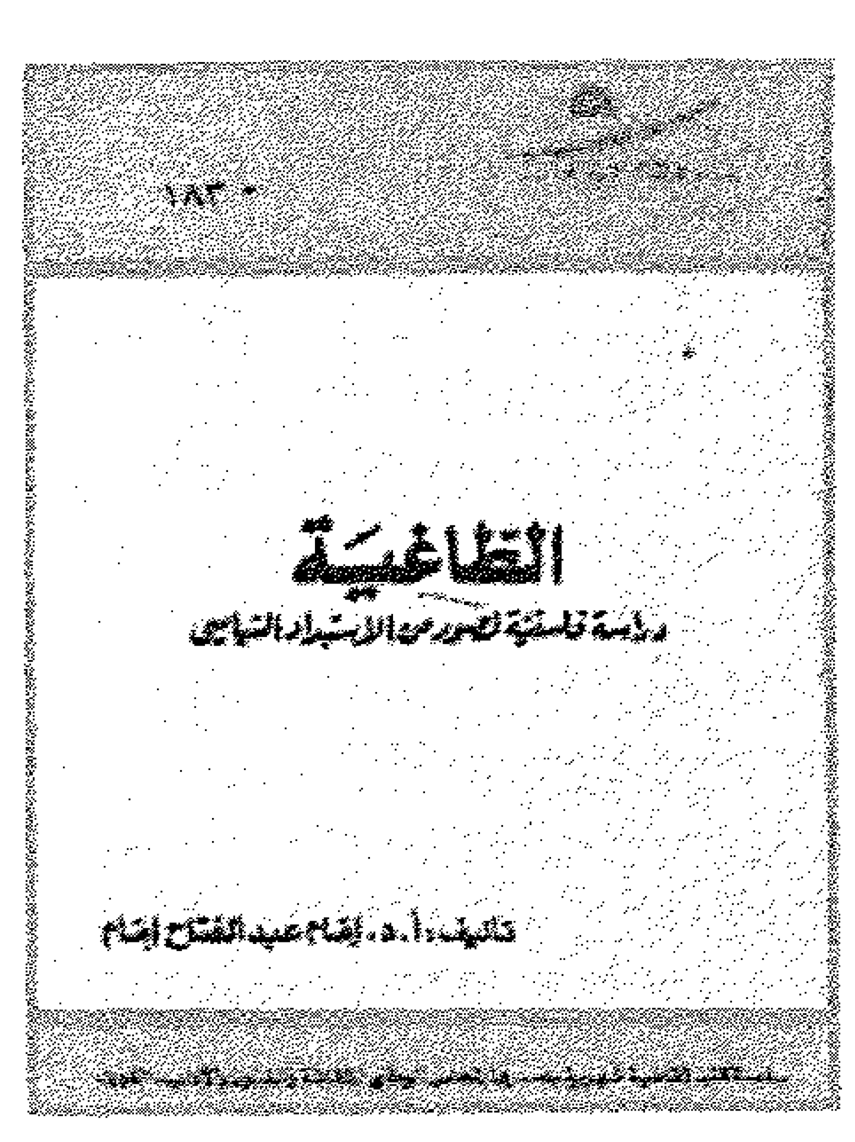


يقول الدكتور زكى نجيب محمود: «من طول المدة التى أشرب فيها المصرى بوجدانه الدينى، أصبح ذلك الوجدان يلازمه ملازمة اللون الأسمر لجلده»











الأخلاقيات الدينية. وفى مجال الحركة السكانية، حسم النزاع بين التصور الأخلاقى الإسلامى ومقتضيات الحياة الاجتماعية، حيث الضغوط الاقتصادية على الأسر العربية، لصالح الأخيرة، ممثلا فى تنامى الاتجاه إلى «تنظيم النسل». وفى مجال بناء المجتمع، تراجع دور المؤسسات الدينية فى الضبط الاجتماعى والانضباط السلوكى، علاوة على التحدى الذى يواجه الدين من قبل المتابعين لحركة الصراع الاجتماعى، متهمين القائمين عليه بأنهم لم يناصروا، إلا فى حالات استثنائية وعبر فترات زمنية متقطعة وأمكنة متباعدة، المضطهدين والمهمشين. كما يرصد هؤلاء تراجع الدور العلمى للدين، وكذلك دوره فى حركة المعمار والتشييد، على العكس مما كان سائدا فى القرون التى رحلت.

لكن على النقيض من التصور السابق تستمر علاقة المصريين بالدين قوية، لاسيما أنها تسمح فى كل وقت ومكان له بأن يضع بصمته على الحياة الخاصة والعامة. فالشعور الدينى هو من أهم الخصائص التى جعلت المصرى مصريا، فمصر، كما يقول الدكتور زكى نجيب محمود: «هى أقدم بلد فى الدنيا بأسرها امتلاء بذلك الشعور الدينى، ومن طول المدة التى أشرب فيها المصرى بوجدانه الدينى، أصبح ذلك الوجدان جزءا من كيانه، يلازمه ملازمة اللون الأسمر لجلده».

وما أورثه الدين فى أنفس المصريين وعقولهم أغزر وأعمق من أن تحيط به دراسات ميدانية عديدة، تتوزع على حقول معرفية شتى، ويزداد الأمر تعقيدا حال الولوج إلى الظاهرة السياسية، بتعقيداتها وحمولاتها المتنوعة، خاصة إن كان التناول منصبا على الثقافة السياسية.

علاقة الحاكم والمحكوم فى مصر

لأن مصر هى أول دولة على سطح البسيطة، فعلاقة المحكوم بالحاكم فيها، هى الأقدم والأعمق فى الوقت نفسه، قدم بحكم الشوط البعيد الذى قطعته قافلة الزمن المصرية، وعمق بحجم ضخامة وقوة لحظة انطلاق الدولة والمجتمع، التى دعت أحد علماء الآثار إلى أن يظن أن مصر القديمة ولدت كاملة.

وقد مرت هذه العلاقة بمحطات ثلاث، بدأت بالتأليه وانتهت بالتكفير ومرت بالتبجيل، من دون أن تفارق فى كل مرحلة تنتقل إليها بعض خصائص المرحلة التى تسبقها، فى تواصل واستمرارية ميزت جوانب عديدة من تاريخ المجتمع المصرى.

١ ـ مرحلة تأليه الحكام

نشأت الدولة المصرية القديمة فى رحاب الدين، وكانت شعائر الملكية ورسومها ذات سمت دينى، وكان الملك يؤله فى حياته، وبعد مماته، ليصبح الدين هو قوام الدولة، فالملك يقيم عبادة الآلهة، ويرعاها ويحرس البلاد، ويكفل رخاء أهلها. وكما يخبرنا كل من جيمس هنرى بريستيد فى كتابه الأثير «فجر الضمير» و أدولف إرمان فى كتابه الموسوم بـ «ديانة مصر القديمة» و د. بهاء الدين إبراهيم محمود فى كتابه عن «المعبد فى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية... تنظيمه ودوره السياسى» فإن الملك كان فى نظر المصريين الأقدمين الضمان الأكيد لاستقرار نظام الكون واستمرار الحياة، ولذلك شارك الناس، عن اقتناع تام، فى بناء قصوره ومعابده، ومقره الأبدى على شاكلة تعبر عن مدى إيمانهم بعظيم منزلته. من ثم كانت الأهرامات تعبيرا ماديا واضحا لمدى قدسية نظام الحكم الملكى فى مصر القديمة، وكانت اللغة آنذاك مشبعة بما يعبر عن «ألوهية الحاكم» فحين يتوج أو يظهر فى مناسبة عامة يقال «أشرق الملك»، أو «أطل من عليائه»، وعند مماته يقال صعد الملك إلى السماء لينضم إلى موكب إله الشمس. وبات كل ما يتصل بالملك مقدساً مهما كانت قيمته، فتيجانه وصولجانه وكل شاراته مقدسة. بل وصل الأمر إلى حد اعتقاد المصرى القديم فى أن «العالم الآخر» بالنسبة للملوك يختلف عن عامة الناس، فالملوك إن ماتوا صعدت أرواحهم إلى السماوات العلى، أما العوام فإن قضوا فمثواهم باطن الأرض.

وقد خصصت «متون الأهرام»، التى ليس لها مثيل من كتابات عن العالم القديم، لتشرح سعادة الملك فى الدار الآخرة، وكيف تصور المصرى القديم أن الملوك سيحتفظون بعد موتهم بالسلطان نفسه الذى يتمتعون به فى الدنيا. فها هى تقول «الملك تيتى لم يمت موتا بل جاء معظما فى الأفق».. «هيا أيها الملك، إنك لم تسافر ميتا، بل سافرت حيا».. ثم تمضى لتوضح حجم الحزن على رحيل الملك: «السماء تبكى من أجلك، والأرض تزلزل من أجلك». فإذا استقر الملك فى السماء «يشاهد فى قاعة قصره وهو جالس على عرشه العجيب وصولجانه المدهش فى قبضته، ثم يرفع يده نحو أولاده ليقفوا أمام هذا الملك، ثم ينزل يده مشيرا نحوهم فيجلسون ثانية».

ووصل الأمر إلى حد تطويع الدين فى خدمة السياسة، حيث نجد أن الأحداث السياسية التى مرت بها مصر وانتهت بوحدتها نهائيا عام ٣٢٠٠ ق. م أفضت إلى سيادة معبود رئيسى، هو معبود الإقليم المنتصر، غير أن الكهنة، أتباع الآلهة المحلية، وآلهة الأقاليم المهزومة، لجأوا إلى حيلة تحول دون اندثار معتقداتهم بانزواء آلهتهم، بإعلان أن آلهتهم مجرد أقانيم للإله الرئيسى، لا تختلف معه فى الجوهر، أو تلعب هذه الآلهة دور الزوجة أو الابن لهذا الإله.

وحتى يضمن الملوك استمرار هذا الاعتقاد وترسخه، جعلوا المعابد تحت سلطانهم. فكان الملك يعين كبار الكهنة فى المعابد الكبرى، وهو الذى يشرف، من خلال جهازه الإدارى الخاص، على أعمال المبانى والإنشاءات الخاصة بالمعابد، ويدير ممتلكاتها من الأراضى والقطعان، وله الحق فى التفتيش على خزائنها.

لكن ينبغى ألا نعتقد أن الملك كان إلها لدى المصريين القدماء مثل بقية الآلهة، تشيد له المعابد، وتقدم له القرابين، فلم يصل تأليه الملوك إلى هذا الحد، ولم تعد مناداته بـ «الإله الطيب» أو «حوريس» أو «ابن رع» أو «الشمس الحية» أو «لسان أتوم» سوى طريقة مهذبة فى التعبير عن الخضوع التام له،



ولسلطانه. حتى إذا شاع الاستعمال اللفظى لتلك الألقاب، بدأت مع مرور الزمن تفقد الإحالة إلى معانيها الأصلية، أو تنفصل عن الأسس والجذور اللغوية والاعتقادية التى نبتت منها.

٢ - من التأليه إلى التبجيل

ومع دخول المسيحية إلى مصر فى سنة ٦٠ ميلادية، بدأت مرحلة جديدة، نزعت فيها الألوهية عن الحكام، لدى الأغلبية، وإن ظل الوثنيون على تصوراتهم القديمة، لكن بدرجة أقل. وكان التحول الأكبر حين اعترف الإمبراطور الرومانى ثيودوسيوس بالمسيحية سنة ٣٧٩ م دينا رسميا للدولة، فقويت شوكة مسيحيى مصر فى مواجهة الوثنيين، حتى تم القضاء عليهم نهائيا، بإغلاق جامعة أثينا الوثنية فى عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) لتبدأ صفحة جديدة من كفاح مسيحيى مصر ضد الرومان المختلفين معهم مذهبيا، والذين اضطهدوهم ليحملوهم قسرا على اعتناق فكرة الطبيعة المزدوجة (الإلهية والبشرية) للسيد المسيح.

وحسب ما أورده كل من محمود مدحت فى كتابه «مصر القبطية» و د. سليمان نسيم فى كتابه «مصر القبطية» فإن مسيحيى مصر لم يبجلوا حكام الرومان كما كان عليه الحال من قبل، بل قاوموهم وقدموا فى سبيل اعتقادهم عددا من الشهداء خلال أربعة قرون كاملة، لا يقل إن لم يزد، على أعداد الشهداء الذين قدمتهم كل البلاد المعروفة فى أنحاء العالم الرومانى فى تلك الحقبة. وغلب على مقاومة المصريين آنذاك طابع «العصيان المدنى»، حيث كان الفلاحون يتركون أرضهم حين تثقل السلطات الرومانية كاهلهم بالضرائب. وكان الفنانون يغطون الرسوم الدينية الرومانية، ويعيدون رسم الأيقونات القبطية عليها، وكان الموسيقيون يعزفون فى الصلوات الكنسية ألحانا مصرية كهنوتية قديمة، وليست الألحان الرومانية.

وانتقل التبجيل إلى رجال الدين أنفسهم، الذين كان يقول الواحد منهم عند توليه البابوية: «افتحوا لى أبواب البر»، وزادت درجة هذا التبجيل بعد أن حمل البطريرك فى القرن الثالث الميلادى لقب بابا، يعاونه عشرون أسقفا فى خدمة الكرازة. أما العلاقة بالحكام فقد حكمها المبدأ المسيحى الذى يقول «ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

ولما فتح المسلمون مصر أحدثوا تحولا أكبر عن الماضى فيما يتعلق بتقديس الحكام. فعلى مستوى النص يمنع الإسلام اتخاذ الحكام أربابا من دون الله، وهو إن كان يأمر بطاعة أولى الأمر، فإنه يجعل ذلك مشروطا بعدلهم وتقواهم وعملهم للخير والحق، كما أنه لا يحصر أولى الأمر فى أهل الحكم.

أما على مستوى الممارسة فتضاءل تقديس الحكام فى مصر إلى تبجيلهم، لكن فى صورة تختلف كثيرا عن «الفرعونية السياسية» التى كانت سائدة فى مصر القديمة. فالرابطة السياسية الإيمانية التى أوجدها الإسلام، تشكل إطارا مناقضا للفرعونية السياسية التى تقوم على أن فرعون طاغية وأعوانه ظلمة وهمج رعاع.

ومنذ السنوات الأولى لدخول الإسلام إلى البلاد رأى المصريون كيف عوقب حاكمهم حين اعتقد أنه متميز عنهم، وذلك حين اقتص خليفة المسلمين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه من حاكم مصر عمرو بن العاص، جراء قيام ابن الأخير بضرب صبى مسيحى فاز عليه فى سباق الخيل، وتقاعس ابن العاص عن أن يأخذ للمسيحى حقه، ما دفعه إلى أن يشكو إلى ابن الخطاب، الذى جعل المسيحى يضرب نجل عمرو.

لكن انتهاء مرحلة تأليه الحاكم لم يتبعها تحرر نفسى كامل من الشعور بالضعة حيال الحاكم، أو كف عن النظر إليه على أنه شخص غير عادى، أو أنه بيده النفع والضرر، أو الثواب والعقاب، وأن قدرته على فعل أشياء كثيرة لا حدود لها. ولقد عبر المؤرخ المرموق شفيق غربال عن هذا الأمر قائلا فى كتابه الصغير الأثير «تكوين مصر عبر العصور»: «لقد تحرر المصرى بفضل المسيحية والإسلام من ربقة الخرافة والعبودية لغير الخالق، وتحرر الشعب من رق المقدونيين والرومان. ومع ذلك فإن هذا الفرد المتحرر لم ينل الحرية التى تتيح له فرص اكتمال شخصيته، فقد بقى التمييز والتفرقة ما بين الحاكم والمحكوم قائما، وحال ذلك دون تمتع الفرد بنصيبه الكامل من الجزاء والمسئولية».

ويرصد كتاب «حكومة مصر عبر العصور» الذى ألفه مجموعة باحثين أن علاقة المحكومين بالحاكم فى مصر قد استمرت على وتيرة واحدة منذ الفتح الإسلامى حتى دخول الفاطميين، فاستعاد إضفاء طابع دينى على الحاكم جزءا من ميراثه التاريخى القديم، فالدولة الفاطمية قامت على أساس تشابكت فيه السياسة مع الدين إلى حد أن كل تنظيم سياسى فى هذه الدولة كان انعكاسا لروح التصور المذهبى الفاطمى (الإسماعيلى) نفسه، حتى صارت أصدق مثال للدولة الدينية العقائدية (الثيوقراطية) فى الإسلام، استنادا إلى المكانة المقدسة التى أضفيت على الإمام، وهو الحاكم، وعلى «داعى الدعاة»، المنوط به الإشراف على نشر المذهب الشيعى الإسماعيلى.

فقد حرص الحكام على تلقيب أنفسهم بالأئمة أو أمراء المؤمنين، وليس «الخلفاء»، حرصا منهم على إظهار صفتهم الروحية وسلطتهم الدينية. فالإمام الفاطمى هو متواجد فى منصبه بموجب الحق الإلهى، ويختار ليكون وصيا للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، وتنتقل الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر، شرط وصية الإمام السابق بذلك. وقد وصل الأمر بأحد هؤلاء الأئمة وهو الحاكم بأمر الله أن ذهب فى عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م إلى حد اعتبار نفسه تجسيدا لله على الأرض، أو أنه «الملك الإله»، بما يشبه إلى حد بعيد ما كان سائدا فى مصر القديمة.

ومن دون شطحات الحاكم بأمر الله، فإن الحاكم الفاطمى (الإمام) كان ينظر إليه على أنه «خليفة الله فى الأرض»، والمفسر الأول للشرع، ومصدر كل العلم، وولى الله الذى بإمكانه أن يشفع لمن يريد من أتباعه.

لكن المصريين لم يكفوا عن ممارسة عادتهم التاريخية فى إضفاء هالة على الحاكم، حتى إن لم يكن يرغب، فلقبوا صلاح الدين بالسلطان، تعظيما له وتكريما لشخصه، ليأتى خلفاؤه، من الأتراك وغيرهم، أيوبيين ومماليك، ليتمسكوا بهذا اللقب.

ورغم أن المماليك كانوا عبيدا إلا أن توسلهم بالدين إلى جانب تحصنهم بالقوة، منح حكمهم شرعية، فانتقل الناس من رفضهم الصريح، الذى وصل إلى حد أن نادى الشيخ الجليل العز بن عبد السلام بأن حكم الرق قائم عليهم، إلى تقبلهم، ثم تبجيلهم. فقد استعان حكام المماليك الأوائل بالنفوذ الروحى والتاريخى والشرعية السياسية للخلفاء العباسيين، بعد سقوط بغداد تحت سنابك خيل المغول فى ١٢٥٨م، فاستقدموهم إلى القاهرة، وأعطوهم وجودا رمزيا وشكليا، فبدوا بذلك فى منزلة المحافظين على الخلافة، المدافعين عن ديار الإسلام، لاسيما بعد أن تمكنوا فى أول اختبار لهم من كسر الاجتياح التترى، ثم توالت انتصاراتهم المظفرة على التتار والصليبيين من بعد. علاوة على ذلك اهتم سلاطين المماليك ببناء المساجد والمدارس الدينية، وقربوا إليهم العلماء والفقهاء.

ومع الزمن، نسى المصريون حكاية الرقيق، و«مملكة العبيد» كما يقول المؤرخون الغربيون، وراحوا يضعون حكام المماليك فى منزلة مرموقة، فاتخذوا لهم أعيادا، وأقاموا لهم الاحتفالات، إما لعودتهم منتصرين فى المعارك، أو لشفائهم من مرض ألم بهم، أو بعد وفاتهم. فعندما عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون منتصرا على التتار سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م، زينت القاهرة من باب النصر إلى القلعة، وجاءت فرق الغناء من كل مكان، وغالى الناس فى وضع الزينات. كما زينت القاهرة للسلطان نفسه، عندما شفى من إصابة ألمت به أثناء خروجه للصيد. وعند وفاة السلاطين كان يمد سماط عظيم من الطعام، يحضره الأمراء والمقدمون والعسكر، ثم يقبلون الأرض ويد السلطان، وتضرب البشائر بالقلعة إعلانا بتولية السلطان الجديد، وكالعادة تزين القاهرة بجميع الزينات قبل دفن السلطان الراحل.

وحكم العثمانيون مصر باسم الدين، فزعموا أمام الشعب المصرى أنهم حماة الدين، وأن دولتهم هى امتداد لـ«الخلافة الإسلامية»، التى أسقطها المغول عام ١٢٥٨، فكان للسلطان العثمانى هيبة وجلالة فى نفوس المصريين، بعضها لأسباب دينية. لكن هذه الهيبة لم تجد على الدوام من ينفخ فى أوصالها من رجال الدين، فالبعض لم يقتنع بها، وانتهى الأمر بالإمام محمد عبده، الذى رأى أن الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم، فلا عليه نزل الوحى، ولا من حقه الاستئثار بتأويل النص القرآنى والسنة النبوية.

ولما سقطت الخلافة عام ١٩٢٤، أراد الملك فؤاد فى مصر إحياءها، فتصدى له الشيخ على عبد الرازق بكتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم»، ليؤكد أن «الخلافة» لم ينزل بها نص، ولم ينعقد لها إجماع، وليس لها دليل فى السنة، إنما هى اجتهاد بشرى لصحابة الرسول صلى



وصل الأمر إلى حد تطويع الدين فى خدمة السياسة، حيث نجد أن الأحداث السياسية التى مرت بها مصر وانتهت بوحدتها نهائيا عام ٣٢٠٠ ق. م أفضت إلى سيادة معبود رئيسى، هو معبود الإقليم المنتصر



الله عليه وسلم، فى تصورهم للحكومة، وأن الإسلام ليس دينا ودولة، إنما هو دعوة دينية خالصة لا تشوبها نزعة ملك أو حكم. ورأى عبد الرازق أن ضياع الخلافة لم يؤثر سلبا إلى أركان الإسلام ولا مصلحة الأمة، وأنهى كلامه قائلا: «الدين الإسلامى برئ من تلك الخلافة التى يتعارفها المسلمون، وبرىء من كل ما هيئوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عزة وقوة. الخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية، كلا، ولا القضاء، ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة».

٣ - من التبجيل إلى التكفير

قرون طويلة عاش فيها حكام مصر مقدسين أو مبجلين، يحيطهم الجلال وتكللهم الهيبة، من دون أن يدرى من ذهبوا فى القرون الغابرة أنه سيأتى يوم، وينقلب فيه الدين إلى غير صالح السلطان، فبعد أن كان التدين يعبد أمامه طريقا وسيعا بات يتيح لفئة تناوئه فرصة تكفيره، استنادا إلى تأويل ذاتى وضيق لنصوص القرآن الكريم.

ونعنى بهذه الفئة الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامى، التى دبجت بياناتها وتأويلاتها ابتداء من ستينيات القرن المنصرم، لتكفر رئيس الجمهورية، ومن حوله، بل ومؤسسات الدولة، مهما كانت صغيرة أو مقصية عن بؤرة صنع القرار، أو مركز الهيمنة والتحكم فى جسد الدولة المصرية الفارع.

وبدأت هذه المسيرة، المقطوعة من تاريخ مصر، بما رآه سيد قطب فى كتابه «معالم فى الطريق»، الذى اعتبر فيه أن المجتمع الراهن جاهلى، ونادى بـ«الحاكمية»، أى «الحكم بما أنزل الله»، ولذا رفض أى نظام سياسى لا يمتثل لهذا التصور، فها هو يقول: «... ليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه هذا شرع الله، إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنة، وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه وتعالى لا الشعب ولا الحزب ولا أى من البشر»، ومن ثم يصبح الحاكم الذى لا ينتهج هذا النهج فى نظر قطب خارجا عن ملة الإسلام، أو جاهليا، تجب مقاومته، واستبداله بـ«جماعة مؤمنة» تطبق «شرع الله».

وتلقفت الجماعات والتنظيمات التى تشظت، بشكل لافت، هذه الفكرة، وراحت تعمق فكرة تكفير الحاكم. ففى كتابه الموسوم بـ«رسالة الإيمان» يقول صالح سرية أمير ما عرف بتنظيم «الفنية العسكرية»، الذى قاد محاولة فاشلة لاغتيال الرئيس السادات عام ١٩٧٤: «إن الحكم القائم فى جميع بلاد الإسلام هو حكم كافر، ولا شك فى ذلك»، مستندا فى ذلك إلى غياب «الحكم بما أنزل الله»، ويرى أن كل من والى الحكومات والأحزاب والجماعات الكافرة فهو كافر، وأن تحية العَلَم شرك والسلام الجمهورى شرك وتحية قبر الجندى المجهول شرك. وتبنت «جماعة المسلمين» المعروفة أمنيا وإعلاميا باسم «التكفير والهجرة» الموقف نفسه، إذ حكم أميرها شكرى مصطفى على مؤسسات الدولة جميعا بالكفر، وطالب باعتزال الأجهزة الحكومية ومؤسساتها والامتناع عن أداء الخدمة العسكرية أو قبول الوظائف العامة. وفصل محمد عبد السلام فرج مؤسس «تنظيم الجهاد» فى كتيبه الشهير «الفريضة الغائبة» هذه النقطة كثيرا، متخذا موقفا مشابها، إذ رأى أن الحاكم مرتد، وأن أبواب الكفر التى أخرجته من ملة الإسلام عديدة، ولذا وجب قتاله. وفى رسالة لعبود الزمر، أمير جماعة الجهاد الذى لا يزال يقضى فترة عقوبة لاشتراكه فى اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات، يقول: «شرف الله الجماعة بقتل السادات على أيدى بعض رجالها»، ويطالب بـ«الخروج على الحكام الكفرة وقتالهم وخلعهم، وتنصيب إمام مسلم واجب بإجماع علماء المسلمين على كل مكلف».

وتتفق جماعتا «الجهاد» و«الجماعة الإسلامية»، قبل أن تراجع الأخيرة موقفها، على الحكم بكفر رئيس الجمهورية كفر عين، فهو خارج عن ملة الإسلام، لأنه لا يطبق «شرع الله»، ويستبدله بقوانين بشرية وضعية، ويستهزئ بالشريعة الإسلامية، ويستحل ما حرم الله، ويجعل نفسه ربا من دون الله فيحل ما حرمه، ويتخذ من صفة الألوهية، وهى حق التشريع المطلق، الذى لا يكون إلا لله تعالى. وكان طارق الزمر يرى أن «قتال الحاكم واجب على جميع المسلمين كل بحسب قدرته، ولا يسقط عنهم إثم ترك هذا الواجب إلا أن يهبوا ويخلعوا الحاكم، الجاهلى العميل. وعزز أمير الجماعة الإسلامية، المسجون فى الولايات المتحدة حاليا، عمر عبد الرحمن هذا التصور فقال ذات يوم إن المفسرين أجمعوا على عدم طاعة أولى الأمر فى المعصية، وأجمعوا على وجوب الخروج عليهم لكفرهم».

٤ - القديم لا يموت كله

قد يعتقد متعجل أن تكفير الحكام على أيدى بعض التنظيمات والجماعات السياسية ذات الإسناد الإسلامى يمثل قطيعة تامة مع النظرة الدينية للحاكم فى مصر القديمة. وهذا التعجل مرده ثلاثة أمور، الأول يتصور أن التكفير يعنى التحرر من عبودية الأفراد مهما كان سلطانهم، حسب ما ذهب إليه سيد قطب، استنادا على أنه لا «كهنوت» ولا «إكليروس» فى الإسلام، وأن الله سبحانه وتعالى هو «الحاكم الأوحد» لهذا الكون، وهو «الخالق» وبيده وحده أجل الناس وأرزاقهم، ولا شريك له فى الملك، ولذا فلا خضوع إلا له ولا خوف إلا منه. والثانى يتوهم أن فكر التكفير مصرى الأصل، والثالث يعتقد فى أن مسألة الحكم باسم الدين تصور سياسى إسلامى.

فى حقيقة الأمر فإن هذه الجماعات والتنظيمات حين كفرت الحاكم لم تكن تريد إصلاحا سياسيا بل رمت إلى استبدال الحاكم «الكافر من وجهة نظرها» بآخر «مؤمن» حسب مقاييسها، وطرحت تصورا لشكل الحكم الذى تريده، لن يقود فى خاتمة المطاف إلا إلى «ثيوقراطية» أخرى، تحت لافتات جديدة، قائمة على فهم مغلوط للنص القرآنى، هى «الحكم بما أنزل الله» و«تطبيق الشرع» و«حكم الجماعة المؤمنة» و«الخلافة الإسلامية». وهذه الشعارات قد لا تقود فى حد ذاتها إلى شكل من أشكال «الحكم الإلهى» لو تم تأويلها وفق الجوهر الصافى والمقاصد الأساسية للدين الإسلامى، لكن حسب طرح هذه الجماعات والتنظيمات، فإنها تبدو إطارا أيديولوجيا لهذا النوع من الحكم، الأمر الذى يعنى إعادة إنتاج صورة الحاكم التى كانت سائدة فى مصر القديمة حسب بنية معرفية جديدة.

كما أن وجود مؤسسة تحكم باسم الدين يعد خروجا على القيم الدينية الإسلامية، لأنه نوع من التجسيد البشرى للدين، الأمر الذى يتناقض مع المكانة المطلقة له. فتحول سلطان الدين إلى مؤسسة حاكمة، يعنى أن هذه المؤسسة ملكت ما للدين من سلطان. والحاكمية الدينية فى الإسلام هى من خلال إعلاء القيم والقواعد الدينية المتفق عليها أو التى تختارها الأمة جمعاء، وليست لشخص، ولا لجماعة، مهما علت مكانتها واتسع نفوذها.

علاوة على ذلك فإن فكر التكفير ليس مصرى الجذور، بل صنيعة التأثر بتيار فكرى نشأ فى شبه القارة الهندية، الأمر الذى تكشفه المقابلة بين أفكار سيد قطب وما جاء فى كتابات أبو الأعلى المودودى، خاصة كتابه «الحكومة الإسلامية». وهنا يقول المستشار محمد سعيد العشماوى: «على النقيض من مصر فإن شبه جزيرة الهند منطقة المتناقضات الشديدة والمتعارضات العنيفة. ونتيجة ظروف تاريخية معقدة، فقد نشأ فيها تيار إسلامى تفاعلت فيه مركبات النقص ومشاعر الاضطهاد وأحاسيس الأقليات وكراهية الاستعمار وعجمة الإسلام، فأدى إلى رد فعل. مع من لا يدرك طبائع الأمور ولا يتعقل منطق الواقع ولا يتفهم حركة التاريخ ولا يتبع أسلوب العلم ولا يتشرب روح الدين. تردى فى المبالغة العنيفة والتعصب البالغ والتعالى الشديد، وبهذا انحدر إلى تصور منغلق على نفسه فقط، متقوقع على ذاته وحدها، منعطف على خيالاته وأوهامه، فيه جمود وجدة. هى أقرب إلى صلابة التحجر منها إلى شدة الحق».

من هنا نجد أن علاقة المصرى بالحاكم تندرج إلى حد كبير فى إطار السمة الغالبة على المجتمع المصرى وهى الاستمرار، أى استمرار الكثير من سمات عناصره الثقافية، وبخاصة فيما يتعلق بعاداته وتقاليده والألفاظ التى يتحدث بها المصريون وغير ذلك، كما يؤكد د. سيد عويس، فى كتابه: «نظرات باحث علمى اجتماعى مصرى». فالمصريون إن كانوا لم يعودوا يؤلهون الحاكم، بل إن قطاعا من النخبة السياسية والثقافية والاجتماعية فى مصر المعاصرة تسخر من بعض سلوك وأداء الحكام وتنتقدهم إلى حد الجلد، فى حين يطلق العوام النكات التى تنال من هيبة الحاكم، فإن ما فى البطانة من قدرة على إفساد الحاكم بتدليله وتبجيله وإضفاء عليه من عظيم الصفات ما ليس فيه إطلاقا، وكذلك فى الهوامش من بعض استكانة، هو تجلى لخاصية الاستمرارية هذه، أو أنه بعض رواسب «الحاكم الإله» فى مصر القديمة. ■



فكر التكفير ليس مصرى الجذور، بل صنيعة التأثر بتيار فكرى نشأ فى شبه القارة الهندية، الأمر الذى تكشفه المقابلة بين أفكار سيد قطب وما جاء فى كتابات أبو الأعلى المودودى





الحفر فى المقدس!!!

ليلى عنان

توصل علماء ألمان بروتستانت فى القرن التاسع عشر، وهم المتخصصون فى اللغويات ودراسة الكتاب المقدس، توصلوا إلى أن كتاب العهد القديم ليس تاريخًا لليهود كما يدعون، وإنما مجموعة أساطير تداولها بنو إسرائيل على مر القرون، حسب ظروف تاريخهم الموثق. وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى، استأنف يهود أوروبا فى عام ١٩٢٠، مشروعهم للاستيلاء على فلسطين، وبدأت الحفريات المكثفة، كان أهم ما يستندون عليه، ما كتب فى العهد القديم من الكتاب المقدس عن غزو يشوع لأرض الميعاد، أى كنعان. وكان لابد من إيجاد آثار تعتبر السند المادى الذى لا يناقش، لما قيل عن إنشاء دولة داود المترامية الأطراف، فيحق لهم استرجاع ما يعتبرونه إرثهم الشرعى، باسم التاريخ والدين. ولا ننسى أن العهد القديم هو الجزء الأول للكتاب المقدس للمسيحيين، فكان كل مسيحيى أوروبا، وأمريكا، شمالها وجنوبها، يساندونهم فى هذا الطلب، الذى وعدهم به الرب فى العهد القديم.



أثبتت الحفريات الجديدة، فى الثلاثين عامًا الماضية فى أرض فلسطين، أن ما يقال فى العهد القديم عن دولة كبيرة موحدة، لبنى إسرائيل، أنشأها الملك داود، لم يكن لها فى واقع الأمر، أى وجود



وعندما أعلن قيام دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨، استؤنفت الحفريات منذ ١٩٥٠، واهتم بها بن جوريون بالذات، بصفة خاصة، لأن العهد القديم قال إن يشوع قاد حربًا خاطفة واستولى على كل الأرض، وأباد سكانها واستعمرها جيش الرب بقيادته. وبن جوريون، الاشتراكى، الملحد، الذى يقود حركة «قومية يهودية»، أراد أن تؤكد الحفريات وجود أجداده فى هذا البلد، ليقود هو أيضًا، مثلهم، حربًا خاطفة دامية، تجعله يسيطر على أرض فلسطين، أرض كنعان سابقًا، ووجد من الآثار ما سمح له بأن يقود حربه باسم الميراث الدينى لشعب اليهود، العائد إلى موطنه الأصلى. وكان من أهم ما وجد، آثار دمار مدينة أريحا، التى وهبها الرب لجيش يشوع، بعد أن أسقطت أبواق الكهنة، أسوار المدينة وتحصيناتها.

كانت هذه المعجزة من أشهر صفحات تاريخ حرب يشوع، فى العالم الغربى، لذا، سنهتم بها بصفة خاصة، بعد أن أثبتت الحفريات الجديدة، فى الثلاثين عامًا الماضية فى أرض فلسطين، أن ما يقال فى العهد القديم عن دولة كبيرة موحدة، لبنى إسرائيل، أنشأها الملك داود، لم يكن لها فى واقع الأمر، أى وجود.

يثبت ذلك كتاب لعالمين يهوديين، نشر عام ٢٠٠١، عنوانه «حفر الكتاب المقدس: علم الآثار والنظرة الجديدة لتاريخ إسرائيل القديمة، وأصل نصوصها المقدسة»، وهو يقع فى ٣٨٥ صفحة من القطع الكبير.

ولنفهم ما سنقرأ عنه، ويقوله العالمان وأحدهما إسرائيلى، علينا أن نبدأ بما أمر به الرب، وهو يمد النبى موسى بما سمى بأرض الميعاد: «كلم بنى إسرائيل وقال لهم «إنكم عابرون الأرض إلى أرض كنعان فتطردون سكان الأرض من أمامكم (٥٠ . ٥٣)(...) وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها. فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» (٥٥ . ٥٦) (العدد - الإصحاح الثالث والثلاثون).

الرب يأمر إذا جيش بنى إسرائيل بتطهير عرقى للمنطقة، فبعد موت موسى النبى، الذى حرم عليه دخول أرض الميعاد، يختار الرب يشوع ليغزو أرض كنعان، ويكون النصر حليفه وبسرعة فائقة، فى حرب خاطفة لا تترك إلا الدمار وراءها، كما نقرأ فى العهد القديم، فالمجازر والحرائق كلها بأمر الرب (التثنية - الإصحاح الثانى ٣١ . ٣٧) و(يشوع - الإصحاح العاشر).

ولكن الانتصارات ليست دائمًا نتيجة المعارك والمجازر، فالرب مع الجيش بمعجزات عديدة ورائعة، عندما ينصلح حال بنى إسرائيل. فإذا انهزم الجيش فى معركة ما، فهذا لأن بنى إسرائيل أغضبوا الرب بعبادة آلهة محلية أخرى. ولكن سرعان ما يعودون تائبين إلى عبادته هو وحده، متناسين عباداتهم المؤقتة لآلهة البلاد التى استعمروها. حينذاك، يصفح الرب عن هذه الخيانات العابرة، ويعود إلى مساندتهم بمعجزات شتى، فتكون الانتصارات والمذابح مرة أخرى.. أو مرات أخرى.

وأهم وأشهر هذه المعجزات، سقوط أسوار أريحا أمام يشوع.

ونقرأ فى العهد القديم: «فقال الرب ليشوع: انظر، دفعت بيدك أريحا وملكها جبابرة البأس، تدورون دائرة المدينة جميع رجال الحرب، حول المدينة مرة واحدة، هكذا تفعلون ستة أيام وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف السبعة أمام التابوت. وفى اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق. ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف عند أسماعكم صوت البوق أن جميع الشعب يهتف هتافًا عظيمًا فيسقط سور المدينة فى مكانه ويصعد كل رجل مع وجهه». (١ . ٦). وينفذ يشوع أمر الرب، ثم يقول لجيشه: «اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة، فتكون المدينة وكل ما فيها محرمًا للرب» (١٦ . ١٧) وتسقط الأسوار والتحصينات، وتبدأ المجزرة والسلب والنهب (يشوع - الإصحاح السادس - ١٩ . ٣١). إنها أشهر معجزة، وأكبر نصر.

ولكن الحفريات لم تحل لغز الكثير من التناقضات التى وجدت فى العهد القديم، فى موقع أريحا السابق، لذا، أعيد التنقيب مرة ثالثة، كما يشرح لنا مؤلفا الكتاب الذى نقرأه معًا. وعلم الآثار، مثله مثل باقى العلوم، يتقدم، ويكتشف تقنيات جديدة أكثر دقة ومصداقية.



يقول الباحثان: إن إبادة أريحا وسكانها، حدثت فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بين سنتى ١٢٢٠ و١٢٣٠، حسب توقيت الأحداث التى يسردها العهد القديم، ولكن التاريخ الموثق يقول غير ذلك، إنه يكذب كل قصص العهد القديم، بما تركه من وثائق يعرفها كل مهتم بهذه الحقبة من ماضى المنطقة.

أولاً: توجد رسائل تل العمارنة التى وجد منها ٤٠٠ فى مصر، وهى مدونة بين القرنين السادس عشر والثانى عشر قبل الميلاد تعطينا هذه الرسائل، وبدون أدنى شك: حقيقة الموقف السياسى لمنطقة الشرق الأوسط فى هذه الحقبة من الزمان، إنها الخطابات الخاصة، والإدارية والدبلوماسية، المتبادلة بين فراعنة مصر وملوك آسيويين تحت إمرتهم، أو مع كبار الملوك حينذاك، إنها تثبت أن كل هذه المنطقة كانت تحت سيطرة مصر، حيث نقاط التفتيش والحراسة تغطى كل البلد، فالإمبراطورية المصرية كانت فى أوج قوتها فى القرن الثالث عشر. وفى ذلك العصر، لم يكن يوجد لا مدن ولا تحصينات للممالك الصغيرة، التى قيل فى العهد القديم، أن يشوع سحق جيوشها وشنق ملوكها وأباد سكانها ماداموا من أهل البلد الأصليين، وحرق مدنهم ليحل محلهم بنو إسرائيل وجيشهم الجبار. ورسائل تل العمارنة تؤكد ضعف المدن الكنعانية ووهن ملوكها، ولم تكن عواصمهم إلا مراكز صغيرة يعيش فيها الملك وحاشيته. فما يدفعه الملوك من جزية لفرعون مصر، لا يسمح لهم بإقامة أى تحصينات، أو تطوير بلادهم. هذه هى الحقيقة التاريخية الموثقة التى تلغى كل ما قيل فى العهد القديم عن حرب يشوع الخاطفة ضد ممالك وجيوش جبارة.

أما عن الآثار الكنعانية المدفونة تحت الأرض، ففى عام ١٩٢٠، تم اكتشاف ما يثبت الوجود المكثف للجيش المصرى، من أيام سيتى الأول فى القرن الثالث عشر، إلى أيام رمسيس السادس، الذى حكم فى نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد.. أى بعد الاكتساح المفترض لجيش بنى إسرائيل للمنطقة بقرن من الزمان.

فهل كان هذا الوجود الطاغى لقوات الإمبراطورية المصرية فى منطقة تابعة

The Bible unearthed
Archaeology's New Vision of ancient
Israel and the origin of its sacred texts
(حفر الكتاب المقدس.. علم الآثار والنظرة الجديدة لتاريخ إسرائيل)
Israel Finkelstein and Neil Asher Silberman
A Touchstone Book - New York 2001
Charles Enderlin
les annees perdues, 2006

لها، ليسمح لجيش من مهاجرين هاربين من مصر، بتدمير كل هذه الممالك والمدن؟ من المؤكد أن الإمبراطورية المصرية لن تترك جيشاً متمرداً على سلطانها يصول ويجول ويقتل ويحرق ويستعمر دون رادع، علاوة على أنه ما من حدث في هذه الملحمة الدموية ذكر، لا في البرديات ولا في الآثار المصرية، التي تدون تاريخ المعارك وأهم الأحداث بدقة فائقة. والمعروف أن اسم «إسرائيل» نفسه، لم يذكر إلا مرة واحدة على «لوح مرنبتاح»، اسم يذكر عرضا لأن مجموعة اسمها «إسرائيل» هزمت بطريقة نكراء.

هذا ما تؤكده مرة أخرى، الآثار الموجودة فوق الأرض ويعرفها الجميع. لذا، فالبحث عن آثار تحت الأرض كان جارياً، منذ بداية القرن العشرين، في محاولة لاكتشاف ما يؤكد صحة قصص العهد القديم، عن تقدم يشوع الخاطف: فكل المدن والممالك التي اكتسحها يشوع وذكرت في العهد القديم، كان لها بالفعل وجود تاريخي معروف، وهي تذكر في العهد القديم، حسب تسلسل جغرافي صحيح، فملحمة يشوع المنتصر بعون الرب صادقة إذاً، ولا شك في صحتها.

بعد عام ١٩٥٠، استؤنفت الحفريات بصورة مكثفة، وأثبتت أن المدن المزدهرة في هذه المنطقة، والممالك الثرية، كانت في أوج عظمتها: هوجمت وحرقت دون أي مقدمات مسبقة، أو أي إشارة تدل على انحدار ما في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وبالتالي، فالعهد القديم تاريخه صحيح في تلاوته لاجتياح يشوع لأرض كنعان وإبادته لأهلها.

ولكن علم الآثار، بتقنياته الحديثة المتطورة، جاء ليفند كل ما كان مؤكداً من قبل، بفضل حفريات ما بعد ١٩٥٠. وإليكم تفاصيل ما وجده مؤلفا كتابنا من اكتشافات وحفريات، بعد إعادة دراسة الحفريات السابقة، بالأساليب الجديدة، وذلك في الثلاثين عاماً الماضية.

بادئ ذي بدء، من حقنا أن نسأل لم إعادة الحفريات السابقة ودراستها مجدداً. السبب أن ما قيل لتأكيد الغزو الكاسح لجيش يشوع، كانت به متناقضات لم تجد فيما سبق من حفريات، إجابة شافية لها. وأهم هذه المتناقضات، وضع أريحا بالذات، ومعجزة سقوط أسوارها، فالآثار المحلية تؤكد أن أريحا لم يكن لها تحصينات في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولم توجد أي آثار من هذا التاريخ لأسوار هدمت، أو حتى لمدينة سقطت بعد عدوان غاشم عليها. بالتالي، فقصة الأبواق التي تسببت في سقوط التحصينات، لم تعد، في نظر الباحثين، أكثر من «سراب ووهم رومانتيكي» حسب قولهما.

الحفريات كانت مكثفة ودقيقة، ولم يتعلق الأمر بأريحا وحدها، لأن عالمينا لم يقفا عند أريحا وحدها، وإنما استهدفت حفرياتهما كل المناطق التي قيل إن يشوع استعمرها بالقوة الغاشمة، وبمساعدة معجزات حققها الرب لنصرته. فلم يجد المنقبان أي أثر لما قيل في العهد القديم، عن ممالك أبادها يشوع بأكملها، مما يؤكد أن





رسائل تل العمارنة تؤكد ضعف المدن الكنعانية ووهن ملوكها، ولم تكن عواصمهم إلا مراكز صغيرة يعيش فيها الملك وحاشيته



كل المدن، مثلها مثل أريحا، لم تكن موجودة بالأصل، عندما اجتاح يشوع أرض كنعان.

أثارت هذه الاكتشافات طبعًا الكثير من اللغط بين العلماء الإسرائيليين، لأن القضية كانت سياسية قبل أي أمر آخر. ويذكرنا الأستاذ إسرائيل في برنامج تليفزيوني، أن بن جوريون زار المنطقة، وأكد أحقية إسرائيل في استعمارها، بل وقتل أهلها، مادام أجداده من بني إسرائيل اكتسحوها سابقًا بأمر الرب، في حرب خاطفة مدمرة، مثل الحرب التي ينوي الإسرائيليون الجدد شنها. ولكن، وبعد الكثير من التمحيص، وخاصة في حفريات هذه المنطقة، أجبر علماء الكتاب المقدس أخيرًا، على الاعتراف بما توصلت إليه الحفريات الحديثة، التي أبعدت يشوع وجيشه من مسرح الأحداث. وتأكد بالتالي أمر آخر، أن من أباد كل هذه المدن كانت عوامل أخرى في وقت لاحق، ولا علاقة لها ببني إسرائيل وتاريخهم.

يقول الباحثان إن هذا الأمر منطقي، إذا نظرنا إلى تاريخ كل منطقة الشرق الأوسط، وليس إلى أرض كنعان وحدها، ومصير بني إسرائيل وحدهم، لأن المنطقة كلها عرفت في هذا العصر تحولاً جذريًا عندما كانت الامبراطورية المصرية وقواتها الهائلة، تنافس الامبراطورية الحيثية الشمالية الكبرى، تنافس انتهى بمعركة قادش، وتصالح العملاقان إلى أن ظهر بعد ذلك ما أسمته كتابات مصر الفرعونية «شعوب البحر»: هي التي حطمت كل التوازنات المعاصرة، من قوى اقتصادية إلى أنظمة اجتماعية، بانهيار الطبقات الثرية في هذه البلاد، فانهارت الممالك وأبيدت المدن. كانت رسومات معبد مدينة هابو في مصر، تصور «شعوب البحر» هؤلاء، بخوذات بقرنين، أو عليها ريش غريب، وهو لباس يختلف عن كل رسومات أعداء مصر في هذا العصر، وخاصة من كان من الآسيويين. ولم يتفق العلماء حتى الآن على مصدر هؤلاء القوم، الذين يعيشون على المراكب، والذين أغاروا مرارًا على المنطقة. وتسببوا حسب قول مؤرخينا في تحطيم كل التوازنات الاقتصادية لكل ممالك ومدن كنعان المزدهرة، وذلك في نهايات القرن الثالث عشر قبل الميلاد. استمر هذا الموج الكاسح المدمر لفترة طويلة، كما يثبت ذلك ما وجد في الحفريات من آثار. هذه الآثار تدل أيضًا على أن كل هذا حدث بصورة بطيئة، على مدى قرن من الزمن تقريبًا: دمار ليس من فعل جيش واحد في فترة زمنية وجيزة، كما كان يفترض لو أن جيش يشوع كان الفاعل في حملة سريعة كاسحة: هذا ما تنفيه بشدة آثار هذه المنطقة، لهذا العصر، التي لا يوجد فيها أي أثر لجيش ينتمي إلى بني إسرائيل، على العكس، وجد ما يثبت التواجد العسكري المصري المكثف السابق حتى انهيار هذه المدن، وحرقها، دون أن يعرف السبب اليقيني لهذا الانهيار، ومن تسبب في هذه الحرائق المدمرة. والحق أن الكتاب لم يعط إجابة شافية لهذا الأمر، إلا أنه حازم في نفي أي وجود يهودي، لعدم وجود أي دليل مادي، كبيرًا كان أم صغيرًا، لهذا الوجود، على عكس ما تبقى من الوجود المصري.



والكتاب يشرح أيضًا أن المثقفين اليهود، عندما بدأوا تجميع أساطيرهم في القرن السابع قبل الميلاد، كانت ذكريات مذابح وحرائق قام بها قوم غير اليهود، لاتزال متداولة، وآثارها لاتزال مرئية، آثار هجوم «شعوب البحر» المستمر عليها. وعند تجميع أساطير الأولين، بدأت أسماء المدن المعاصرة تلعب دورا مهما في الأساطير، مثل مدينة أريحا مثلاً، حيث كانت آثار عدوان سابق لاتزال واضحة، وقد تاه من الذاكرة، أصحاب هذا الدمار، فنسبت لغزو يشوع في قديم الزمان.

الآثار التي وجدت ـ والتي لم توجد ـ فيما كانت أرض الميعاد، أثبتت أن ما من غزو مفاجئ بلا مقدمات، جعل مهاجرين من مصر، يستوطنون بقوة السلاح هذا البلد الآمن، في يوم ما. فالمؤكد أن كل الآثار تدل على أن موجات متتالية من المهاجرين، جاءت على مدى مائتي عام، لتعيش في هذه المنطقة في سلام مع أهلها الأصليين، ولم يحدث بين السابقين واللاحقين أي احتكاك مسلح، يبرر خلق ملحمة بني إسرائيل وقائدهم الأسطوري يشوع.

وبعد ملحمة يشوع، نقرأ في العهد القديم ملحمة داود، أول ملوك اليهود أجمعين، قبل أن يتسبب ابنه الملك سليمان في انشطار المملكة إلى دولتين، دولة يهوذا في الجنوب، ودولة إسرائيل في الشمال، ويسرد علينا عالمانا تاريخ العلاقة العاصفة بين الدولتين، وحرب الأعداء بين الإخوة اليهود، حتى يأتي ملك الآشوريين ويستعمر أرض إسرائيل الشمالية، لتنتهي كدولة، ويرحل سكانها. أخيرًا، أصبحت الفرصة موانية لملك يهوذا، لينصب نفسه ملكًا على كل اليهود، بل ويفرض عليهم ما يراه أصول الدين اليهودي الحق. ولا ننسى أن أورشليم تقع على أرضه، أرض يهوذا في الجنوب، أورشليم التي اختارها الرب ليبني فيها الملك سليمان معبده الفاخر، حيث يقطن الرب ورموزه وكنوزه.

ولكن دولة يهوذا معرضة هي الأخرى لأطماع الآشوريين التوسعية، فكان ضروريا أن يجتمع بنو إسرائيل كلهم تحت إمرة يشوع في هذه الأساطير، كرمز وقدوة تأتي من قصص الأولين، لتؤكد حتمية توحيد الدولتين تحت لواء وحكم ملك واحد في العصر الحديث، ملك يهوذا المتبقي في مملكة يهوذا، حيث الحركة الفكرية والفلسفية نشطة جدًا منذ القرن السابع.

ثم حدثت في القرن الخامس، المعجزة التي تشرح لنا كيف تحولت أساطير الأولين إلى كتاب اليهود المقدس، كتابهم المقدس حتى يومنا هذا، وهو العهد القديم.

نقرأ في العهد القديم، أن «سفر الشريعة» وجد في معبد سليمان في عهد الملك يوشيا، ملك يهوذا، فأمر هذا الملك أن يضاف إليه تاريخ بني إسرائيل وقوانينهم، حتى يصبح «الكتاب المقدس» الوحيد لكل اليهود، ويصبح معبد أورشليم المكان الوحيد الذي تقدم فيه الأضحية للرب. وهكذا تتضح لنا الصورة السياسية لهذه المعجزة.

يشرح لنا تاريخ دولتي يهوذا وإسرائيل ضرورة خلق بطل أسطوري مثل النبي موسى، الذي أخرج بني إسرائيل من مصر، ووجدت تشريعاته في المعبد، وكأنها تنتظر هذه اللحظة من قديم الزمان لتظهر في هذه اللحظة على الملأ. «كتاب مقدس» جديد، يعد بعصر ذهبي جديد، لو أن اليهود المعاصرين اتبعوه، مثل بني إسرائيل المتحدين تحت إمرة النبي موسى، ثم لواء يشوع من بعده، يشوع الذي قتل وحرق دون رادع، بأمر الرب ومعجزاته. فكانت قوة دولة بني إسرائيل في قديم الزمان، دولة داود وسليمان العظيمة.

يقول عالمانا إن طفرة خلاقة لا مثيل لها، كانت قد اجتاحت مثقفي بني إسرائيل وأنبياءهم في القرنين السابقين لعهد الملك يوشيا، فكان «الكتاب المقدس» الجديد الذي كتب بأمره، تتويجًا لهذه الطفرة في القرن الخامس، وقد حفزهم لكتابته اكتشاف «سفر الشريعة» في المعبد القديم.

هذه هي خلاصة جزء مما يقدمه لنا الأستاذان اليهوديان (وأحدهما إسرائيلي)، لدراستهما لجزء من العهد القديم، الذي أصبح فيما بعد الجزء الأول من الكتاب المقدس للمسيحيين. وقد فقد باحثانا أسطورة أريحا كما فندا الكثير من الأحداث التي يرويها العهد القديم على أنها تاريخ بني إسرائيل، وهو التاريخ الذي يبدأ بقصة النبي إبراهيم وعائلته. وإن كانت ملحمة يشوع تهمنا للدور الذي لعبته في نشأة دولة إسرائيل، فقارئ العهد القديم لا يسعه إلا الجزع للعنف الذي تتسم به، والدماء تكاد أن تسيل من الصفحات التي تروي الانتصارات المتلاحقة والاستعمار الدموي العنيف.. وإذ بعالمينا يثبتان بالتاريخ الموثق والآثار، أن هذه الملحمة ومعجزة أريحا، لم تكن إلا خيال شعب مهزوم، يبحث في ماضيه عن أمجاد يود أن يحاكيها، وتكون المفاجأة، وهي موقف العالمين من هذا الإرث الدموي.

إنهما عالمان معروفان في مجاليهما ولاسميهما احترام كبير: إسرائيل فنكلشتاين، مدير معهد الآثار بجامعة تل أبيب، ونيل آشر زلبرمان، مدير التفسير التاريخي لمركز إينام للآثار العامة وتقديم الميراث في بلجيكا، وعضو عامل في مجلة «الآثار».

لقد أثبتنا أن حرب يشوع الاستعمارية العنصرية لا أساس لها من الصحة، وأن كل ما كتب عنها لا يعدو أحلامًا رومانتيكية، لأمة تلجأ إلى أساطير دموية

لتشحذ همم اليهود فى عصر وهنهم، لتثير صحوة جديدة واسترجاع مجد سابق (وإن كان كاذبًا)، مجد مبنى على المجازر وحرق الأبرياء، مما يجعلنا نتساءل عن «كنه هذه الأمة العظيمة» كما يؤكد عالمانا. إنهما يفتخران وباعتزاز شديد لانتمائهما لهذه الأمة، صاحبة هذا التاريخ الكاذب الدامى!

هذا بالضبط ما فعله بن جوريون ومن تبعه من قواعد إسرائيل، وما يستمر فى تطبيقه الجيش الإسرائيلى منذ خمسين عامًا.. وأكثر، وما خفى كان أعظم. هذا ما يفضحه كتاب نشر مؤخرًا لصحفى فرنسى اسمه شارل أندرلان، قضى خمسة وعشرين عامًا فى إسرائيل، وكان على اتصال دائم بكل قوادها. إنه يؤكد السيطرة الكاملة للجيش على سياسة «الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط»، كما يقال فى إسرائيل. إن الجيش هناك يزدرى السياسيين، ويفند كل ما يتخذونه من قرارات وخطط: ويجهض أى تحرك من أجل حل القضية الفلسطينية، بناء على أكاذيب ملفقة. السلطة الفعلية فى الواقع هى سلطة الجيش، فهو المسيطر على الساحة الميدانية: إنه القوة التنفيذية المستقلة عن الحكومة والتى تتصرف بكل حرية على أرض الواقع دون الرجوع إلى الحكومة الديمقراطية.. اسمًا. وما العجب، وتاريخهم، مثل حاضرهم، يتصف بـ «العنصرية العرقية النازية»، كما تؤكد الفيلسوفة اليهودية الألمانية حنا آرندت.

لا ننسى أن العهد القديم يحكى أن يهود المنفى، عندما عادوا من أسر دام سبعين عامًا فى بابل، قرروا أن من أسس أسرة فى هذا المنفى، عليه أن يتخلى عن زوجته وأولاده إن أراد العودة إلى وطنه الأصلى، لأن دماء أولاده اختلطت بدماء الأغراب، كما كان على كبار القوم منهم أن يثبتوا أن أجدادهم كانوا من يهود أورشليم قبل المنفى، ليعترف بهم، ويقبلوا فى أوطانهم التى رحلوا منها سابقًا. كل من كان غير ذلك مرفوض، بل ملعون، ومحرم عليه البقاء وسط بنى جلدته.

نعجب بعد ذلك، عندما نقرأ أن عالمينا، يفتخران بانتمائهما لأمة أنتجت فى العهد القديم «هذا الفكر الرائع»، كما يقولان «فكر لا يزال يحكم البشرية بأسرها حتى الآن، فالمسيحية والإسلام ما هما إلا امتداد لهذا الفكر اليهودى»، هذا قولهما.

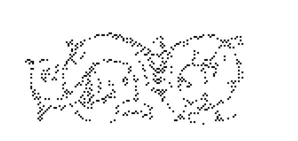
والقارئ الناقد، يعجب لأنهما من التيار العلمانى، الذى يكفر بالدين اليهودى، بل ويرفضه، والمفروض أن علمه منزه، وفوق أى اعتبار، غير إظهار الحقائق العلمية، كما فعلا فى كتابهما.

ولنذكر عالمينا. وإن كنت تدرى فتلك مصيبة، وإن كنت لا تدرى فالمصيبة أعظم. نذكرهما أن العلم المجرد الذى يطبقانه، يعرف أن نصف البشرية، وخاصة فى آسيا، لم تخرج من عباءة النبى إبراهيم، مثلما فعل أهل الكتاب، والإسلام، أتباع الفكر اليهودى حسب قولهما. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهما ينسيان كلية ما غيرد السيد المسيح من جوهر فى العقيدة اليهودية، ثم ما أضافه أو حذفه الإسلام بعد ذلك. وإن عدنا إلى الديانة اليهودية نفسها فى كتابها المقدس، فعالمانا يتجاهلان كل ما كتب على مستوى عال من الدراسة، عن تأثير الديانات المعاصرة الأخرى على يهودية القرن الخامس قبل الميلاد، فكان للدين الإغريقى والفارسى والفينيقى والمصرى الفرعونى والهندى، أكثر من بصمة لن ينكرها إلا جاهل بهذه الديانات، المصاحبة للصحوة الخلاقة لمثقفى اليهود فى القرن السابع والسادس قبل الميلاد. ولتأكيد هذه التأثيرات ما يقال فى العهد القديم نفسه عن المحاربة المستمرة لأنبياء بنى إسرائيل. وأولهم النبى موسى - محاربة الرب لما كان يقوم به بنو إسرائيل من شعائر وعبادات للآلهة التى كانوا يقابلونها فى جولاتهم وحروبهم، فيثار غضب الرب، وتكون الهزائم العسكرية نتيجة هذه الخيانات. ولن تؤكد وحدانية الرب نفسه إلا فى القرن الخامس عندما دون الكتاب المقدس الجديد لليهود.

وعلى الرغم من أساطير «كنه» الأمة اليهودية الدموية، وهى حلم أمة لا ترى وسيلة أخرى لتثبت تعاطف الرب معها، وعلى الرغم من العنصرية العرقية القاتلة لكل من لم يكن يهوديا، وعلى الرغم من علمانية باحثينا المشهورين، إلا أنهما يفخران بانتمائهما لأمة أنتجت هذا الفكر العدوانى لكل ما يختلف عنه. فالصلف الصهيونى أثبت مرة أخرى أنه أقوى من أى علم حتى إن كان هذا الصلف مبنيا على تهويمات ماض سحيق وكاذب باعتراف عالمينا وبإثباتهما لهذه الحقيقة العلمية، بالآثار التى لا تكذب. ■



أمية جوزيف سماحة



في ٢٥ فبراير الماضي، لقي الكاتب والمحلل السياسي اللبناني رئيس تحرير صحيفة الأخبار اللبنانية ربه فجأة، بينما كان في لندن يشد من أزر صديقه حازم صاغية في وفاة زوجته الكاتبة والفنانة مي غصوب. جوزيف صاحب تجربة مهنية عريقة امتدت من بيروت وباريس ولندن وقد رأس تحرير صحيفة السفير اللبنانية (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٥) وكان قبل ذلك رئيسًا لتحرير صحيفة الوطن ومديرًا لمكتب صحيفة الحياة في بيروت ومديرا لتحرير صحيفة اليوم السابع. وله كتابان «سلام عابر» و«قضاء لا قدر». وعرف بقلمه الجرىء ورفضه المساومة على مواقفه المبدئية ذات التوجه اليساري. وهذا المقال عن جوزيف الإنسان كتبته لـ «وجهات نظر» ابنته أمية بالفرنسية.

■ أتحدث عن جوزيف بلا قيد أو حد سواء في الحاوي أو المحتوى.

أرى في قصة الإنسان الذي بدأ حياته من الصفر ما يثير الرغبة في معرفة العوامل التي شكلته حتى تمكن مبكرا من شق ذلك الطريق الذي أوصله إلى تلك القامة. بالنسبة لي، كان أكثر ما يهمني بين تلك العوامل هو مقدرتك على تنحية وضعك جانبا عند الحاجة، لكي تعود مجددا ذلك الإنسان البسيط المتواضع. فقلمك لا يهمني بنفس القدر الذي يهمني به ذلك الإنسان الذي كنت قبل أن تصير صحفيا.

ما زلت أذكر طريقتك في الرحيل من دون إلقاء كلمة وداع، إذ يبدو أن القطع ليس له عندك أهمية تذكر. لا، فالوصل هو الجدير عندك بالحسبان والتذكر. بعد مضيك، وبرغم الحزن القائم، لم يخلُ الوصل من باعث على التجلد والتجاسر، من شيء ما عظيم القيمة، قد حصلتَه بالتواصل مع الناس. فلقد طلبوا إليَّ أن أكتب، وأن أعبر، وأن أحكي قصة علاقتي الشخصية والفريدة بك، وأن أكشف عما ترتكز عليه من دعائم لا يعرفها سوانا، أنا وأنت.

ولكن، أنى لي الحديث عن شخص لم يكن يحب الحديث عن نفسه مطلقا؟

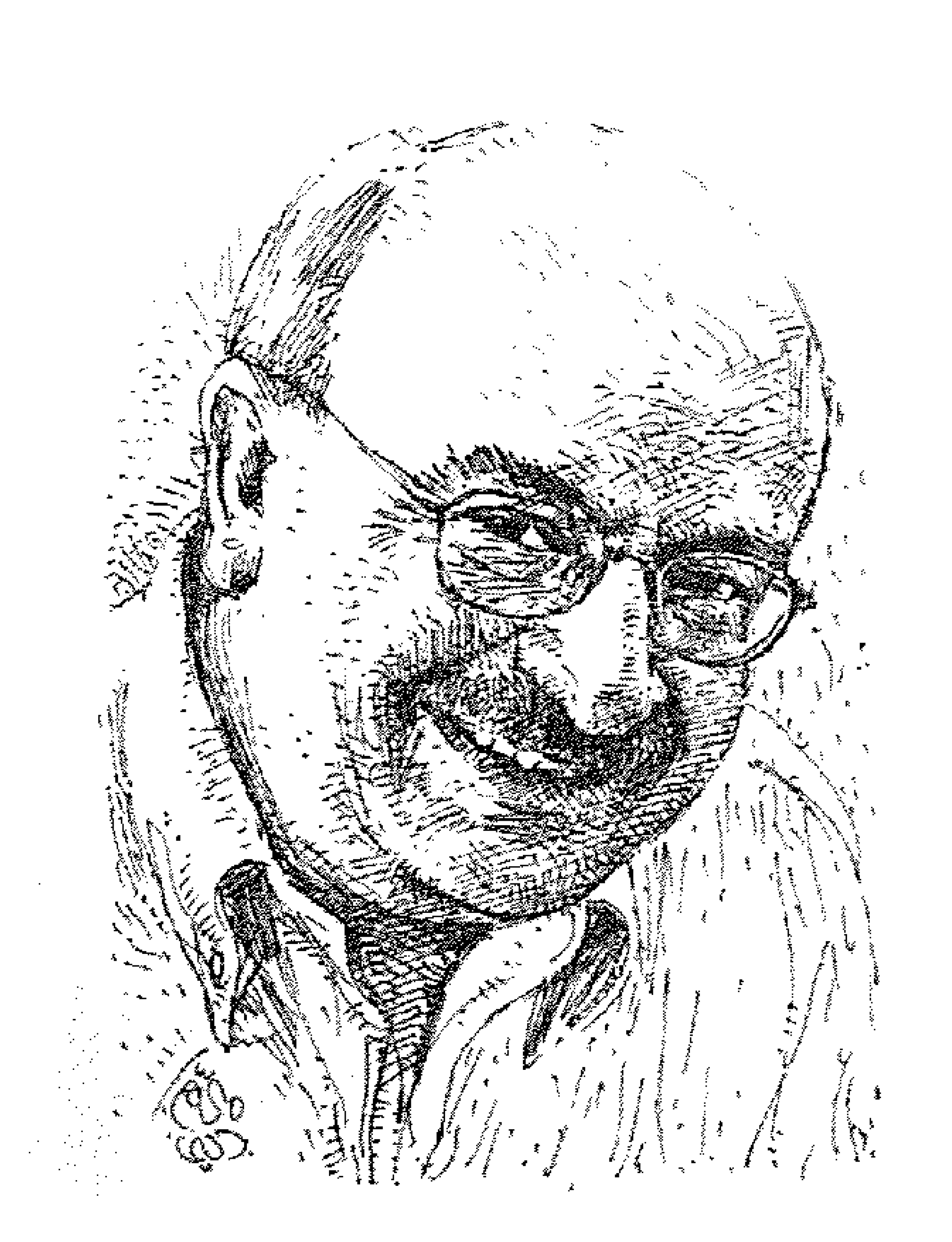
ها أنا أعود إلى الطريق الذي يصل المطار بالكنيسة، يوم عدتَ أنت من لندن مع زياد. هؤلاء البشر على جانبي الطريق، هؤلاء الذين لا أعرف أسماءهم أو صفاتهم، الذين لا يعرفون كم أحدثوا في نفسي من تأثر، هؤلاء هم أول من أسدى لك التكريم. لقد كنتَ واحداً ممن يمنحون صوتا لمن لا صوت لهم، صوتاً لملح الأرض من الفقراء والمعدمين. وإن حياة كاملة من العمل الجاد في خدمة هذه القضية لجديرة بالإكبار والاحترام. هو ذاك ما استشعره إخواني- الذين لا أعرفهم- من البشر الواقفين على جانبي الطريق.

لقد بذلتَ الكثير في عملك. بذلت نزاهة قلب وطهارة يد مازلتُ أجلهما فيك. ولعلهما صفتان ورثتُهما فيما ورثته عنك. فأنا مثلك لا أطيق القيام بعملي كيفما اتفق. فعندما يتعلق الأمر بمهنة قوامها الحبر على الورق، يصبح تحري الالتزام الصارم مسئوليةً يجدر استيعاب جسامتها والنهوض بتبعاتها. ومنذ أن خبرتُ بدوري تلك المسئولية، صرتُ قادرةً على فهمك بصورة أفضل.

لقد قصصتَ عليَّ أحداث حياتك ووقائع طفولتك، التي صارت عندي اليوم أغلى من أي وقت مضى. أولا لكونها صادرة عنك، ثم لأنها أتت ممتزجةً بما فجرته من انفعالات في داخلتك.

لم تكن حياتك باليسيرة. فعندما تلوح الفروق الاجتماعية والاقتصادية فيما بين الأطفال، قد لا يتوانى الطفل الأقل فقرا عن رشق الطفل الأكثر فقرا بنظرات مثقلة. وكنت أنت ترتدي ملابس

ترجمة: داليا توفيق سعودي



ممزقة، وفى أحيان أخرى كانت أسمالك منحة بر وإحسان يقدمها لك أطفال آخرون. لكن يبدو أن للبر والإحسان مفارقاتهما. فسرعان ما كانت الأصابع تشير إليك فور تعرف الصبية على ملابسهم. كنت تتستر بملابس الآخرين. ولكنك ما كنت لتطيق النظرات التى كانت تمتد إليك لتعريك. إذ أن أحدا لم يشرح لأولئك الفتية أن الصدقة عمل ممتاز، وإن كان لا يكتمل إلا إذا استتبع رؤية أبعد، تدعو إلى التفكر، والى التحلى بنبذ المن والأذى. إذ يجدر ألا يصبح فعل البر والإحسان مسمما. كم كانت لتلك النظرات أثرها العميق فى تشكيل علاقاتك بقرنائك! وكم تركت فى نفسك من دفين العواقب، عواقب ضاعفها إعراضك الدائم عن الرد على أكثر الملاحظات جرحا وإحراجا.. هكذا كنت تحكى ببساطة متناهية، بل بشىء من الخضوع الى أحكام البداهة، أنك أعرضت دوما عن دفع الإساءة بالإساءة. وفى قرارة نفسى الثائرة، عبثا حاولت أن أتفهم كيف تأتى لك احتمال تلك النظرات الغاشمة، المتعالية، أو لماذا كنت تمسك عن الإفصاح عما تريد، تاركا نفسك أمام الآخر وكأن قدرك أن تكون ضحية له. أنى لنا الحكم على أسلوبك فى رد الفعل؟ هل لنا أن نرى فيه أمارة ضعف أم برهان قوة؟ منذ صباك الأول تمترست خلف صمتك، ولكن ذلك لم يمنعك من الرصد والملاحظة. كنت تحكى أنك كنت تسمع حديث زملائك فى السياسة، وأنك كنت تلقى نظرة على تحليلاتهم. كنت تقول لى إنك كنت تستشعر فى نفسك قدرة على التفكير بصورة أفضل منهم.

إن طفولتك لتذخر بالأحداث، وهى لتذخر أكثر بالانفعالات، التى حرصت أنت على إخفائها فى مكنون نفسك. فكل ما عايشته احتفظت به لنفسك، ظنا منك أن ذلك أكثر توافقا مع روح الفروسية واملاءات التأدب والكياسة. أو لربما كان الجرح قد صار من العمق بحيث انتفى معه أى معنى للرد، فرحت تخطط لشىء ما فى قابل الأيام. وأنت كنت بعدُ ذلك الإنسان النابه الرهيف.

أنى للفتى أن ينظف ليلاً المدرسة التى يدرس فيها، أو كيف له أن يدرس صباحا فى المدرسة التى سينظفها فيما بعد؟ المشهد معقد وثقيل بالفعل ولكنه بعد غير مكتمل. كان أبوك قد رحل، فقرر أهلك اختيار تلك المدرسة لشهرتها. وكان أصحابك يمرون بك فيرون معك المكنسة. يقال إن المرء يقسو تحت وطأة الجراح، ولكننى أرى أنك كنت أكثر رقة من أن تفكر وفقا لهذا النسق. لا يهم متى كان تاريخ ميلاد أول جراحك... فبالنسبة لإنسان جريح، كنت تعرف كيف تأسو الجراح. كانت آراؤك متماسكة وموزونة، كانت تمنحنى رؤية بانورامية للموضوع المطروح. فلقد كنت تتمتع بتلك القدرة على تسكين خاطرى فى لحظات الشك المقلقة.

كنتُ جالسة مع أصدقائى فى يوم من الأيام، وكنتُ بعد فى السادسة والعشرين. فبث التلفزيون تقريرا مروعا يظهر جنديا إسرائيليا وقد أُلقى به من النافذة، وراحت أقدام غفيرة غاضبة تدوسه وتركله. ولقد كان ذلك المشهد جزءا من مجموعة صور أذهلتنى. ما كان القتيل فى نظرى إسرائيليا بل تراءى لعينى كإنسان، وكجندى (والله وحده أعلم بما يتجشمه الجنود من عناء...) فما كان منى إلا أن عبرت عن رد فعلى بتلقائية تامة أمام أصحابى، فما زادتنى كلماتى إلا وحدة واغترابا بينهم. إذ وجدت نفسى وقد زُجرت وعُنفت من قبل شباب فى مثل عمرى أبوا جميعا أن ينصتوا إلى. بل إنهم لم يتركوا أدنى فرصة للنقاش. ولقد وجدتُ فى ذلك نذيرا بالخطر. لكننى اصطنعت التسليم والانقياد. وبعد فترة، جلسنا سويا، أنا وأنت، وفاتحتك فى الأمر. وعندما قلتُ أنه بالرغم من جراحك الملتهبة بوسعك المداواة والتطبيب، كنت أعنى ما أقوله حقا.

«أنا لا أسمح لأى أحد أن يكسر إنسانيتى أو أن يتحكم بها»، هكذا جاءنى جوابك. عندئذ، لم أعثر على ضالتى فى قولك فحسب، وإنما وجدت أيضا فى كلماتك تفسيرا أضاء لى بواعث موقفى. ورغم ما واجهته فى تلك اللحظة من عداء المحيطين بى، فقد بقيتُ قابضةً على موقفى. إذ أعَنْتنى على الثبات، ورفعتَ من مستوى ثقتى فى ذاتى. ولقد طالبتنى بتعزيز تلك الحساسية. فمثيلة تلك المواقف يهلك من يبقى دون إدراك ما بها من سداد وإحكام، ويفقد شيئا ثمينا. وافتقار من هذا النوع وبهذا الحجم لا بد أن تنجم عنه يوما ما عواقب وخيمة. إن مواقفك فى التصدى للصهيونية مشهود لها. ومع ذلك استطعت تفهم الآخر متمثلا فى ذلك الجندى الإسرائيلى الذى سقط، كان ذلك هو سلاحك الذى طالما شهرته، ليكون نضالك نضال القلم عوضا عن العنف.. أعتقد أن قلبى كان يحدثنى بكل ذلك والا ما كان لى أن أفاتحك فى الأمر. فإن كان الأكبر سنا يملك ناصية القول الحكيم، ففى بعض الأحيان أيضا، لا يخلو كلام الأصغر سنا من فائدة.

فى الفترة التى عملتَ خلالها فى صحيفة «السفير»، كنتُ أصاحبك من المنزل إلى العمل. لم تكن تدرى حينها أنك عندما كنتَ تسير أمامى كنتُ أنا أظل ناظرة إليك. كنت أشعر فى حضرتك بفرحة شديدة الخصوصية.

لم أتمكن من إخبارك بكل ما أردتُ قبل أن ترحل. ولقد وجدت نفسى محرومة من البوح، تحت وطأة القسوة المفاجئة، وهو أمر قد جربتَه أنت الى حد ما، عندما حُرمتَ من بلوغ أقاصى الطريق قبل عامين فيما يتعلق بسمير قصير[1]. وبقلم جريح، يقطر أخوة ومودة، نعيته كاتبا: «لقد تركنا سمير بقلوب كسيرة، لا عزاء لها ولا سلوان، إذ كيف يمكن إبلاغه الآن بأن ما كان يفرقنا أصغر بكثير مما كان يجمعنا...؟».

قد وشمنى رحيلك



بصدمة، وبحسرة لا أظن أن لى منها فكاك عن قريب. فلقد ثبتت لك عندى مودة لم يرودنى الوقت أن أبوح لك بها. لم يرودنى الوقت أن أهديك بعض الأشياء، كأن أبتاع لك بيت أحلامك فى بلدة «بعينو»، موطن أمك، أو أن أعد لك طبقا من أطباقى التى وعدتك بها يوم أخبرك زياد أننى أجيد الطبخ.. خلاصة القول أنى صرت أحيا من خلال أحلامك، التى يساورنى ندم على إخفاقى فى تحقيقها لك إذ كنتَ حيا. لقد كان موتك هزة عنيفة حركت بداخلى أشياء ما كان بملكى أن أحركها بالاتكاء على قدراتى وحدها، وإن كانت قدراتى حاضرة...



ثمة جانب كامل منك ما زلتُ أجهله، لعل ذلك هو ما حملنى على تكوين رؤية مغايرة لك، تستند بالأساس الى خيال قد اشتط فى جموحه. هكذا كنتُ أصنع فى بعض الأحيان بغية سد أحد الفراغات، أو الخلاص من علامة استفهام. كثيرا ما غضبت منك بمثل ما كنت تغضب أنت منى. فبرغم جيشان مشاعرنا بقينا محصورين فى دوائر سوء الفهم والخلاف. ولكم وددتُ قبل أن ترحل عنى أن أحل ما بيننا من عقد كى تستفيد من ذلك أنت أيضا.

أعتقد أننى أحمل لك صورة مختلفة عن تلك التى يحملها لك معظم الناس. ولما كنت لا أخالطك بدرجة كافية، فلقد رسمت الصورة اعتمادا على عناصر خيالية. ولما كان الخيال أرضاً حرة، وكان عدد التحولات الممكنة لانهائيا، فلقد صنعت لك صورة توافق هواى.

فى فترة من الفترات، كنا نغتنم عطلة الأحد لكى نتلاقى على الغداء. كانت تلك جلسات قصيرة، ولكن ما أشد أهميتها لها أنا استجدى الذاكرة التماسا لمثل تلك اللحظات. وفى بعض تلك اللقاءات، كنت تستسلم لضغط الإلحاح فتحكى لى عن نفسى. هكذا حكيت لى عن اليوم الذى جئتُ فيه الى الدنيا.. كان من الصعب عليك الحكى بمثل ما كانت تعوزنى شجاعة السؤال.

كنت ترى أشياء لا يدركها بصرى. وعندما التحقتُ بسكن الجامعة فى فرنسا، كى أبدأ حياة مستقلة للمرة الأولى فى الثانية والعشرين من عمرى، حرصت على أن أدعوك الى زيارة غرفتى، أو لنقل عالمى الجديد. كنت أدرس الأدب الانجليزى، فألمحت إلىّ أنه لا يوجد أى كتاب باللغة الانجليزية على طاولتى. ويبدو أننى لم أكن حينذاك قد أوغلتُ فى دروس الآداب والحضارة الانجليزية بالقدر الذى تستغرقنى به اليوم دراستى لعلم النفس.

لقد شجعتنى كثيرا على القراءة. كنت تصورها لى على أنها ولوج إلى عالم من الوجوه (الشخوص الأدبية) والخيالات. وبعد أعوام، دفعتَ بى الى مياه أعمق إذ شجعتنى على الكتابة وعرضت أن تنشر لى كتاباتى. لن أنسى أبدا لحظة سلمتك مقالى الأول. أقر صادقةً بأن قلمى لم يكن استثنائيا. ولا أشك فى أن الأمر ما كان يسيرا عليك أنت أيضا، وأنت الذى كنت تجفل عن جرح الآخرين وإن كنت تحسن إسداء النصح والتوجيه. وبالعودة الى الماضى، بوسعى أن أذكر كم تعايشتَ بلا عقد مع فكرة غيابى عن مجالك، وافتقارى إلى عبقريتك، بل أكثر من ذلك، فقد ارتأيتَ وجوب النظر إلىّ على أننى أنتمى إلى ثقافة أخرى، نظرا لكونى قد عشت فى أوروبا ما يربو على خمسة عشر عاما.

كانت آخر أحداث عصيبة عايشتها معك هى حرب الأيام الثلاثة والثلاثين. فى ظل انقطاع الكهرباء، وتحت وطأة الرعب الناجم إثر دوى كل قنبلة، كنت أتصل بك للاطمئنان. عشتُ خلال فترة الحرب شعورا بالوحدة، كان كهمزة وصل بذكريات الطفولة. أحمل ذكريات عزيزة فى «صنايغ». صحيح، أنك كنت غائبا فى بعض الأحيان عنى فى تلك الفترة، لكننى أعمد إلى ربط كل ذكرياتى بك.

فى صورة عائلية، كان عمرى ثلاثة أعوام، وكنت أجلس على ركبتيك وأقبلك من صميم الفؤاد. أمام تلك الصورة، يتملكنى شعور عظيم يثير فى نفسى شيئا من التأثر. وفيما بعد، لفت انتباهى أحد الأصدقاء إلى ما فى الصورة من قوة عاطفة. كان عمرك وقتها زهاء الثلاثين، وكنت أنت «بابا»، وكنا نعيش فى «صنايغ». تعكس تلك الصورة علاقتنا الفعلية، وتنطق بما كان بيننا من تماثل.

حين كنتُ فى الرابعة عشرة، حلمتُ بممارسة التزلج الاستعراضى على الجليد. ويومَ أتممتُ عامى الخامس عشر، أهديتنى زى الرقص وحذاء تزلج أبيض جديد. وكنتُ من قبل قد اعتدتُ أن أستأجر حذاء تزلج رماديا مستعملا، كلما ذهبت الى ساحة التزحلق يوم الأحد من كل أسبوع. لذا بوسعك أن تتخيل مبلغ فرحتى بهديتك.

كنتُ فى الثامنة من العمر حين ذهبنا لأول مرة نحن الأربعة، أنا وأنت وسهيلة وزياد،إلى السينما لمشاهدة فيلم «إى تى» (E.T). وكان ذلك الفيلم قد أثار اهتماما واسعا، وأذكر حماسك أنت وسهيلة فى الحديث عنه أمامنا بصورة أخافتنا أنا وزياد، لاسيما حين تحدثتما عن مشهد لقاء الطفل بالكائن الفضائى «إى تى»، حتى أننا أحجمنا، أنا وأخى، عن الذهاب. وفى عرض الطريق، رحتما أنت وسهيلة تجذباننا إلى الأمام، بينما رحنا، أنا وزياد، نشدكما الى الوراء. وإنه لمثير للضحك أن نتأمل ما يمكن أن يصنعه الخوف من تجربة الخوف فى مسلك البشر.

فى أحد أعياد ميلاد زياد، السادس أو السابع على ما أذكر، كان عليك أن تنزله من أعلى الخزانة. فالأطفال على استعداد دائم للذهاب بعيداً لاعتلاء موقع القيادة. فما أكثر أحلامهم وما أشد رغبتهم فى تحقيقها. هكذا اعتلى زياد قمة الدولاب وراح يوزع أوامره على أصحابه. فما كان منى - أنا الصغيرة المزعجة آنذاك- إلا أن وشيت به عندك، وما زلت أحتفظ بصور لك وأنت تحاول إنزاله من فوق خزانته. ولقد كان عليك بعدها أن تلاعبه قليلا تعويضا له عن خسارته لموقع القيادة.

لقد حرصتَ دوما على إرسالنا الى أماكن خلابة لقضاء الأجازات. ولقد استدعى رحيلك أن أذهب إلى دبى والجميرة. قد ذهبتَ عنى مخلفا لى من روائك الفردوس. ولا قبل لى برواية ما عشتُه هنالك من أحاسيس.فهل عرفت يوما معنى أن تتجدد حياتك كاملة؟

يسعدنى استرجاع جلسات لهونا، أنت وأنا وزياد، كان المرح يسودها بقوة تفقدنا السيطرة على أنفسنا. وعندما كنت تلميذة فى المدرسة، حين كنتَ تباشر معى حل الواجبات، كنت تولى الأمر اهتماما يفوق ما أوليه أنا له. ومن أجل تسوية مسألة حسابية بسيطة، يقتضى حلها استخدام الآلة الحاسبة،كنت تنفق قرابة ساعة كاملة قبل أن تستيئس منها، معلنا أن العيب ليس فيك وإنما هو فى المسألة نفسها أو فى الآلة الحاسبة.. وفى مرة من المرات، كان علىّ إنجاز ملف عن حقوق الإنسان، فبادرت أنت باختيار المقالات المناسبة من الصحف. وحزتُ لذلك أبلغ الإشادة أمام كل زملائى فى الفصل. وكنتَ بعدُ تحب أن ألبس أجمل الثياب. ومن أجل ذلك كنتَ دوما على استعداد لبذل العزيز. ثم كان عليك بعد ذلك أن تطالع المشاهد المؤسفة لانكماش تلك الملابس الغالية فى الغسيل واهترائها، نظرا لجهلى الواضح فيما يختص باستخدام الغسالة.

«لقد تركنا سمير(1) بقلوب كسيرة، لا عزاء لها ولا سلوان، إذ كيف يمكن إبلاغه الآن بأن ما كان يفرقنا أصغر بكثير مما كان يجمعنا...؟».

أعتقد أنك قد وضعت إصبعك على

كـــان جـــوزيـــف...

أنى للفتى أن ينظف ليلا
المدرسة التى يدرس فيها ،أو كيف
له أن يدرس صباحا فى المدرسة التى سينظفها
فيما بعد؟ المشهد معقد وثقيل بالفعل
ولكنه بعد غير مكتمل



موطن الداء اللبناني. فقد اشتد اختلال توازن ذلك الجهد الذاتي الرامي الى معرفة ما يقربني من جاري بدلا من التركيز على ما يباعدني عنه. وبعد أن فرقت بينكما مشاحنة، كانت كلمتك الأخيرة له كلمة سلام وأخوة صادقة. فحتى في أكثر اللحظات إيلاما، كنتُ أشعر أنك كنت في أعماقك مثالاً للالتزام، الالتزام بتذكر الآخر، وبالتفكر في وسيلة لإنزاله منزلته وإعطائه مكانته.

ولقد التزمتَ بقضايا إنسانية عميقة وإن جاء ذلك على حساب صحتك. وقد أسمح لنفسي الى الآن بالغضب، ولكنني صرت أعرف أن الأولى أن أتحلى ببعد النظر الذي تحليت أنت به. أو على الأقل الأولى بي أن أحاول. كيف يمكن تكريم إنسان أعطى التزامه الأولوية على ذاته. حين أفكر فيك يصبح لي جناحان، وتستهويني المشاركة. وتتعلق في أذيال أملي رغبةٌ في التحرك والعمل. أحيانا كنت أصل الى قاع اليأس، ويغلبني البكاء. لكن لسبب لا أعلمه، وكأنك ملاك يعبر خاطري، كنتُ أجافي اليأس واستدفعه بذكراك.



ولسوف أذكرك في صورة راقص دبكة جذاب. كنت أرقبك في رقصك فأغار منك أو أغار عليك. ففضلا عن خطوات الرقص التي كنت تجيدها، كان لك سحر وإغراء، وكنت ترقص بشغف. كل ما فيك كان ينطق بذلك: تعابير وجهك، وأسلوبك الحركي. كانت تلك لحظة بين لحظات نادرة كنت أراك فيها مستسلما للاسترخاء التام، وأنا التي كنت قد تعودت منك على مشهد جلوسك الدائم على مقعدك للكتابة.

أحيانا كنتَ تكتب بالفرنسية، فكنتُ أتناول عنك القلم لأكتب ما تمليه علي. عندئذ، كنتُ أجد نفسي في قلب فكرك وأنا التي لم أكن أقرأ ما تكتبه.

وبعد وفاة أخيك وليد، شعرتُ بمدى أهمية الرباط الذي يشدك الى أبنائه، أولاد عمي، ندى وسامر وويليام. وكنتَ قد اعتزلت عالم الأحياء بعد وفاته بمثل ما اعتزلتُ أنا الناس بعد رحيلك. ولكن شتان ما بين الحداد في باريس والحداد في بيروت. ففي العاصمة الفرنسية تبقى العملية ممكنة، بينما هي عسيرة الى حد كبير في بيروت. ففي باريس بوسعك على الأقل الحفاظ على الحيز الخاص بك. أما في بيروت فالأفضل أن يتناسى المرء خسارته للفقيد، فتلك هي الأجواء البيروتية، أجواء اجتماعية تضامنية، تتسرب من بين يدي كل فرد. وكان حزنك على أخيك قد حملك على الانسحاب من المجتمع، ولكن ما أسرع ما تمكنت من استعادة نفسك! وها أنت تعود مرحا، ومفعما بالحياة ومتأهبا للبدء من جديد. كنت تحدثني عن حازم[١] صديق طفولتك، وعرّابي الذي رحلت لكي تشد من أزره، فكنت تصفه لي كأنه نسر لا يهاب إبداء آرائه. ولقد عُرف عنكما أنكما صديقان قديمان، ترافقتما حتى النهاية، وتخطيتما السياسة، وخلافات السياسة، والخطر الناتج غالبا عن السياسة.

وكلما عدتُ أدراج الذكريات، أقر بمعاناتي من جراء لحظات فراقنا، لأنني ما كنت أبدا أرضى حينما كنت ترحل عني. وغالبا ما كان موعد رحيلك يحين في لحظة تجعله غير مفهوم. فلماذا يجدر التسليم برحيل إنسان تشتد الرغبة في الاحتفاظ به؟ ومازالت في النفس حاجة للتواصل معه والحديث إليه؟ كنت تحمل قصتي بداخلك ولكنك كنت تحجم عن الثرثرة. فكان لذلك القصور أثره في تحويل رحيلك الى فكرة يصعب احتمالها، وإن كان من الواجب تقبلها، وإدراجها في الحياة اليومية. كانت لحظة الفراق تأتي معاكسة لإرادتي. وهكذا ما كنت أنا لأصرح بمشاعري وما كنت أنت تدري وقت انصرافك بما يعتمل في نفسي. ولقد تبدى هذا القلق في حياتي بنسبة ٢٪. ولا يمكن أن أتوجه بعتاب بمثل هذه القوة إلا نحو إنسان أكن له حبا عظيما، حبا لو أردت وصف مبلغه لتوردت وجنتاي حياءً. وهكذا مضت بنا الأعوام. كلانا كان بحاجة الى تعلم التعبير عن مشاعره بصورة أكبر. وهو ما فعلناه في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كنت تطلب إليّ ترك الأمور لتتضح من تلقاء نفسها، كنت تريدني أن أترك وقتا للوقت...



أحيانا كان يسود دارنا جو رائع في عصر يوم السبت حين كنا نجتمع للنقاش كلنا معا. وأحيانا ما كنا نلعب لعبة جماعية، فكنت أراك وقد شبت بك حماسة أثناء اللعب رغم اعتيادية سير الأحداث. وكانت حماستك تظهر بصورة خاصة في مناقشاتك مع زياد.

في مطعم «ريجوليتو»، أذكر أحاديثك الأخوية التلقائية مع من كانوا يأتون للقائك هناك من العمال أو الموظفين ممن تبدو عليهم أمارات رقة الحال. ومازالت في حافظتي ذكريات طيبة عن طريقتك الحفية في استقبالهم وطريقتهم هم في توقيرك. كنت تراهم بعين إنسانية صميمة وكنت تصورهم لي بعدسة شديدة الحساسية، تعكس طيبة قلبك وتفسر ثقتهم بك.

وحين كنت تحدثني عن حزب الله، كان كلامك يتضوع فخرا واستحياء. الفخر مبعثه احترامك العميق للحركة، أما الاستحياء فراجع لتمسكك بهذا الموقف من حزب الله رغم مشاعر العداء الذي يثيرها في كثير من النفوس.

أواجه اليوم صعوبة في إيجاد الشخص الذي يسعه أن يحدثني عنك. فكلا التعتيم أو الإعجاب لا يضيف لي جديداً. إذ يعوزني من يحدثني عنك بجلاء بصيرة ..

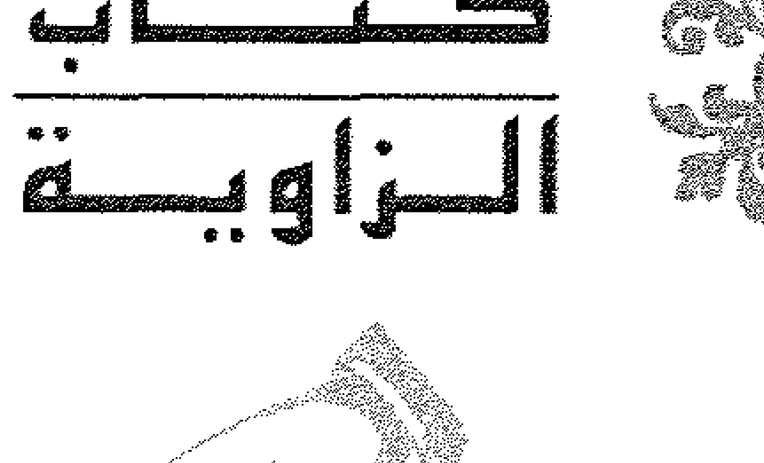
ماذا عساي أن أصنع اليوم بتلك الخانات الفارغة؟ فمن يعرفونك جيدا على الصعيد المهني أو الإنساني، لا يعرفون عنك شيئا البتة حين يتعلق الأمر بشخصك على الصعيد الأسري. أما أنا فأعرف منك الجانب الأسري ولكنني أكاد أجهل ما دون ذلك. فماذا أصنع؟ هل أستمر في الاعتماد على الخيال؟ ووفقا لما عهدته فيك، أرى أن الطريقة المثلى لتوديعك هي تلك التي كنت استقبلك بها، حين كان التلاقي يتم في هدوء.

حينما نفقد عزيزا بينما نحن منشغلون بتفقد أرجاء أنفسنا منذ زمن طويل يطرأ نوع من الخلط بين الحلم والحقيقة، تنتج عنه سلسلة من المشاعر الغريبة التي لم أجربها من قبل قط. ومما يزيد من آثار ذلك الخلط المربكة، هو ما عرف عن تسبب الفقد في إحساس الفاقد بأنه قد كبر فجأة. فها أنا بعد وفاتك بيومين اثنين يزداد عمري فعليا مقدار سنة كاملة. فلقد رحلتَ أنت في اليوم الذي جئتُ أنا فيه إلى الدنيا. وهي ضربة قاسية، لكنني لم أدعها تقضي علي.

ولقد حدثني الناس عنك باستفاضة. فلقد كنت إنسانا بمعنى الكلمة حتى أن الناس قد أبدوا إزاء فقدك أعمق المشاعر الإنسانية الطيبة. بدوا ذاهلين متألمين. فلقد قمت بعملك بينهم متحليا بنزاهة وطهر استحققت بفضلهما أسمى قمم العرفان والاحترام. ولكن: اليوم، أود إعادة استكشافك بنفسي.

بوسعي أن أذكر مارون بغدادي[٢] وقد حكيت لي يوما كيف كان مارون يسعى للفت انتباهك الى ابنته بأن سألك إن كنت تجد بينها وبيني شيئا من التشابه. فلقد كانت طريقة مارون في اجتذاب عاطفتك نحو ابنته هي تشبيهها بي أمام عينيك.





كتاب الزاوية

وثيقة تنازل الملك

مذكرات اللورد كِيلرن

وافقت على إعداد مسودتين، وأعتقد أن الوثيقتين هامتان من الناحية التاريخية، وجاء نص الأولى: «إنه منذ زمن طويل كان واضحًا أن جلالتك قد تأثر بمجموعة المستشارين المحيطين بك، والذين لم يكونوا مخلصين فقط بالنسبة للتحالف مع بريطانيا بل أكثر من هذا إنهم يعملون ضد هذا التحالف، ومن ثم فإنهم يساعدون العدو، والموقف العام.. وكذلك مدى تعاون وتشجيع جلالتك لهم مما يناقض المادة الخامسة من معاهدة التحالف، والتى بمقتضاها تتعهد كل الأحزاب المتعاهدة بألا يتخذوا موقفًا معاديًا بالنسبة للبلاد الأجنبية، ويكون متعارضًا مع الحلف. وبالإضافة إلى ذلك فإن جلالتك قد أحدثت أزمة خطيرة بطريقة عشوائية وغير ضرورية كرد فعل القرار الذى اتخذته الحكومة المصرية السابقة استجابة للطلب الذى تقدم به الحليف (إنجلترا) والذى نصت عليه المادة الخامسة من المعاهدة. وفى النهاية فإن كل المحاولات التى جرت لتشكيل حكومة ائتلافية قد باءت بالفشل، إذ رفضتم أن تعهدوا بأمر تشكيل الحكومة إلى زعيم الأغلبية فى البلاد (النحاس) على الرغم من أنه يتمتع بمكانة خاصة تجعله قادرًا على ضمان استمرار تطبيق المعاهدة بروح الصداقة كما يجب. ومثل هذا التهور والطيش، وعدم تقدير المسئولية يعرض أمن وأمان مصر للخطر وكذلك القوات الحليفة الموجودة بالعاصمة. ويؤكد الجميع بأن جلالتك لم تعد جديرًا باستمرارك على العرش».

وكان نص خطاب التنازل: «نحن فاروق ملك مصر، تقديرًا منا دومًا لمصالح دولتنا، فإنى بموجب هذا أتخلى وأتنازل بالنيابة عن أنفسنا وورثتى عن عرش مملكة مصر، وعن جميع حقوق السيادة والامتيازات والصلاحيات فى المملكة المذكورة وبشأن رعاياها، وأننا نعفى رعايانا من ولائهم لشخصنا».

صدر فى قصر عابدين الرابع من فبراير ١٩٤٢



اعتاد الناس عامة أن يروك فى صورة عظيمة يكللها الإعجاب.لكن رؤيتى لك تختلف عن مثيلتها عند بقية الناس.فرؤيتى أكثر تعقدا ولا تهبنى الرضا بنفس تلك السهولة.فهى قد أسفرت عن ألم مازلت أحاول مقاومته، وحسرات مازلت أحاول محوها. ورغم التحلى بنفاذ البصيرة، مازلت حبيسة أسرار العاطفة، وما تحمله من جنون خارج عن كل سيطرة. ولكننى هاهنا أشعر بأننى محظوظة أيضا.

وعلى أثر لوعة الأسى، يشتط البعض فى التعبير، فيحكون كم كانوا مقربين إليك، وأفاجأ بهم وقد أشاروا بإصبع الاتهام نحو العائلة. وبرغم دهشتى، حين أسمعهم، أقول فى نفسى لعلها شدة التأثر هى التى أفقدتهم السيطرة على كلماتهم. لكن نفس الآراء تتكرر على سمعى، فمن قائل» لقد كنا نحن أسرته الحقيقية».. إلى متطفل متسائل: «ما الذى يفعله فلان هنا، لقد كنا نحن أسرته...» ولقد كاد يصل الأمر إلى تقديم الأسرة مبررات لتواجد أفرادها لتلقى العزاء.فالإحساس بالقرب من جوزيف لا يمكن أن يكون ذريعة للمساس بعائلته.فأنا ابنته، لكننى أجتهد فى السيطرة على مشاعرى وأحرص على مراقبة أقوالى. فمن المؤسف حقا رؤية أناس أذكياء وصحفيين نبهاء وقد تفوهوا بكلمات تطفر منها الرعونة. ويبدو أن هؤلاء الأشخاص لا يعرفون جيدا حدودهم بمثل ما يجهل الأطفال كل حد أو قيد.فهم يبدون وكأنهم لا يرون أفراد الأسرة المتواجدين من حولهم والمتأذين من جراء ما يسمعونه من آراء. وبوسعى الإجابة على تلك الكلمات التى تنكأ جرحى المثخن بأن أقول إن التقرب لجوزيف عن طريق ازدراء أسرته ما هو إلا دليل على التخبط. فأحب الناس إلى نفسى هم أولئك القادرون على التمييز والاحترام فى تعاملهم مع الأسرة فى وقت تحتاج فيه إلى الدعم والمساندة.

«العلاقة الحقيقية هى تلك التى تربطنا بمن نشتاق إليه حتى فى حضرته». فى البداية كنت أجهل مغزى مقولة ابن عربى تلك، وما كنت تعنيه أنت من خلالها. لكنها اليوم تحمل الفكرة التى تصلح لوصف طريقتك فى توديعنا. ولقد استنتجت أنك قد وجدت فى ابن عربى ما كنت تبثه فى علاقتك بالآخر، وكل ما كنت مستعدا لتقديمه أو متحسبا لتلقيه.ذلك كان تصورك الخاص للعلاقة. قد فهمت سبب اختيارك لقول ابن عربى المأثور. ففى رأيى- وأعتقد أنك ستوافقنى فى الرأى- إن نوعية العلاقة القيمة التى تربطنا بالآخر تعتمد بالأساس على الشىء الذى نقدمه إليه ويعود أثره علينا مرة أخرى. وهو أمر تشاركنا فيه نحن الاثنين معا. قد قلت لى منذ سنوات أنك تحب الأشخاص الذين يتمتعون بكثافة إنسانية، وجوهر أصيل، وعمق نفسى، وهى صفات يبدو لك الشخص الذى لا يتحلى بها فارغا، وأجوف، وغير جدير بالاهتمام. وشرحت لى أن الشخص الفارغ هو ذلك الذى لم يذرف فى حياته دمعة واحدة.

كنتَ شخصا يحب اللهو. وأظن أنك تريد أن تراني أتسرى بما أفعل، بصداقاتى...، وبحماقاتى...، وبقصص حبى...، أتسرى وأسرى عن الآخرين همومهم بما أكتبه لهم عنك. ولا فائدة بعدُ من أن أقول لك كم أنت حاضرٌ فى خاطرى...

هــوامــش:

(١) سمير قصير.. كاتب وصحفى لبنانى أغتيل فى ٢ يونيو ٢٠٠٦.

(٢) حازم صاغيه: كاتب لبنانى.

(٣) مارون بغدادى: مخرج سينمائى لبنانى.



"كوميديا" العرب

محمد فؤاد الذاكرى

أقدم الإشارات العربية من خيال الظل (المصرى) تعود إلى أواخر العصر الفاطمى، فقد ذكر بأن صلاح الدين الأيوبى حضر عرضاً لخيال الظل بصحبة وزيره القاضى الفاضل، وذلك عام (٥٧٦هـ/١١٧١م)، وحدثت تلك المشاهدة عقب توليه سلطنة مصر وانتهاء حكم الدولة الفاطمية، ومن الواضح بأنه كانت هناك فرق خاصة لخيال الظل يقتصر نشاطها على قصور الفاطميين لتسلية الأمراء والأميرات وضيوفهم والمقربين إليهم.

وتدل الدلائل على أن الدعوة الفاطمية استغلت عروض خيال الظل التى وصلت إلى مرحلة جيدة من التطور على صعيد النصوص التمثيلية للترويج لمبادئها وأهدافها، ولم تقتصر على عرض المضحكات اللاهية بل وظفت الموضوعات الدينية والقصص التاريخية الوعظية للتأثير فى نفوس المشاهدين، مثل أجهزة الدعاية الأخرى.

ويعتبر ابن دانيال الموصلى هو الظاهرة الفريدة والرائعة في خيال الظل واسمه بالكامل هو شمس الدين أبو عبد الله بن دانيال بن يوسف الخزاعى الموصلى المعروف بابن دانيال، حكيم، كحّال، أديب، شاعر، مؤرخ. ولد بأم الربيعين من أعمال الموصل أواخر الخلافة العباسية عام (٦٤٦هـ/١٢٣٨م)، حفظ القرآن الكريم وبعض الحديث والتفسير، وما كاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى دهمت مدينته الموصل جحافل الغزاة التتر، وساقوا إليها الدمار والخراب.

ويتضح من الإشارات الواردة فى مصادر ترجمته أنه كان يمارس صنعة كحل العيون بهدف مداواة أمراضها فى مدينة الموصل، بعد دراسته فى بيمارستان (مشفى) الموصل المطل على نهر دجلة الذى أنشأه بظاهر المدينة (قايماز التركى (ت٥٨٤هـ)، ولم تكن البيمارستانات مقصورة على معالجة المرضى بل كانت أيضاً معاهد لتدريس مهنة الطب وتخريج الأطباء المجازين.

شبّ (ابن دانيال) ليجد الخلافة العباسية وقد ضعفت، والبلدان والأقطار تنفصل وتستقل عن دولة الخلافة، وشهد الفتى الكارثة الكبرى التى دهمت الموصل سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، إذ أحكم قائد جيوش هولاكو (سنداغو) الحصار على المدينة حتى فنى الطعام وتعذرت الأقوات، وبعد تسعة أشهر من الحصار استسلم الملك الصالح إسماعيل بدر الدين لؤلؤ (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) للقائد المغولى مظهراً الندم وفاتحاً المدينة للغزاة الذين استباحوا الموصل لمدة ثمانية أيام فسبوا ونهبوا وقتلوا حتى كادت المدينة تخلو من سكانها، وقضى (ابن دانيال) خمس سنوات فى مدينته الموصل يرقب الخراب والدمار والأوبئة، ويشهد الفتن والاضطرابات والمنازعات بين الأجراء والسلاطين.

وقد أجاد الباحث (إبراهيم حمادة) فى وصف الجو النفسى العام للسكان إذ كانت (تنتابهم نوبات عشوائية من الحرص الغريزى على الحياة فلا يدرون بأى مثاليات يعيشون حتى لو كانت تخالف عقائدهم ومعتقدات إيمانهم الخلقى، فالعراق كان عصرئذ يموج بشتى المذاهب الإسلامية والأجناس المختلفة، وأديانها من يهود ومسيحيين وعرب وفرس وأتراك.... الخ وكان لابد أن تتمشى فيه تيارات خفية وعلنية تشكك فى قيم المجتمع وأوضاعه بشتى مكوناتها السياسية والدينية، وأن تسود منازع منحلة لا تحتمل الجد ولا المواقف المؤسسة على قيم تقليدية عاقلة، وكان لابد من أن يعقب هذا التلاطم الهائل انهيار نفسى يورث هشاشة العاطفة وسقم التفكير واللامبالاة).

وقد أصبحت القاهرة عقب الطوفان الهولاكى ملاذاً لكثير من العلماء والأدباء الذين ارتحلوا من مختلف الأقطار ليتخذوها مأمناً وموطناً، ومنهم (ابن دانيال) الذى هاجر إليها سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) أثناء حكم الظاهر بيبرس المملوكى، والذى اتّسم بسمة الوقار والبعد عن اللهو، واتخذ دكاناً لكحل العيون داخل باب الفتوح بالقاهرة، وبدأت محاولاته مع الشعر والنظم والأدب.

بدأ عمل (ابن دانيال) فى مجال (الكحالة) ولمع اسمه كخبير بتركيب الأكحال ومزج العقاقير، وأصبح دكانه مقصداً لمعالجة أمراض العيون، وقد عانى ممن يوصفون بكحالى الطرقات وهم الذين يدورون فى الأزقة والحوارى، ويصفون المعالجات لمن يشكو مرضاً فى عينيه، وقد حذر منهم ومن جهلهم وأذاهم ابن الأخوة (ت٧٢٩هـ/١٣٢٩م) فقال عنهم: (وأما كحالو الطرقات فلا يوثق بأكثرهم، إذ لا دين لهم ليصدهم عن التهجم على أعين الناس بالبضع والكحل بغير علم ومخبرة بالأمراض والعلل الحادثة، ولا ينبغى لأحد أن يوكل إليهم فى معالجة عينيه ولا يثق بأكحالهم وأشيافهم).

ولا يستبعد أن يحوز بعضهم على غنى وثروة كما وصفهم (ابن دانيال) ساخراً:

يقولون الطبيب أبو فلان
حوى كرماً وجوداً فى اليدين
فقلت علمت بذلك وهو سمح
يضيّع كل يوم ألف عين

لم يهتم (ابن دانيال) بمهنته الطبية طويلاً، ولم تكن تستغرق وقته أو تشغل تفكيره، فمال إلى مهنة المخايلة وقرض الشعر وغشيان مجالات اللهو والضحك والمجون يغرق فيها أشجان روحه وإحساسه الخفى بالضياع، فبدأ يعرض بمهنته الطبية بلهجة لا تخلو من سخرية وملحة مؤلمة تبين كسبه الضئيل، فيقال:

يا سائلى عن حرفتى فى الورى
وا ضيعتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم إنفاقه
يأخذه من أعين الناس؟

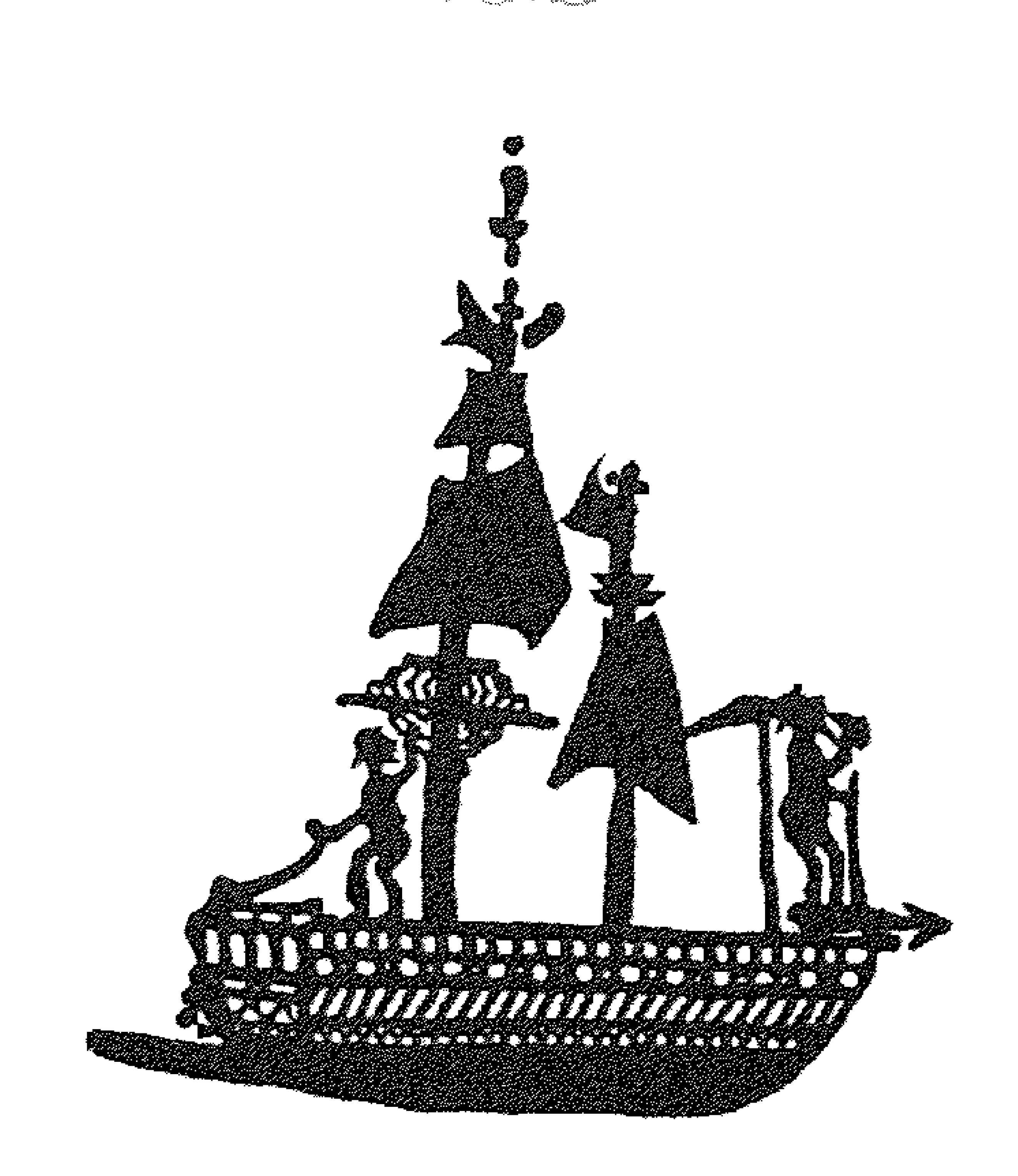
احترف بعدها صنعة خيال الظل فهى تمس مجريات الحياة اليومية وتقوم على الإضحاك والمفارقات الإباحية والشهوانية، فيها الأفراح والأحزان والطموحات والمداعبات، تظهر قبائح العادات والسلوك المنحرف بعبارات شهوانية وحركات فاضحة، ثم فيها غمز سياسى ونقد اجتماعى مرير تعقبها نصائح وعظات، فكانت سوقه رائجة وبضاعته نافقة، ففتحت له الأبواب على مصراعيها، فصحب بعض الأمراء المماليك ونادمهم وله معهم نوادر وممازحات.

لكنه كان دائماً معرضاً للخسارة والأزمات المادية النفسية، عبر عنها بقوة انفعال ومهارة وقدرة على الصياغة، فقال يندب حظه:



أصبحت القاهرة عقب الطوفان الهولاكى ملاذاً لكثير من العلماء والأدباء الذين ارتحلوا من مختلف الأقطار ليتخذوها مأمناً وموطناً، ومنهم (ابن دانيال) الذى هاجر إليها سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)





ما عانيت عيناى فى عطلتى
أدبـر مـن حظـى وبختى
وقد بعت عبدى وحمارى وقد
أصبحت لا فوقى ولا تحتى



تفـوّق (ابن دانيال) فى فن خيال الظل فكان يضع القصة وينظم الأصوات ويلحنّها ويعيّن الأزياء، بالإضافة إلى نظم الشعر الذى يجمع بين الهزل والفكاهة، واستطاع كمبدع أن يرصد أحداث عصره وبيئته وما يتعلق بالطبقة الحاكمة، وبعقلية ناقدة ارتبطت بالواقع الاجتماعى حاول النفاذ إلى المتناقضات الأسرية والاجتماعية، وحاول تفسير عجز الإنسان الشعبى عن تجاوز ظروف الحياة القاسية المحيطة، وسلك أساليب شتى أبرزها الضحك والسخرية، مكشوفة حيناً ومستورة حيناً آخر فى نقد طبقة بعينها من طبقات المجتمع، إما لإظهار عيوبها أو لحث ذوى السلطان على إصلاحها، أو لذمّ طائفة من الأخلاق الخاصة: البخل، التطفّل، التنطّع، التزمت، ويعتمد فى ذلك على المفارقات العجيبة، ومع ذلك لم يخل من مجون وخلاعة، وأصبح هذا الفن حرفة وأصبح فى استطاعة الخيال أن يعبّر عن الأحداث التاريخية فى صورة هزلية.

لقد استغل (ابن دانيال) قرار الظاهر بيبرس فى حينه بإبطال تعاطى المسكرات والمخدّرات، وإحراقها وتخريب بيوتها وحاناتها. فأذاع القرار بصورة هازلة هدفها تسلية الناس وإقناعهم، وتدور مسرحيته (طيف الخيال) حول الأمير وصال ويصفه بأنه جندى بشربوش (غطاء للرأس مثلث الأضلاع) وسباله (شاربه) منفوش، والذى اعتزم الزواج بعد أن ترك مسالك الخلاعة ونوى التوبة المخلصة، فاضطر للاستعانة بخدمات الخاطبة (أم رشيد)، وتتوالى المشاهد ويفاجأ بعروسه الشمطاء (ضبّة بنت مفتاح) والتى لم يرها قبل الزواج مما يوقعه فى نوبة غضب شديدة يقرر بعدها العدول عن الزواج والسفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

تمر بنا خلال العرض نماذج وشخوص اجتماعية ونقد مبطّن مثل: شخصية زوج أم رشيد الذى يظهر عليه الضعف والهرم فينصحونه بالطبيب (المعين بن سديد) فيرفضه قائلاً: كلا انه قضى على زوجتى أم رشيد.

لم يترك (ابن دانيال) شارة من هيئات الشخوص ولا ثيابهم ولاسيما دوافعهم وعواطفهم دون أن يكشفها كشفاً تاماً.

وليس هناك اصطدام بين أي شخص وأقواله بل تجرى الحوادث فى منطق العرض بسلاسة، وصورت البيئة التى عاش فيها الشخوص تصويراً بارعاً حتى أحداثها السياسية، فابن دانيال يدخل بعينه فى كل ما حوله، ويعبر عن علاقات الرجال والنساء فى عصره، وعلاقات الحكام والمحكومين.

مسرحية عجيب وغريب:

تمثل سوقاً شعبية تدخلها شخصيات تكسب رزقها وقوت يومها من خلال براعتها فى الكلام الفصيح، أو فى بيع أشياء يعتقد الناس فى جدواها الصحى والنفسى، أو فى عرض لعب وحركات يقومون بها بأنفسهم أو تقوم بها حيواناتهم المدربة. ويمثل (ابن دانيال) على لسان كل منهم ما يناسبها من الحوار وينتقى لها خصائصها من القول والفعل والمصطلح.

(فغريب) يتحدث بلغة خاصة بأهله وقومه وبطرق عيشهم، ويقدم مونولوجا غريبا جداً، إذ ينشد قصيدة يسرد فيها حياته(ولعلها حياة ابن دانيال نفسه) فيعبر عن اهتمامه بالشراب والمجون، ثم أصبح بعدها طبيبا وشاعراً إلى أن يقول:

وطببت الأنام فكم من أناس
قتلتهم بقبض إسهال
وداويت العيون فكم جفون
بكحلى لم تنم مدى الليالى
وفى الأعشاب والأسلوب علمى
له البيطار يصفع بالنعال

و(حويس) الحاوى الذى يربى الثعابين ويستخرج منها الأدوية ويعالج الملسوع فيعرض أفاعيه ويندد بسمومها وخطرها الداهم. يبدأ حويس الحاوى فيغنى بضعة أبيات من الشعر تدل على صنعته، ولعل ابن دانيال استقاها من الباعة الذين كانوا يتغنون بها فى الأسواق لجلب الناس إليهم فيتحلقون حولهم، ثم يبيع بعد العرض الترياق الشافى من لدغات الأفاعى والثعابين، وقد تهيأ جمهور الحاضرين نفسياً للشراء فيصفه قائلاً: (هذا المخلص من النهوش والكسور والعضاض. الشافى بعون الله تعالى من جميع الأعلال والأمراض) ويسهب فى وصف طويل عن كيفية تحضيره و مكوناته، وقد استعان ابن دانيال بخبرته الطبية فى هذا المجال فهو يدلى بمعلومات طبية صحيحة، ويذكر أسماء مشاهير الأطباء من يونان وعرب أمثال ابن البيطار وديسقوريدس.

أما (عسيلة المعاجينى) وقد اشتق اسمه من العسل الذى كان يستخدم فى تحضير المراهم الجلدية والعينية أيضاً. أما اسم المعاجينى فلأنه اختصاصى فى تحضير المعاجين المختلفة التى كانت تستعمل مضغاً وبلعاً على شكل أقراص، أو تطبق على العضو المريض فوق الجلد، أو كمرهم للآفات الجلدية. فيرص أمامه أطباق الأدوية وزجاجاتها ثم يشرح مفعولها فى شفاء أمراض عديدة منتشرة مثل: الحموضة فى المعدة والحصاة فى الكلية، والقولنج (المغص المعوى)، الإسهال وغيره.

يليه (نباته العشاب) فهو خليفة ديسقوريدس اليونانى وسبط ابن البيطار العارف بالأصول والفروع والأوراق والأزهار فيذكر رحلاته التعشيبية فى سبيل جمع الأعشاب الطبية من مظانها، ويقول: (إن ما فى الأرض من حشيشة نابتة، إلا ولها فى جسد الإنسان علة ثابتة. فمنها ما ينفع بحمد الله ويضر، ويحبس ويدر، ويسهر وينوم، ويفش ويورم....) كما يوجد عنده أدوية للمحبة والعشق، وتقى من غضب السلطان أيضاً.

يظهر بعده (مقدام الأسى) صاحب المباضع والمواسى، وهو مطبب جراح يداوى الجروح ويستأصل الدمامل، ويمارس كل ما يتعلق بالجراحة مثل:الختان والكى والفصد، وغيره.

أما (حسون الموزون) فهو بهلوان خفيف الحركة يتثنى ويتقلب ويمشى مشى العقرب ثم (يدك الطاسات ويمشى بالهامات، ويصعد على قطع الخشب المصفوف، ويقف بقدمه على حد السيوف ويتقوس من لينه، ويأخذ الخاتم بجفونه).

أما (شمعون المشعوذ) الذى يقوم بألعاب سحرية، قوامها طبل وجرذان وعصافير وحيات ....الخ فيخرج الحبل من فمه على أنغام الطبل. وهلال المنجم يذكر بعض تنبؤاته عن العام الجديد، ويحض الناس على وجوب معرفتهم لطوالعهم والكشف عما سيقع لهم فى غدهم، فيبشر بالسعد من يبتدئ أول اسمه بحرف القاف، ويحذر صاحب السين والكاف.

ويظهر بشكل متتابع شبل السباع ومبارك الفيال وزغبر الكلبى وأبو العجب وأبو القطط وأبو الوحش وميمون القراد فيعرضون على المتفرجين حيواناتهم المستأنسة المدربة على اللعب الاستعراضى.

والعرض الأخير بعنوان المتيم والضائع اليتيم فيشرح حيل العشاق والمحبين، ويعرض صوراً طريفة عن عراك الديكة ونطاح الكباش حيث كان الهواة يتنافسون فى اقتناء هذه الحيوانات المدربة ويبذلون النقود فى سبيل اللعب والرهان عليها.

لا تبدو أهمية ابن دانيال فى مقدرته الشعرية ودقة التعبير وسلاسة اللفظ واختيار الكلمات فحسب، بل فى لسانه الناقدة واللاذعة أحياناً خارج حدود المألوف لكل ما هو حوله ابتداء بكيانه العائلى وانتهاء بالحياة من حوله، فهو يعتدى على الوضع الصحيح ويتندر من البدهيات، ويخرج على المألوف المنطقى وكأنه مقياس شاذ، فيقول:

أنا لو رمت للعلاج طبيبا
ماتعديت دكة العطار
بعدما كنت من ذكائى أدرى
أن بابى من صنعة النجار
أحزر البيض قبل أن يكسروه
أن فيه البياض قبل الصفار
وبعينى نظرت كوز نحاس
كان عندى أقوى من الفخار

إن المرارة والسخرية التى يلمحها القارئ فى شعر ابن دانيال، يكاد يرى من خلالها أزمة المثقف أمام تمزق سياسى بفعل الغزو والاحتلال المغولى وما يترتب عليه فى أرجاء البلاد، ثم أمام ضغط اجتماعى توزع فيه الثروات ضمن سياقات لم يستطع أن يتعامل معها إلا فى إطار سموه الشعرى فى مثل قوله:

قد عقلنا، والعقل أى وثاق
وصبرنا، والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلاً، كان مثلى
فاضلاً عند قسمة الأرزاق

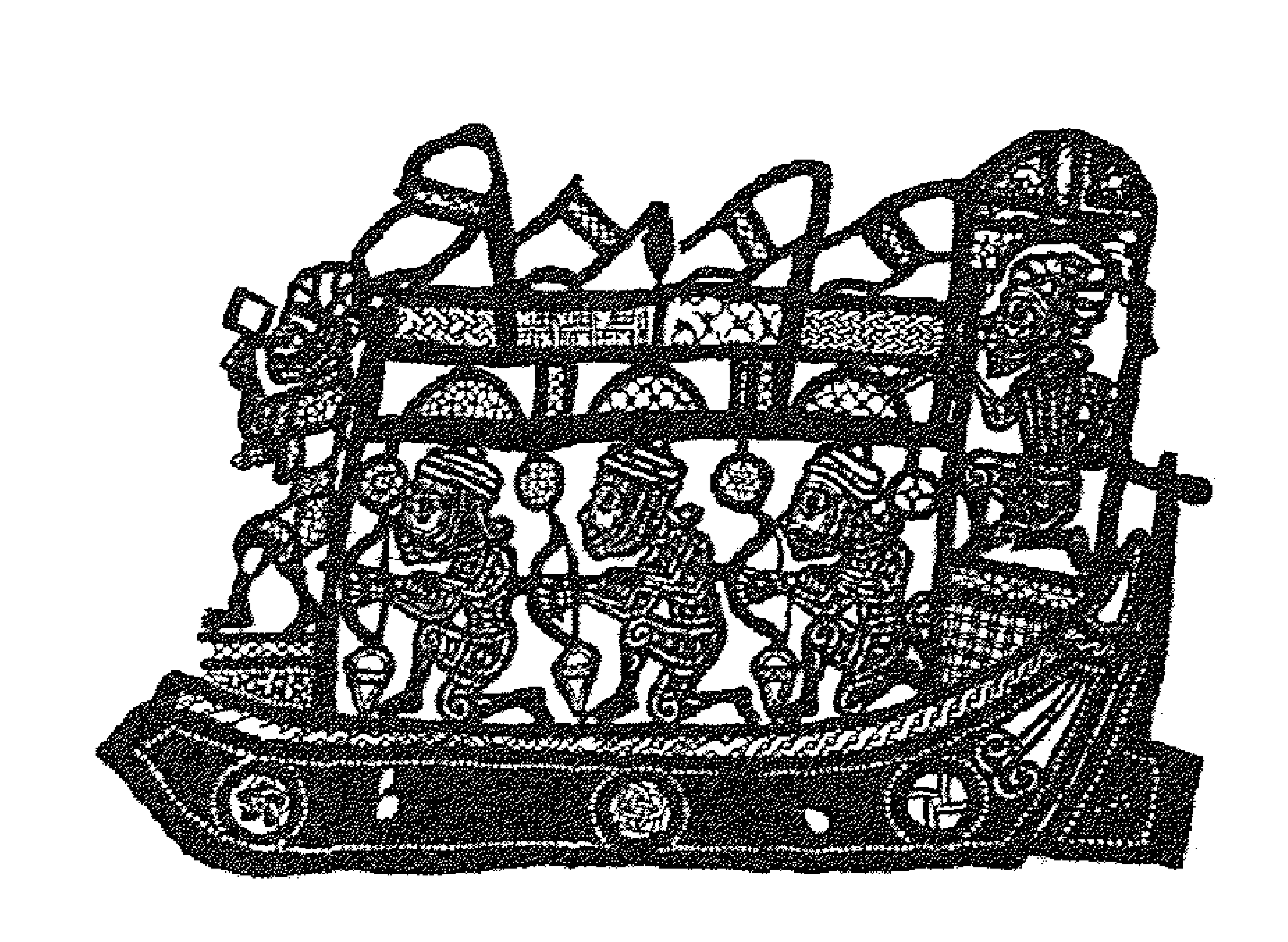
ولكن الكتابة الساخرة لا تعتبر رفضاً. فلو تفحصنا حياته بدقة لاتضح لنا أن العامل الأساسى فى سلوكه هو إرادة القوة العنيفة التى يشعر بالإثم بسببها.

ولعل دافعه النهائى هو احتقاره للآخرين ورفضه إطلاقاً أن يكون شخصاً عادياً، لقد صار مشهوراً لأنه سخر وكشف جميع المقاييس السائدة وحين كان المجتمع يحاول أن يتقبله ويطبعه كان هو يعرقل ذلك بالخداع والسخرية مؤكداً مرة أخرى على انعزاليته كما يعبر عن ذلك:

فإنى ومجدى وشأنى وفنى
غريب غريب غريب غريب ■

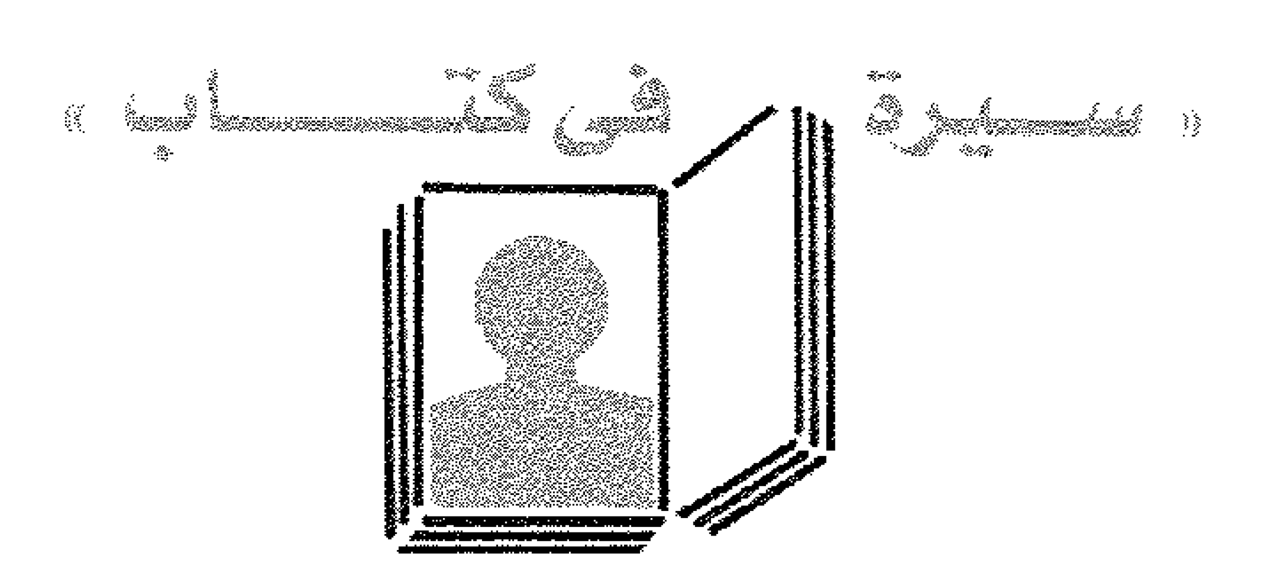
المصادر والمراجع:

موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين بإشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- بيروت- ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.



أسمهان





■ تطالعنى صورة لحفيدة أسمهان من ورقة جريدة مصفرة قليلا. شعرها مشدود إلى الخلف بأناقة. شابة صغيرة ترتدى فستانا شديد القصر وترقص فى حفلة، تلك التى كانت تتعافى من جراحها عام ١٩٩٣ . إنها تبعث برسائل محددة عبر الصورة الملتقطة. شبابها، مرحها وبالنسبة لى الرابطة التى تجمعها بجدتها. إنها سهى، حفيدة أسمهان. أقاربها السوريون من آل الأطرش شرحوا لى أن حسن زوج أسمهان كان يفرض حماية شديدة على ابنته كاميليا بعد وفاة والدتها. أخبرنى منير وهو شقيق أسمهان الأصغر، أنها كانت تملك شامة صغيرة مثل أسمهان ولكن على الجانب المقابل من الوجه. تزوجت كاميليا من أحد أفراد عائلة جنبلاط المعروفة فى لبنان وأنجبت أربعة أبناء. يبدو أن ابنتها ترقص وهى متحررة من قيود الماضى. هل لهذه الصورة أى صلة بقصتنا؟ أم أنها مجرد حدوتة؟ هل تعكس الحياة الاجتماعية للصفوة اللبنانية أم ترفض الحقائق الاجتماعية والثقافية للزمن الماضى؟

إن صور أسمهان نفسها تترك آثارا نهتدى بها خلال بحثنا. الفتاة الصغيرة تحتضن أمها الجالسة فى العشرينيات من القرن الماضى وفى عمر أكبر قليلا تجلس منتبهة للكاميرا بجوار أخواتها، الشابة ثابتة فى كامل زينتها فى الثلاثينيات من نفس القرن وفيما بعد تركب حصانا. إن صورة الفارسة فى نادى الجزيرة تذكرنا بصور أسمهان وهى تركب الحصان بحرية فى الجبل. فى سنوات الحرب الأولى تبهر الناظرين بفساتين السهرة ومعاطف الفراء فى تألق رومانسى، تماما مثلما كان يتم تصوير أكثر نجوم السينما. إن تجسيد نجوم بهذا الشكل كانت طريقة لشغل الناس عن التوتر السائد فى ذلك الوقت كما كانت الأفلام تؤدى نفس الغرض. أحد الصور التى أعيد طبعها حديثا تصورها فى فستان سهرة طويل من الساتان وتظهرها صورة أخرى مع ضيوف أحد الحفلات وهى ترتدى فراء أبيض وفستان سهرة. كان المجتمع يتصور أن هذه هى الأجواء التى تفضلها ولكن أسمهان الحقيقية كانت تخجل من صحبة من لا تعرفهم.

صورة أخرى تلتقط لحظة من لحظاتها الأضعف. تجلس فى سرير خلال فترة مرض وبعد فترة قليلة من انفصالها عن أفراد عائلتها فى القاهرة. كان ذلك تقريبا فى نفس الوقت الذى صودر فيه أثاثها لتسديد ديونها وعندما لم يكن بإمكانها دفع فواتير الطبيب أو الصيدلى. من الممكن أيضا أن نرى أخاها فريد فى صور تبينه فى هيئة ملك الحب من طرف واحد.

تحدانى الزملاء أن أفكر فى السؤال التالى «ماذا لو كانت أسمهان هى فريد؟ ماذا لو كان هو هى؟» لقد ناقشت هذه الفرضية باستفاضة فى مكان آخر، أخذا فى الاعتبار أن الفارق الرئيسى بين هذين الشقيقين بالذات يمكن إرجاعه لوفاتها المبكرة لأن الاختلافات الناتجة عن اختلاف الجنس كانت قد تم تجاوزها بسبب كونهما فنانين.

ولكن من الحقيقى أيضا أن أسمهان كانت تتعرض للانتقادات على تصرفات تعتبر أمورا مقبولة بالنسبة لشقيقها لأنه رجل. إن تصرفاتها كانت تثير اهتمام العامة أكثر، وكان جمالها مثار تعليقات بشكل أكبر بكثير مما كان مظهر أخيها يثير التعليقات. بالإضافة إلى ذلك فقد أتيح لفريد أن يؤلف موسيقى وأن يعزف كموسيقى وهى تجارب كان من الممكن أن تغنى تجربة أسمهان ولكنها لم تكن مطلوبة من نجمة.

لقد تم التقاط صور لها بصحبة أخيها أكثر بكثير من الصور التى التقطت لها بصحبة زوجها حسن. وكانت أسمهان تخطف الأبصار بعيدا عن حسن الأشقر ضئيل الجسم بضحكتها المشرقة وألوانها اللافتة للنظر. ولكنها كانت تبدو نحيفة فى تنورة طويلة وبشعر غير مصفف يحيط بها حسن وأخوها فؤاد وكل منهما يحمل مسدسه. يرتدى حسن ثوبا فاتح اللون وجاكيت كما هى عادة أهل الجبل. إن حسن شخصية محورية فى الصور التى تؤرخ لأحداث عديدة فى الجبل مثل المفاوضات حول معاهدة ١٩٣٦ التى وقعت مع حكومة ليون بلوم الفرنسية وأحداث أخرى خلال الحرب فى الجبل. كما أنه يمكن رؤيته فى الصور التى التقطت أثناء زيارة فريد للجبل خلال الحرب. إن أسمهان غائبة عن كل تلك الصور لأن ذلك كان غير لائق حسب تقاليد الدروز. ومع ذلك فقد تم تصويرها من زوايا مختلفة مع الجنرال ديجول قائد المقاومة الفرنسية ورئيس فرنسا فيما بعد.



إن تلك هى صور «النجمة» بالمقارنة بصور أسمهان مع صديقتها أمينة البارودى وهما يتحدثان على طاولة فى الهواء الطلق ثم يقفان بفخر أمام السيارة التى اشترتها أسمهان من أمينة. هناك أيضا الصور المثيرة لأسمهان وهى تتنزه على الشاطئ مع محمد التابعى وسليمان نجيب فى زى البحر. إن الغرض من هذه الصور هو الدعاية ولكنها تنقل بأمانة صورة أسمهان خارج خشبة المسرح، كسيدة تقدر صداقاتها وأسلوب حياتها. تم تصويرها أيضا وهى تتناول طعام العشاء مع التابعى وترقص وهى ترتدى فيونكة كبيرة مائلة على رأسها وفى لقطة مقربة نرى وجهها الجذاب محاطا بيدها اليمنى وعليها خاتم بالغ الضخامة. لقد زودنى الكثير من الكتاب وأفراد العائلة بمعلومات عن الأماكن وبصور ذهنية ولحظات لا تستطيع الكاميرا استعادتها. رأيت المربع السكنى الذى عاشت فيه العائلة فى فترات فقرها فى القاهرة كما رأيت الحوائط التى غطاها الغبار الآن فى جاردن سيتى بشرفاتها المبنية على طراز الأرت ديكو الذى ذاع وانتشر فى الثلث الثانى من القرن العشرين. أستطيع أن أرى أسمهان وهى تبكى فى غروب جميل كما يتذكر التابعى بجوار النيل أو رؤيتها وهى تخرج مصحفها الصغير من حقيبتها. لم يكن من الصعب تخيل أسمهان وهى تنصت بتركيز للموسيقى أو تمشى إلى بار فندق الكونتيننتال أو تجلس على كرسى من البامبو فى شرفة فندق شبرد القديم (احترق فى حريق القاهرة قبل ثورة ١٩٥٢ بفترة قصيرة).

وعلى بعد أميال فى جنوب سوريا، صورت المنزل الأصفر الذى بناه حسن لأسمهان فى السويداء بشجر أرزه. ومع أنه يتبع الجيش السورى فى الوقت الحالى إلا أننى حاولت أن أتخيل القوات الخاصة بزيهم الرسمى وهم يحيطون بأسمهان أمام المبنى. وجدت «القلعة» التى بناها والد زوجها إسماعيل الأطرش فوق قرية العرة والتى تقع أمامها ساحة للتجمعات العامة. رأيت غرفتها داخل السياج الحجرى وفوق الباحة القديمة والمضيفة القديمة بتكاياتها، الشعارات المكتوبة على الجدران الحجرية القديمة، كما رأيت بيت ومضيفة فرع آل الأطرش فى السويداء. حملقت طويلا فى جانب الجبل والطرق الصخرية حيث كانت تعدو بلا خوف على حصانها وشوارع سوق الحميدية الشهير فى دمشق حيث كانت تشترى الحرير والتسجيلات. حاولت أن أدخل الفندق الدمشقى الذى كانت تفضله (حيث يقال إنها أعطت نفسها جرعات زائدة من دوائها) أورينت بالاس Orient Palacer فاستجوبنى المسئولون السوريون والإيرانيون الذين يديرونه لخدمة السواح الإيرانيين ثم تبعتها مرة أخرى إلى مصر. تعقبت مسارها إلى القدس وعبرت ما كان يعرف بمملكة شرق الأردن حتى مكان موعدها مع أخيها غير الشقيق طلال على الحدود السورية.

كان صالون أخيها فؤاد الفاخر الذى يطل على النيل يمتلئ عن آخره بصور أسمهان وأخيها. يحتفظ أخوها الآخر (غير الشقيق) بصورة واحدة يعتز بها كثيرا. إنها فى رأيى أكثر صور أسمهان جاذبية حيث تغطى رأسها بغطاء أخضر وترتدى علامة فرنسا الحرة، صليب لورين، كدبوس على ياقة جاكيتتها. عيناها تحدقان بكسل إلى الكاميرا، ملامحها أفضل مما كانت فى حالة أخيها فريد وفكه الطويل. إن هذه الصورة تنتمى لصور «نسائنا فى الحرب» اللائى كن يظهرن من خلالها أنشطتهن

فصل من كتاب:

Asmahan's Secrets : Woman, War, and Song

(أسرار أسمهان: المرأة والحرب والغناء)

Sherifa Zuhur

Center for Middle Eastern Studies, The University of Texas at Austin

240pp, $15.95, 2001

ترجمة: نرمين نزار

أسمهان كانت تتعرض للانتقادات على تصرفات تعتبر أمورا مقبولة بالنسبة لشقيقها لأنه رجل



الأيقونة

شريفة زهور

من صوروا حياتها كانوا رجالاً وأدخلوا تفسيراتهم لأفعالها من خلال انحيازاتهم ومفاهيمهم عنها. كأخت أو فنانة أو «جاسوسة»

في خدمة المجهود الحربي. يوجد عدد محدود نسبيا من الصور لأسمهان في شبابها المبكر. هل كان ظهور موهبتها في سن مبكرة جزءاً من أسطورتها كنجمة غناء أم أن ذلك جزء من مجهود يهدف إلى إظهارها في عمر أصغر من الحقيقة (كما يرى التابعي)؟ إن العديد من السير الذاتية للمغنيات والمغنين يظهر مواهبهم المبكرة التي لم يستطع أفراد عائلاتهم منعها من الظهور. وكان من ضمن من عاصرتهن أسمهان، أم كلثوم التي احترفت الغناء في طفولتها. ويقال إن ليلى مراد أيضا ظهرت على المسرح لأول مرة في الثانية عشرة من عمرها عام ١٩٣٠ وغنت عام ١٩٣٤ في الإذاعة. نجاة علي (اسمها الحقيقي نجاة علي صيام) أيضا بدأت الغناء في الثلاثينيات من القرن الماضي ومن المفترض أنها كانت في السادسة عشرة في ذلك الوقت. نجاة الصغيرة التي كان يفرق اسمها الفني بينها وبين نجاة علي لفتت نظر الجمهور لأول مرة حين كتبت مجلة المصور عن أدائها لأغاني أم كلثوم في عمر السابعة (عام ١٩٤٠). كما قيل إن فايزة أحمد وهي سورية أخرى (وإن كانت قد ولدت في لبنان) أدت أغاني أسمهان وأم كلثوم في عمر السادسة. فقد بدأت مشوارها الغنائي في الإذاعة بتشجيع من والدتها ثم انتقلت إلى القاهرة، حيث أصبح لها صيت على مستوى المنطقة بأكملها.

لا توجد صور لأسمهان في منتصف العمر. هل كانت ستتقدم في العمر لتصبح بدينة ومحترمة المظهر مثل أم كلثوم أم بالمرح والمرض اللذين صاحبا إلا فيتزجيرلد Ella Fiztgerald؟ هل كانت ستحافظ على جاذبيتها للجنس الآخر بالريجيم والملابس الجذابة والعمليات التجميلية مثل إيرثا كيت Eartha Kitt أو صباح أو شير Cher؟ إن الشرق الأوسط أكثر تسامحا مع النجمات المتقدمات في السن عن الغرب ولكن وفاتها المبكرة حافظت على حضورها وجاذبيتها الجنسية ضمن الوسط الفني كما لم يكن ممكنا بأي طريقة أخرى. ولهذا السبب فإن أسمهان كرمز ظلت بشكل ثابت تمثل المرأة «الأخرى» في الثقافة العربية، الفتنة كما أشارت لها فاطمة مرنيسي. لم تنتقل أسمهان إلى المرحلة الأكبر والأكثر أمانا والخالية من المدلولات الجنسية. إنها تستمر في كونها رمز الحب الرومانسي بالنسبة للنساء (الذين يقدرون على التماهي معها) وللرجال (الذين يشتهونها).

تشرح فاطمة المرنيسي رمزية أسمهان وأهميتها بالنسبة للنساء في المرحلة الانتقالية - النساء اللواتي يتماهين مع جوانب معينة من حياة مغنية كما تنقلها لهم الإذاعة والسينما. في منزل المرنيسي في فاس، على بعد آلاف الأميال من القاهرة ودمشق، تعد ابنة عمها شامة تمثيليات درامية عن حياة أسمهان. إن كانت أحلام النساء في تلك الفترة تعكس قدرات أسمهان كنجمة تخطت حدود الأدوار المرسومة للنساء فإن أهميتها الرمزية تتخطى مساهماتها السينمائية أو الموسيقية. كتبت المرنيسي أنه بينما كانت أم كلثوم تبدو نبيلة ومحترمة فإن النساء اللاتي عرفتهن في الحريم كن يحببن أسمهان.

كانت تظن أن من الممكن للمرأة أن تنال الحب والمستقبل المهني معا وأصرت على أن تحيا حياة زوجية كاملة بينما تبحث في موهبتها وتستعرضها.

لقد أثارت أسمهان خيال الرجال والنساء معا بفكرة أن الفشل أو النجاح لا يهمان في حياة المغامرة وأن ذلك النوع من الحياة أكثر جلبا للمتعة من حياة تقضيها نائمة وراء أبواب تحميها.

لقد ألهمت أسمهان شامة ابنة عم المرنيسي المبتكرة في العديد من المغامرات «في بحث حسي عن الرومانسية». لقد أثرت في المرنيسي ودفعتها عبر شمال أفريقيا لتأليف أبيات عن استعادة أسمهان. حتى والدة المرنيسي التي علقت في مرحلة انتقالية بالنسبة للنساء رأت طلاق أسمهان كمغامرة. وهي بدون شك مصدر إلهام لهؤلاء النساء اللاتي صبغن حياتها بالرومانسية ورأين أن المغامرة من أجل سيطرة المرء على مصيره تستحق الثمن الذي يدفعه وهو الشك.

أحد أسرار أسمهان كان العملية التي تم بها استبدال سجلها الشخصي عن الأفكار التي كانت تحملها عن تجربتها الحياتية بصورتها وصوتها الغنائي الرائع. رغم أنها أنجزت فيلمين فقط إلا أنهما قدما أسمهان/ نادية أو أسمهان/ سهير في خلط قوي بين موهبتها الصوتية المؤثرة وبين الرسالة السينمائية. إن الحب هو مركز وجود المرأة. كما كان الحال مع أسمهان فإن الشخصيتين السينمائيتين اللتين قدمتهما كانتا تعملان بالفن وتوصلان رسالتها حول الأمل والإصرار والفقد والخيانة والانتقام والحب بشكل أكثر وضوحا مما كانت التسجيلات تستطيعه.

كانت المشاهدات قادرات بالكاد على تخيل أفكارها وكان لكتابات مسئولي الدعاية والنقاد بعض التأثير على الأقل في تصوير الجانب «الجريء» من شخصيتها كما أشار التابعي؟ لقد بلور جمالها وموهبتها ذكراها عند الجماهير العربية التي حرمتهم حكايات الآخرين من سماع قصة أسمهان منها هي شخصيا. لقد ركزت قصص حياتها بشدة حول تحديها للأنماط والسلوك عند الجنسين وحول معاملاتها المزعومة في السياسة والجاسوسية.

التابعي الذي أطلق على كتابه اسم «أسمهان تروي قصتها» ليغري القراء برواية شخصية لحياتها وهي ظاهرة حديثة تسميها مارجو بدران ترجمة حياة أو سيرة ذاتية. ولقد أحبطت عندما قرأت كتاب التابعي ومقارنته بكتابات الآخرين، إنه لم يكن بأي حال من الأحوال سيرة ذاتية لأسمهان وإنما رؤيته هو لكل معلومة صغيرة استطاع جمعها عنها خلال عامين ومع ذلك أصبحت «السيرة الذاتية المصطنعة» تراثا في النثر والروايات (كما في أعمال نوال السعداوي) وفي الأفلام في مصر. لا توجد طريقة أكثر إغراء لتقديم حياة شخص ما للعامة من الإيحاء بأن ما سيقدم تصريحات شخصية بغض النظر عن كون مصدرها الشخص المعني بنفسه.

الحقيقة أن من صوروا حياتها كتابة كانوا رجالاً وقد أدخلوا تفسيراتهم لأفعالها من خلال انحيازاتهم الاجتماعية ومفاهيمهم عن أسمهان- كأخت أو فنانة أو «جاسوسة». إن هذه الانحيازات هي على أوضح ما يكون في المواد المكتوبة ولكنها تظهر أيضا في المناقشات الشفوية - الذكريات المستعادة - لمن عرفها بعمق أو بشكل عابر. إن المفاهيم الجامدة عن السلوك المناسب لكل جنس تظهر على السطح بالذات عند مناقشة العمل بالفن في مقابل الشرف العائلي وفي مناقشة ما تحبه أسمهان وما لا تحبه ونواقص شخصيتها. في النهاية فقد صورها كتاب سيرتها العرب على أنها ضحية الظروف، أما المراقبون عن بعد مثل المرنيسي فقد صوروها على أنها مشارك نشط في مصيرها.

إن حياة أسمهان هي تكثيف للمفاهيم الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تبلورت عبر القرن العشرين. إن التناقضات في تجربتها مثيرة للاهتمام في سياق سنوات الحرب لأن التوتر الثقافي بين الغرب والشرق انعكس على التغيرات السياسية في تلك المرحلة وتعقد بسببها. إن الحروب حول الثقافة والسياسة لم تحسم وقد أعيد إحياؤها عبر الحركات الإسلامية وردود أفعال الحكومات تجاهها. إن أغلب أعضاء تلك الحركات ينظرون إلى أنواع معينة من الفن بشكل سلبي. كما كانت بعض الحركات الاشتراكية الشعبوية تسخر من أنواع من الفنون انتشرت في تيارات ثقافية معينة في الثلاثينيات والأربعينيات لأنها كانت ذات شعبية ضمن الصفوة في تلك المناطق. إن الخوف من الهجوم قد أثر في العاملين بالفن أكثر مما أثرت فيهم الرقابة. بل إنه عبر التسعينيات اعتزل عدد من الراقصات (وبعض المغنيات) في مصر المهنة وارتدين الحجاب. وفي مساجد أوروبا وأمريكا، بعيدا عن المعركة بين العلمانيين والإسلاميين، يدعو الخطاب المحافظ إلى تجنب الفن الحديث والموسيقى والمسرح والرقص.

إن جزءاً من الدعوة الإسلامية الحديثة والهادفة إلى الارتقاء بالروحانية الفردية والأخلاقيات الجماعية قد أهملت تقاليد جمعية أخرى من الماضي للأسف. تقاليد يتم نفيها ورفضها لارتباطها التاريخي بالرذيلة وأيضا لضيق أفق القادة والمسئولين الدينيين الحديثين وطريقة تدريبهم.



إن عملية التطهر في الشرق الأوسط لم تتضمن الثقافة العربية فقط ولم تكن مظهرا عربيا على وجه الخصوص للتطور الثقافي. وبينما يتم إهمال أو نسيان احتفالات فولكلورية قديمة تتضمن موسيقى إلا أن الموسيقى والفن والرقص بالتحديد يتعرضون للهجوم. إن الفنانين



حياة أسمهان هي تكثيف للمفاهيم الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تبلورت عبر القرن العشرين

الفولكلوريين المحبوبين في تركيا من الأشيكلار (شعراء النقد السياسي والاجتماعي) إلى مطربين مثل زكي مورن Zaki Muren عانوا من المنع والاتهامات الأخلاقية وحتى النفي. إن ممارسي الفن بأكملهم تقريبا قد هاجروا من إيران بعد الثورة مما أدى إلى نتيجة مؤلمة على مستوى معين وهي أن على المنفيين اختيار إما الاستمتاع بالعروض الثقافية وبالتالي اعتبارهم معادين للدين وإما العكس.

في بعض الحالات توجد أسباب طبقية لتفادي الموسيقى والرقص والسينما الشائعين. وتمثل السن عاملا أيضا. إن الشباب هم المستهلكون المتوقعون لأنواع معينة من الفنون. إن أشرطة موسيقى الراب rap العربية مقبولة تماما في أسواق المشرق العربي ويغنيها الأطفال في طريقهم من وإلى المدرسة في جميع أنحاء سوريا والأردن ولكنها لا تدار في حضور الكبار المتدينين أو في الجلسات العائلية المختلطة. إن حيوية بعض أنواع الفن تنسب إلى التأثيرات «الغربية» مع أنها أحيانا كثيرة، تنبع بشكل مباشر من الثقافات المحلية. إن الإسلاميين في الجزائر لا يشعرون بالراحة عند مناقشة الأشكال المحلية من موسيقى الراي التي تحولت إلى صناعة كاملة هناك وفي أوروبا يسيطر على المناقشة أفكار حول الحوافز المادية و«التلوث الغربي والإغراءات المصاحبة له». إن تلك التحفظات لا تفسر استمرارية الاستمتاع بالموسيقى والرقص، وفي القرن الحالي، السينما على المستوى الشعبي وعلى اتساع المنطقة. فهي تبدو نشاطات إنسانية أساسية تتجاوز المنع والرقابة والحظر.

إن الموسيقى والسينما التي تتضمن مواضيع غير دينية تحظى باعتراض الكثير من المحافظين دينيا (وليس الإسلاميين وحدهم) ولكن العديد من هؤلاء المنتقدين أنفسهم يحرصون على مشاريع حفظ ونشر جوانب أخرى من الثقافة أو التراث العربي الإسلامي. هل هذا التوتر بين الفن والدين هو السبب في حيرتنا عندما نفكر في فنانين مثل اسمهان؟ أم أن تعامل أسمهان مع السياسة هو سبب تلك الوصمة. وهو نشاط أشترك فيه العديد من الرجال وغير الفنانين بدون آثار دائما مماثلة على سمعتهم. أم أن السبب ببساطة أن أسمهان كانت امرأة ولدت في عائلة محافظة لكن القدر قذف بها في ظروف أدت بها إلى مجال مربح ماديا وإن كان أدنى في القبول الاجتماعي وهو الفن.

إن الحدود بين الطبقات لا تتم مراعاتها بنفس الدرجة بين الجنسين. فإن أخاها فريد بفضل نجاحه وطول الفترة التي دامت خلالها نجوميته نظر إليه أقرباؤه الدروز باعتباره ممثلهم الثقافي. إنه يستحق عملاً كاملاً بالإنجليزية عن سيرته الذاتية ولا يتسع المجال لهذا الآن. ولكن إذا نظرنا لتطوره من موسيقي شاب إلى مغنٍ/ موسيقي ثم إلى مؤلف موسيقي/ مغنٍ/ ممثل. فإننا نلاحظ أن كونه رجلاً كان عاملا مساعدا في مساره المهني وليس نقيصة. إن الطريقة التي استفاد بها مسارد المهني من ظهوره على الشاشة مع أخته ومن غنائها لألحانه تدعونا لتأمل التشابك بين مساريهما الفنيين. إن تلك الفترة أعقبتها فترة أخرى من التطور المنفصل ثم - عندما فرقه الموت عن شريكته في الموسيقى. صعود فريد وحده وحياته الفنية غزيرة الإنتاج.

في المقابل بقيت أسمهان ذكرى جميلة وإن كانت «مخجلة» ليس بالنسبة لزملائها من الفنانين ولكن عامة في السياق العربي والدرزي، وكان هذا تحديدا لأن، كما قال روبرت بتس «إن عرض المرأة هو الشيء الأهم في حياة العائلة الدرزية وتلويثه هو أكبر إهانة يمكن أن تصيبها».

إن إنجازات أسمهان الفنية ووجودها السينمائي القصير والباقي في الذاكرة يضعانها بما لا شك فيه ضمن التراث الحديث وبالذات ضمن فترة من التجريب في الموسيقى تستحق أن تبقى في الذاكرة في عصرنا بخليطه الموسيقي الإلكتروني و«إيقاعات العالم». إن التأمل الجاد في أداء أسمهان والمؤلفات التي اشتهرت بها يؤيد التصور حول كونها حقا مغنية موهوبة في الغناء العربي الكلاسيكي والحديث. إن المحاولات الحديثة للبحث عن أكثر المؤلفات مصرية أو عربية ليست ذات معنى عند تطبيقها على المرحلة التي ظهرت فيها. (هذا الأمر أقل صحة بالنظر إلى مسار فريد الفني فيما بعد حيث كان عبد الحليم حافظ قد أصبح الطفل المدلل لجمهوره من الضباط وأصبح قبول فريد أوسع في العالم العربي وأقل في مصر بأغانيه ذات الكلام المنتمي للقومية العربية مثل «من الموسكي لسوق الحميدية» و«بساط الريح» بالإضافة إلى قدرته على غناء المواويل باللهجة الشامية). كما أن هذا البحث عن النقاء الثقافي غير مجد عند تطبيقه على العقود المبكرة في مصر عندما كانت الموسيقى والنصوص متأثرة بشكل كبير بالتراث العثماني.

إن المؤلفين والملحنين والموسيقيين في عهد أسمهان اشتركوا بوعي وبدون وعي أحيانا في النقاش المتزايد حول الحداثة في الترفيه. إن هذه الحداثة كما كان الحال في أوجه أخرى من الترفيه (مثل السينما) لم تعن بالضرورة التقليد الحرفي للغرب. إن التقنيات الغربية في حركة الكاميرا وأساليب الإخراج وطرق الإضاءة والإخراج الأفضل للصوت قد دعمت تطور السينما دون شك. وبالمثل فإن إدخال العديد من الآلات والإيقاعات الغربية والأنماط الموسيقية مثل الدويتو والأوبريت والتجريب عبر التقنيات الموسيقية والصوتية الغربية قد أغنى تطور الموسيقى العربية في القرن الواحد والعشرين. وفي نفس الوقت فإن تطور الخطوط الدرامية والميلودراما أقرب للتراث العربي بما يتضمنه من سير وقصائد وقصص حب عنه إلى طبيعة تطور السيناريو في السينما الغربية. إن مقاطع الجواب والرد في الموسيقى الفولكلورية العربية وفي موسيقى البلاط العثمانية ساعدت الملحنين في بحثهم عن توزيعات موسيقية جديدة.

كما أن المستمعين كانوا جزءاً مهماً من هذا التحديث. إن الجماهير في الشرق الأوسط قد تم تدريبهم كمستمعين من وقت التقدير الشعبي للحكاواتي (سارد القصص التقليدي وهو فن مفقود تقريبا الآن) إلى زمن الراديو عندما كان الناس يجتمعون لسماع الفنانين على الطبيعة أو عبر الإذاعة وكانت المناسبات الاجتماعية والجمالية تخلق من جراء الاهتمام الخاص للأهمية الفنية للمؤدي. يحب أن يتذكر العديد من الكبار من المغرب إلى لبنان ومن مصر إلى إسرائيل ممن يبلغون سناً معينة لقاءات كانت تجمعهم حول الراديو مساء الخميس ليستمعوا لبث حفلة أم كلثوم. وعلى نفس المنوال لن ينسى العديدون أول مرة شاهدوا فيها فيلما لأسمهان، وتعلو بكل تلك المتع قصص حول حياة الفنانين.

إن المتخصصين في علم موسيقى الشعوب يبلغوننا أن الموسيقى تحمل قيمة رمزية في كل الثقافات. إن الموسيقى فن رمزي وليست فن نقل. ولذلك فإن من الممكن ربطه بنقاشات عامة حول طبيعة التراث الثقافي كما هو الحال في الشرق الأوسط. كما أن الموسيقى حسية وقد كانت تلك الحسية هي ما دفع إلى الاعتراض على دور الموسيقى في المجتمع والتعليم في العالم العربي وبشكل ثانوي كان هناك تخوف من اقتراب الموسيقى من تصرفات محرمة أخرى مثل شرب الخمور والجنس خارج نطاق الزواج والإسراف وفي الوقت الحالي المخدرات. ولكن حسية الموسيقى شيء مركب وتمتد حتى إلى ترتيل القرآن الذي يمتع المستمع ويتطلب انتباهاً سمعياً. وبالمثل فإن القصائد الجادة التي تتحدث عن مواضيع تاريخية ورومانسية والتي غنتها أسمهان كانت تثير المستمعين.

إن أي مناقشة حول الوضع الإشكالي للمغنية المرأة في بداية العصر الحديث أو في العصر الحديث تتصل بالتساؤلات القديمة حول الوضع المشكوك فيه لمن يبدعون في المهن الترفيهية من النساء والرجال على السواء كما يتصل بالمحذورات الأحدث بالنسبة لتبرج النساء علنا. وكجزء من هذا الوضع المشكوك فيه فإن قدرة المؤدية الموهوبة على استخراج المشاعر من الجمهور لصيقة باعتمادها على المريدين والمعجبين. إن قصة أسمهان تؤكد استنتاجات الباحثين الذين لاحظوا أن ثمة مكانة خاصة تمنح للمؤدين في الثقافات المختلفة ولكنها ليست بالضرورة مكانة مرتفعة. وبشكل تاريخي فإن هذه الحقيقة تأتي من الأدوار المتعددة للموسيقى في الماضي البعيد ومن ضمنها الطقوس العلاجية وأبدال الهوية الجنسية أو بعض من افتراض ارتباط المغني بالرغبة. إن المكانة الخاصة للمغني في الشرق الأوسط نبتت من ضرورة وجود راع للإبداع الموسيقي ومن ثم جاء ارتباط الموسيقيين بالبلاط والعشيقات. ومع أن الكل يرى أن القرن العشرين كان عصرا جديدا إلا أن الأفكار القديمة تموت بصعوبة وببطء وقد تم التغلب عليها أساسا عبر التغيرات الاقتصادية الضخمة التي أثرت في المجتمع واضعة المؤدين في طبقة الأثرياء الجدد. ■



بقيت أسمهان ذكرى جميلة وإن كانت «مخجلة» ليس بالنسبة لزملائها من الفنانين ولكن في السياق العربي والدرزي.

عرابى..

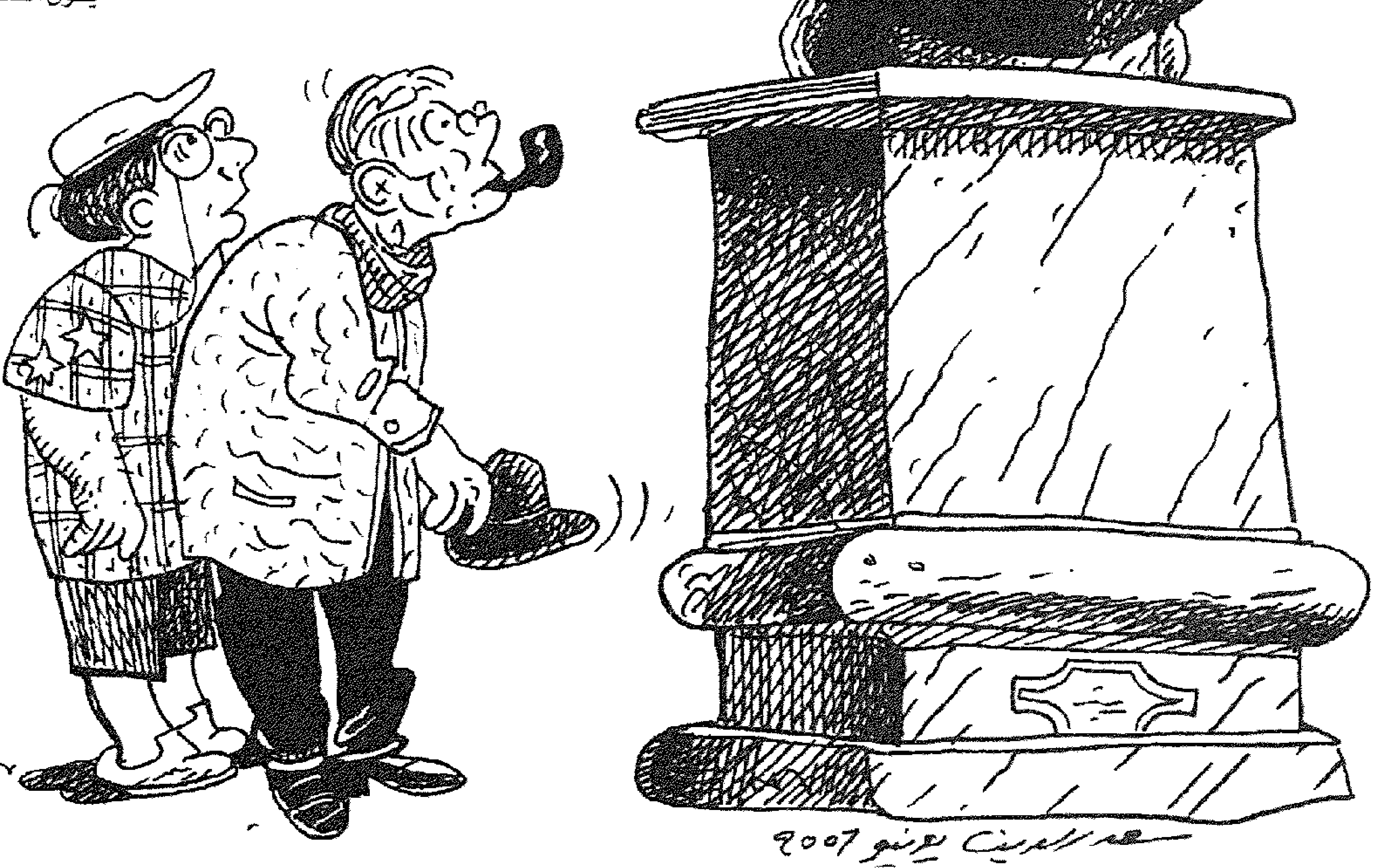
عـــزت إبراهيـم

شغلت الثورة العربية حيزا مهما فى العقل السياسى الغربى لفترة من الوقت سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة نتيجة الصدمة من وقفة التيار الوطنى وحملت مراجع تاريخية تفاصيل عن تلك الحقبة منها كتابات لرجال من العسكرية الأمريكية تواجدوا فى مصر أثناء الثورة.. لكن الشأن المصرى فى الصحافة الأمريكية القديمة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يحمل من التفاصيل الكثير والكثير.. كنز من المعارف والأسرار يضيف إلى وجهات نظرنا معلومات مهمة.. وفى مناسبة الذكرى الـ ١٢٥ للثورة العرابية نقدم قراءة لما تناولته الصحف الكبرى والمحلية عن الزعيم الوطنى «أحمد عرابى» قائد الجيش المصرى خاصة محاضرة مجهولة للقنصل العام الأمريكى - السفير فعليا - فى مصر فى ذلك الوقت سيمون وولف، والتى ألقاها فى نيويورك فى ٧ يوليو عام ١٨٨٢، يطلب فيها عدم التسرع فى الحكم على حركة الجيش المصرى وفهم الأسباب التى تدفع الزعيم عرابى إلى مواجهة الدولة العثمانية وحلفائها الأوروبيين من أجل تحقيق الاستقلال الوطنى وليس من باب العداء للغرب أو المصالح الغربية.. ويروى القنصل تفاصيل عن حواراته مع الزعيم عرابى قبل تصاعد المواجهات بينه وبين الباب العالى فى اسطنبول - الذى واصل التحريض على تحطيم الثورة العرابية - من أجل منع تيار «الحزب الوطنى» الذى اتضحت معالمه تحت قيادة عرابى من الاستقلال بمصر وتعريض مصالح حملة أسهم قناة السويس للخطر!

هل كان يمكن أن يتغير مسار التاريخ؟

إن تتبع تاريخ الفترة الفاصلة فى تاريخ مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تكشف عن حجم التلاعب بالرأى العام فى البدايات الأولى للصحافة العالمية لمصلحة قوى الاستعمار التى راحت تصوغ صورة سلبية عن الشعوب الأخرى والتى نعانى اليوم من كثير من آثارها.. وبينما راحت الدول الاستعمارية تتنافس على احتلال الدول فى هذه الفترة كان البعض من الزعماء الوطنيين يتطلعون إلى مساندة من الولايات المتحدة- القوة الصاعدة فى ذلك الوقت- لمنع الأوروبيين من مواصلة التوسع إلا أن الخطاب الأمريكى الرسمى المؤيد لتحرير الشعوب لم يصمد أمام المصالح الغربية ربما لعدم رغبة واشنطن فى التدخل فى مناطق نفوذ الاستعمار القديم.. والمعروف أن الولايات المتحدة لم تبدأ الالتفات بجدية إلى كثير من مناطق النفوذ التقليدى للقوى القديمة إلا بعد تدخلها فى الحرب العالمية الأولى وإعلان الرئيس وودرو ولسن مبادئه الشهيرة عن حق تقرير الشعوب لمصائرها..

يقول القنصل وولف: عرابى باشا رجل



ذكى وصادق وقد تلقى تعليما رفيعا.. وهو يعرف قدر المنصب الذى يعتليه فى بلده ويعلم حجم المسئولية الملقاة على عاتقه.. ويضيف القنصل: عرابى يعرف كل شىء عن الولايات المتحدة، تاريخها وصراعاتها، وقد أخبرنى أكثر من مرة أنه يرغب فى إصلاح يفضى إلى ظهور حكومة دستورية فى مصر.

ويكشف وولف عن جوانب أخرى لقائد الجيش المصرى فيقول أنه قدم له نسخة من السيرة الذاتية للجنرال جارفيلد (الرئيس الأمريكى الذى توفى متأثرا بجراحه عقب الاعتداء عليه فى عام ١٨٨٢) باللغة الفرنسية وهو ما رد عليه عرابى بالقول أنه سيطلب ترجمتها إلى اللغة العربية لينتفع بها الشباب فى بر مصر، وأنه بناء على اقتراح من القنصل طلب عرابى باشا من الجيش المصرى القيام بترجمة الدستور الأمريكى.

وينفى القنصل وولف عن الزعيم عرابى الادعاء بأنه كان «متعصبا» ويقول إنه شخصية وطنية وهو ما يجعله فى حالة عدم اتفاق فى كثير من آرائه مع ما يراه الأجانب الذين لا يبدون تعاطفا معه أو مع مصالح بلاده.. إن خطر وقوع مذابح ضد اليهود أو المسيحيين فى بلاد العرب لن يحدث على خلفية القول إن العرب يتسمون بالتعصب ولكن العنف سيأتى من وراء الرغبة الجامحة أو ما يسمى دبلوماسية القوى الكبرى.. فى المقابل فإن الخديو توفيق، الذى صنعته فرنسا وبريطانيا، رجل هادئ الطباع واقع تحت تأثير الدولتين ويفتقد الإصرار مما يجعل القيادات الوطنية غير متعاطفة معه.. ولو كان الخديو توفيق فى المعية جده محمد على أو حصافة والده إسماعيل لكان قد اتخذ قراره بأخذ صف أبناء شعبه من المصريين يأخذهم إلى طريق الاستقلال الوطنى الذى يستحقه المصريون.. لكن الأمور تسير فى الطريق المعاكس وها هو الرجل الذى ينحدر من سلالة نابليون المصرى (يقصد محمد على الكبير) يسعى إلى الحماية من الغزاة بدلا من السعى إلى طردهم..

وعن الشعب المصرى قال القنصل الأمريكى إنه يعتبر أمريكا صديقة له مؤكدا أن المصريين يستحقون تعاطف الولايات المتحدة معهم فى صراعهم من أجل الدفاع عن أرضهم وحماية ديارهم.. إن ما يحتاجه المصريون فعليا- يقول وولف- هو «الحياد الذى تضمنه جميع القوى، الاستقلال عن تركيا، اقتصاد أفضل من أجل الخدمات العامة، إلغاء الجيش فيما عدا مهام الشرطة وأخيرا وليس آخراً مدارس نظامية يتعلم فيها صغار المصريين اللغات المعاصرة».

وانتقد وولف حالة النفاق التى تتمتع بها الامبراطورية البريطانية فى ذلك الوقت وقال إن هذه الحالة تتبدى بوضوح على جنبات نهر النيل مثلما هو الحال فى كل بقعة أخرى من العالم.. حيث تقوم بممارسة الاستقواء على مصر مستغلة ضعفها.. فماذا سيحدث لو أننا امتنعنا عن مستحقات السندات أو لم نسدد الفوائد هل ستجرؤ انجلترا أن ترسل أسطولا مسلحا إلى نيويورك؟

وقد حملت المحاضرة التى نشرتها صحيفة «نيويورك تايمز» إلى جانب صحف أخرى فى الولايات المتحدة (٩ يوليو ١٨٨٢) عنوان: «مطلب مخلص من أجل المصريين» وعنوان فرعى «كلمات طيبة فى حق عرابى باشا».. وقد اتضح من صحافة تلك الفترة أن الأمريكيين تعاطفوا مع الثورة العرابية ولم تشهد فترة من تاريخ مصر والشرق الأدنى مثل هذا الاهتمام الذى نالته حركة عرابى فى الصحافة الأمريكية فى القرن التاسع عشر لكن مصالح الدول الأوروبية انتصرت على رغبة البعض فى استخدام الولايات المتحدة لنفوذها لوقف مطامع الدول الكبرى وشروع الدول الاستعمارية فى عملية الدعاية المضادة ضد القوى الوطنية لتبدأ مرحلة جديدة من الاستعمار الحديث.. وتراوحت المقالات والتقارير ما بين المطالبة بإيجاد تسوية تخلص المصريين من الدولة العثمانية وأخرى تدعو إلى سحق تمرد الجيش لأن عرابى يريد إقامة دولة دينية كبرى انطلاقا من مصر!



وربما من المفيد التعرف على مصر فى عهد الثورة العرابية من الوصف الذى قدمه القنصل الأمريكى العام حيث يقول: يتألف الحزب الوطنى- هكذا فى نص المحاضرة أى قبل أكثر من ٢٠ عاما من تأسيس مصطفى كامل للحزب- من طبقة متعلمة من المصريين المسلمين والأقباط تخرجوا من الأزهر ومدارس أخرى، بالإضافة إلى أصحاب متاجر التجزئة وأصحاب متاجر الأخشاب وشيوخ القرى وممثلى الشعب فى البرلمان ورجال الجيش باستثناء الضباط الشراكسة والعرب البدو فى الدلتا.

ويضيف القنصل شارحا لحالة الطبقة العاملة المصرية: إن العمالة المصرية فى مجموعها لا تختلف تقريبا عن مثيلاتها فى القارة الأوروبية من حيث تعاملهم مع السياسة.. ولكننى عندما غادرت مصر كانت هناك فكرة متنامية بأن عرابى سيقوم، بطريقة ما، بتخليصهم من عبء الديون ومن الطغيان الذى يلقونه على أيدى المدينين.. وجميعهم يمقتون الأتراك ويتعاملون مع الأوروبيين وفقا للأشخاص والطبقة التى يحتكون بها..

ويقول: إن الحزب الوطنى يواجه أسرة محمد على والتابعين لهم من الشركس (١٥ ألفا) واليونانيين من الصيارفة والمقرضين (٣٠ ألفا) والسوريين والأوروبيين الذين ينقسمون إلى ١٤ ألف إيطالى و١٤ ألف فرنسى و٣٥٠٠ نمساوى وألمانى و٨٥٠٠ إنجليزى و١٥٠٠ من جنسيات أخرى ليصل المجموع إلى ٣٦ ألفا و٥٠٠ أجنبى يتحدثون جميعا بحدة عن الحزب الوطنى ويشكو الفرنسيون وجميعهم من المضاربين فى البورصة من تأثير الثورة وتعرضهم للخسارة.. بينما الإنجليز يشعرون بالإحباط من الحركة التى تؤجل من سعيهم للاستحواذ على مصر وهو ما يخططون له منذ قرابة ٧ سنوات.. أما الجالية الإيطالية فهى منقسمة ما بين التأييد للثوريين نكاية فى الإنجليز والفرنسيين أو حبا فى الحرية.. كما أن فقراء الإيطاليين من المالطيين قد تعلم معظمهم اللغة العربية ويبدون تعاطفا مع المصريين.. فى المقابل يؤيد الأمريكيون والبلجيك والسويسريون وجود الحركة باعتبارها شيئا أصيلا.. والإنجليز اليوم هم أكثر الجاليات الأجنبية إثارة للقلق فى الوقت الراهن ويشكلون خطرا حقيقيا على مصر نتيجة التعويل الكبير من جانبهم على الضباط الشراكسة الذين يحيون معهم دون سائر المصريين بعلاقة مودة شديدة..

هكذا.. انتهت شهادة القنصل العام وولف عقب مغادرته مصر فى أبريل عام ١٨٨٢ فى الوقت الذى كانت القوات البريطانية تزحف قادمة من الدلتا صوب القاهرة لتحتلها فى سبتمبر من العام نفسه..

فى اليوم ذاته «٩ يوليو ١٨٨٢» قالت صحيفة «بوسطن ديلى جلوب» فى صدر الصفحة الأولى «عرابى بك يأمل فى دعم معنوى من أمريكا».. وقال تقرير الجريدة - التى توقفت عن الصدور- إن أخبارا من الإسكندرية تتحدث عن توقع عرابى دعما معنويا من الولايات المتحدة للضغط على إنجلترا من أجل التفاوض مع الوطنيين المصريين..

ومن أغرب ما أثارته الصحافة الأمريكية فى مرحلة الثورة العرابية الاستخدام المفرط لتعبيرات الحرب المقدسة.. ففى بريد القراء لصحيفة واشنطن بوست عدد ١٥ أغسطس ١٨٨٢ وتحت عنوان: ما هو الجهاد؟ بعث قارئ يسأل عن الجهاد وهى الكلمة التى وردت فى الأخبار الوافدة من مصر قبل يومين وقال القارئ: منذ أيام أوردت الأخبار التلغرافية تهديد عرابى باشا بإعلان الجهاد فى جميع أنحاء الأرض فرجاء توضيح معنى الكلمة التى لم أعثر على ذكرها فى الموسوعة ولم أجد كذلك من يوضح لى المعنى. انتهت الرسالة!

ملحوظة: عثرت على رسالة مماثلة فى بريد قراء «نيويورك تايمز» عام ١٩٨٩ أى بعد ١٠٧ أعوام من الرسالة الأولى.

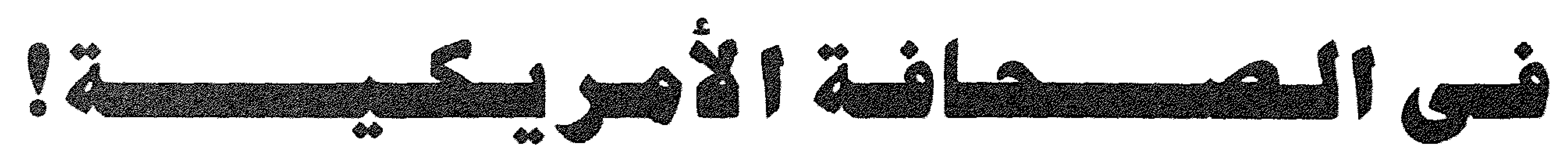
شهادة عامل سنترال

ومن أطرف الشهادات التى عثرت عليها فى الأرشيف القديم لكبرى الصحف الأمريكية شهادة المسئول عن تركيب معدات السنترال الخاص بالخديو توفيق- فى وقت كان التليفون حدثا جديدا وأراد الخديو الاستقلال باتصالاته بعيدا عن الحاشية- والذى راعه ما قرأه عن قائد الثورة العرابية، فقرر إرسال خطاب إلى صحيفة «نيويورك تايمز» يشكو فيها من الصورة المغلوطة لعرابى فيقول: إن الرجل كثيرا ما تحدث إليه بشأن احترامه للثقافة الغربية وأنه يقتنى فى منزله لوحات لفنانين غربيين..

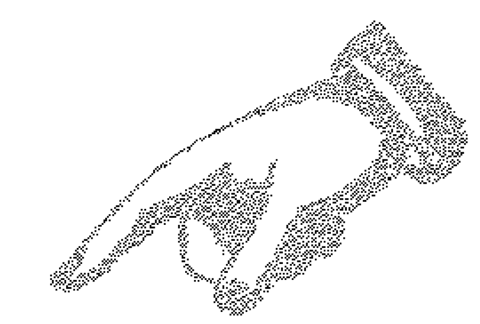
تحت عنوان «عرابى والتليفون وغاريبالدى» قالت نيويورك تايمز فى ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ ان السيد روسى عامل الهاتف أرسل لصحيفة يومية فى باريس يصف مقابلته لعرابى باشا فى العام الماضى ١٨٨١.. ويقول: إنها المرة الأولى التى يحدث عرابى وجها لوجه وهو الذى عرف عنه الخلق الطيب والمحب لكل ما هو جميل ونافع.. ويمضى الرجل قائلا: إن ما عرف عن عرابى هو الولع بدخول الكهرباء وأنه حصل قدرا من العلوم.. لذلك بادرنى بأسئلة عن أنظمة الكهرباء وهو ما أثار دهشة المترفين الإنجليزيين فى قصر الخديو.. ولما علم عرابى أن عامل الهاتف إيطالى الجنسية تحدث إليه عن الزعيم الإيطالى غاريبالدى وقال روسى: إنه تناول سيرة الرجل كما لو كان إيطاليا وبكل اعتزاز وإعجاب.. وقال عرابى: «عندما تأتى إلى منزلى سوف ترى لوحة لغاريبالدى فهى تشغل مكانة محترمة وهى اثمن ما لدى من لوحات»..

فيكتور هوجو يدافع عن عرابى

نشرت «نيويورك تايمز» رسالة لمراسلها فى باريس فى ٣٠ أكتوبر ١٨٨٢. نقلا عن



كتاب الزاوية



المواجهة

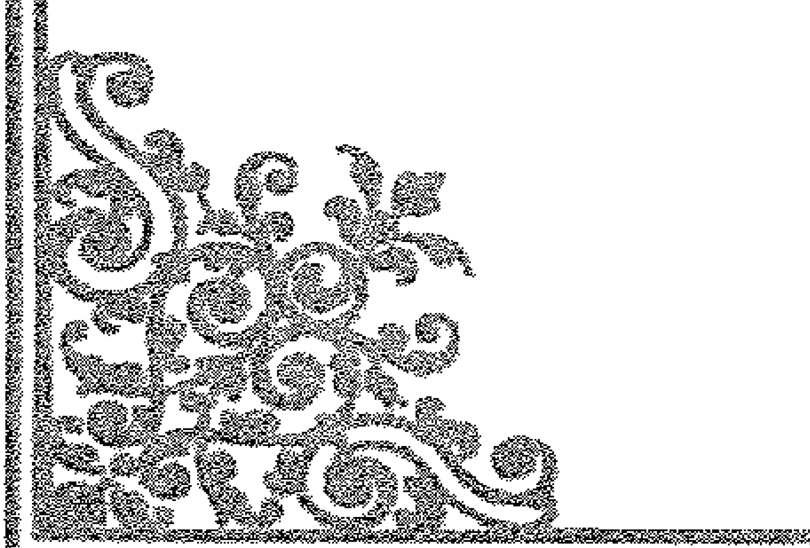
مذكرات اللورد كيلرن

فى تمام الساعة ٩ مساء وصلت إلى القصر وبصحبتى الجنرال ستون Ston بالإضافة إلى مجموعة خاصة منتقاة من الضباط الأقوياء العسكريين المسلحين تسليحاً كاملاً.

وبدون مقدمات دخلت فى الموضوع الذى من أجله حضرت الان قائلاً: «لقد حددت الساعة ٦ مساء بالإجابة بنعم أو لا على رسالتى التى وصلت إليك فى هذا الصباح وبدلاً من ذلك فإن حسنين باشا قد أبلغنى بأنه أحضر لى الساعة ١٥.٦ مساء معلومات لم أوافق عليها بطبيعة الحال.

وإنى أريد إجابة الآن. وهنا وبدون مراوغة أكثر من هذا، عما إذا كان الرد بالنفى غير أن الملك فاروق يسعى إلى المجادلة فى أمور لفظية (وردت فى نص الإنذار). ومن ثم لم أترك له فرصة الحديث قائلاً بأنه يجب عليه أن يوقع هذا فوراً وإلا سأضطر لاتخاذ إجراءات أخرى غير سارة أواجهك بها.

تردد الملك فاروق للحظة من الوقت، وهم أن يوقع خطاب التنازل عن العرش لولا أن اعترض حسنين متداخلاً (باللغة العربية)، وبعد لحظة مشوبة بالتوتر انتبه الملك فاروق الذى روعه التهديد تماماً، وطلب منى بنبرة حزن وتخلو من تبجحه السابق، أليس بإمكانى إعطائه فرصة أخرى؟ وقد أجبته، يجب أن أعرف بشكل قاطع ماذا تقترح رداً على ما سبق، أن كررته مرات عديدة وبشكل قاطع؟ وقد أجابنى بأنه سوف يستدعى النحاس فى الحال، وفى حضورى إذا أردت، وأكلفه بتشكيل الوزارة، وقد أكدت عليه بوضوح بأنه يقصد حكومة النحاس وباختياره هو شخصياً.



عرابى.. فى الصحافة الأمريكية

جريدة فرانس ابيل. يقول فيها إن الكاتب والمفكر الفرنسى فيكتور هوجو (صاحب رواية «البؤساء» الشهيرة، وكان شاعرا وروائيا ورساما، ولد عام ١٨٠٢ وتوفى عام ١٨٨٥) بعث عبر الجريدة برسالة احتجاج ضد محاكمة عرابى وما يحدث له.

وقال هوجو: «عرابى يحكم عليه.. فمن هو عرابى ؟ هل هو متمرد؟ نعم.. هكذا يقول الخديو.. لا.. ليس كذلك هكذا يهمس السلطان. هل هو محرر ؟ محرر لمن؟ إن الشعب المصرى سيكون مؤهلا وسيكون عظيما فى القرن العشرين.. إن ذلك لم يأت بعد.. هل هو معتد؟ هذا ينطبق على الحرب ولم تكن هنالك حرب. كانت هناك عمليات غير نظامية تحتاج إلى تفسير من إنجلترا. لكن لم تكن هناك حرب. إنجلترا لم تكن فى حرب ضد مصر. ولم تكن فى حرب ضد تركيا. فمن هو عرابى إذاً..؟ هو سجين اليوم. نحن، العابرون العاديون غير المعروفين، نحن موجودون ونحن نحيا، والحكومات تعمل بالقرب منا. وما يفعلونه أنهم يختبئون منا ؟ ونحن نعلم أنهم لا يمكنهم ذلك. وهم يعلمون أيضا، على الأرجح، أنه لا يمكنهم الاختباء.. لكننا نرى ما لا يرون.. نرى ما وراء ذلك.. ما وراء الأفق.. ما الذى يفعله المستقبل.. نحن نرى تيار الأسلمة يتفتت فى الشرق والكاثوليكية تغرق فى الغرب.. وهذا واضح أمام ناظرينا. الحكومات تخفى ما تفعله عنا.. بينما نحن نرى ما تفعله الحضارة.. نحن على قناعة أن الحكم بالموت يلخص ويمثل جميع الأنظمة الإجرامية فى الماضى.. هو ملاك الشرائع القديمة.. واليوم هو مدان ومستهجن..».

.. ويمضى هوجو فى سرد تاريخ التخلص من عقوبة الموت وصولا إلى «لم يعد ملاكا بل شبحا.. إن الحكم بالموت اليوم صار أقوى من ذى قبل.. عرابى سوف يعاقب بالرمى بالرصاص.. تلك لغة تفاجئنا.. لكنها تشعر بعدم الارتياح.. كلا الحضارة ليست هى البربرية.. كلا الوحشية ليست هى عدالتها الراهنة.. الحضارة لا تقتل رجلا مثلما كانت المجتمعات القديمة تفعل دون أن تعرف لماذا..».

إلى المنفى. قالت صحيفة «نيويورك تايمز» فى عدد ٥ مارس ١٨٥٧ أن سفينة عرابى وصلت إلى بومباى فى ١٦ يناير ١٨٨٣ بعد أن أبحر من السويس فى ٢٧ ديسمبر ١٨٨٢ فى طريقه إلى كولومبو. وعادت الصحيفة فى ٢٠ نوفمبر لتحذر من تصاعد شعبية عرابى باشا منذ وصوله إلى سيلان حيث زاره الآلاف من الهنود المسلمين منذ أن وطئت قدماه المنفى لدرجة أن الصحيفة قالت إن مقر الباشا صار يمثل «نصف الطريق إلى مكة». وفى مطلع عام ١٨٨٤ قالت الصحيفة (عدد ٧ يناير) إن عرابى باشا يجلس فى فراندة المنزل الذى يسكنه يقطع شوطا مشهودا فى تعلم اللغة الإنجليزية ولا توجد لديه رغبة فى العودة إلى مصر قبل أن يحصل بلده على حريته بينما يحمل بشدة على حكم توفيق المتردى وطاعته العمياء للاحتلال. واستمرارا للاهتمام نشرت الصحيفة فى ٢٤ فبراير حوارا بقلم السيد مونكيور دى كونوى الذى لقب عرابى بزعيم الفلاحين فى العناوين حيث قال عرابى لضيفه إنه يتلقى كلمات تأييد لطيفة من الولايات المتحدة وبريطانيا. وبعد أن تطرق عرابى باشا إلى الوضع فى مصر وثقته فى نيلها الحرية فى نهاية المطاف تحدث عن الولايات المتحدة مؤكدا إعجابه بالحرب التى أسفرت عن تحرير أربعة ملايين من السود من العبودية.

ونقل الكاتب عن عرابى «لكن هناك الملايين ممن لايزالون عبيدا ولدينا فى مصر ١٢ مليونا تحت إمرة رجل واحد فقط - يقصد توفيق- ولكن الأمر لا يمكن أن يستمر. إننى أجلس هنا فى تلك الشرفة أسبوعا يمر تلو الآخر بينما أتعلم الإنجليزية يوميا. ترى ما الذى سينتفعه المصريون من تعلمى الإنجليزية؟ هذا سؤال للعالم كله».. توقفت كلمات عرابى لكن الكاتب يقول: تركت عرابى باشا باعتقاد راسخ فى وطنية الرجل وأنه الممثل الحقيقى لشعبه وأن حماسته اللينية، وليس تعصبه، ربما كانت وراء تمرده بما يفوق ما ذهب إليه المتعاطفون معه من الإنجليز. ■

حوارات مع عرابى فى منفاه

تتبعت الصحافة الأمريكية والدولية الزعيم فى منفاه بجزيرة سيلان وحتى المحطات التى توقف فيها حرصت الصحف على نقل تفاصيلها من فوق ظهر السفينة «ماريوتا» التى أقلت عرابى

هامش

مقتطفات من كتاب سيصدر فى الولايات المتحدة لكاتب المقال فى مطلع ٢٠٠٩ تحت عنوان:

AMERICA, MOHAMMEDANS, AND JEHAD: WHAT DID NEWSPAERS TELL YOUR GRANDFATHERS?"

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

اعترافات كيسنجر

خالد داود

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٧، ٢٥١صفحة



يحتوى الكتاب على مئات المكالمات الهاتفية التى أجراها كيسنجر منذ اندلاع حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وحتى نهايتها، ويتناولها المؤلف بالتحليل والنقد.

وكيسنجر الذى يمكن اعتباره أشهر وزير خارجية أمريكى، ينظر إليه البعض باعتباره نموذجًا يحتذى به، فيما يراه آخرون مجرم حرب، ويحملونه مسئولية - أو على الأقل المشاركة فى مسئولية - أسوأ المذابح التى شهدتها دول جنوب شرق آسيا: فيتنام وكمبوديا ولاوس وبنجلاديش وتيمور الشرقية، كما أنه وقف وراء عديد من أعمال العنف والانقلابات التى شهدتها أمريكا اللاتينية، والتى كان أشهرها الإطاحة بالرئيس التشيلى المنتخب سلفادور الليندى.

أما فى حرب أكتوبر، فقد عبر كيسنجر عن انحياز كامل لإسرائيل منذ الساعات الأولى للحرب التى تكشف فيها الوضع، وكان هو صاحب الجسر الجوى الأمريكى لإسرائيل، الذى بموجبه كانت تهبط طائرة أمريكية كل ١٥ دقيقة، ويشير المؤلف إلى أهمية هذا الجسر بما قاله كيسنجر نفسه.. «لو لم نكن قد قمنا بالجسر الجوى لكانت إسرائيل قد ماتت بحلول الوقت الحالى» هذا ما قاله كيسنجر فى السابع عشر من أكتوبر أى بعد ثلاثة أيام بالضبط من البدء فى هذا الجسر الجوى الذى كان أمراً غير مسبوق فى تاريخ المساعدات الأمريكية لأى دولة فى العالم، وبرغم معارضته كثيرين من السياسيين والعسكريين الأمريكية آنذاك لهذا الجسر، فإن إرادة كيسنجر هى التى انتصرت فى النهاية، وفضلا عن ذلك فقد أصر على جسر بحرى يحمل آلاف الأطنان من المعدات الثقيلة، بعد أن اتفق مع الرئيس السوفيتى السابق ليونيد بريجينيف على قرار مشترك فى مجلس الأمن يدعو إلى وقف إطلاق النار.

فلم يكن كيسنجر يريد فقط تعويض إسرائيل عما لحق بها من خسائر، وإنما أيضًا تزويدها بمخزون ضخم من الأسلحة يضمن تفوقها وعدم تعرضها للهزيمة فى حالة تجدد القتال، بل وعمل على أن يستمر القتال - رغم الاتفاق على قرارات وقف إطلاق النار - حتى يضمن انتصار إسرائيل الساحق مع تدفق المساعدات العسكرية الأمريكية، وكان هو الذى أعطى الضوء الأخضر لإسرائيل لتواصل هجومها على الجيش الثالث وتوسع الثغرة التى نجحوا فى فتحها على الضفة الشرقية للقناة برغم صدور قرار رسمى بوقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر.

هذا الكتاب لا يقدم ترجمة نصية لكتاب «الأزمة» الذى كتبه كيسنجر عن حرب أكتوبر ١٩٧٣، لكنه يمثل قراءة نقدية لهذا الكتاب الذى ينحاز بشكل كامل ومطلق لإسرائيل.

ظهرها إلى الحائط (شعر)

على عطا

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٧، ٨٥صفحة



ديوان من الشعر الحديث هو الثانى لمؤلفه بعد ديوان «على سبيل التمويه» الذى صدر فى عام ٢٠٠٢م.

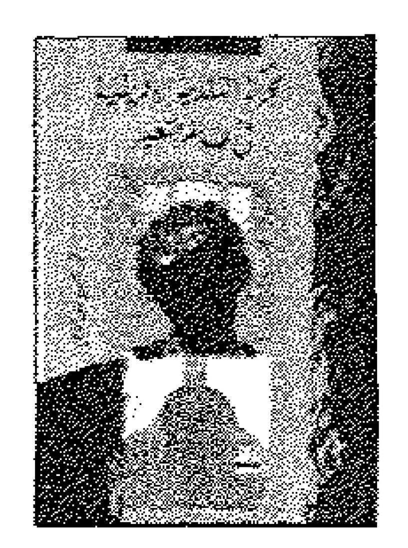
ويضم الديوان الجديد ١٢ قصيدة، أكثرها مما يتعاطى مع العادى والمألوف واليومى، لكنه قادر على النفاذ إلى عمقه بصورة مدهشة، فيحيله إلى صور وتراكيب لغوية حداثية، فضلاً عن اكتشافه للأبعاد الإنسانية الكامنة خلف ما يبدو عاديًا ومألوفًا. وفى كثير من الأحيان يعمد الشاعر إلى المفارقة التى تكتسى أحيانًا بحالة من السخرية المريرة.

البنت التى أسندت ظهرها/ إلى الحائط/ فيما كان زوجها/ يقضى عقوبة الهروب/ من الخدمة العسكرية/ كانت صادقة فى صدمتها/ حين دسست فى يدها/ بضعة جنيهات/ وقلت: أنا مثل أخيك/ لكن لا أعرف/ إن كانت قد قالت/ لأحد غيرى/ أن أخاها الذى يكبرها/ ببضعة أعوام/ خلع براءته/ على باب طفولتها/ كان ظهرها إلى الحائط/ حين انشق صدره وانساب دمع/ كنت أشهق مذهولاً/ وكأنى أفلت فى لحظة/ من الموت/ وأنهته مثلما فعلت/ يوم دفنوا أبى - قبل أن أسلم عليه -/ فى قبر/ لا ناقة لنا فيه ولا جمل.

الحركة النقابية الأفريقية فى عالم متغير

أحمد يوسف القرعى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ٣١٩ صفحة



لعبت الحركة النقابية الأفريقية دوراً مهماً فى دعم حركة التحرر الوطنى الأفريقى من أجل الاستقلال، كما برزت زعامات نقابية أفريقية لعبت أدواراً سياسية بارزة فى تحرير القارة السوداء من أمثال سيكوتورى ولومومبا وأخيراً فريدريك تشيلوبا رئيس مؤتمر نقابات العمال فى زامبيا.

ويتابع المؤلف الدور المهم للحركة النقابية الأفريقية فى إطار الحركة النقابية الدولية. ويطالب بتطوير لجنة العمل الأفريقية إلى منظمة عمل، بما يلقى بمسئوليات محددة على منظمة الوحدة النقابية الأفريقية بوصفها عضواً فاعلاً فى المنظمة الجديدة. ويؤكد على أن أفريقيا لم تكن بعيدة أبداً عن رياح التغيير التى عصفت بالنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا الشرقية، وهو ما ولد قناعة لدى عديد من هذه الدول بحتمية التعددية السياسية، خصوصاً مع بروز الوعى الديمقراطى لدى نخبتها المثقفة. كما أن كثيراً من الدول المانحة للمساعدات الإنمائية للدول الأفريقية ربطت هذه المساعدات بتحقيق تطور ملموس على الصعيد الديمقراطى، وقد اتخذت المجموعة الأوروبية وأمريكا قراراً بعدم تقديم معونة إلا للدول التى تخدم قوانين حقوق الإنسان الأساسية لشعوبها، وهكذا شهدت أفريقيا خلال التسعينيات موجات متتالية من التحول إلى النظام السياسى التعددى، وكانت الحركات النقابية فى طليعة القوى الاجتماعية التى أسهمت فى تسيير عملية الإصلاح السياسى التى قادت بدورها إلى نظام تعدد الأحزاب السياسية، وهو ما أتاح لها مزيداً من الاستقلالية عن النظام السياسى الحاكم، وبادرت كثير من الاتحادات النقابية بالانفصال رسميًا عن الأحزاب الحاكمة وانشغلت أكثر بصياغة النظام السياسى الجديد.

والخطر الذى تواجهه الحركة النقابية الأفريقية كما يشير المؤلف هو فى رؤية معظم السياسيين فى القارة السمراء لها. حيث يرون فى وحدة هذه الحركة تهديداً للسلطة السياسية، ولهذا سعى عدد من هؤلاء السياسيين إلى تفتيت الحركة النقابية فى أفريقيا، الأمر الذى واجهه قادتها برفض قاطع وإصرار على التضامن والوحدة، لكن المؤلف يشير إلى أن هذه الوحدة بقيت دوماً معرضة لعديد من التحديات إقليميًا ودوليًا.

حزب الله.. وسقط القناع

أحمد فهمى

الرياض: كتاب البيان، ٢٠٠٧، ٤٠٢صفحات



الفرضية الأساسية التى يسعى هذا الكتاب لكشفها هى أن حزب الله ليس حزبًا، كما أنه ليس مقاومة وطنية ضد الاحتلال الصهيونى كما يحاول أن يصور نفسه، إنما هو «إيران» الصغرى داخل لبنان وداخل المحيط العربى، ويشير المؤلف إلى تناقضات عديدة فى أقوال قادة الحزب منذ انطلاقه فى ١٩٨٢، كما يشير إلى أن عدد القتلى من اللبنانيين فى صراعات الحزب مع حركة أمل الشيعية، يتجاوز عدد القتلى الإسرائيليين الذين سقطوا برصاص حزب الله على مدى ربع قرن.

يتكون الكتاب من أربعة فصول: خصص الأول لدراسة إيران، وخصوصاً الأفكار الدينية الشيعية التى تم استخدامها سياسيًا، وخصوصاً فكرة ولاية الفقيه والإمام المعصوم، وصولاً إلى تفتيت المجتمع الشيعى عبر هذه الأفكار ثم تأسيس حزب الله ليكون نواة لنشرها فى المنطقة العربية بدءاً من لبنان، التى

يرى المؤلف أن اختيارها جاء للثأر من السنة على خلفية قضية اختفاء الإمام موسى الصدر، ويحلل المؤلف في هذا الباب العلاقة التاريخية بين إيران وحزب الله.

وفي الباب الثاني يعطي تركيزاً أكبر على «ثقافة القضية»، والتي يجوز بمقتضاها لمن يؤمنون بالمذهب الشيعي أن يظهروا عكس ما يبطنون حتى يتمكنوا من تحقيق غاياتهم، ويعرض لعشرات الأمثلة التي تكشف هذه التناقضات في مسيرة قادة الحزب وتحولاتهم وخطاباتهم، وكيفية استثمارهم للقضية الفلسطينية لتحقيق أهدافهم، وتمثلهم لعديد من الشعارات ذات الطبيعة اليسارية التي كانت رائجة في ذلك الزمن، وكيفية انخراط الحزب في السياسة بعد أن ظل لسنوات طويلة يؤكد أنه مجرد حركة مقاومة.

وفي الباب الذي حمل عنوان «حزب الله»، تفصيل لسيرة زعيم الحزب ومسيرته وخطابه الديني والسياسي، ثم تفصيل آخر للحزب ذاته كونه جيشاً شبه نظامي، بما يستلزمه ذلك من تسليح وتجهيزات وتدريب وأقسام للمخابرات والأمن.

وتحت عنوان «حزب الله من الداخل» يكشف المؤلف عن التناقضات الخطيرة داخل حزب الله، وخصوصاً حروب الزعامة والتي كان أطرافها حسين الطفيلي وحسين فضل الله حتى انتهى الأمر بزعامة حسن نصر الله، كما يكشف المؤلف عن موقع حزب الله في المشروع الشيعي العالمي ودوره في تصدير الثورة الإيرانية إلى أماكن عديدة من العالم.

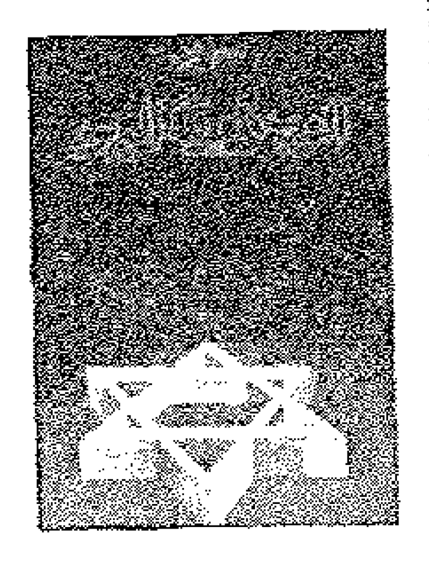
ويحلل الكيفية التي تمكن بها - أو سعى إليها - حزب الله لاختراق الشارع السني والأدوات التي استخدمها في هذا السبيل ومنها قناته الفضائية «المنار».

▪

العرب ومحرقة اليهود

رمسيس عوض

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٧، ١٨١ صفحة



صدر هذا الكتاب لأول مرة في أمريكا عام ٢٠٠٦، وهو يطرح سؤالاً مهماً وخطيراً في آن معاً: هل فعل العرب شيئاً لإنقاذ اليهود من المحرقة التي أعدها النازيون لهم؟ ومؤلف الكتاب مؤرخ يهودي له باع طويل في تاريخ الشرق الأوسط الحديث الذي درسه في جامعات أكسفورد وهارفارد وغيرها، وقد خالط العرب وعاش بينهم سنوات طوالا، وبرأيه فإن الثقافة العربية في الحقيقة ليست واحدة وإنما هي عدة ثقافات، كما أن الشعب العربي هو عدة شعوب متمايزة اثنياً وعرقياً ودينياً وقومياً، ومن خلال هذا التمايز يمكن اختراق هذه الشعوب.

ويدعو المؤلف العرب إلى الاعتراف بالمحرقة، لأنهم لعبوا دوراً كبيراً في إنقاذ عدد كبير من اليهود في شمال أفريقيا منها، ويقول إن حفنة قليلة من عرب فلسطين أنقذوا عشرات المهاجرين اليهود إليها من القتل على أيدي بني جلدتهم في قرية الخليل سنة ١٩٢٩م.

ويستعين المؤلف لتأكيد وجهة نظره تلك بعدد من المؤرخين منهم مارتن جلبرت ووالتر رايج المدير السابق لمتحف ذكرى الهولوكوست في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرهم، لكن الإجابات التي جاءته من هؤلاء المؤرخين كانت مخيبة لآماله، فقد ردوا على رسائله بقولهم: من الناحية الرسمية ليست هناك بعد ستين عاماً على أحداث الهولوكوست أدلة على وجود عربي واحد طاعن في السن يمكنه أن يقدم البينة على أن بعض العرب أنقذوا يهوداً من الإبادة النازية. وبعد شهرين من أحداث سبتمبر ٢٠٠١، يقرر المؤلف السفر مع زوجته الموظفة في البنك الدولي إلى الرباط عاصمة المغرب، حيث عاش هناك لمدة عامين كاملين، عكف فيهما على دراسة السجلات والوثائق الخاصة باليهود، وقابل عشرات المتخصصين في شئون الهولوكوست، وبرغم أن أبحاثه امتدت إلى نحو ١٢ بلداً، فإنها باءت بالفشل الذريع.

وهكذا وجد من الإحباطات ما كان كافياً بأن يصرفه فوراً عن تحقيق فكرته، كما أن بحثه تشعب بدرجة أثبتت له أنه يحتاج إلى عشرات الباحثين معه ينتشرون في بلدان عديدة، يفحصون الوثائق في أكثر من مائة معسكر أقامها النازيون الألمان والفاشيون الطليان في عدة دول عربية.

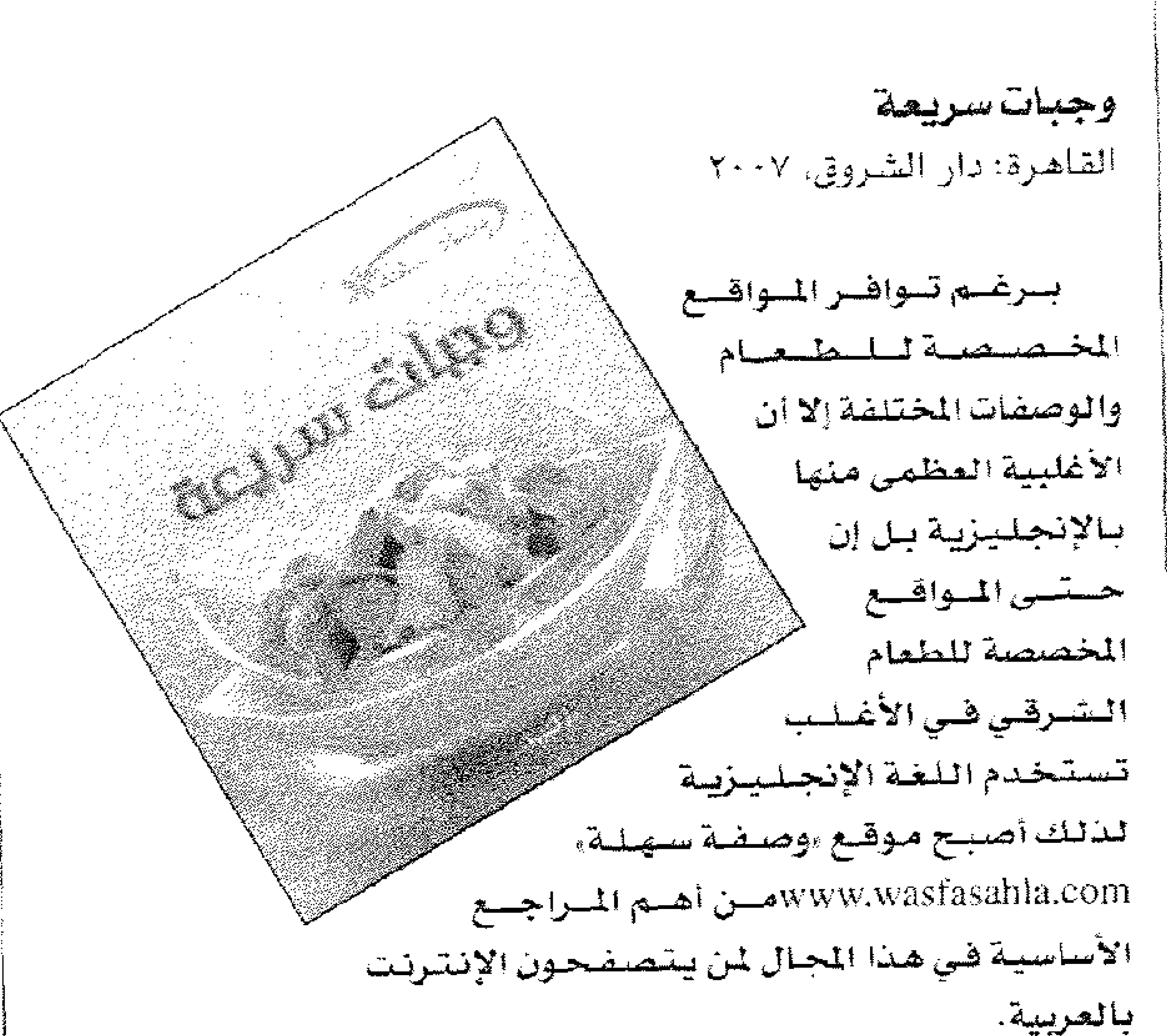
ولدت تحريات المؤلف على وجود قصص ضائعة ليهود وأبناء جاليات وديانات أخرى تعرضوا للاعتقال والتعذيب، كما أنه عثر على قصص بطولية لعرب أنقذوا سجناء يهودا من معسكرات النازي، وجمعتهم علاقات طيبة باليهود، وهؤلاء يسميهم العرب الأتقياء.

لكن المترجم يكشف تعارض الهدف المعلن للمؤلف وهو إبراز صورة العرب الأتقياء، وتحقيق التواصل بين العرب والإسرائيليين وكسر الحواجز النفسية

مـــاذا ســتأكل اليـــوم؟

وجبات سريعة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧



برغم توافر المواقع المخصصة للطعام والوصفات المختلفة إلا أن الأغلبية العظمى منها بالإنجليزية بل إن حتى المواقع المخصصة للطعام الشرقي في الأغلب تستخدم اللغة الإنجليزية لذلك أصبح موقع «وصفة سهلة» www.wasfasahla.com من أهم المراجع الأساسية في هذا المجال لمن يتصفحون الإنترنت بالعربية.

فبالإضافة لميزة اللغة تتسم وصفاته بالسرعة والسهولة وتوافر المقادير المطلوبة لها في الأسواق. وقد قامت دار الشروق مؤخرا بطباعة كتاب يتضمن بعض الوصفات التي اشتهر بها الموقع الذي توسع مؤخرا ليضم معلومات مختلفة مهمة للمرأة والحياة المنزلية والصحة العامة. وتشير مقدمة الكتاب إلى أن الموقع يتضمن الآن سبعة أقسام هي الصحة والرشاقة والجمال والأطفال والحمل وأنت والآخرون وهو القسم الذي يهتم بعلاقات المرأة بعائلتها وبزملائها في العمل وبأصدقائها. ويشير الكتاب الذي يحمل اسم الموقع في شعاره إلى أنه الأول في سلسلة ستنشر وصفات مختلفة من التي نشرها الموقع قبل ذلك.

وتلخص مقدمة الكتاب أهمية البدء بهذا الباب تحديدا أي باب الوصفات السريعة عندما تقول: سؤال تطرحه الزوجة كل يوم «تأكلوا إيه النهاردة؟» والإجابة تأتي غالبا «أي حاجة». وفي وقت الغداء تبدأ الانتقادات: هذا لا نحبه! كلنا كده من يومين! خلاص ما لناش نفس نأكل! وتبدأ المشاحنات. للتغلب على هذه المشكلة اليومية للأكل الذي يجب أن يكون سهلا وسريع التحضير وفي نفس الوقت شهيا ومتنوعا «وصفة سهلة» فكرت أن تقدم لك أول كتبها «وجبات سريعة» متنوعة من الأطباق الشهية التي تستخدم فيها أنواع مختلفة من الأعشاب والبهارات تضيف نكهات جديدة لطبيخك تشعر أولادك وزوجك بالتغيير وفي نفس الوقت لن تأخذ من وقتك إلا اقل القليل.

ينقسم الكتاب إلى الأقسام المعتادة في كتب الطهي فيبدأ بالمقبلات ثم السلطات واللحوم والدجاج والمأكولات البحرية والمعكرونات والخضروات ثم ينتهي بالحلويات. وتصاحب كل وصفة صورة بالألوان تبين شكل الأكلة. وتتميز الصور بأن جودتها أعلى بكثير مما اعتدنا عليه في كتب الطهي العربية كما أن تصويرها قد تم خصيصا للكتاب ولم تتم الاستعانة بصور من كتب أجنبية كما يحدث كثيرا والنتيجة أن الصورة أتت مطابقة للوصفة.

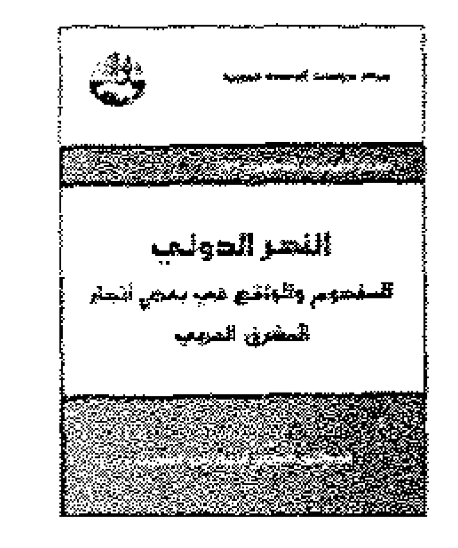
من أهم ما ضمه الكتاب أيضا وقت التحضير ووقت الطهي، ولا يتجاوز وقت تحضير أي طبق مما وردت في الكتاب أكثر من ٢٠ دقيقة وتكفي جميع الوصفات لعدد أربعة أفراد مما يسهل مضاعفتها.

التى تحول دون اندماجهم، مع ما يعلنه المؤلف نفسه فى أكثر من موضع حين يصف العرب بأنهم أشرار وخونة وغدارون.

النهر الدولى: المفهوم والواقع فى بعض أنهار المشرق العربى

صبحى أحمد زهير

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٤٨٧ صفحة



تنطلق أهمية هذا الكتاب من أن موضوع المياه سوف يظل الشغل الشاغل للباحثين وصناع القرار فى الوطن العربى وفى العديد من دول العالم، خصوصاً فى المناطق الجافة وشبه الجافة، خلال العقود القادمة. والأسباب كثيرة ومتعددة، منها ما هو متعلق بندرة هذا المورد المهم، ومع ازدياد الندرة يزداد التزاحم وتكثر المشكلات، ومنها ما هو متعلق بدور المياه فى التنمية الشاملة، ومع ازدياد السكان وارتفاع مستوى حياتهم يزداد طلبهم على المياه بزيادة حاجتهم لها. لكن هناك أيضاً أسباباً سياسية واستراتيجية تتعلق بكون المياه قد تتحول إلى عنصر من عناصر قوة الدول وازدهارها، وهى أحد مصادر التوتر فى منطقتنا، وقد تكون الحروب القادمة فى العالم بأجمعه هى حروب لأجل المياه، وهنا لا ينكر دور الأنهار الدولية فى هذا المجال.

وثائق الحركة الشيوعية المصرية ١٩٢٤ - ١٩٥٢

تحرير: سعيد الطويل - عاصم الدسوقى - حنان رمضان

القاهرة: مركز البحوث العربية والأفريقية، ٢٠٠٧، ٥٠٤ صفحات



بدأت لجنة توثيق الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥ عمله فى عام ١٩٩٥، بإصدار الشهادات التى تقدم بها الشيوعيون فى أجزاء تحت عنوان موحد: شهادات ورؤى ابتداء من ١٩٩٨، وفى أثناء تجميع الشهادات وإعداد ورش التوثيق، كانت اللجنة ترتب لكيفية تجميع وتوثيق الحركة من مختلف المصادر، والمعروف أن وثائق الحركة الشيوعية المصرية ليس لها مكان فى الأرشيف الرسمى للدولة، والمحفوظ فى هذا الأرشيف ليس سوى ما تم ضبطه من نشرات ومنشورات وتقارير البوليس السرى والقلم السياسى الذى كانت مهمته متابعة عناصر الحركة لاعتقالها، وكذلك مضابط المحاكمات، وكما يشير الدكتور عاصم الدسوقى فى مقدمته، فإن الاعتماد على هذه الوثائق فحسب يؤدى إلى الوقوع فى خطورة أحادية المصدر، وبالتالى «خروج الباحث بفكرة سلبية عن نضال أولئك الذين نذروا أنفسهم لخدمة قضية استقلال الوطن وتحقيق العدالة الاجتماعية بين أبنائه».

ومن ثم بدأت هذه اللجنة فى تجميع الوثائق عن طريق الاتصالات الشخصية بالمقيمين فى مصر وخارجها من الشيوعيين الذين لديهم وثائق عن مشاركاتهم تلك، وهكذا تجمع لدى اللجنة كماً هائلاً من الوثائق عن الفترة من ١٩٤٤ وحتى ١٩٦٥، وبدأت نشرها فى خمسة أجزاء هذا هو الجزء الأول منها، ويختص بالفترة من ١٩٤٤ وحتى يونيه ١٩٥٢، وأغلب وثائقه من مجموعة روما، وهم الشيوعيون المصريون من أصل أجنبى ويقيمون فى باريس، وعددها ٥٦ وثيقة صادرة عن اثنتى عشرة منظمة ولجنة وجماعة شيوعية كانت نشطة خلال هذه الفترة وهى: الطليعة الشعبية للتحرر، والحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو)، والمنظمة الشيوعية المصرية، واللجنة الانتخابية العامة، وجمعية رباب البيوت، واللجنة التحضيرية للجنة الوطنية، واللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى العام لعمال النسيج، نواة الحزب الشيوعى المصرى، اللجنة الوطنية لأنصار السلام، نقابة عمال المطاعم والفنادق، اتحاد نقابات عمال النقل المشترك لمدينة القاهرة، جماعة رجال القانون الديمقراطيين بمصر. وموضوع وثائق تلك المنظمات عبارة عن برامج، ولوائح وتقارير سياسية ودراسات وبرامج انتخابية لمرشحين عمال، وبيانات ونداءات إلى الشعب المصرى، وقرارات ورسائل.

الخطر الكامن.. الفساد فى مصر

إعداد وتحرير: سعيد عبدالحافظ

القاهرة: ملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان، ٢٠٠٧، ٢٠٥ صفحات

يرصد هذا الكتاب أشكالاً عديدة من صور الفساد فى قطاعات: الصحة والمحليات والتعليم والتليفزيون، استناداً إلى حيثيات أحكام ضد المفسرين أعلنتها المحاكم وكذلك إلى مقابلات مع عدد من العاملين فى هذه القطاعات وما تنشره الصحف عن أشكال الفساد المتعددة فيها. وتتمثل حالات الفساد ليس فقط فى تقاضى رشاوى مقابل تسهيل أعمال مخالفة للقانون، أو استغلال النفوذ للحصول على امتيازات معينة بغير وجه حق، وإنما أيضاً فى الإهمال الجسيم فى أداء العمل وهو ما يعد شكلاً من أشكال الفساد الذى قد يودى بحياة مواطنيه، وهو الأمر الأكثر شيوعاً فى قطاع الصحة، فيما تتضح الأشكال الأخرى من عمولات واستغلال نفوذ وابتزاز فى قطاعات التعليم والتليفزيون والمحليات.

وبعد استعراض العديد من أوجه الفساد تلك يطرح الكتاب عدداً من التوصيات العامة لمكافحة الفساد بشكل عام منها: إزالة القيود التشريعية والإدارية عن عمل منظمات المجتمع المدنى كى تتمكن من ممارسة دورها فى كشف الفساد، إطلاق حرية تداول المعلومات، وإطلاق مبادرات إبلاغ المواطنين عن قضايا الفساد مع توفير الحماية القانونية لهم لتشجيعهم على ممارسة هذا الدور، ومساهمة وسائل الإعلام فى كشف الفساد وفضح مرتكبى الجرائم.

كما ينتهى الكتاب إلى توصيات خاصة بمكافحة الفساد فى كل قطاع من هذه القطاعات، ففى قطاع التعليم يطالب بسرعة إقرار قانون الكادر الخاص بالمعلمين بما يساهم فى تحسين أوضاعهم، وإنشاء هيئة مستقلة مهمتها مكافحة الفساد فى قطاع التعليم، وإعطاء المزيد من الحريات للجمعيات والمؤسسات غير الحكومية للمساهمة فى النهوض بالعملية التعليمية، وفى قطاع المحليات يطالب التقرير بدعم اللامركزية فى المحافظات، وإجراء تحديات مكثفة حول شاغلى الوظائف ذات الصلة بمصالح المواطنين، ورفع المستوى المعيشى لصغار الموظفين للقضاء على فساد الكبار. وفى مجال التليفزيون يطالب التقرير بإلغاء إشراف وزير الإعلام على اتحاد الإذاعة والتليفزيون لضمان استقلاليته وحياده، والسماح للأفراد بامتلاك قنوات أرضية، وتحديد مخصصات رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون ومدة رئاسته، وإجراء تحقيقات موسعة فى قضايا الفساد التى تم الكشف عنها مؤخراً داخل الاتحاد، بحيث لا تقتصر على المتهمين المباشرين، بل تتوسع لتشمل كل من ساهم فى تلك الوقائع، وإحالتهم إلى المحاكمة الجنائية، وضرورة إعادة النظر فى السياسات التسويقية والإعلانية المتبعة بالاتحاد، للحد من إهدار المال العام.

الشيخ وحشى (رواية)

ماهر مقلد

القاهرة: المكتب المصرى للمطبوعات، ٢٠٠٧، ١٦٦ صفحة



تشخص الرواية حياة الناس فى قرية نائية من صعيد مصر، لكنها شيئاً فشيئاً تتسلل إلى القاهرة، لتتحدث عما جرى فى مصر فى أعقاب نكسة يونيه ١٩٦٧، والتأثيرات الدرامية الكبرى التى عصفت بالناس وبالبلاد بسببها.

يجرى ذلك من خلال قصة شيخ ذي كرامات توفى قبل مئات السنين، وبقى ضريحه جزءاً من حياة الناس الذين يعيشون فى هذه القرية النائية، قابعاً فى وجدانهم بقدرته الفذة على الإتيان بأفعال يعجز عنها البشر، ومن خلال تلك العلاقة ودلالاتها العميقة نتعرف على قبيصى الجندى المصرى الذى خاض حروباً عديدة ضد العدو الإسرائيلى، ومبروكة التى تتبدى لنا نموذجاً للعفة والطهارة التى تحمل الحبرة هى مصر فى تمثال نهضة مصر الشهير، كما عبر عنها الفنان محمود مختار، كما تصادفنا شخصية ناجح الشاب الطموح الذى يمكن اعتباره حارس الفضيلة والقيم الإيجابية التى يجسدها أو يسعى لتمثيلها أهل القرية، وكذلك الأستاذ عبدالله، المتعلم وسط آلاف الأميين من أبناء القرية.

ويبدو فى الرواية صراع أبناء القرية جميعاً للفوز بمبروكة التى يخطط

أبوها لتزويجها من ابن عمها المقيم فى القاهرة حتى لا تتوزع ثروة العائلة.

وكما تجذب النداهة البعض فى الأسطورة الشهيرة، فإن النداهة تجذب مبروكة إلى مصر المحروسة، ويتماهى الاثنان - مصر ومبروكة - حتى يصيرا شيئاً واحداً، ومثالاً على الطهارة والعفة والجمال والصمود فى وجه الطامعين المستعمرين فى حالة مصر، والراغبين فى الاستمتاع بهذا الجمال الأنثوى الصارخ فى حالة مبروكة.

وفى سياق مواز، تظهر مأساة الجندى قبيصى الذى خدم فى الجيش الثالث الميدانى بسيناء، وحين صدرت له الأوامر بالانسحاب، كان عليه أن يهرع هو ووحدته فى اتجاه العودة، وظلوا ١٢ يوماً حفاة عراة فى سيناء، لاقوا أهوالاً لا يمكن تخيلها، ظلت عالقة بأذهانهم أمداً طويلاً.

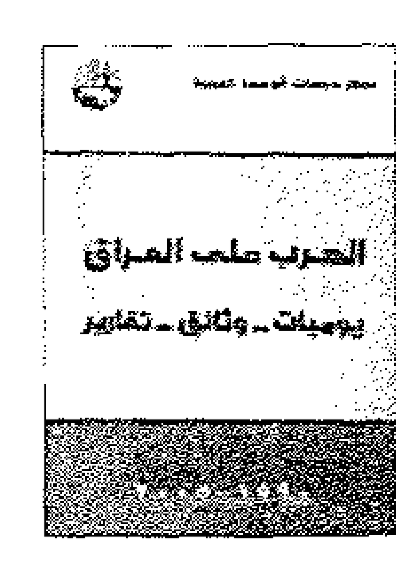
الرواية بشكل ما، إدانة لحكم العسكر ومحاكمة فنية لفترة سياسية مهمة مرت بها البلاد، وكانت هزيمة يونية ١٩٦٧، أسوأ ما جرى فيها.

الحرب على العراق

يوميات - وثائق - تقارير

١٩٩٠ - ٢٠٠٥

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١٦١٦ صفحة



يرصد هذا الكتاب التوثيقى أبرز الأحداث والتطورات التى شهدها العراق بدءاً من الاجتياح العراقى للكويت عام ١٩٩٠ وقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لتحالف من أكثر من ثلاثين دولة لشن الحرب على العراق وإخراجه من الكويت عام ١٩٩١، مروراً بشروط وقف إطلاق النار التى تضمنها قرار مجلس الأمن الدولى رقم ٦٨٧ وما رافقها من أحداث لاحتواء وإسقاط النظام وفرض حصار على الشعب العراقى امتد لأكثر من ١٣ عاماً، وحظر جوى على شمال العراق وجنوبه وصولاً إلى احتلال العراق عام ٢٠٠٣، وتدمير مؤسساته، وإغراقه فى الفوضى الدامية. ومحاولات إعادة هيكلته وبنائه من خلال مجالس طائفية وترتيبات تفكيكية، من مجلس الحكم الانتقالى إلى قانون إدارة الدولة العراقية وإقرار صيغة قلقة للدستور. وفى المقابل فقد تصاعدت مقاومة عراقية سوف يتوقف على نشاطها مستقبل العراق والمنطقة.

لقد اختار محافظو الولايات المتحدة الجدد نموذجاً للتعميم فى المنطقة فى ظل هيمنة أمريكية واضحة على نظام دولى أحادى القطب ونظام إقليمى عربى غارق فى سبات عميق، فاصطدموا بمقاومة لم تكن متوقعة بهذا الحجم، وباتت المعادلة أمام إدارة الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش إما الإصرار على الهروب إلى الأمام وإغراق العراق والمنطقة فى مزيد من الفوضى والتورط الأمريكى المكلف أو الانسحاب من العراق والاعتراف بالفشل. هنا تكمن أهمية رصد ومتابعة ما يجرى فى العراق وما له من تداعيات.

دوريات

دبى الثقافية

دبى: دار الصدى للنشر والتوزيع



بانوراما العدد عن سوق دبى الكبيرة التى تأسست منذ ١٧٠ عاماً، والتى ينظر إليها باعتبارها تحفة معمارية باذخة، كما يكتب حسين طلبى من الجزائر عن مدينة «عنابة» الجزائرية التى يصفها بأنها فاتنة الجغرافيا ودرة التاريخ، وتكتب صوفية الهمامى عن متحف دار شريط، الذى تطالع فيه تاريخ بايات تونس.

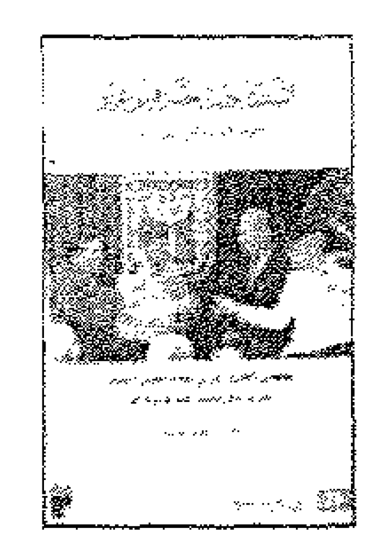
ومن اليمن تحقيق كتبه أحمد الأغبرى يستقصى فيه آراء مبدعى اليمن حول الشهرة، يتحدث فيه مبدعون مشهورون وآخرون مغمورون، ويكتب رجاء النقاش عن التجديد فى الأدب العربى: عبر قراءة الآراء مفكرين وبحاثة نظر إليهم دوماً باعتبارهم من حراس التقاليد فى الأدب العربى القديم وخصوصاً الشعر العربى.

وفى الحوارات، حوار مع الأديبة السعودية زينب حفنى صاحبة الكتابات الجريئة التى وصفت بأنها كتابة فضائحية، تتحدث فيه عن تجربتها وآرائها فى الأدب السعودى المعاصر، وحوار آخر مع الناقد والمترجم العراقى فاضل ثامر بمناسبة صدور كتاب المقموع والمسكوت عنه فى السرد العربى، وحوار آخر مع الدكتورة ريم هلال ابنة مدينة اللاذقية الكفيفة التى حصلت على الدكتوراة.

وفى السينما يكتب هلال هويدى من موسكو عن تاريخ السينما الروسية، وفى الفن التشكيلى حوار مع الفنان المصرى عادل السيوى يقول فيه إن التشكيليين فى العالم العربى كله يعيشون فى عزلة، وسياحة فى عالم التشكيلية الإماراتية وفاء خازندار، إضافة إلى مقالات أدونيس وفخرى صالح ود. عبدالعزيز المقالح وصلاح فضل وصلاح الدين بوجاه وإبراهيم الكونى وفيصل دراج وكمال أبوديب.

أوراق إسرائيلية

رام الله: المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية «مدار»



يحتوى العدد الجديد على ملخص التقرير الجزئى الذى أصدرته قبل أسبوعين لجنة تقصى مجريات الحرب على لبنان (لجنة فينوغراد).

وقد كتب هذا الملخص أنطوان شلحت، تحت عنوان «استنتاجات لجنة فينوغراد: تشخيص الفشل الإسرائيلى فى لبنان».

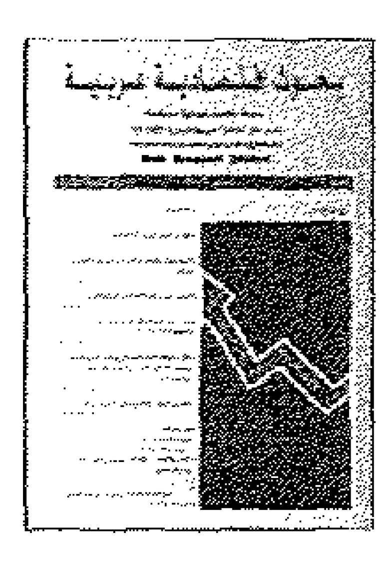
وكانت لجنة فينوغراد قد قدمت تقريرها الجزئى إلى كل من رئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود أولمرت ووزير الدفاع الإسرائيلى، عمير بيرتس. ويتطرق التقرير إلى الفترة الزمنية التى بدأت بانسحاب الجيش الإسرائيلى من لبنان عام ٢٠٠٠ وحتى اختطاف الجنديين الإسرائيليين يوم ١٢ يوليو ٢٠٠٦، ويتناول كذلك الفترة الزمنية ما بين ١٢ يوليو وحتى ١٧ يوليو ٢٠٠٦، أى منذ أن تم اتخاذ القرار بخوض الحرب وحتى خطاب رئيس الحكومة أمام الكنيست.

وأعلنت اللجنة أن تقريرها النهائى، الذى سيصدر فى صيف ٢٠٠٧، سيتناول عدة مسائل: تحليل جوانب القتال، ومبادئ الجيش الإسرائيلى ومدى استعداد الجيش وتدريبه وقادته، القرارات التى اتخذتها المؤسسة السياسية عند تطور الحرب، ومنها القرارات بشأن شروط وقف إطلاق النار فى اليومين اللذين أعقبا تبنى مجلس الأمن الدولى لقرار وقف إطلاق النار، العلاقات بين المستويين السياسى والعسكرى فى إسرائيل وآراءهما حول استخدام القوة العسكرية كجزء من تصورهما الإستراتيجى بشأن أهداف إسرائيل.

وإلى جانب ملخص التقرير تضم الورقة ثلاثة ملاحق: الأول أسماء الشهود الذين أدلوا بإفاداتهم أمام اللجنة، والثانى خلفية عن لجان التحقيق فى إسرائيل، والثالث حول لجان التحقيق فى حرب لبنان الثانية.

بحوث اقتصادية عربية

بيروت: الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية - مركز دراسات الوحدة العربية



يتضمن العدد الجديد من مجلة «بحوث اقتصادية عربية» افتتاحية كتبها رئيس التحرير د. محمد سمير مصطفى، ودراسات سبع هى: الفقر فى البلدان العربية وآليات إنتاجه لسالم توفيق النجفى، النمط الحالى للصادرات الصناعية ذات القدرة التنافسية فى مصر لإيمان محمد أحمد، أثر ظهور اليورو على الاقتصاديات الدولية والعربية لشريط عابد، دروس وعبر من فورة أسواق رأس المال العربية وتراجعها لهشام البساط، الفقر وشبكات الأمن الاجتماعى فى الدول العربية لعلى عبدالقادر على، الفقر فى العراق: مقاربة من منظور التنمية البشرية لحسن لطيف كاظم الزبيدى.

وفى العدد أيضاً مراجعات لكتب ثلاثة هى: «الاقتصاد المصرى فى ثلاثين عاماً» لإبراهيم العيسوى، الاقتصاد المصرى بين فرص النمو وتحديات الواقع، اقتصاد يغدق فقراً لهورست أفهيلد. إضافة إلى ملف إحصائى أعده ربيع كسروان، ويوميات اقتصادية مختارة.

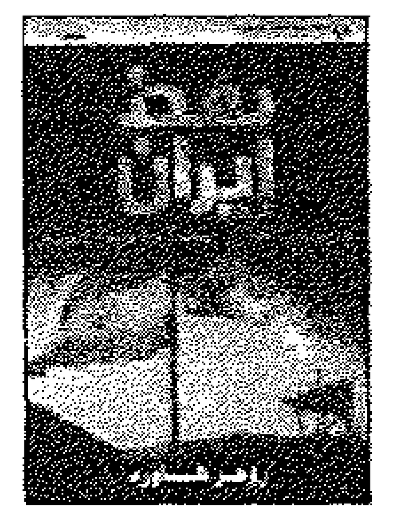
الولايات المتحدة.. إيران.. ولعبة النفط

نفط إيران.. ودوره فى تحدى نفوذ الولايات المتحدة

روجر هاورد

ترجمة / مروان سعد الدين

بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧م، ٢٤٦ صفحة



مثل فرد يعانى من سوء الطالع، فجاءة وبشكل غير متوقع، يمكن أن تنهار القوى العظمى، وتسقط بسرعة كبيرة وربما مثيرة. ورغم أن نفوذ وتأثير الكثير من الإمبراطوريات الكبيرة تراجع تدريجيا وبشكل غير محسوس على مدى عقود طويلة، أو حتى قرون من الزمن، كما هو حال الإمبراطورية البريطانية أو ما يدعوه، إدوارد غيبون «الانحطاط البطىء» للإمبراطورية الرومانية، إلا أن الكثير من المعاصرين والمؤرخين يؤكدون أن النهاية المفاجئة لقوى أخرى يمكن أن تحدث.

ويظهر مثل هذا التحول المذهل بشكل واضح بعد تلقى هزيمة عسكرية، مثل تلك التى أحاقت بالإمبراطورية الفارسية القديمة، أو نتيجة اضطراب وثورة سياسية شبيهة بمداها بتلك التى أنهت روسيا القيصرية.

فى الزمن المعاصر، يبدو من المحتمل أن تعانى الولايات المتحدة من فقدان نفوذها العالمى بسرعة مشابهة. ونفس البلد الذى ظهر عشية غزو العراق فى آذار من العام ٢٠٠٣م عملاقاً، طليقا من القيود، وواثقا من قدرته على إيجاد موطئ قدم له بسهولة فى الشرق الأوسط وأى مكان آخر، والذى أثار الإعجاب بين أصدقائه وحلفائه، والعداء والازدراء بين منافسيه وأعدائه، ربما يبدو موقفه فى السنوات القليلة القادمة دفاعياً ويسهل اختراقه، مع انقلاب ولاء حلفائه وابتعادهم عنه، وتزايد جراة أعدائه على مواجهته.

بهذه المقدمة، بدأ الصحفى المستقل، روجر هاورد، المتخصص بشئون الدفاع والطاقة فى الشرق الأوسط. ويكتب لكل من مجلتى نيو - ستيتسمان وسبكثيتر، وميدل - أيست - أنترناشونال وجانيت - إنتليجنس - ريفيو، هذا الكتاب بعنوان «نفط إيران ودوره فى تحدى نفوذ الولايات المتحدة».

ينظر الفصل الافتتاحى بشكل مفصل فى خلفية التحدى الإيرانى الذى يحتل نقطة التقاء بين عاملين استثنائيين، إن لم يكونا فريدين. أحدهما، يتعلق بامتلاك موارد طبيعية مذهلة تزداد قيمتها بالنسبة للعالم الخارجى بأطراد - ويتعلق الآخر بوجود درجة مهمة من العداء بين نظام طهران والبلد الذى يحظى بأكبر نفوذ وقوة سياسية بين الآخرين ألا وهو الولايات المتحدة. السبب الأهم دون شك الذى يجعل من موارد إيران الطبيعية الآن تشكل تحديا لقوة أمريكا العالمية هو تعقيد برنامج طهران النووى. رغم اعتبار أن إيران لا تزال حتى الآن بعيدة عدة سنوات عن تطوير السلاح النووى إلا أن برنامجها النووى أكثر تطورا مما كان عليه عند تطبيق العقوبات الاقتصادية الأمريكية ضدها. السبب الرئيسى الآخر - إلى جانب برنامجها النووى - والذى يجعل إيران قضية مثيرة للخلاف فى السياسات الأمريكية المعاصرة.

يبحث الفصل الثانى بعنوان «فض تحالفات الولايات المتحدة»، والذى يكشف من خلاله روجر هاورد، عن تمزق ولاء بعض حلفاء الولايات المتحدة الرئيسيين فى أجزاء مختلفة فى العالم اليوم أكثر من أى وقت مضى بسبب إغراء وفتنة موارد إيران الطبيعية. وفى نفس الوقت الذى تصعد فيه واشنطن من ضغوطها على حلفائها لوقف التجارة غير الضرورية والاستثمار مع إيران، تجد فيه تلك الحكومات أن مثل هذه العلاقات أكثر نفعا وأن ضرورتها تزداد باطراد.

إن الفصل الثالث ينظر فى التأثير السياسى لتلك الموارد عليهم، يرى روجر هاورد، إذا كانت موارد إيران الطبيعية تسبب صدعا بين واشنطن وحلفائها فكيف تؤثر على علاقة أمريكا مع منافسيها، أو مع تلك البلاد التى تسمى عادة دول عدم الانحياز؟. الجواب مهم لأن هناك حاليا ثلاث دول تستورد النفط والغاز الإيرانى بكميات كبيرة، ولديها علاقات تجارية، وسياسية، وعسكرية مع طهران وهى مرشحة للنمو باطراد فى المستقبل القريب - اثنتان من تلك الدول هما روسيا والصين، واللتان تعتبران على نطاق واسع منافستين للولايات المتحدة، أما الأخرى فهى الهند العضو فى حركة عدم الانحياز منذ زمن طويل والتى غالبا ما كانت علاقاتها باردة وحتى عدائية مع واشنطن منذ تأسيسها عام ١٩٤٧م.

هناك ثلاث طرق مختلفة تعمل بها علاقة تلك الدول مع إيران على الحد من نفوذ أمريكا العالمى - من ناحية، يمكن لإمداداتها من النفط والغاز أن تلعب دورا مهما أو حتى محوريا فى تغذية النمو الاقتصادى لبلد يستطيع أن يشكل تحديا استراتيجيا للولايات المتحدة فى الواقع، تأتى الصين اولا بين هذه الدول الثلاث التى يركز عليها الفصل الثالث والتى يساند دورها المتوقع كقوة إقليمية أو حتى عالمية قيامها باستيراد كميات هائلة من النفط والغاز. ورغم أن هذه المستوردات من مناطق مختلفة فى العالم، إلا أن إمداداتها من إيران تلعب حاليا دورا هاما للغاية. ومع بداية العام ٢٠٠٦م، كانت إيران المزود الرئيسى للصين بالنفط، وتمدها بحوالى ١٤٪ من وارداتها النفطية أى ٤٤٧.٣٠٠ برميل يوميا.

يناقش الفصل الرابع والأخير بعنوان: «دعم النظام الإيرانى» فيطرح روجر هاورد تأثير موارد إيران الطبيعية على نظام طهران نفسه ودور مبيعات النفط والغاز الإيرانى على قبضة الملالى على السلطة. يقول المؤلف: هناك طرق عديدة ساعدت بها عائدات النفط فى إحكام قبضة النظام على السلطة - وإحدى تلك الطرق هى إنفاق الأموال على مشروعات معينة أوقفت انهيار الاقتصاد الذى يعانى من مشاكل كبيرة بطريقة توقع الكثير من الناس أنها ستحدث منذ وقت طويل فى إيران.

ويتساءل روجر هاورد، كيف وصلت هذه العائدات الى الاقتصاد الإيرانى الواسع؟ لقد تم توجيه بعض تلك العائدات إلى استثمارات طويلة الأجل، فيما تم توزيع البقية على مشاريع أكثر ألحاحا. وعملت إدارة خاتمى. بعد العام ١٩٩٧م، على إنشاء صندوق توازن يسمح للميزانية الحكومية بالاستفادة من أسعار النفط المحددة سلفا. والتى قد تختلف عمليا بشكل كبير عن سعر السوق.

إحدى الطرق التى ساعدت بها عائدات النفط فى المحافظة على السلطة السياسية تتمثل بتمويل الإنفاق الحكومى الكبير الذى يهدف فى جزء منه إلى الحد من البطالة. وتبدو فكرة قيام الدولة، وليس الأشخاص، بتقديم فرص عمل غريبة جدا اليوم لكثير من الناس فى بريطانيا، وأمريكا، وبلاد أخرى تقلص بها حجم القطاع الحكومى الكبير بشكل كبير فى العقدين الأخيرين أو نحو ذلك. أو بحيث لا توجد أصلا نشاطات اقتصادية تديرها الدولة. لكن الدولة لعبت فى إيران، بأى حال، دورا مركزيا فى الاقتصاد خلال نصف القرن الماضى، وحول دستور الثورة الجديد بعد العام ١٩٧٩م ملكية بعض نشاطات الاقتصاد الرئيسية إلى القطاع الحكومى، والذى لم يشهد لاحقا سوى تراجع فى الأداء.

لقد سمحت عائدات النفط الهائلة التى توافرت للنظام فى طهران بتوفير فرص عمل للناس أكثر مما يحتاجونه فعلا. وتشكل مرافق الدولة البيروقراطية التى توظف مئات الألوف من الموظفين المدنيين أحد أهم أشكال الإنفاق الحكومى. وفيما كان لدى إيران ٥٦٠،٠٠٠ موظف حكومى عام ١٩٧٧م، ارتفع هذا العدد كثيرا فى السنوات التى تلت الثورة. وتزايد بنسبة ٢٣٪ بين عامى ١٩٨٦م و١٩٩٦م ليصل الى ٣.٢ مليون شخص، واستقر عام ٢٠٠٥م، وفقا لأرقام رسمية صادرة عن منظمة الإدارة والتخطيط فى طهران عند ٢.٣ مليون.

من المثير أيضا أن برنامج الفضاء الإيرانى انطلق بقوة عندما توافرت نقود كافية لتلك المشروعات المكلفة من عائدات النفط. وتم إطلاق نتاج التعاون الإيرانى - الروسى، والمتمثل فى قمر الأبحاث الصناعى المسمى «سينا - ١» وبكلفة بلغت ١٥ مليون دولار، للمرة الأولى فى تشرين الأول من العام ٢٠٠٥م، ويتم استخدامه حاليا لالتقاط صور لإيران ومراقبة الكوارث الطبيعية والحصول على معلومات حول حالة المحاصيل الزراعية والمصادر الطبيعية للبلاد.

وفى خاتمة كتابه، يقول روجر هاورد «هناك تعبير التصق بقوة بإيران، والذى ينبغى إزالته إذا تمت إدارة النقاش حول الشرق الأوسط بشكل عادل هو «خرق حقوق الإنسان». ولا يستطيع أحد أن ينكر جديا بأن نظام طهران ملطخ بالدم وأن أعداداً كبيرة من الإيرانيين العاديين والأبرياء عانوا كثيرا على أيدى أجهزتها الأمنية.

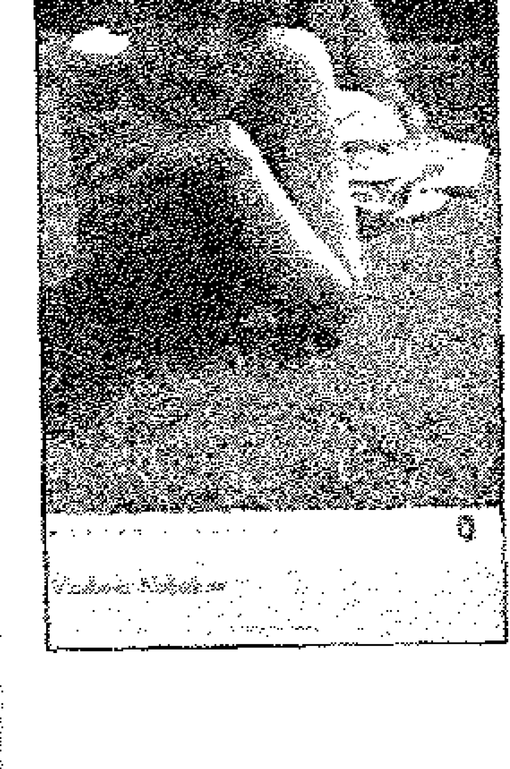
وكلما تمت إثارة هذا الموضوع فى النقاش المتعلق بالسياسة الخارجية، يكون التأثير نفسه مع إلصاق تهمة الإرهاب بإيران، والذى يشوه ويضلل النقاش لأنه من الصعب جدا الوقوف بجانب أى شخص أو نظام موسوم بسجل مشئوم فى مجال حقوق الإنسان.

هناك عبارات ينبغى عدم استخدامها إذا كان يجب إدارة النقاش المتعلق بإيران بشكل عادل. ودون وجود مثل هذا النقاش العادل، لن تلقى عروض التراجع أو فرض العقوبات الأساسية أو الثانوية سوى آذان صماء، وسوف تفشل فى منع الولايات المتحدة من كتابة جزء من أوراق نعيها.

محمد صلاح غازى

الأصدارات المختارة في هذا العدد من قائمة مجلة Time لأهم مائة رواية صدرت بالأنجليزية منذ العام ١٩٢٣
أعدها الناقدان ليف جروسمان Lev Grossman و ريتشارد لاكايو Richard Lacayo





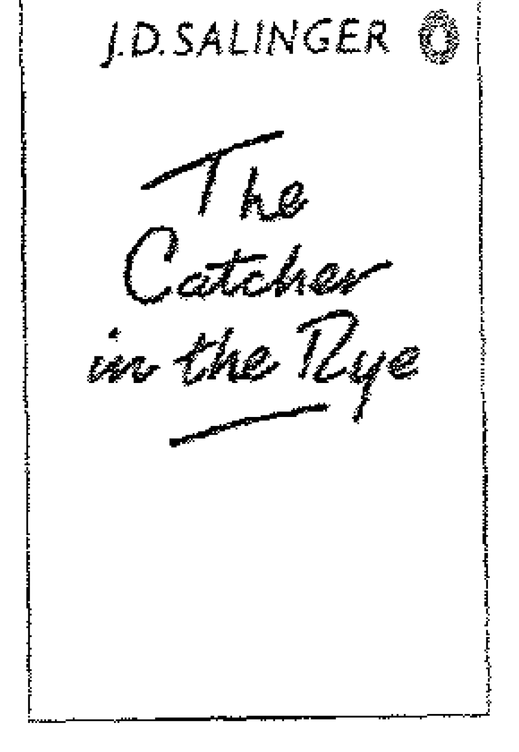
Lolita

(لوليتـــا)

Vladimir Nobakov
Penguin: 1998, 320pp., $10.05

هاجر فلديمير نوبوكوف من فرنسا الى الولايات المتحدة في بدايات الحرب العالمية الثانية وقد كانت تلك هجرته الثانية بعد هجرته من الاتحاد السوفيتي. وكان بحوزته جزء من النص الذى سيصبح من أشهر روايات القرن العشرين بل وسيستخدم عنوانه للإشارة لاحد الانحرافات الشعورية. كان النص هو رواية لوليتا التى مزقها بعد كتابة نصف صفحاتها فقط. لقد تخوف نوباكوف من رد فعل الجمهور على روايته الصادمة لدرجة انه كتب مقدمة لها باسم مستعار وشخصية مستعارة لأكاديمي يقدمها على أنها رسالة تحذيرية للآباء والمربين. ومع ذلك لم يوافق على نشر طبعتها الأولى سوى ناشر روايات اباحية فرنسى مع أن المقاطع الحسية التى تضمنتها الرواية لا تتعدى ما يوجد اليوم فى أى رواية شعبية عادية. اليوم يتم النظر للرواية من زاوية مغايرة تماما اذ تعتبر من كلاسيكيات الأدب العالمى. وهى تدور حول رجل يقع فى غرام فتاة صغيرة ويتزوج من والدتها ليتمكن من البقاء بجوارها ولكن الأم تموت فى حادث بعد ان تعرف حقيقة نوايا زوجها. وعندما يذهب الزوج لاصطحاب الابنة من مدرستها تبدأ رحلتهما المشتركة والتى يتخفيان فيها فى صورة اب وابنته. ولكن الابنة تضجر من الزوج بعد قليل وبعد أن تصبح مسيطرة عليه إلى حد كبير تهرب منه ليرتكب هو جريمة قتل فى فورة غضبه.

ولم تتلق سميث العرض مقابل مخطوطة رواية كاملة وأنما مقابل مائة صفحة فقط كتبتها وهى تستعد لأمتحانات السنة النهائية فى جامعة كامبريدج. ولكن سميث لم تكتف بأن تكتب عما تعرفه بشكل مباشر وانما كتبت رواية عن رجلين أحدهما بريطانى والآخر مهاجر بنغالى يتعارفان خلال الحرب العالمية الثانية وتستمر صداقتهما لترصد سميث مصائر أبنائهما الذين لا يسعون للاندماج كما كان الحال مع آبائهم وأنما للارتباط بهويتهم الأصلية. نشرت الرواية عندما كانت سميث تبلغ من العمر ٢٤ عاما وأصبحت بفضلها من أشهر كتاب الأدب الانجليزى المعاصر. وتستمر فى عرض الصورة الجديدة للمجتمع البريطانى حيث تأتى روايتها الثانية رجل الأتوغراف The Autograph Man ببطل نصف صينى ونصف يهودى.

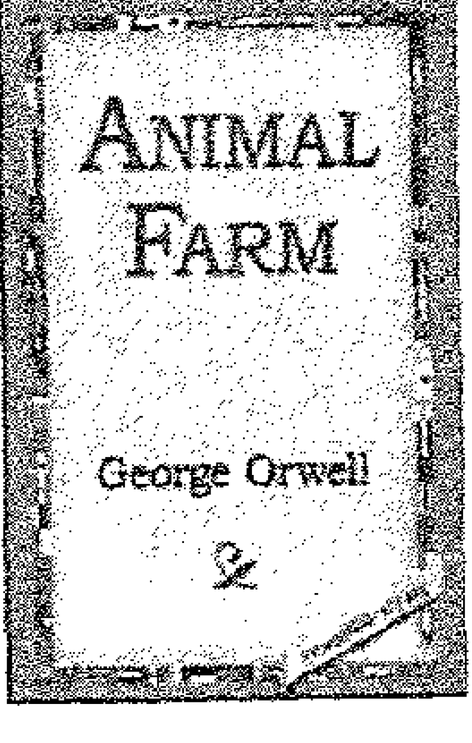


Catcher in the Rye

(الحارس فى حقل الشعير)

J.D Salinger
Back Bay Books: 2001, 228pp, $13.99

جى دى سالينجر كاتب غريب الأطوار أنتج رواية كانت فى وقت صدورها أيضا من غرائب الأدب وان أصبحت اليوم من أكثر الأعمال الأدبية المكتوبة بالانجليزية شعبية. فمنذ عام ١٩٦٥ لم يظهر سالينجر فى العلن مطلقا كما إنه لم يقم بأى مقابلات صحفية منذ العام ١٩٨٠. وقد بلغ تفادى سالينجر للعلنية الحد الذى دفعه فى أوائل التسعينيات للانسحاب من صفقة لاصدار كتاب له بسبب الاحتفاء الجماهيرى الذى قوبل به الخبر. وقد كانت بدايات تلك النزعة الأنعزالية واضحة على سالينجر منذ البداية حيث انه كان يرفض اى رسوم على أغلفة كتبه حتى لا يتم دفع القارئ الى تصور مسبق حول شكل شخصيات الرواية. عرضت مجلة النيويوركر ذائعة الصيت على سالينجر ان تكون صاحبة الحق الأول للاطلاع على أعماله القصيرة ونشرها ولكنه زاد فى الابتعاد عن المجتمعات والانعزال كلما زاد نجاحه. تضمنت قصص سالينجر بشكل متكرر شخصيات من عائلة كولفيلد وركز فى البداية على الأبن الأكبر للعائلة فينس، ثم انتقل تركيزه على الابن الأصغر هولدن الذى كتب عنه اهم أعماله، الحارس فى حقل الشعير. منع الكتاب فى مدارس العديد من الولايات الأمريكية الا انه يعتبر أصدق تعبير أدبى عن مرحلة المراهقة ووداع الطفولة.

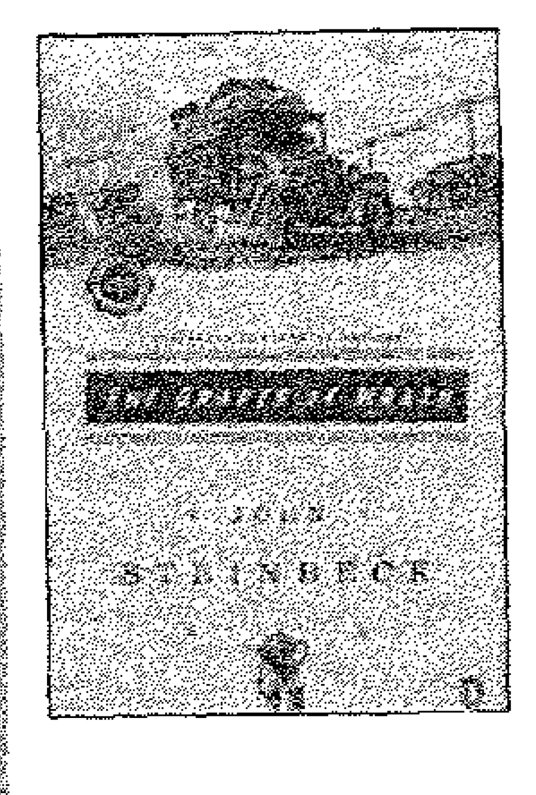



Animal Farm

(مزرعة الحيوانات)

George Orwell
Plume, 2003, 128pp, $13.00 (reprint)

كتب جورج اورويل روايتين من اهم الروايات التى وضعت تصورا خياليا لشكل المجتمعات الشمولية وللفساد الذى تحدثه السلطة. أولها كانت مزرعة الحيوانات التى نشرت للمرة الأولى عام ١٩٤٦ والتى كانت بشكل واضح أنتقاداً محدداً ضد الاتحاد السوفيتى لدرجة انه من المعروف مثلا أن الخنزير سنوبول يرمز الى ليون تروتسكى كما ترمز العديد من الحيوانات الأخرى، وهى أبطال العمل، الى شخصيات مختلفة فى السلطة التى صنعت الثورة الروسية والاتحاد السوفيتى فيما بعد. ومع ان ابطال رواية أورويل من الحيوانات الا انها بكل وضوح ليست رواية تصلح للأطفال. فالرمزية فيها واضحة إلى حد ان القائد الذى ينبه الحيوانات لوضعهم كمضطهدين يؤلف كتاباً باسم البيان الحيوانى فى إشارة واضحة جدا الى البيان الشيوعى من تأليف كارل ماركس والذى يحوله ثلاثة من الخنازير الى نظرية متكاملة تدعى الحيوانية. وقد عرف أورويل نفسه كيسارى وكان من المساهمين الدائمين فى جريدة التريبيون اليسارية كما انه حارب وأصيب فى الحرب الأهلية الأسبانية على جانب قوى شيوعية شديدة الانتقاد للاتحاد السوفيتى. وردا على التساؤلات حول حقيقة توجهه السياسى بعد روايتيه الأشهر مزرعة الحيوانات و١٩٨٤ قال أورويل انه يسارى التوجه وان كان قد فقد الثقة تماما فى العمل الحزبى وينصح الكاتب بتحرر من الانتماء السياسى المنظم.

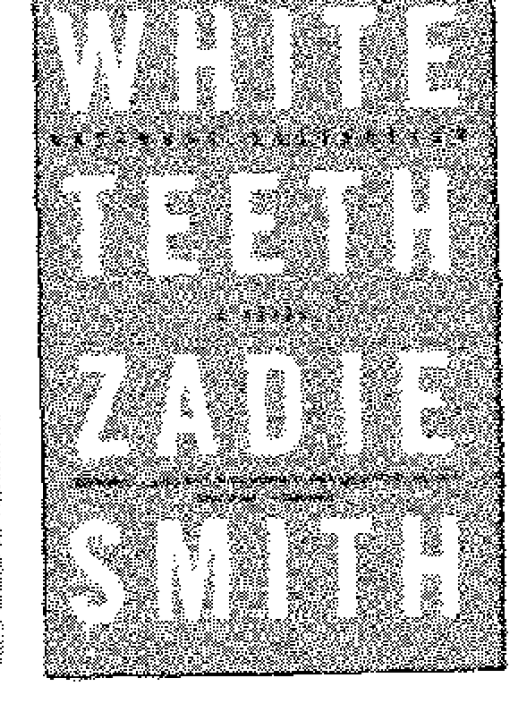


Grapes of Wrath

(عناقيد الغضب)

John Steinbeck
Penguin: 2002, 464pp., $16.00

تنتشر الروايات الأمريكية الشعبية وتحصل على الشهرة الكبيرة حول العالم وتحقق اسماء مثل ستيفن كينج ودانييل ستيل من كتاب الروايات البوليسية والخفيفة مبيعات بالملايين إلى الحد الذى يدفع الكثير إلى نسيان ان هنالك أصواتاً ادبية رفيعة فى الولايات المتحدة سواء فى الماضى او فى الوقت الحالى. لعل أشهر هؤلاء الكتاب الذين عبروا عن الواقع المحلى بعيدا عن عالم المدن وصورة الولايات المتحدة كما نراها على شاشات السينما والتلفزيون هو جون شتاينبك الذى خلد الجنوب الشرقى الأمريكى بكل قسوته وقت الأزمة الاقتصادية بالذات. تحكى اغلب رواياته عن عالم الريف الأمريكى والعمال الزراعيين المهاجرين وأتهم بسبب ذلك بالشيوعية وقد كان بالفعل عضوا بنادى كتاب تابع للحزب الشيوعى الأمريكى و صديقا لهنرى ميلر الذى كان أكثر اتساقا فى مواقفه السياسية وتعرض بسبب ذلك لملاحقات امنية. اما شتاينبك فلم يتم أستدعاؤه من قبل لجنة مكارثى كما انه عمل مراسلا حربيا فى فيتنام وكان من مؤيدى حرب فيتنام وممن يرون فيها حملة وطنية امريكية وقد نال وساماً من الرئيس جونسون لدوره فى الحرب.

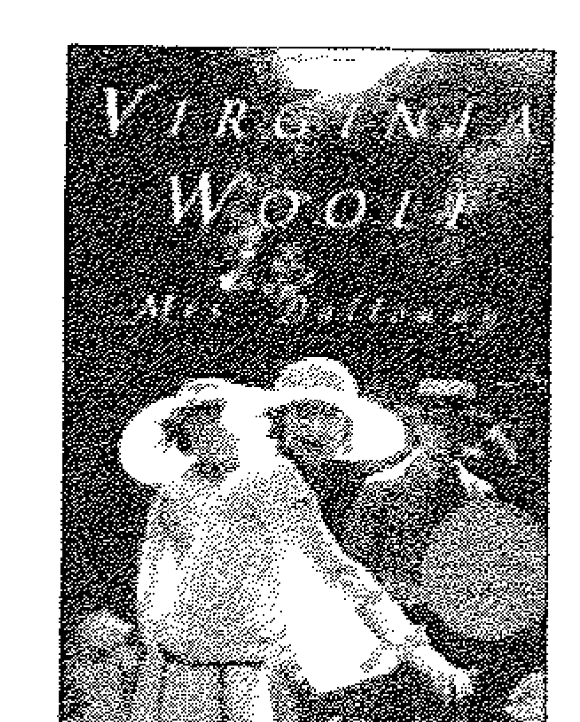



White Teeth

(أسنان بيضاء)

Zadie Smith
Vintage: 2001, 464pp., $14.95

بدأ جيل من المهاجرين الجدد او أبناء المهاجرين فى تشكيل ادب بريطانى مغاير يعكس الأنماط والعلاقات الجديدة فى المجتمع البريطانى. زادى سميث احدى ابرز كاتبات هذه الموجة الجديدة فهى من أم من جامايكا وأب انجليزى أبيض. وقد نالت عقدا بقيمة ٤٠٠ ألف جنيه أسترلينى من دار نشر فينتادج مقابل كتابين من تأليفها.



Mrs. Dalloway

(مسز دالاوى)

Virginia Woolf
Harcourt: 2002, 216pp., $18.00

لم تكن فيرجينيا وولف أولى الكاتبات النساء المهمات إلا أنها ربما كانت صاحبة الشهرة الأعلى والإنجاز الأكثر خصوصية منذ بداية القرن العشرين. كما انها كانت عضوة مؤسسة فى جماعة بلوميرى وهى أهم جماعة أدبية بريطانية ويرى الكثير ان كتاب فيرجينا وولف «غرفة تخص المرء وحده» بمثابة بيان مهم عن تحرر المرأة، وهو عبارة عن محاضرتين ادلت بهما أمام طالبات جامعيات مفادهما ان المرأة، ان ارادت ان تكتب الأدب فعليها أولا ان تمتلك دخلاً مادياً وغرفة خاصة بها. ولكن كتابها الاشهر هذا ليس رواية ولذلك لم يحظ بمكان فى قائمة التايم وحل مكانه روايتان للكاتبة هما مسز دالاوى وإلى الفنار. ومسز دالاوى بالذات عادت الى الشهرة بسبب رواية مايكل كانينجهام الساعات والفيلم المأخوذ عنها بنفس الاسم. والتى تصور بعضا من حياة فرجينيا وولف بالتقاطع مع حياة سيدتين تعيشان فى زمنين مختلفين وكل منهما تستعد كما كانت مسز دالاوى فى الرواية لإقامة حفل عشاء. تدور احداث الرواية الأصلية خلال يوم الدعوة فقط حيث يتجدد حب قديم لمسز دالاوى وتستعيد ذكرياتها مع صديقة ايام الطفولة التى كادت تجمعهم علاقة مثلية واجتهادها للتوصل الى ما هو ثابت وحقيقى ومهم فى حياتها. ويعتقد الكثير من النقاد ان هذه الرواية هى مقابل ادبى لرواية عوليس لجيمس جويس التى رفضت وولف وزوجها نشرها عبر دار هوجارتز التى كانا يديرانها.

The Blind Assassin

(القاتل الأعمى)

Margaret Atwood
Virago Press: 2001, 641pp., $4.00

عام ٢٠٠٠ حازت الكاتبة الكندية مارجريت اتوود على جائزة بوكر عن روايتها القاتل الأعمى. والرواية تتداخل فيها قصتان. الأولى عن الأختين لورا وأيريس تشيس اللتين تنتميان الى عائلة ثرية افلست مع الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينيات فتزوجت الأولى من رجل صناعة قاس وانتحرت الثانية بقيادة سيارتها من فوق الجبل ولكنها تركت وراءها مخطوطة لرواية من نوع الخيال العلمى تحكى عن كوكب يشتهر بصناعة السجاد اليدوى الدقيق ويثمن السجاد الذى يصنعه أطفال بعدد من فقدوا البصر خلال حياكته. ويتحول هؤلاء الأطفال بسبب مهارتهم اليدوية وحساسيتهم الشديدة الى قتلة محترفين. تتضمن المخطوطة التى تركتها الأخت رموزا تكشف سر انتحارها وعلى الشقيقة التى حصلت على المخطوط ان تفك تلك الرموز. لا يمكن الحكم على أعمال مارجريت أتوود من خلال رواية واحدة بسبب تنوع الأشكال الأدبية التى تستعين بها فهى كتبت الرواية التاريخية البوليسية وكتبت الخيال العلمى كما انها تكتب القصة القصيرة والشعر والمقال وترأست فرع منظم القلم بكندا كما ان روايتها الأخيرة والكثير من مقالاتها تحارب تجارب الهندسة الوراثية.



The Golden Notebook

(المفكرة الذهبية)

Doris Lessing

ولدت دوريس ليسينج فى أيران لعائلة بريطانية انتقلت الى ما يعرف اليوم بزيمبابوى فى محاولة للحياة كمزارعين مستعمرين او كما قالت والدة دوريس «الحياة على الطريقة الفيكتورية فى أرض بدائية». ولكن المزرعة لم تدر عليهم دخلاً يذكر وتركت دوريس المدرسة فى عمر الخامسة عشرة. مع هذه الخلفية الا أن دوريس ليسينج وقفت موقفا شديد العداء للعنصرية وتركت افريقيا فى العام ١٩٤٦ لهذا السبب.

تضمنت قائمة التايم روايتها المفكرة الذهبية وهى رواية عن امرأة تكتب يوميات حياتها فى عدة مفكرات، لكل واحدة منها لون مختلف وموضوع مختلف ثم تعيد نسج التفاصيل لتكون صورة أشمل عن حياتها فى مفكرة ذهبية.



حققتُ ما أردت

مذكرات اللورد كِيلرن

عدت ثانية إلى دار السفارة وطلبنى تليفونيًا حسنين سائلاً ما إذا كان فى إمكان القوات المسلحة أن تنسحب من مواقعها حول القصر حتى لا تعوق حضور النحاس باشا إلى القصر، وقد وعدت أن أنظر فى هذا الشأن.

وبعد نصف ساعة حضر إلى دار السفارة النحاس بعد أن كان قد ذهب إلى القصر لمقابلة الملك فاروق الذى نفذ كل ما وعدنى به. والملك فاروق كان حقيقة قد كلف النحاس لمقابلتى ويعرفنى بكل ما تم.

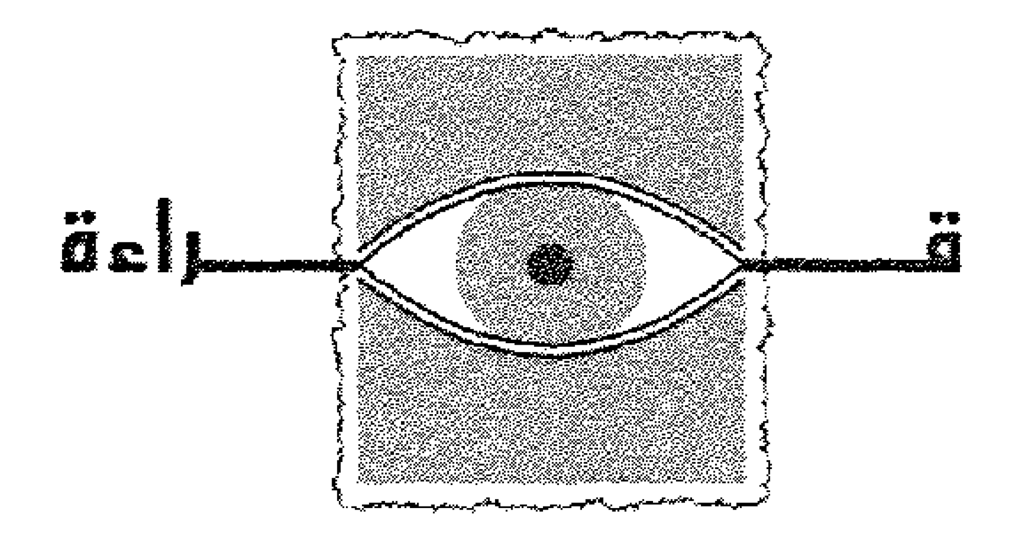
وقد أعربت عن رغبتى أن أبقى قدر الإمكان وراء الكواليس وأن أدعه (يقصد النحاس باشا) ينفذ بنفسه التدابير الضرورية.

وحقيقة نظرًا لتطوير الأحداث فى المساء فإنى كنت غاية فى السعادة والرضى، وقد وضعتنى تلك الأحداث فى موقف لا خيار فيه أمام إصرارى على خلع الملك عن العرش، ولكن دواعى الحكمة جعلتنى أميل إلى اعطائه فرصة أخرى فى استدعائه للنحاس، فلو كان قد وافق على موعد الساعة ٦ مساء، فقد كنا قبلنا هذا الحل. ولكن الحقيقة أن موافقته جاءت متأخرة ثلاث ساعات، فإن هذا كان بالكاد يبرر العقاب الرادع بطرده من عرشه، وبرغم هذا فإن ما حدث جعل موقفنا قويًا أمام الرأى العام فى مصر والخارج.

...

لقد حققنا نصرًا تامًا، ولقد كان قرارًا صعبًا ولكنى أعتقد فى نهاية الأمر أنها خطوة موفقة.





الجِــرَار الفارغــة..!

أضاعت «أوسلو» الفلسطينيين في «طرق بلا خرائط».. فحوصروا على التقاطعات يتشاجرون على «الجرار الفارغة» منشغلين بمظاهر بلا مضمون: «حكومة طوارئ».. «شرعية دستورية».. إلخ، فيما انشغل الإسرائيليون . محتمين بديموقراطيتهم . بحقائق الأرض: تهويد القدس.. وبناء الجدار.

....

أيا ما كان ما جرى في غزة، وأيا ما كانت حسابات الفرقاء والشركاء.. والجيران. وأيا ما كانت غبطة الذين خططوا لما جرى، ثم جلسوا إلى «الطاولة» يقتسمون التهاني والسيناريوهات .. والغنائم. تبقى حقيقة أن الخاسر الأول . تذكروا الجزائر ٩٣ . هو الديموقراطية، وثقافة «الصناديق الزجاجية»... والحلم الفلسطيني.

ورغم أن الشعر. بطبيعته . لا يعرف حسابات ولا منطق، يبقى الشاعر.. وجدان شعبه.

اسمحوا لي أن أترك هذه المساحة لمحمود درويش...

أ. الصيـــــاد

هل كان علينا أن نسقط من عُلُوّ شاهق، ونرى دمنا على أيدينا... لنُدرك أننا لسنا ملائكة.. كما كنا نظن؟

وهل كان علينا أيضاً أن نكشف عن عوراتنا أمام الملأ، كي لا تبقى حقيقتنا عذراء؟

كم كذبنا حين قلنا : نحن استثناء !

أن تصدِّق نفسك أسوأ من أن تكذب على غيرك!

أن نكون ودودين مع من يكرهوننا، وقساة مع مَنْ يحبّوننا - تلك هي دُونية المُتعالي، أو غطرسة الوضيع

أيها الماضي ! لا تغيِّرنا... كلما ابتعدنا عنك!

أيها المستقبل : لا تسألنا : مَنْ أنتم؟

وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضاً لا نعرف.

أيها الحاضر ! تحمّلنا قليلاً، فلسنا سوى عابري سبيل ثقلاء الظل

الهوية هي : ما نُورث لا ما نَرث. ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فسادُ المرآة التي يجب أن نكسرها كلّما أعجبتنا الصورة!

تقنّع وتشجّع، وقتل أمه.. لأنها هي ما تيسَّر له من الطرائد.. ولأنَّ جنديةً أوقفته وكشفت له عن نهديها قائلة: هل لأمك، مثلهما؟

....

أعجبنا حزيران في ذكراه الأربعين : إن لم نجد مَنْ يهزمنا ثانيةً هزمنا أنفسنا بأيدينا لئلا! ننسى

مهما نظرت في عيني.. فلن تجد نظرتي هناك. خطفتْها فضيحة!

قلبي ليس لي... ولا لأحد. لقد استقلَّ عني، دون أن يصبح حجراً

....

أخفى السجينُ، الطامحُ إلى وراثة السجن، ابتسامةَ النصر عن الكاميرا. لكنه لم يفلح في كبح السعادة السائلة من عينيه

ربّما لأن النص المتعجل كان أقوى من المُمثل.

....

«أنا والغريب على ابن عمي. وأنا وابن عمي على أخي. وأنا وشيخي عليّ»

هذا هو الدرس الأول في التربية الوطنية الجديدة، في أقبية الظلام

من يدخل الجنة أولاً؟ مَنْ مات برصاص العدو، أم مَنْ مات برصاص الأخ؟

....

سألني: هل يدافع حارس جائع عن دار سافر صاحبها، لقضاء إجازته الصيفية في الريفيرا الفرنسية أو الإيطالية.. لا فرق؟

قلتُ : لا يدافع!

وسألني : هل أنا + أنا = اثنين؟

قلت : أنت وأنت أقل من واحد!

لا أخجل من هويتي، فهي ما زالت قيد التأليف. ولكني أخجل من بعض ما جاء في مقدمة ابن خلدون.

أنت، منذ الآن، غيرك.

محمود درويش

١٦ يونيو ٢٠٠٧



الأعمال الكاملة

دار الشروق

القاهرة : ١ ميدان طلعت حرب - وسط البلد ت: ٣٩٣٠٦٤٣ - ٣٩١٢٤٨٠
مدينة نصر: ٨ سيبويه المصرى - رابعة العدوية ت: ٤٠٢٣٣٩٩
الجيزة: مبنى فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة أمام حديقة الحيوان ت: ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
الاسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ ، ٠١٠/١٦٣٣٦٨٥
www.shorouk.com e-mail: bookstores@shorouk.com